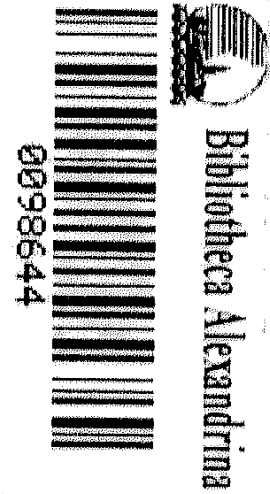


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٩

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

الجملة
والعقبات ٢





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد التاسع

دوستوييفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

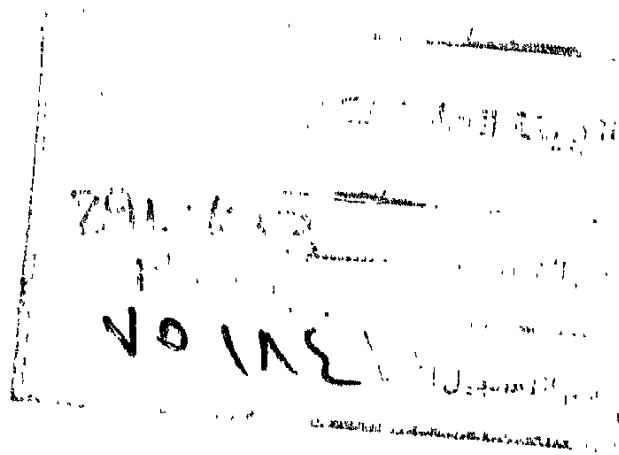
ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شيارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥



الجريمة
والعقاب

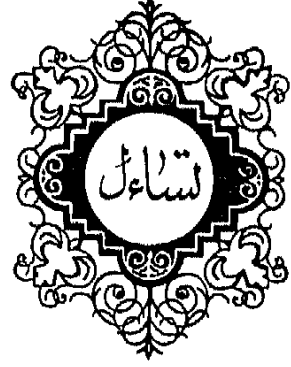
جميع الحقوق محفوظة

« الجريمة والعقاب » (Prestouplénié) nakazanié

ظهرت في مجلة ((الرسول الروسى)) فى اعداد سنة ١٨٦٦ ،
من كانون الثانى (يناير) الى كانون الأول (ديسمبر) ، المجلدات
من ٦١ الى ٦٦ •

أجزاء السراج

الفصل الأول



راسكولنيكوف مرةً أخرى : « هل يمكن أن يكون هذا استمراراً لحلمى ؟ » • وأخذ يتفرس في الزائر الذي لم يكن يُنتظر ، أخذ يتفرس فيه محاذراً مرتاباً • ثم قال أخيراً ، بصوت

عالٍ ، وقد استولى عليه اضطراب كبير وحيرة شديدة :

– سفدريجاييلوف ! ولكن هذا مستحيل ، مستحيل •

• ولم يبد أن هذه الصيحة قد أثارت استغراب الزائر •

– جئت اليك لسبيين ، أولهما رغبتى فى أن أتعرف اليك شخصياً ، لأننى أسمع عنك مديحاً كثيراً منذ مدة طويلة • والثانى أننى أتعجباً فأمل أن لا ترفض مساعدتى فى أمر يتصل رأساً بأختك آفدوتيا رومانوفنا • فأننى اذا لم أعتمد الا على نفسى ، ولم يوص بي أحد ، لا يكون لى أمل كبير فى أن ترضى آفدوتيا رومانوفنا بأن تستقبلنى ، لأنها تسيء الظن بى • أما اذا عاونتنى أنت •••

قاطعهُ راسكولنيكوف قائلاً :

– لا تعوّل على معاونتى •••

– انهما لم تصلا الا أمس ، أليس كذلك ؟ اسمح لى أن ألقى عليك

• هذا السؤال

لم يجب راسكولنيكوف •

– وصلتنا أمس • أعرف ذلك • وأنا نفسي لم أصل الا أمس الأول • اليك ما أريد أن أقوله لك في هذا الصدد يا روديون رومانوفتشس • اننى لا أرى داعياً الى تبرئة نفسي ، ولكن أرجو أن تأذن لى بالقاء هذا السؤال : ما هو الذنب العظيم الذى اقترفته أنا ، اذا نحن أردنا أن نحكم فى الأمر حكماً سليماً مبرراً من الغرض ؟

ظل راسكولنيكوف يلزم الصمت •

– أليس ذنبى هو أننى لاحقت فى بيتى فتاة لا تملك عن نفسها دفاعاً ، وأننى « أسأت اليها بعروض دنيئة » ؟ هذا هو ذنبى ، اليس كذلك ؟ هانت ذا ترى أننى أسبق غيرى الى وصف ذنبى • ولكن أرجو أن تسلم معى بأننى أنا أيضاً انسان ، وأنه ما من انسان * ••• أقصد أننى أنا أيضاً يمكن أن أفتن وأن أهوى (وهذا ما يحدث طبعاً بدون ارادتنا) • فمتى سلّمت معى بهذا أمكن عندئذ تفسير كل شىء تفسيراً طبيعياً الى أبعد الحدود • ان السؤال الوحيد الذى يجب طرحه هو السؤال التالى : أأنا شيطان أم ضحية ؟ فماذا لو كنت ضحية ؟ لعلى حين عرضت على الفتاة التى ألهمت هواى أن تسافر معى الى أمريكا أو الى سويسرا كنت أشعر نحوها بأسمى عواطف الاحترام ، وأننى كنت فوق ذلك أظن أننى أحقق السعادة لنا كلينا ! ما العقل الا خادم الأهواء ! وهكذا كنت أسىء الى نفسي مثلما كنت أسىء اليها •••

قاطعته راسكولنيكوف يقول باشمئزاز :

– ليست هذه هى المسألة • فسواء أكنت مخطئاً أم كنت مصيباً ، فأنت تثير الاشمئزاز • لذلك لا أريد أن أعرف شيئاً عنك ، بل أطرده ، وما عليك الا أن تنصرف !

انفجر سفدرىجايلوف يقهقه على حين فجأة •



سفدر بجايلوف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسنديا كورساكوفا

ثم قال وهو يضحك ضحكاً صريحاً :

— يظهر أن مخادعتك ليست بالأمر السهل • كنت أريد أن أعمد في معاملتك الى الحيلة والمكر ؟ أما وأنتك وضعت اصبعك على النقطة الحساسة ، فسوف •••

— دعك من هذا الكلام ! انك لتتمكر وتحتال حتى في هذه اللحظة!

فقال سفدريجايلوف مردداً وهو ما يزال يفهقه :

— ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ولكن أليست هذه « حرباً مشروعة » ؟ أليس هذا مكرراً « مسموحاً به » ؟ ••• لكنك قطعت على طريق الكلام مع ذلك • مهما يكن من أمر ، فما كان لهذه المزعجات كلها أن توجد ، لولا حادث الحديقة • ان مارتا بتروفنا •••

— مارتا بتروفنا ! يقال انك أرسلتها الى العالم الآخر ، مارتا

بتروفنا •••

كذلك قاطعه راسكولنيكوف بفظاظة • فأجاب سفدريجايلوف

قائلاً :

— أسمعت عن هذا أيضاً ؟ كيف كان يمكن أن لا تسمع عنه على كل حال ؟ أما سؤالك فأننى لا أدري حقاً بم أجيبك عنه ، رغم أن ضميرى مرتاح كل الارتياح من هذه الناحية • ولا يذهبن بك الظن خاصة الى أن هناك أى أمر أخشاه • ان كل شىء قد جرى على نظام كامل وترتيب تام ووضوح مطلق : لقد أثبت الفحص الطبى أن الوفاة كانت بسكتة قلبية ناشئة عن الاستحمام بعد وجبة ثقيلة تجرعت المتوفاة أثناءها ما يقرب من زجاجة خمر كاملة ! ••• ولم يمكن اكتشاف أى شىء آخر ••• لا ، ليس هذا ما يقلقنى • ولكننى قد تساءلت طوال الرحلة فى القطار : ألم أساهم فى هذه النازلة مع ذلك بعض المساهمة ،

باحداث اضطراب نفسى أو شىء من هذا القبيل • على أننى انتهيت الى أن هذا أيضاً مستحيل •

أخذ راسكوليكوف يضحك ، وقال له :

– هناك ما يدعوك الى القلق حقاً •

– ولكن لماذا تضحك ؟ فكّر قليلاً : اننى لم أضربها بالسوط الا ضربتين اثنتين ••• ضربتين لم تخلّفنا أثراً • لا تحسبني رجلاً مستخفاً مستهتراً ، أرجوك ! أنا أعرف أن سلوكى كان دنيئاً ، الخ • ولكننى أعلم أيضاً أن دلائل « الاهتمام » هذه لم تكن تسوء مارتا بتروفنا • كانت مارتا قد وجدت نفسها منذ ثلاثة أيام مضطرة الى أن تقبع فى البيت • لم يكن قد بقى أى سبب يدعوها الى الظهور فى المدينة ، بعد أن أغرقت جميع الناس بقراءة تلك الرسالة (لا شك أنك سمعت عن قراءة تلك الرسالة أيضاً) • وها هما ضربتا السوط تنزلان عليها من السماء • فكان أول هم لها أن تقرن الحيل بالعربة ••• لست فى حاجة الى أن ألفت نظرك الى أن بعض النساء يشعرون بلذّة قوية حادة حين تُلحق بهن اهانة ، مهما يكن غضبهن منها • بل ان جميع الناس يعرفون هذا النوع من العواطف : فالنوع الانسانى يحب الاهانات كثيراً ، هل لاحظت هذا ؟ ولكن النساء يحبينها حباً خاصاً ، حتى ليتمكن أن يُقال انهن لا يمكن أن يعشن بغير اهانات أو اساءات •

خطر ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن ينهض وأن ينصرف ليختم الحديث • ولكن نوعاً من الفضول بل ونوعاً من الحساب قد صدّاه عن ذلك ، فسأل فى ذهول :

– هل تحب الضرب كثيراً ؟

فأجابه سفدريجايلوف بهدوء :

– لا كثيراً جداً • فأنا ومارتا بتروفنا ، مثلاً ، لم نكد نتضارب قط • كنا نعيش دائماً فى وفاق ووثام ، وكانت راضية عنى فى جميع الأحيان • ولم أعمد الى استعمال السوط ، طوال السنين السبع التى عشناها معاً ، الا مرتين اثنتين (هذا اذا استثنينا مرة ثالثة مشتبهة) : فأما المرة الأولى فبعد زواجنا بشهرين ، أى منذ وصولنا الى الريف ، وأما المرة الثانية والأخيرة فمنذ مدة قصيرة كما تعلم • وأنت تظن مع ذلك أننى شيطان رجيم ، اننى رجل من دعاة الرجعية وأنصار العبودية !••• هىء هىء !••• بالمناسبة : هل تتذكر يا روديون رومانوفتش ذلك الفتى – لقد نسيت' أنا أسمه ! – الذى لُطِّخ بالوحل على مرأى من الناس ، منذ بضع سنين ، فى عهد « النقد المفيد » * ، لأنه ضرب بالسوط امرأة ألمانية فى قطار ؟ هل تتذكر ؟ أظن أن ذلك حدث فى نفس السنة التى وقعت فيها الفاحشة التى تحدثت عنها مجلة « العصر » * (لا شك فى أنك تتذكر المحاضرة العامة عن « لىالى مصر » ، ألا تتذكرها ؟ آه ••• العيون السوداء ! أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية ؟) • فاليلك رأبى : أنا لم أؤيد طبعاً فعلة الرجل الذى ضرب المرأة الألمانية بالسوط ، لأنه لا مجال هنا للاستحسان حقاً ••• ولكننى لا أستطيع أيضاً أن أمتنع عن التصريح بأن المرء يصادف فى بعض الأحيان « ألمانيات » يبلغن من قوة الاستفزاز أنه ما من « تقدمى » ، فيما يخيل الىّ ، يستطيع أن يسيطر على نفسه ازاءهن

سيطرة كاملة وأن يكون مسئولاً عن سلوكه معهن • ان أحداً لم يعالج
المسألة عندئذ من هذه الزاوية • ومع ذلك فهذا هو الأسلوب الوحيد
الذي يجب أن تعالج به هذه المسألة معالجةً تتصف بالانصاف •

قال سفدريجاييلوف هذه الكلمات ، وعاد يضحك فجأة • واتضح
لراسكولنيكوف أن الرجل يبيّت مشروعاً ثابتاً •

قال له راسكولنيكوف :

– أغلب الظن أنك لم تكلم أحداً منذ عدة أيام ، هه ؟

– هذا صحيح تقريباً • ماذا ؟ هل يدهشك أن ترانى ليّن الطبع ؟

– بل يدهشنى أن أراك مسرفاً فى لين الطبع ؟

– الأنسى لم أستأ من فظاظه أسئلتك ؟ أهذا هو السبب ؟ ولكن علام
أستاء ؟

ثم أضاف سفدريجاييلوف يقول معبراً عن سداجة تثير الاستغراب :

– أنت سألتنى ، وأنا أجبتك !

ثم تابع يقول وقد لاح فى وجهه التأمل :

– أنا لا أكاد أهتم بشيء • وفى هذه اللحظة خاصة ، لا يشغلنى أى

شاغل • لك أن تظن أننى أسعى الى خطب ودك ، لا سيما وأن لى شأنأ

مع أختك ، كما سبق أن أعلنت لك ذلك • ولكننى أقول لك بصراحة

اننى أشعر بضجر شديد وسأم قوى ، ولا سيما منذ ثلاثة أيام ، حتى لقد

أحسست من لقائك بهجة ••• لا تزعل يا روديون رومانوفتشن اذا أنا

صارحك بأنك تبدو لى غريباً غرابة رهية • لك أن تزعم ما تشاء ، ولكن فيك شيئاً ما ، ولا سيما فى هذه اللحظة ، ليس فى هذه اللحظة نفسها ، بل الآن على وجه عام ••• هياً ! سأكف عن الكلام ، سأكف عن الكلام ، لا تقطب حاجيك هكذا ••• لست دباً الى الحد الذى تظن •••

– قد لا تكون دباً البتة ! بل انه ليدو لى أنك تنتمى الى مجتمع راق جداً ، أو أنك على الأقل تعرف عند الضرورة كيف تسلك سلوك رجل ينتمى الى المجتمع الراقى •

أجاب سفدرىجايلوف يقول بلهجة جافة ، بل بلهجة فيها شيء من
التعالى :

– لا يهمنى رأى أحد ، لذلك لا يقلقنى أن أسلك سلوك لص • ولعل هذا هو الثوب الذى يسهل ارتداؤه أكثر مما يسهل ارتداء أى ثوب آخر فى أجوائنا ومناخنا ••• ولا سيما اذا كان بالمرء ميل طبيعى الى ذلك •••

أضاف سفدرىجايلوف هذه الجملة الأخيرة وقد أخذ يضحك من جديد •

– سمعت أنك تعرف ناساً كثيرين هنا • فلست بمن يمكن أن يسمى رجلاً « بغير علاقات » ، كما يقال ، فما مجيئك الىّ اذا لم يكن لك هدف محدد !

استأنف سفدرىجايلوف كلامه ، فقال دون أن يجيب عن السؤال الرئيسى :

– صدقت • اننى أعرف ناساً كثيرين • وقد التقيت حتى الآن بعدة

أشخاص أثناء هذه الأيام الثلاثة التي قضيتها هنا ، فتعرفتهم ، وتعرفونى فيما يخيّل الى * . اننى ارتدى ثياباً حسنة ، أليس كذلك ؟ وأبدو رجلاً لا يعوزه شيء . * أنت تعلم أن قوانين الإصلاح الزراعى لم تمسنا بسوء * . ولما كانت أملاكى غابات ومراعى فى الدرجة الأولى ، فالموارد مستمرة . . . ولكننى لن أذهب الى أولئك الناس . لقد كنت أضجر منهم حتى فى الماضى . . . وأنا منذ أخذت أطوف هنا ، لم أعقد صلةً بأحد . . . أهذه مدينة ؟ كيف أمكن أن تنشأ مدينة كهذه المدينة ؟ هلاًّ شرحت لى هذا ، من فضلك ! هى مدينة موظفين وطلاب من جميع الأنواع ! حقاً ان أشياء كثيرة قد فاتتني حين كنت أتسكع هنا منذ ثمانى سنين . وقد أصبحت الآن لا أعوّل الا على التشريع ، شهد الله . . .

– أى تشريع ؟

– أما هذه النوادى ، وهذه المطاعم التى تسمى مطاعم دوسو* ، وهذه الحلقات . . . أما جميع مشاريع التقدم هذه . . . ففى وسعها أن تستغنى عنى . * ثم أية لذة يمكن أن يجدها المرء فى الغش ؟ كذلك تابع سفدرىجايلوف كلامه دون أن يعبأ بالسؤال الذى ألقى عليه . *

– هل كنت تغش أيضاً ؟

– كيف لا أغش ؟ كنا منذ ثمانى سنين جماعةً من أناس محترمين نحاول أن نقتل الوقت ، وكنا – لاحظ هذا ! – على جانب عظيم من رقىّ الآداب . * وكان بيننا شعراء ، ورأسماليون . . . ان الناس الذين هم على جانب عظيم من رقىّ الآداب هم على وجه العموم ، عندنا ، فى مجتمعنا

الروسي ، أوغاد ••• لا شك أنك لاحظت ذلك ، هه ؟ ومنذ أقمت في الريف انما عزفت عن هذا • غير أنني قد أوشكت ، قبل ذلك الأوان ، أن أودع في السجن ، لديون عليّ ، وذلك بسبب يوناني صغير من نيجين * ، وفي ذلك الوقت انما ظهرت مارتا بتروفنا ، فساومت ، ثم فدتني بثلاثين ألف روبل (كان مجموع الديون التي عليّ سبعين ألف روبل) • وتزوجنا زواجاً شرعياً • وسرعان ما أخذتني الى عندها في الريف ، كما يؤخذ كنز من الكنوز • كانت أكبر مني سنأً بخمسة أعوام • وكانت تحبني كثيراً • لاحظت أنها احتفظت طوال حياتها بالسند المالي الذي وقعته لاسم شخص آخر ، من أجل أن تستخدمه ضدي عند اللزوم ، بحيث تدمرني متى حاولت أن أتحرك من تحت النير • أوه ! ما كانت لتتردد في أن تفعل ذلك ! ان تناقضات كثيرة تجتمع لدى النساء ، أليس كذلك ؟

– ولولا ذلك السند لكنت هربت ، هه ؟

– لا أعرف بماذا أجيبك • كان السند لا يضايقني كثيراً • لم آكن أشتهى أن أذهب الى أي مكان • ومارتا بتروفنا قد اقترحت عليّ السفر الى الخارج مرتين ، حين لاحظت ضجري • ولكن علام السفر ؟ كنت قد سافرت الى الخارج قبل ذلك ، فلم أشعر هنالك بارتياح • ليس هذا هو الأمر تماماً ••• ولكن كان ثمة شمس تشرق ، وكان ثمة خليج نابولي ، وكان ثمة البحر ••• فكنت أنظر ، فأشعر بحزن شديد • والأنكى من هذا أن المرء يكون عندئذ حزيناً حقاً • لا ، لا ، ان البقاء في البلاد أفضل من ذلك • هنا على الأقل يستطيع المرء أن يتهم الآخرين بكل شيء ، وأن يبرىء بذلك نفسه • قد أحب أن أسافر الآن راضياً الى القطب الشمالي ،

لأن « خمرتي فسدت » * ، فأصبحت أكره أن أشرب ، بينما الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله هو أن أشرب ♦♦ لقد جرّبت هذا ♦♦ بالمناسبة : يقال ان بيرج * سيسافر يوم الأحد القادم من حديقة يوسوبوف على منطاد، وانه يقبل أن يحمل ركاباً بأجر ، هل هذا صحيح ؟

— ماذا ؟ تسافر في منطاد ؟

— أنا ؟ لا ♦♦♦ وانما قلت هذا هكذا ♦♦♦

كذلك جمجم يقول سفديريجايلوف ، كما لو كان يفكر في السؤال الملقى فعلاً ♦

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « الى أين يريد أن يصل من هذا كله ؟ » ♦

وتابع سفديريجايلوف كلامه فقال حالمًا شاردا الفكر :

— لا ، كان السند لا يزعجني ♦ فأنا الذي كنت لا أحب أن أترك الريف ♦ ثم ان مارتا بتروفنا قد ردت الى السند منذ سنة تقريباً ، بمناسبة عيدي ، حتى لقد أضافت اليه مبلغاً محترماً ♦ كانت تملك ثروة ، هه ؟ قالت لي : « هانت ذا ترى مدى ثقتي بك يا أركادي ايفانوفتش » ♦ أوكد لك أن هذا ما قالته لي ♦ لا شك في أنك لا تصدّق أن هذا ما قالته لي ♦ اعترف بأنك لا تصدّق ! ولكن يجب أن تعلم أنني كنت قد أصبحت مالكاً محترماً ♦ وكنت معروفاً جداً في المنطقة ♦ وكنت أستحضر كتباً ايضاً ♦ شجعتني مارتا بتروفنا على ذلك في أول الأمر ، ولكنها خشيت بعدئذ أن تجهدني القراءة ♦

— يبدو أنك كنت قد سئمت كثيراً من مارتا بتروفنا ، أليس كذلك؟

- أنا ؟ ربما ! هذا جائز جداً • قل لي بالمناسبة : هل تؤمن بعودة الأرواح ؟

- أية أرواح ؟

- الأرواح العائدة • ما هذا السؤال ؟

- وأنت ، هل تؤمن بذلك ؟

- نعم ولا ، اذا شئت • أؤصد اننى لا أؤمن بها تماماً ؟

- هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

ألقي سفيدريجايلوف على راسكولنيكوف نظرة خاصة • ثم قال له وقد انعقف فمه بابتسامة غريبة :

- ان مارتا بتروفنا لا يفوتها أن تزورنى •

- كيف ؟ تزورك ؟

- نعم ، زارتنى حتى الآن ثلاث مرات • فأما المرة الأولى ففى يوم دفنها نفسه ، عشية رحيلى ، بعد العودة من المقبرة بساعة • وأما المرة الثانية فأمس الأول ، أثناء السفر ، قبيل طلوع الصباح ، فى محطة مالايا فيشيرا * • وأما المرة الثالثة ، فمنذ ساعتين ، فى مسكنى ، فى الغرفة التى أقيم بها • كنت وحدى •

- وكنت ••• يقظاً ؟

- يقظاً كل اليقظة • ولقد كنت يقظاً فى المرات الثلاث جميعاً • تأتى ، فنكلمنى دقيقة ، ثم تنصرف خارجة من الباب • حتى ليخيل الى أننى أسمع خطواتها •

قال راسكولنيكوف فجأة :

- لماذا كنت أقدر أنه لا بد أن يكون قد حدث لك شىء من هذا

القبيل ؟

ثم دُهِش من أنه قال هذا الكلام •
 كان راسكولنيكوف منفعلًا انفعاليًا شديدًا • سأله سفيدريجايلوف
 مذهولاً :

– ح • • قأ ؟ كنت تقدّر ذلك ؟ حقاً ؟ ألم أقل لك ان بيننا شيئاً
 مشتركاً ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

– لم تقل لي شيئاً من ذلك قط !

– ألم أقل لك ذلك ؟

– لا !

– غريب • خيّل اليّ أنني قتلته لك • منذ قليل ، حين دخلت
 عليك ، فرأيتك مضطجعاً مغمضاً عينيك متظاهراً بالنوم ، قلت لنفسى
 فوراً : « هذا هو ! هذا هو بعينه » •

صاح راسكولنيكوف يسأله :

– ماذا تقصد بقولك : « هذا هو بعينه » ؟

– ماذا أقصد ؟ بصراحة : لا أدري !

بهذا أجاب سفيدريجايلوف متمتماً ، مرتبكاً ارتباكاً صادقاً •

وساد الصمت دقيقة • وكان كل من الرجلين ينظر في عيني الآخر؟

هتف راسكولنيكوف يقول غاضباً :

– ذلك كله سخف • وماذا تقول لك حين تزورك ؟

– هي ؟ تصوّر أنها تكلمنى فى أتفه السفساف • والانسان يبلغ

من غرابة الطبع أن هذا بعينه هو ما يغضبني • حين زارتني فى المرة

الأولى ، كنت متعباً كما تعلم : القداس ، صلاة الجنازة ، الموكب ، المأدبة •

وكنت وحيداً فى حجرة مكتبي ، وكنت أدخن سيجاراً • ها هي ذى

تدخل ، فتقول لى : « أسبب هذه المشاكل كلها اذن انما نسيتَ يا آر كادى ايفانوفتش أن تعبىء اليوم ساعة الجدار فى المطبخ ؟ » وكنت أنا الذى أتولى تعبئة ساعة الجدار تلك فى كل أسبوع فعلاً ، منذ سبع سنين ، فاذا نسيت أن أفعل ذلك ، ذكرتني به . وفى الغد ، كنت فى طريقى الى هنا . ودخل القطار ، عند الفجر ، الى محطة من المحطات + كنت محطماً من التعب . وكانت عيناى محنتتين من شدة العاس ، لأننى لم أكن قد نمت تقريباً طوال الليل . أمرت لى بفتح شاي . وهأنا ذا أرى مارتا بتروفا تجلس الى جانبى وفى يديها ورق لعب . قالت لى : « هل تحب ، يا آر كادى ايفانوفتش ، أن تعرف ما يقوله ورق اللعب فى أمر سفرك ؟ » . كانت مارتا بتروفا خبيرة جداً فى فن التنبؤ بواسطة ورق اللعب . لن أغفر لى ما حيت انى لم أقبل اقتراحها . لقد هربت مذعوراً . صحيح أن الجرس قد رنَّ فى تلك اللحظة مؤذناً بسير القطار . واليوم ، بينما كنت جالساً أشعر بثقل فى معدتى بعد غداء ردىء جىء الىَّ به من المطعم ، وفيما أنا أدخن سيجاراً - انى ما ان أجلس حتى أدخن - دخلت علىَّ مارتا بتروفا على حين بغته ، متزينةً بأجمل زينة ، مرتدية ثوباً جديداً من حرير أخضر طويل الذيل جداً ، وقالت لى : « يومك سعيد يا آر كادى ايفانوفتش ! هل ثوبى الجديد يوافق ذوقك ؟ ما كان لآيسكا أن تستطيع صنع ثوب كهذا الثوب » . (آيسكا * خياطة فى القرية كانت فى الماضى من الأفتان وقد تعلمت الخياطة بموسكو ، فتاة حلوة جداً) . وأخذت مارتا تبختر أمامى . أنعمت النظر فى ثوبها ، وتفرست فيها بانتباه ، وجهاً لوجه ، ثم قلت لها : « حقاً لا داعى يا مارتا بتروفا ، الى أن تكلفى نفسك عناء المجيء الىَّ لتحدثينى فى مثل هذه الترهات ! » فقالت لى : « آه ! آه ! آه ! رباه ! هل صار حراماً علىَّ حتى أن أزعجك ؟ » ، فقلت لها عندئذ لأغيظها : « أريد يا مارتا بتروفا أن أتزوج

مرة ثانية « ، فقالت لى : « هذا شأنك أنت يا آر كادى ايفانوفتشس • ولكن ليس من اللائق كثيراً أن تتزوج مرة ثانية بعد دفن زوجتك فوراً • وهبك اخترت اختياراً موفقاً ، فان الزواج لن يسعدكما لا أنت ولا هى ، وستكونان أضحوكة الشرفاء من الناس ، هذا كل شيء ! » • قالت ذلك ثم خرجت حتى لكأننى كنت أسمع حفيف ذيل ثوبها • سخف ، أليس كذلك ؟

سأله راسكولنيكوف :

- قل لى : أليست هذه أكاذيب تلفقها تلفيقاً ؟

فأجابه سفيدريجاييلوف شاردا الفكر كأنه لم يلاحظ فظاظة السؤال :
- يندر أن أكذب •

- وقبل ذلك ، هل رأيت أرواحاً عائدة ؟

- مرة واحدة فى حياتى ، منذ ست سنين • كان عندى خادم اسمه فيلكا * • فما ان تمّ دفنه حتى صحت أقول ذاهلاً : « يا فيلكا ، هات غليونى ! » • فاذا هو يدخل ، فيمضى قدماً الى الخزانة التى كانت تُصَفُّ فيها غلابينى • كنت جالساً فقلت لنفسى : « هو يفعل ذلك لينتقم منى » • ان مشاجرة عنيفة كانت قد شبت بينى وبينه قبل موته بقليل • قلت له : « كيف تجرؤ أن تمثل أمامى بكمٍ مثقوبة عند الكوع ؟ اخرج من هنا أيها الحقير ! » • فاستدار على عقبيه ، وخرج ، ثم لم يرجع بعد ذلك قط ! لم أقل عن هذا الأمر كلمة واحدة لمارتا بتروفنا • أردت فى لحظة من اللحظات أن أقيم قداساً على روحه ، ولكننى ترددت بعد ذلك •

- هلم استشر طبيباً !

- لست فى حاجة اليك حتى أعلم أننى مريض ، وان أكن لا أعرف ما هو مرضى حقاً • وفى رأيى أن صحتى خير من صحتك خمس مرات •

أنا لم أسألك هل تؤمن بظهور الأرواح العائدة وانما سألتك هل تؤمن
أو لا تؤمن بوجود الأرواح العائدة *

صاح راسكولنيكوف يقول بنوع من الغضب :

- لا ، لا يمكن أن أؤمن بوجودها في حال من الأحوال !

جمجم سفيدريجايلوف يقول كمن يخاطب نفسه ، وهو ينظر الى

جانب ، مائل الرأس قليلاً :

- ماذا يقال لك عادة ؟ يقال لك : « أنت مريض ، وكل ما تراه

اذن ليس الا نتيجة هذيانك » * ولكن هذا يعوزه المنطق الدقيق الصارم *

أنا أسلّم بأن الرؤى لا تظهر الا للمرضى ، ولكن هذا يبرهن على أن

الرؤى لا يمكن أن تظهر الا للمرضى ، دون أن يبرهن على أن الرؤى

لا وجود لها في ذاتها *

قال راسكولنيكوف ملحاً مهتاجاً :

- لا وجود لها حتماً !

فتابع سفيدريجايلوف كلامه قائلاً وهو يلفت عينيه نحو

راسكولنيكوف ببطء :

- لا ؟ أنت تؤمن بأنها لا وجود لها ؟ ولكن اذا فكّرنا في الأمر

على النحو التالي (ساعدني ، من فضلك) : الأرواح العائدة أجزاء من

عوامل أخرى هي بداية هذه العوامل ان صح التعبير * والانسان السليم

المعافي ليس في حاجة بطبيعته الى أن يراها ، لأن الانسان السليم المعافي

ينتمي الى هذه الحياة الدنيا كل قبل كل شيء ، وعليه اذن أن يحيا هذه

الحياة الأرضية وحدها ، في سبيل النظام والانسجام * ولكن ما ان يمرض

هذا الانسان ، ما ان يختل النظام الأرضي والطبيعي في جسمه حتى تتجلى

على الفور امكانية عالم آخر ، وكلما ازداد مرضه ازدادت اتصالاته بذلك

العالم الآخر ، فاذا مات انتقل الى ذلك العالم الآخر رأساً • • « • اننى
أجرى هذا التفكير منذ زمان طويل • فاذا كنت تؤمن بالحياة الآخرة ،
كان فى امكانك أيضاً أن تؤمن بهذا الاستدلال الذى أجرىه •
قال راسكولنيكوف :

– أنا لا أؤمن بالحياة الآخرة •

وظل سفيدريجايلوف حالماً شاردا الفكر • ثم قال فجأة :

– هه ! ••• ماذا اذا لم يكن فى الحياة الآخرة الا عناكب أو أشياء
من هذا القبيل ؟!•••

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انه مجنون ! » •
وتابع سفيدريجايلوف كلامه :

– نحن نتصور الأبدية دائماً على أنها فكرة لا نستطيع أن نفهمها ،
على أنها شيء ضخم ، ضخم ! ولكن لماذا تكون شيئاً ضخماً بالضرورة ؟
تصور فجأة أنه ليس هناك ، بدلاً من هذا كله ، الا حجرة صغيرة ،
الاشياء يشبه حماماً فى قرية ، يملؤه الدخان وتنتشر العناكب فى جميع
أركانها ، وتصور أن هذا هو الأبدية كلها • أنا مثلاً انما تبدو لى
الأبدية فى هذه الصورة أحياناً •

صاح راسكولنيكوف يقول منزعجاً :

– هل يمكن ، هل يمكن حقاً أن لا يكون فى ذهنك تصور أبعث
على العزاء وأقرب الى الصدق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو يتسهم ابتسامة غير محددة :

– أقرب الى الصدق ! هل تعلم ؟ لو كان الأمر بيدى لصنعت الأمور
على هذا النحو نفسه !•••

حين سمع راسكولنيكوف هذا الجواب العجيب الشاذ شعر ببرد مفاجيء يسرى فى جسمه •

ورفع سفيدريجايلوف رأسه ، وحدّق اليه بنظرة ثابتة ، ثم انفجر ضاحكاً ، وهتف يقول :

– لا ، لا ، ان أمرنا لعجيب حقاً ! منذ نصف ساعة فقط ، لم نكن قد التقينا بعد ، وكنا نعد نفسينا عدوين • وبيننا ، عدا ذلك ، مسألة لم نخرجها الى النور بعد ، ومع هذا تركناها واسترسلنا فى هذا النوع الغريب من الأدب • هل كذبت عليك حين قلت لك اننا ثمرتا أرض واحدة ؟

قال راسكولنيكوف وقد ثارت أعصابه ثورة شديدة :

– من فضلك : قل ما تريد أن تقوله بغير ابطاء ، واذكر لى السبب الذى دفعك الى تشريفى بهذه الزيارة ••• ذلك أننى ••• مستعجل ••• يجب أن أخرج •••

– طيب ، طيب ••• ان أختك آفدوتيا رومانوفنا ستزوج السيد لوجين ، السيد بطرس بتروفتش لوجين ، أليس كذلك ؟

– ألا يمكن أن تتحاشى كل سؤال يتعلق بأختى ، وأن لا تذكر اسمها ؟ اننى لا أفهم كيف تجرؤ أن تذكر اسمها بحضورى ، اذا صحّ أنك أنت سفيدريجايلوف حقاً !

– ولكن كيف لا أذكر اسمها وقد جئت من أجل التحدث فى أمرها ؟

– طيب • تكلم • ولكن أسرع !

– أنا على يقين من أنك قد كوَّنت رأياً فى السيد لوجين (الذى يمت الى بقربى مصاهرة) ، اذا كنت قد رأيته ولو مدة نصف ساعة ،

أو كنت قد جمعت عنه بعض المعلومات الدقيقة • هذا رجل لا يصلح زوجاً لآفدوتيا رومانوفنا • فى رأيى أن آفدوتيا رومانوفنا انما تضحى فى هذا الأمر تضحية كبيرة وطائشة فى سبيل ••• فى سبيل أسرتها • لقد بدا لى ، بعد كل ما سمعته عنك ، أنك ، من جهتك ، سيسرك كثيراً أن لا يتم هذا الزواج ، شريطة أن لا يُساء الى أختك • وأنا الآن ، بعد أن عرفتك شخصياً ، مقتنع بهذا أكثر من اقتناعى به فى أى وقت مضى •
قال راسكولنيكوف :

– هذا كله سداجة من جانبك ••• معذرة ••• أردت أن أقول ان هذا كله وقاحة من جانبك •

– هل تقصد بذلك أنى أدافع عن مصلحتى ؟ لا تقلق يا روديون رومانوفتش ! لو كنت أتكلم فى سبيل مصلحتى ، لما كنت صريحاً هذه الصراحة ، فما أنا غبى غباوة كاملة على كل حال • بالمناسبة : سأكشف لك عن أمر سيكولوجى غريب ! منذ قليل ، حين كنت أهرّز الحب الذى أحمله لآفدوتيا رومانوفنا قلت عن نفسى انى أنا ضحية • ألا فاعلم أنى لا أشعر الآن بأى حب ، لا أشعر الآن بأى حب البتة ، حتى انى استغرب أنا نفسى كيف شعرت فى الماضى فعلاً •••

قاطعه راسكولنيكوف قائلاً :

– مصدر ذلك كله ما كنت فيه من فراغ ، وما فطرت عليه من فسق وعهر •••

– حقاً ! أنا رجل عاطل داعر • ولكن أختك ، من جهة أخرى ، لها من المزايا والحسنات ما جعلنى لا أستطيع أنا نفسى أن أمتنع عن أن أتأثر بعض التأثير ••• ولكن ذلك كله لم يكن الا لغواً وعبثاً ••• أنا أدرك هذا الآن •

- وهل تدركه منذ مدة طويلة ؟

- بدأت أدركه منذ بعض الوقت ، ولكننى لم أقتنع به اقتناعاً مطلقاً
الا أمس الأول ، تقريباً فى نفس الدقيقة التى وصلت فيها الى بطرسبرج .
وحتى فى موسكو كنت ما أزال أتصور أننى آتٍ من أجل أن أخطب
آفدوتيا رومانوفنا وأن أفرض نفسى منافساً للسيد لوجين *

- اغفر لى مقاطعتك *** ولكن أرجوك *** رحماك *** ألا
تستطيع أن توجز وأن تنتقل رأساً الى الكلام عن الغرض من زيارتك ؟
اننى مستعجل *** يجب أن أخرج *

- بكل سرور * حين وصلت الى هنا عازماً على القيام *** برحلة ،
أردت أولاً أن أتخذ بعض الاجراءات * لقد أبقيت أولادى عند خالتهم *
وهم أغنياء لا حاجة بهم الى * وأى أب أنا لهم على كل حال ؟ لم أحمل
معى الا المال الذى أهديته الى * مارتا بتروفنا منذ سنة * هذا يكفينى *
معذرة ، اننى أصل الى الوقائع بسرعة شديدة * اننى قبل سفرى الذى
قد يتم على كل حال ، أريد أن أفرغ من السيد لوجين * ليس يعنى
هذا أننى أكرهه كرهاً يبلغ هذا المبلغ من القوة ، ولكنه هو السبب
فى الشجار الذى وقع بينى وبين مارتا بتروفنا ، حين علمت أنها
دبرت أمر هذا الزواج * اننى أرغب الآن أن ألقى آفدوتيا رومانوفنا
بواسطتك ، وبحضورك اذا شئت ، بغية أن أشرح لها أولاً أنه ما من خير
يمكن أن تتوقعه من السيد لوجين ، بل وأن هناك شروراً كبيرة يجب أن
توقعها منه ؛ وأن أطلب منها ثانياً ، بعد التماس غفرانها عن المتاعب التى
سببتها لها ، أن تأذن لى أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فى سبيل أن
أسهّل لها القطيعة مع السيد لوجين ، وهى قطيعة أحسب أنها لن تسوءها
اذا هى تصورت امكانها *

صاح راسكولنيكوف يقول وقد تجاوز ذهوله حنقه :

– ألا انك لمجنون فعلاً ، ألا انك لمجنون فعلاً • كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام ؟

– كنت أعلم أنك ستطلق صيحات عالية وصرخات شديدة • ولكنني أحب أن أقول لك أولاً انني على كوني لا أملك ثراءً كبيراً ، أستطيع التصرف في هذه العشرة آلاف روبل • بتعبير آخر : ان هذا المبلغ ليس بالمبلغ الذي لا غنى لي عنه ، فاذا لم تقبله آفدوتيا رومانوفنا ، فسأنفقه انفاقاً أشد غباوة وحمافة • هذه أولى • وأما الثانية فهي أن ضميري مرتاح كل الارتياح : انني أقدم هذا المال دون أى حساب • صدق أو لا تصدق ، ولكنكما ، أنت وآفدوتيا رومانوفنا ، ستدركان هذا فيما بعد • الحقيقة أنني سببت بعض المتاعب وبعض الازعاجات فعلاً لأختك الصغيرة المحترمة ، واذ كنت أشعر بندامة صادقة وأعاني من عذاب الضمير ، فانني أرغب من كل قلبي لا أن أكفّر عن خطيئتي ، فأقدم لأختك تعويضاً مالياً ، بل أن أكون ، بكل بساطة ، نافعاً لها في أمر من الأمور على نحو من الأنحاء ، لأنني على كل حال لست بالانسان الذي لا يمتاز الا باقتراف الشر • ولو كان في عرضي هذا جزء من مليون جزء من حساب ، لما قدمته بمثل هذه الصراحة كلها • ثم انني ما كان لي أن أقدم اليها عشرة آلاف روبل فحسب ، بينما كنت أعرض عليها أكثر من ذلك منذ خمسة أسابيع • أضف الى ذلك أن من الجائز جداً أن أتزوج احدى الفتيات في وقت قريب كل القرب ، وهذا ينفي عنى كل شبهة في اضمار أى شر لآفدوتيا رومانوفنا • وأقول في الختام ان آفدوتيا رومانوفنا ، اذا هي تزوجت السيد لوجين ، ستتقاضى هذا المبلغ نفسه ولكن من جيب آخر ••• لا تزعل يا روديون رومانوفتش ••• بل احكم على الأمر بنفسك في هدوء وسكينة •

وكان سفيدريجايلوف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، هادئاً كل الهدوء ، ساكناً كل السكينة •

قال راسكولنيكوف :

- أرجو أن تقف عند هذا الحد من الكلام ، لأن ما قلته حتى الآن هو على كل حال زاخر بوقاحة لا تغتفر •

- أبدأ • من يسمعك يظن أن الانسان لا يمكن أن يصنع بأخيه الانسان الا شراً فى هذا العالم الأرضى ، وأنه لا يجوز أن يفعل له أى خير ، وذلك كله باسم عادات سخيفة وآراء باطلة • ألا ان هذا لمضحك حقاً • هل اذا مت مثلاً ، فأورثت أختك الصغيرة فى وصيتى هذا المبلغ نفسه ، هل ترفض أختك قبوله حتى فى هذه الحالة ؟

- جائز جداً أن ترفضه •

- لا ! ودعنا من هذا على كل حال • المهم أن عشرة آلاف روبل مبلغ جميل ! ومهما يكن من أمر ، فانتى أرجوك أن تطلع آفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث •

- لا ، لن أطلعها عليه •

- فى هذه الحالة سأكون مضطراً يا روديون رومانوفتشس أن أسعى بنفسى الى الحصول على موعد منها ، وقد يزعجها هذا •

- واذا أطلعتها على هذا الحديث ، ألن تسمى بنفسك الى الحصول على هذا الموعد ؟

- لا أدرى بماذا أجيبك • اننى أود كثيراً أن أراها مرة •

- لا تعول على هذا !

- خسارة • على أنك لا تعرفنى • أفليس من الجائز أن تتوثق

العلاقات بيننا ؟

– أنت تظن حقاً ان العلاقات بيننا قد تتوثق ؟

أجاب سفيدريجايلوف وهو ينهض ويتناول قبعته :

– لم لا ؟ ليس معنى هذا أننى أحرص هذا الحرص كله على أن أزعجك هنا ... حتى اننى لم أكن أعوّل على أن ... رغم أن هيئتك قد لفتت نظرى كثيراً فى هذا الصباح ...

سأله راسكولنيكوف فى قلق :

– أين رأيتنى فى هذا الصباح ؟

– رأيتك بمحض مصادفة ! ما يزال يخيّل الىّ أن فيك شيئاً قريباً منى كل القرب . ولكن لا تقلق أى قلق ، ما أنا بالرجل المزعج : لقد استطعت أن أتفاهم مع غشاشين ؟ ولم أضجر الأمير سفرباى الذى يمت الىّ بقربى بعيدة والذى هو سيد من كبار السادة ؛ وتسنى لى أن أكتب فى « ألبوم » مدام بريلوكوفا بضعة أسطر عن « مادونا » رافائيل* ، وعشت سبع سنين متصلة غير منقطعة مع مارتا بتروفنا ؛ وقضيت قبل ذلك ليلالى بكاملها فى عمارة فيازمسكى* بميدان « سوق العلف » ؛ وقد أظير بالمنطاد مع بيرج ...

– رائع . فاسمح لى الآن أن أسألك أنت تزمع القيام برحلتك قريباً ؟

– أى رحلة ؟

– عجيب ! الرحلة التى حدثتى عنها منذ قليل .

– رحلة ؟ آ ... نعم ... رحلة ... فعلاً ... لقد حدثتك عن رحلة ... ولكن هذه مسألة واسعة جداً ... لبتك تعرف عن أى شىء ؟ تسألنى !

كذلك أضاف فجأة وهو يضحك ضحكة رنانة قصيرة . ثم أردف :

- قد أتزوج بدلاً من القيام بتلك الرحلة : هناك خطيبة تُقترح
على *

- هنا ؟

- نعم *

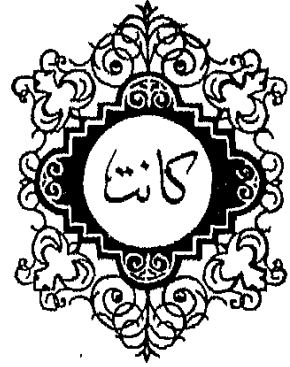
- متى اتسع وقتك لأن ***

- أود كثيراً مع ذلك أن أرى أختك آفدوتيا رومانوفنا * اننى
أسألك جاداً أن تؤدى لى هذه الخدمة * هيّا *** الى اللقاء مرة أخرى *
آ *** نسيت *** قل لأختك اللطيفة يا روديون رومانوفتش ان مارتا
بتروفنا قد أورتتها فى وصيتها ثلاثة آلاف روبل * هذه هى الحقيقة
دقيقة * لقد اتخذت مارتا بتروفنا هذه الاجراءات قبل موتها بأسبوع ،
اتخذتها بحضورى * وفى وسع آفدوتيا رومانوفنا أن تقبض هذا المبلغ
فى غضون أسبوعين أو ثلاثة *

- تقول *** هذه هى الحقيقة ؟

- نعم هذه هى الحقيقة * أرجوك أن تبلغها اياها * هيّا *** الى
اللقاء مرة أخرى * هل تعلم أننى أسكن قريباً جداً منك ؟
قال سفيدريجايلوف ذلك واتجه نحو الباب ؟ وفيما هو يجتاز
العتبة ، التقى برازوميخين !

الفصل الثاني



الساعة قريبة من الثامنة : أسرع الاثنان نحو
عمارة باكاليف ليصلا قبل لوجين •
وسأل رازوميخين صاحبه منذ أصبحا في
الشارع :

- قل لي : من ذلك الرجل ؟

- هو سفديريجايلوف ، ذلك الملاك الذي أهنت أختي في منزله
حين كانت تعمل عنده مربية • وقد اضطرت أن تنصرف بسبب ملاحظاته
الغرامية : طردتها زوجته مارتا بتروفنا • ومارتا بتروفنا هذه قد اعتذرت
لدونيا بعد ذلك ثم ماتت فجأة منذ مدة قصيرة ؛ وعنها انما كان يجري
الحديث منذ قليل • لا أدري لماذا أنا خائف من هذا الرجل • لقد وصل
الى بطرسبرج بعد دفن زوجته فوراً • هو رجل غريب جداً ؛ يخيل الى
أنه عازم أمره على تدبير مكيدة خبيثة • لكأنه يعرف شيئاً ما ••• يجب
أن نحمي دونيا منه ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله لك ، هل تسمع ؟

- نحميها منه ؟ ولكن أي أذى يستطيع أن يلحقه هذا الرجل
بأفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، أشكر لك يا روديا أنك تقول لي هذا
الكلام • لسوف نحميها • أين يسكن ؟

- لا أدري •

- لماذا لم تسأله ؟ خسارة ! سأعرف ذلك على كل حال *
- سأله راسكولنيكوف بعد فترة صمت :
- هل رأيته ؟
- طبعاً * لاحظته ، لاحظته جيداً *
- وألح راسكولنيكوف سائلاً :
- هل رأيته رؤية واضحة ، مميّزة ؟
- نعم ، وأتذكره تذكراً واضحاً مميّزاً . لو رأيته بين ألف شخص لعرفته * اننى أملك ذاكرة الوجود *
- وصمماً من جديد *
- وجمجم راسكولنيكوف يقول :
- همّ * * * ذلك أننى * * * ذلك أننى * * * هل تعلم ؟ لولا ذلك * * * لكان يمكن أن أظن * * * ما أزال أظن * * * أن ذلك لم يكن الا أضغاث أحلام *
- عمّ تتكلم ؟ لست أفهم بوضوح *
- تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً وهو يلوى فمه بإبتسامة :
- اسمع : لما كنتم تقولون جميعاً اننى مجنون ، فقد تصورت منذ قليل اننى قد أكون مجنوناً بالفعل ، وأن ما رأيته لم يكن الا شبحاً *
- ما هذا الذى تقوله ؟
- من يدري ؟ لعلى مجنون مع ذلك ، ولعل كل ما جرى فى الآونة الأخيرة انما جرى فى خيالى وحده !
- روديا ! هل شوشوا عقلك من جديد ؟ ولكن ماذا قال لك هذا الرجل ؟ لماذا جاء ؟

لم يجب راسكولنيكوف • وفكّر رازوميخين لحظة • ثم بدأ يتكلم فقال :

– طيب ، اسمع تقريرى : لقد جئت اليك ، فوجدتك نائماً • ثم تغدينا ، ثم ذهبت الى بورفير • كان زامبوتوف عنده • أردت أن أبدأ الحديث ، ولكن ذلك لم يثمر • لم أستطع أن أتكلم كما كان ينبغي أن أتكلم • لم يفهما شيئاً ؛ كانا لا يستطيعان أن يفهما شيئاً ؛ ولكنهما لم يظهرأ أى ارتباك • جذبت بورفير الى النافذة وأخذت أتكلم ، ولكن هذا لم يثمر أيضاً • كنت أنظر الى جهة ، وكان هو ينظر الى جهة أخرى • وأخيراً وضعت قبضة يدي تحت بوزه ، وقلت له اننى سأحطم له بوزه على الطريقة العائلية • فلم يزد على أن نظر الىّ • عندئذ بصقت على الأرض ، وانصرفت • هذا كل شيء • ما أعبى هذا كله ! أما زامبوتوف فلم أبادله كلمة واحدة • ومع ذلك اعتقدت أننى أفسدت الأمر كله ، الى أن تراءت لى فجأة ، وأنا أهبط السلم ، فكرة وضعت بلسماً على قلبي • قلت لنفسى : لماذا نصدّع رأسينا ، أنا وأنت ؟ لو كان هناك خطر يتهددك ، لو كان هناك شيءٌ حقاً ، لما قلت كلمة واحدة • ولكنك لا شأن لك فى هذا الأمر كله • ما شأنك أنت وهذا الأمر ؟ أنت لا علاقة لك بهذا الأمر • فما عليك اذن الا أن تستخف بهم ، أن تبصق عليهم • ولسوف ترى أننا نحن الذين سنضحك عليهم ونستهزىء بهم • لو كنت فى مكانك لأخذت أضللهم وأغرّر بهم ! ما أشد ما سيشعرون به من خجل وعار فيما بعد ! ابصق على هذا الأمر كله ، لماذا لا تبصق عليه ؟ قد نستطيع فى المستقبل أن نضربهم أيضاً • ولكن فلنضحك الى أن يحين ذلك الحين !

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

– طبعاً ، طبعاً !

ولكنه قال بينه وبين نفسه : « ما عساك قائلاً في الغد ؟ » *

شيء غريب : ان راسكولنيكوف لم يكن قد تساءل مرة واحدة حتى الآن « ما عسى يفكر فيه رازوميخين حين يعلم الحقيقة » * فلما خطرت هذه الفكرة بباله الآن حدّق الى صديقه بنظرة ثابتة * أما ما رواه له رازوميخين عن زيارته لبورفير فانه لم يهتم به كثيراً : ان أموراً كثيرة قد جرت بعد تلك الزيارة !** *

وفيما كانا يعبران الدهليز التقيا بلوجين * لقد وصل لوجين في الساعة الثامنة تماماً ، ولكنه ظل يطوف مدة طويلة قبل أن يهتدى الى الغرفة ، وها هم أولاء الثلاثة يدخلون معاً ، ولكن دون أن ينظر أحد منهم الى أحد ، ودون أن يحيى أحد منهم أحداً * دخل الشابان أولاً ، وتلبث بطرس بتروفتش في حجرة المدخل قليلاً من باب اللباقة ، وخلع هنالك معطفه * وتقدمت بولشيريا ألكسندروفنا الى لقائه عند عتبة الغرفة فوراً * وكانت دونيا أثناء ذلك الوقت تحيي أباها *

دخل بطرس بتروفتش ، وسلم على السيدتين بلطف ومودة ، رغم أنه قد اصطنع مزيداً من الوقار والكبرياء * على أنه كان يبدو مرتبكاً بعض الارتباك ، لم يسيطر على نفسه سيطرة تامة بعد * وأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا التي كانت تبدو مرتبكة هي أيضاً ، وأسرعت تجلس الجمع كله حول المائدة المستديرة التي كان عليها سماور يغلي ماؤه * فكان مكانا دونيا ولوجين متقابلين ، وكان مكانا رازوميخين وراسكولنيكوف أمام بولشيريا الكسندروفنا ، فأما رازوميخين فالى جانب لوجين ، وأما راسكولنيكوف فالى جانب أخته *

خيم الصمت برهة من الوقت * وأخرج بطرس بتروفتش من جيبه ، بغير تعجل ، منديلاً من قماش الباتيستة تفوح منه روائح عطر ، وتمخط كما يتمخط رجل يحس أن كرامته قد أهنت ، فهو عازم لذلك

على أن يطالب بايضاحات ، ولكنه ظل محافظاً على بشاشة هيئته * كان قد خطر بباله وهو فى حجرة المدخل أن لا يخلع معطفه ، وأن ينصرف فوراً ليعاقب السيدتين معاقبة قاسية ، وليفهمهما الوضع كله * ولكن لم يعزم أمره على انفاذ هذه الفكرة التى خطرت بباله * ثم ان هذا الرجل يكره الأمور التى يعوزها اليقين الثابت ، وهناك نقطة لا بد من ايضاحها : لئن خالفت هاتان السيدتان أوامره صراحةً ، فلا بد أن هناك سبباً دعا الى ذلك ، فالأفضل أن يعرف هذا السبب بسرعة ، وفى وسعه بعدئذ أن يعاقب عقاباً قاسياً ما دام يملك أن يعاقب *

قال يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا بلهجة رسمية :

- أرجو أن تكونا قد قمتما برحلة مريحة *

- نحمد الله يا بطرس بتروفتشس !

- يسرنى أن أعرف هذا * ألم تتعب آفدوتيا رومانوفنا أيضاً ؟
أجابت دونيا قائلة :

- أنا شابة وقوية فلا أتعب * أما ماما فقد تحملت مشقة كبيرة *

- ما العمل ؟ ان طرقنا الوطنية تمتد مسافات كبيرة * ان « أمننا روسيا » كما يقال ، واسعة كثيراً * * * أما أنا فانى ، رغم رغبتى القوية ، لم أستطع أن آتى الى المحطة لاستقبالكما * آمل مع ذلك أن يكون كل شئ قد تمَّ بدون مزعجات *

فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بنبرة خاصة :

- لا يا بطرس بتروفتشس ! لقد لقينا مزعجات كثيرة ، وشعرنا بضيق شديد * ولولا أن الله أرسل الينا دمترى بروكوفتشس بالأمس ، اذن لضعنا *

ثم أضافت تعرف لوجين بدمترى بروكوفتشس :

- هذا دمترى بروكوفتش *

فدمدم لوجين يقول وهو يلقي على رازوميخين نظرة مواربة خالية من المودة :

- ولكن *** سبق لى أن سُررت *** أمس ***

ثم قطب حاجبيه وصمت *

نستطيع أن نصف بطرس بتروفتش على وجه العموم بقولنا انه ينتمى الى تلك الفئة من الناس التى تبدو فى المجتمع لطيفة ودوداً ، أو قل تبدو متطلعة الى اللطف والمودة ، ولكن ما ان يسؤها شىء حتى تفقد على الفور وسائلها ، فاذا هى تشبه أكياساً من دقيق أكثر مما تشبه فرساناً مرحين يزخرون نشاطاً ويحظون باعتبار الناس عامة *

وساد صمت شامل من جديد * فراسكولنيكوف مصرّ على السكوت اصراراً عنيداً ، وآفدوتيا رومانوفنا لا تريد أن تتكلم قبل أن تحين اللحظة المناسبة ، ورازوميخين ليس عنده ما يقوله * وهكذا شعرت بولشيريا ألكسندروفنا بنذر الخطر * فلجأت الى آخر ما تملك من موارد ، فبادرت تقول :

- ماتت مارتا بتروفنا ، هل تعرف هذا ؟

- أعرفه طبعاً * علمت به منذ أخذت تسرى الشائعة *** وأزيدك علماً فأقول ان آر كادى ايفانوفتش سفيديريجايلوف قد أسرع يجيىء الى بطرسبرج بعد دفن امرأته فوراً * هذه هى على كل حال الأخبار الدقيقة التى وصلتني *

قالت دونيا تسأل بصوت خائف قلق ، وهى تبادل أمها نظرة سريعة :

- الى بطرسبرج ؟ الى هنا ؟



بٹرس بتروفٹش لوجین

- نعم • ولا شك في أن له نيات يضمورها ، اذا نحن نظرنا الى استعجاله السفر ، والى الأحداث التي سبقت هذا السفر على وجه العموم •
صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

- رباه ! هل من الممكن أن لا يدع دونيتشكا مرتاحة هنا أيضاً ؟
- يخيّل اليّ أنّكما يجب أن لا تبالغا في القلق ، لا أنت ولا آفدوتيا
رومانوفنا ، على شرط أن ترغبا طبعاً في أن تتحاشيا كل صلة به • أما أنا
فسأكون يقظاً ساهراً ، وسأبادر منذ الآن الى استطلاع محل سكناه •
وتابعت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت :

- آه يا بطرس بتروفتش ! انك لا تعرف مدى ما أحدثته في نفسي
من خوف ورعب • اننى لم أره في حياتى الا مرتين ، ولكنه بدا لى
مريعاً ، مريعاً ! أنا واثقة بأنه هو سبب موت مارتا بتروفنا !

- يصعب القطع برأى فيما يتعلق بهذه النقطة • أنا أملك معلومات
دقيقة محدّدة • لست أنكر أنه قد عجلّ مجرى الأمور بما أحدثته
الاهانة فيها من أثر نفسى ان صح التعبير • أما عن سلوك الرجل وعن
أخلاقه عامة فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة • لا أدري هل أصبح
الآن غنياً ، ولا أدري كم أورثته مارتا بتروفنا على وجه الدقة ، ولكننى
سأعرف هذا بعد مدة لن تطول • ومهما يكن من أمر ، فمما لا شك فيه
أنه ، وقد أصبح يملك مالاً ، سوف يستأنف فوراً ، هنا ببطرسبرج ،
طراز الحياة التي كان يعيشها في الماضي • هذا انسان هو أكثر أشباهه
انحلال خلق ، وفساد طبع • وهناك أسباب قوية تدعونى الى الاعتقاد بأن
مارتا بتروفنا التي شاء سوء حظها أن تُفتتن به وأن تحرره من ديونه منذ
ثمانى سنين ، قد خدمته في ميادين أخرى : فبفضل جهودها وحدها ،
وبفضل توضيحاتها انما استطاعت أن تخنق فى المهة قضية اجرامية وحشية

فضيحة كان يمكن أن تؤدي به الى سبيريا • ذلك هو هذا الرجل اذا كنت
تحرصين على معرفته !

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

- آه ! رباه !

وكان راسكولنيكوف يصغى بانتباه •

سألته دونيا بلهجة قاسية رصينة :

- هل صحيح حقاً أن لديك معلومات دقيقة عن ذلك ؟

- أنا انما أكرر ما سمعته بنفسى من فم المرحومة مارتا بتروفنا
مختوماً بخاتم السر • يحسن أن نلاحظ أن هذه القضية تظل من وجهة
النظر القانونية غامضة غموضاً شديداً • فى ذلك الوقت كانت تعيش
هنا - ويظهر أنها ما تزال تعيش الى الآن - سيدة أجنبية اسمها ريسليش،
وهى مرايية صغيرة لها عدا ذلك أعمال أخرى • ولقد كان السيد
سفيدريجايلوف على صلوات حميمة سرية بهذه المرأة منذ زمن طويل •
وكانت تعيش معها فتاة تمت اليها بقرابة بعيدة ، فتاة صغيرة فى الخامسة
عشرة من عمرها أو فى الرابعة عشرة ، كانت صماء خرساء ، وكانت
السيدة ريسليش تمحضها كرهاً لا حدود له ، وتلومها على كل لقمة خبز
تأكلها ، حتى لقد كانت تضربها ضرباً خالياً من أية شفقة انسانية • وفى
ذات يوم وُجِدَت الفتاة مشنوقة فى الطابق الذى يقع تحت سقف المنزل •
وقد انتهى التحقيق الى أن الفتاة ماتت منتحرة ، فطويت القضية بعد اتمام
الاجراءات المعتادة • غير أن وشاية جاءت بعد ذلك تقول ان الطفلة قد
اعتدى عليها السيد سفيدريجايلوف اعتداءً مشيناً قاسياً • صحيح أن هذا
كله ظل يكتنفه الغموض ، فان الوشاية قد صدرت عن ألمانية أخرى هى
امرأة سيئة السمعة لاثوحي بأية ثقة • ولم تتبع ذلك أية اجراءات : فبفضل

جهود مارتا بتروفنا وبفضل مالها بقى كل شيء فى حدود الشائعة • غير
أن هذه الشائعة كانت بليغة الدلالة • ولا شك أنك سمعت يا آفدوتيا
رومانوفنا ، حين كنت عندهم ، كلاماً عن قصة خادم اسمه فيليب مات
منذ ست سنين على أثر معاملات سيئة ، فى العهد الذى كانت فيه القناة
ما تزال قائمة •

– بل لقد سمعت أن فيليب هذا مات منتحراً •

– تماماً ، ولكنه أجبر على الانتحار ، أو قولى دفع اليه ، بتأثير
نظام الازعاجات والاضطهادات التى كان يمارسها السيد سفيدريجاييلوف •
قالت دونيا بخشونة :

– لم أكن أعرف ذلك • ولكننى سمعت قصة غريبة جداً تروى أن
فيليب هذا كان فى مصاباً بمرض الوسواس ، وأنه كان نوعاً من
فيلسوف قابع فى البيت • كان الناس يقولون عنه ان قراءاته هى التى
ذهبت بعقله ، وانه انتحر هرباً من سخريات السيد سفيدريجاييلوف ،
لا من ضرباته • ومهما يكن من أمر فان السيد سفيدريجاييلوف ، كان
طوال مدة اقامتى عندهم ، يعامل الخدم بحضورى معاملة حسنة ، حتى لقد
كان هؤلاء يحبونه ، رغم أنهم يتهمونه فى الواقع بأنه كان السبب
فى موت فيليب •

قال لوجين وهو يلوى فمه بابتسامة ملتبسة المعنى :

– أرى يا آفدوتيا رومانوفنا أنك أصبحت تميلين فجأة الى
التسامح • هذا رجل ماكر فعلاً ، وهو الى ذلك مغرٍ داعر • أليست
مارتا بتروفنا ، التى ماتت تلك الميتة الغريبة ، دليلاً محزوناً على ذلك ؟ أنا
انما أردت أن أساعدكما بنصائحي ، أنت وأملك ، لأننى أتنبأ بمحاولات
جديدة سيقوم بها وأنتما تجهلانها • وانى من جهتى لعل اقتناع جازم بأن

هذا الرجل سيودع في السجن يوماً من الأيام بسبب ديون • ان مارتا بتروفنا التي كانت لا تفكر الا في اولادها لم يكن في نيتها حتماً ، في يوم من الأيام ، أن تورثه مبلغاً ضخماً من ثروتها ، واذا أورثته شيئاً مع ذلك ، فان هذا الميراث لا يمكن أن يكون الا مبلغاً زهيداً « عارضاً » ، وهذا المبلغ الزهيد لن يكفي صاحبه الذي عُرِفَ بعبادات خاصة الا سنةً واحدة في أكثر تقدير •

قالت دونيا :

– بطرس بتروفتش ، أرجوك ، لا نتكلمن عن السيد سفيدريجاييلوف!
ان الكلام عنه يؤلنى •

وقال راسكولنيكوف فجأة ، خارجاً بذلك عن صمته أول مرة :
– جاء الىّ منذ قليل •

فاذا بصيحات التعجب تتعالى في جميع الجهات ، واذا بجميع الوجوه تلتفت اليه • وانفعل حتى بطرس بتروفتش •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال :

– جاء الىّ منذ ساعة ونصف ، بينما كنت ما أزال نائماً • دخل ، فأيقظني ، وعرفني بنفسه • كان منطلقاً مرحاً ، وكان يأمل جازماً أن تتعقد بيني وبينه صلوات • وقد ألحّ خاصةً على أن يلقاك يا دونيا ، وطلب مني أن أكون وسيطاً له في تهيئة هذا اللقاء • هناك عرض يريد أن يبسطه لك • وقد ذكر لي ما هو هذا العرض • ومن جهة أخرى أبلغني رسمياً أن مارتا بتروفنا قد اتسع وقتها ، قبل وفاتها بثمانية أيام ، أن تورثك في وصيتها ثلاثة آلاف روبل ، وهو مبلغ تستطيعين أن تقبضيه يا دونيا في أقرب فرصة •

هتف بولشيريا الكسندروفنا تقول وهي ترسم اشارة الصليب :

– الحمد لله ! صلى لها يا دونيا صلى لها !

قال لوجين :

– هذا صحيح •

وقالت دونيا مستطلعة :

– هيه ، وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك قال انه هو نفسه ليس غنياً ، وان الثروة كلها قد آلت

الى اولاده الذين بقوا الآن عند خالتهم • ثم أضاف انه قد نزل في مكان ما ،

غير بعيد عن بيتي ، ولكنني لا أدري أين يقع مسكنه على وجه الدقة ،

ولا سألته عن ذلك على كل حال •

سألت بولشيريا الكسندروفنا مرتاعةً :

– ولكن ماذا يريد ، ماذا يريد أن يعرض على دونيا ؟ هل قال لك

ماذا يريد أن يعرض عليها ؟

– نعم ، قال لي •

– فما الذي يريد أن يعرضه عليها ؟

– سأذكر فيما بعد •

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم صمت وعاد يشرب الشاي •

فأخرج بطرس بتروفتش ساعته ونظر فيها ، ثم قال :

– اننى مضطر الى أن أترككم حتماً ، فهناك عمل ملح مستعجل

• يناديني •

وأضاف يقول وهو يتحرك لينهض مظهرأ بعض الانزعاج :

– وبذلك لن أضايقكم •

فقلت دونيا :

- ابق يا بطرس بتروفتشس ! ألم تكن تنوى أن تقضى السهرة معنا؟
ألم تكتب أيضاً أنك تريد أن تناقش مانا؟

فقال بطرس بتروفتشس بوفار شديد :

- هذا صحيح يا آفدوتيا رومانوفنا *

وجلس ، لكنه ظل ممسكاً قبضته بيده ، وتابع يقول :

- كنت أريد فعلاً أن أناقشك وأناقش أمك المحترمة في أمور
خطيرة جداً * ولكن كما أن أذاك لا يستطيع أن يشرح أمامي شيئاً عن
عروض السيد سفيدريجايلوف ، كذلك لا أريد أنا ولا أستطيع أن
أشرح شيئاً أمام *** أشخاص آخرين *** في أمور هي على درجة
عظيمة جداً من خطورة الشأن ! *** ثم ان احداً لم يكثرث اطلاقاً
برجائى الملح ***

واكتسى وجه لوجين تعبيراً عن المرارة ، وصمت في وقار وورصانة *

قلت دونيا :

- أنا وحدى السبب فى أن رغبتك فى أن لا يحضر أخى حديثنا لم
تُحقق * لقد كتبت تقول ان أخى أهانك ، وأنا أرى أنه يجب ايضاح
الأمور بأقصى سرعة ، وأن عليكما أن تتصالحا * اذا كان روديا قد أهانك
حقاً ، فانه يكون من « واجبه » أن يعتذر لك ، و « سوف يفعل » ذلك * *

فسرعان ما استرد بطرس بتروفتشس ثقته ، فقال :

- يا آفدوتيا رومانوفنا ، هناك أمور لا يمكن أن ينساها المرء مهما
يبلغ من حسن الطوية وصدق الرغبة * ان لكل شىء حدوداً لا يمكن أن
يتجاوزها أحد دون أن يعاقب عليها ، ومتى تجاوزها كانت العودة الى
الوراء مستحيلة استحالة كاملة *

قاطعته دونيا تقول بشيء من نفاذ الصبر :

- ليس هذا تماماً ما كنت أكلّمك فيه • افهم جيداً أن مستقبلنا يتوقف الآن على نقطة واحدة : هل يمكن ايضاح هذا الأمر كله وتسويته بأقصى سرعة أم لا ؟ اننى أنبّهك بصراحة ، منذ البداية ، الى أننى لا أرى لنا أى مخرج آخر ، فاذا كنت تحرص علىّ أى حرص فيجب أن تنتهى هذه القصة فى هذا اليوم نفسه مهما يكلف الأمر • اعود فأكرر أن أخى سيعتذر لك اذا هو كان مخطئاً •

قال لوجين وقد ازداد احتياجه شيئاً بعد شيء :

- يدهشنى يا آفدوتيا رومانوفنا أن تطرحى المسألة هذا الطرح • اننى على ما أكنه لك من اعتبار عظيم ، ومن حب كبير ان صح التعبير ، أستطيع جداً أن لا أحب فرداً من أفراد أسرّتك • واننى على تطلعى الى أن أسعد بزواجك أستطيع جداً أن لا أقبل تحمل واجبات لا تتفق مع • • قاطعته دونيا تقول مندفة :

- مهلاً مهلاً ! دعك من فرط الحساسية هذا يا بطرس بتروفتش • ولتكن ذلك الرجل الذكى النييل الذى رأيتّه فيك دائماً والذى أحب أن أراه فيك • لقد وعدتك وعداً صريحاً ، وأنا خطيبتك • فلتثق بى اذن فى هذه القضية ، ولتكن على يقين من أننى أستطيع أن أقضى فى الأمر محايدةً غير متحيزة • ان وقوفى موقف الحكم يدهش أخى مثلما يدهشك • وحين دعوته اليوم ، بعد تلقى رسالتك ، الى حضور لقائنا هذا حتماً ، فاننى لم أقل له شيئاً عما أنتويه • ألا فافهم أننى سأكون مضطرة الى أن أختار أحدكما وأترك الثانى اذا أتما لم تتصالحا • ان المسألة مطروحة على هذا النحو ، من جهتك ومن جهته على السواء • فلا أستطيع ولا ينبغي لى أن أُخدع فى أمر اختياري • أنت ترى أن علىّ أن أقطع

صلى بأخى ، وهو يرى أن علىَّ أن أقطع صلى بك • فأنا أريد وأستطيع
أن أعرف فى هذه اللحظة أهو أخ لى حقاً ، وأستطيع أن أعرف أيضاً
أأنا عزيزة عليك حقاً ، أستطيع أن أعرف هل أنت تحترمنى ، هل أنت
زوج لى حقاً •

قال لوجين منزعجاً :

– يا آفدوتيا رومانوفنا ، ان أقوالك هذه زاخرة بالمعانى فى نظرى،
بل فى وسعى أن أقول انها جارحة جداً اذا نحن نظرنا الى الوضع الذى
يشرفنى أن أحته بالنسبة اليك • فبغضَّ النظر عن طريقك الغريبة
المثيرة هذه فى الموازنة بينى أنا وبين ••• شاب مغرور ، فاننى أرى أنك
تتصورين امكان تراجعك عن الوعد الذى قطعته لى • فأنت تقولين « أنت
أو هو » ، مبرهنةً بذلك على ضعف شأنى عندك ، وقلة قيمتى فى نظرك •
ألا فاعلمى أننى لا أستطيع أن أقبل هذا ، نظراً للعلاقات التى بيننا ،
و ••• الالتزامات التى تربطنا •

صرخت دونيا وقد احمر وجهها من الغضب احمراراً شديداً :

– كيف تقول هذا الكلام ؟ لقد وضعتُ مصلحتك فى منزلة أئمن
ما ملكت حتى الآن ، وضعتها فى منزلة كل ما كان حتى الآن حياتى
« كلاًها » ، وهأنت ذا تشكو فجأة من ضعف شأنك عندى وقلة قيمتك
فى نظرى ! •••

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة حاقدة ، وغضب رازوميخين غضباً
شديداً •

ولكن بطرس بتروفتش لم يشأ أن يدرك ذلك الاعتراض ، وأن
يفهم ذلك الدليل ، حتى لقد كان يغدو أشدَّ شراسة وأميل الى المشاجرة

عند كل كلمة جديدة ، فكأنه يجد لذة في أن الأمور قد صارت الى هذه الحال .

قال متفخماً :

– ان حب رفيق الحياة ، ان حب الزوج يجب أن يتغلب على حب الأخ . ومهما يكن من أمر ، فأنا لا أرضى أن أوضع في ميزان واحد مع .. . وعلى كل حال ، ورغم أنني قد أعلنت صراحةً منذ لحظة أنني لا أستطيع ولا أريد أن أعرض ، بحضور أخيك ، جميع الموضوعات التي تشغل بالي ، فإني أحب أن أحاسب أمك المحترمة على نقطة أساسية تجرحني كثيراً .

قال ذلك ثم التفت يخاطب بولشيريا ألكسندروفنا :

– ان ابنك قد أهانني أمس بحضور السيد رازودكين* (أو السيد .. . هذا اسمك ، أليس كذلك ؟ معذرة .. . لقد نسيت اسمك – كذلك قال لرازوميخين وهو يحييه تحية متلطفة –) ، أقول ان ابنك قد أهانني أمس بحضور هذا السيد مشوهاً فكرةً سبق أن عبرت لك عنها في حديث حميم جرى بيني وبينك أثناء احتساء فنجان من القهوة ، اذ قلت انني أرى أن الأفضل من وجهة نظر الحياة العائلية أن يتزوج الرجل فتاة فقيرة عرفت مصاعب الحياة وعانت قسوة المعيشة بدلاً من أن يتزوج فتاةً ذاقت مباحج اليسر والرخاء والدعة ، لأن ذلك يكفل السعادة ، بل ويضمن الأخلاق أيضاً . ولكن ابنك قد تعمد أن يضخم دلاله هذه الأقوال تضخيماً جعلها سخيفة ، فاتهمني بأبشع التهم ، ونسب اليّ أسوأ الأهداف والحطط ، مستنداً في ذلك الى رسالتك أنت فيما أظن . لسوف يسعدني كثيراً يا بولشيريا ألكسندروفنا أن تقنعيني بأن الأمر لم يكن كذلك ، فيحمل اليّ هذا طمأنينة كبيرة وراحة عظيمة . اذكرى لي الكلمات التي

عمدت الى استعمالها لنقل أقوالى والتعبير عن آرائى فى الرسالة التى بعثت بها الى روديون رومانوفتشس !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا مجمجة :

- لا أتذكر • لقد نقلتها على نحو ما فهمتها أنا نفسى • لا أدرى كيف أعادها لك روديا ••• لعله بالغ قليلاً •••

- ما كان ليستطيع أن يبالغ لولا ما أوحيت به اليه •

قالت بولشيريا ألكسندروفنا فى وقار :

- يا بطرس بتروفتشس ، الدليل على أننا ، أنا ودونيا ، لم نؤول

أقوالك تأويلاً سيئاً جداً ، هو وجودنا كلتينا « هنا » •

قالت دونيا مؤيدة محبذة :

- أحسنت يا ماما !

فقال لوجين مستاءً :

- اذن أنا المخطيء !

فبادرت بولشيريا ألكسندروفنا تضيف قولها متشجعة :

- اسمع يا بطرس بتروفتشس ، انك لا تبرح تتهم روديون ، وقد

كتبت أنت نفسك فى حقه أشياء غير صحيحة •

- لا أذكر أننى كتبت أى شىء غير صحيح •

قال راسكولنيكوف بلهجة لاذعة ، حتى دون أن يلتفت نحو

لوجين :

- كتبت أننى وهبت بالأمس ملاً لا لأرملة الموظف الذى داسته

الجيل - وهذه هى الحقيقة - بل لابنته (التى لم أكن قد رأيتها فى الواقع

قبل الأمس يوماً) • كتبت ذلك لتوقع بينى وبين أهلى ، ولتزرع فى

قلوبنا الشقاق ؟ ومن أجل تحقيق هذا الغرض أضفت غمزات دنيئة تقدر
 فى سلوك فتاة لا تعرفها • فهذا كله ليس فيه الا نميمة وحقارة •
 أخذ لوجين يرتجف من فرط الغضب ارتجافاً شديداً وقال :

– معذرةً أيها السيد ، لئن أفضت فى الكلام ، فى رسالتى ، عن
 أعمالك وصفاتك ، فانما فعلت ذلك تلبيةً لطلب أمك وأختك اللتين
 رجتاى أن أعلمهما عن أحوالك وعن الأثر الذى تحدثه فى نفسى • أما
 رسالتى فانى أتحداك أن تجد فيها سطرأ واحداً يشتمل على غير الصدق ،
 أى بتعبير آخر أن تبرهن لى على أنك لم تبدد مالك ، وأن تبرهن لى على
 أن تلك الأسرة ، مهما تكن فقيرة بائسة ، ليس بين أفرادها أحد ساقط •
 – أما أنا فأرى أنك رغم كل وقارك لا تساوى اصبع تلك الفتاة
 المسكينة التى ترميها بالحجر •••

– معنى هذا أنك لن تتردد عن جمعها بأمك وأختك ؟

– فعلتُ هذا ، ان كنت تحرص على أن تعلم ذلك • أجلستها الى
 جانب أمى ودونيا فى هذا اليوم نفسه •
 صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تنادى ابنها :
 – روديا !

واحمرت دونيتشكا • وقطب رازوميخين حاجيه • وابتسم لوجين
 ابتسامة مسمومة فيها احتقار • وقال يخاطب دونيا :

– احكمى بنفسك يا آفدوتيا رومانوفنا : هل من سبيل الى تفاهم ؟
 أمل أن تحل هذه القضية الآن ، وأن توضَّح مرة واحدة الى الأبد •
 أما أنا فانى انسحب حتى لا أعكر عليكم صفو هذا الاجتماع العائلى
 اللطيف ، وحتى تناقلوا أسراركم بحرية •

قال ذلك وهو ينهض ويتناول قبعته • ثم واصل كلامه قائلاً :

– ولكننى أسمح لنفسى وأنا أنصرف بأن ألفت نظركم الى أننى أمل أن لا أُجبر فى المستقبل على تحمل مثل هذه اللقاءات بل قولوا على تحمل مثل هذه الفضائح • واليك أنت خاصة يا بولشيريا ألكسندروفنا المحترمة جداً انما أتقدم بهذا الطلب ، لا سيما وأن رسالتى قد بعثت بها اليك أنت ، لا الى أى شخص آخر غيرك •

انزعجت بولشيريا ألكسندروفنا وقالت :

– أنت تعد نفسك سيداً لنا يا بطرس بتروفتش ؟ لقد شرحت لك دونيا ، مع ذلك ، الأسباب التى جعلتنا لا نلبى رغبتك • لقد كانت نياتها حسنة • ثم انك حين تكتب الى انما تكتب بلهجة من يلقى أوامر • فهل يجب أن نعد كل رغبة من رغباتك أمراً من الأوامر واجب التنفيذ ؟ ألا ان عكس هذا هو ما ينبغى أن يكون • فأنت أنت الآن من يجب عليه أن يلتزم غاية الرقة واللطف فى معاملتنا ، لأننا محضناك ثقة كاملة فتركنا كل شىء فى سبيل أن نجىء الى هنا ، حتى صرنا منذ الآن خاضعتين لمشيتك ، واقعتين تحت سلطانك •

– ليس هذا صحيحاً كل الصحة يا بولشيريا ألكسندروفنا ، لاسيما وأنكم ستقبضون ، كما أبلغتم ذلك منذ قليل ، مبلغ ثلاثة آلاف روبل أورتكم اياها مارتا بتروفنا فى وصيتها • يبدو لى أن هذا المبلغ قد جاء فى أوانه ، كما يدل على ذلك ما تصطنعينه من لهجة جديدة فى مخاطبتى • هذا ما أضافه لوجين بصوت حانق •

فُقلت دونيا مهتاجة غاضبة :

– فى وسع المرء حقاً ، حين يسمع قولك هذا ، أن يفترض أنك كنت تعوّل على فقرنا وعوزنا •••

– على كل حال ، لم يبق في امكاني الآن أن أعوّل على هذا الفقر
وهذا العوز ؛ وأنا خاصة لا أريد أن أعرقل اطلاقكم على العروض
السرية التي عرضها أركادي ايفانوفتش سفيدريجايلوف على أخيك ،
والتي أرى أن لها عندك شأنًا كبيراً ، حتى لقد تسرك كثيراً *

صاحت بولشيريا الكسندروفنا :

– آه ! يا رب !

وأصبح رازوميخين لا يطيق البقاء جالساً على كرسيه *
سأل راسكولنيكوف أخته :

– ألا تشعرين الآن بالحجل يا أختي ؟

فقال دونيا :

– نعم ، أشعر بالحجل *

ثم صرخت وقد اصفر وجهها من الغضب اصفراراً شديداً ،
صرخت تقول لبطرس بتروفتش :

– بطرس بتروفتش ! اذهب من هنا !

لم يكن يبدو على بطرس بتروفتش أنه كان يتوقع هذه الخاتمة *
لقد أسرف في الاعتزاز بنفسه ، وبقوته ، وأسرف في الاعتماد على ضعف
ضحيته * وهو حتى الآن لا يكاد يصدق ما سمعته أذناه *

شحب وجهه ، وتشنجت شفتاه * ثم قال :

– اذا اجتزت الآن هذا الباب يا آفدوتيا رومانوفنا ، مودّعاً بكلمات
كهذه الكلمات ، فاعلمي أنني لن أرجع قط * يجب أن تفكّري في هذا*
وليس من عادتي أن أنكل عن أقوالى *

صاحت دونيا تقول وهي تنهض عن مكانها بوثة واحدة :

– يا للوقاحة ! ألا تعلم أنني لا أريد أن ترجع قط ؟

– ماذا ؟ أهكذا اذن ؟

بهذا هتف لوجين الذى لا شك فى أنه ظل حتى تلك اللحظة لا يتصور أن نهاية كهذه النهاية ممكنة ، فاذا هو الآن يفقد كل سيطرته على نفسه ، ويتابع كلامه قائلاً :

– هكذا اذن ؟ ولكن هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أن فى وسعنى

أن أحتج ؟

فندخلت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

– ما الذى يسمح لك بأن تقول لها هذا الكلام وأن تخاطبها بهذه اللهجة ؟ ثم كيف يكون فى وسعك أن تحتج ؟ أنظن أنني أرضى أن أزوج بنتى رجلاً مثلك ؟ هيّا اذهب ! اتركنا الى الأبد ! ألا اننا نحن الذين أئمننا حين تورطنا فى قضية غير شريفة ؟ وأنا الأئمة أكثر من أى شخص آخر ***

– ولكنك ، يا بولشيريا ألكسندروفنا ، قد ربطتنى بالوعد الذى قطعته لى ، وتنكلين عنه الآن . ثم *** ثم *** ثم اننى قد جررت الى تكبد نفقات ***

ان هذا الادعاء الذى يدعيه بطرس بتروفتش يبلغ من المطابقة لطبعه والاتفاق مع خلقه أن راسكولنيكوف الذى كان قد شحب لونه شحوباً شديداً بسبب غضبه وبسبب الجهود التى كان يبذلها لكبح جماح نفسه ، لم يطلق عندئذ صبراً ، فانفجر يضحك ضحكة صاحبة معرودة .

وخرجت بولشيريا ألكسندروفنا عن طورها ، فأخذت تصرخ

سائلة :

– نفقات ؟ أية نفقات ؟ أتراك تقصد نفقات شحن حقيبتنا ؟ ولكن

موظف القطار قد شحنها لك بالمجان ! ثم ما هذا الكلام الذى تقوله عن الارتباط ؟ نحن الذين ربطناك اذن ؟ ألا فلتتذكر يا بطرس بتروفتش أنك أنت الذى ربطتنا ، بل أنت الذى كبّلتنا تكيلاً ، كبّلت أيدينا وأرجلنا ***

قالت آفدوتيا رومانوفنا لأمها متوسلة :

– كفى يا أمى كفى ! أرجوك !

والتفتت الى بطرس بتروفتش فقالت له :

– هلاً ذهب ، من فضلك ، يا بطرس بتروفتش !

فقال بطرس بتروفتش وقد فقد سيطرته على نفسه :

– أنا ذاهب ، غير أن هناك كلمة أخيرة أحب أن أقولها : يبدو أن

أمك نسيت شيئاً تماماً أننى قررت أن أتخذك زوجة لى حين كانت سمعتك

مضغّة فى جميع الأفواه * وأحسب أننى اذ خالفت رأى الناس ورددت

إليك حسن السمعة كان فى وسعى أن انتظر تعويضاً فى أقل تقدير ،

بل وأن أطلب بمكافأة * آه *** لقد كانت عيناي مغمضتين حتى هذه

اللحظة ! اننى لأدرك الآن أننى قد تصرفت تصرفاً طائشاً حين لم أقم

أىّ وزن للشائعات التى كانت تلوكلها الألسن عنك ***

صرخ رازوميخين يقول وهو يثب عن كرسيه ويستعد للعراك :

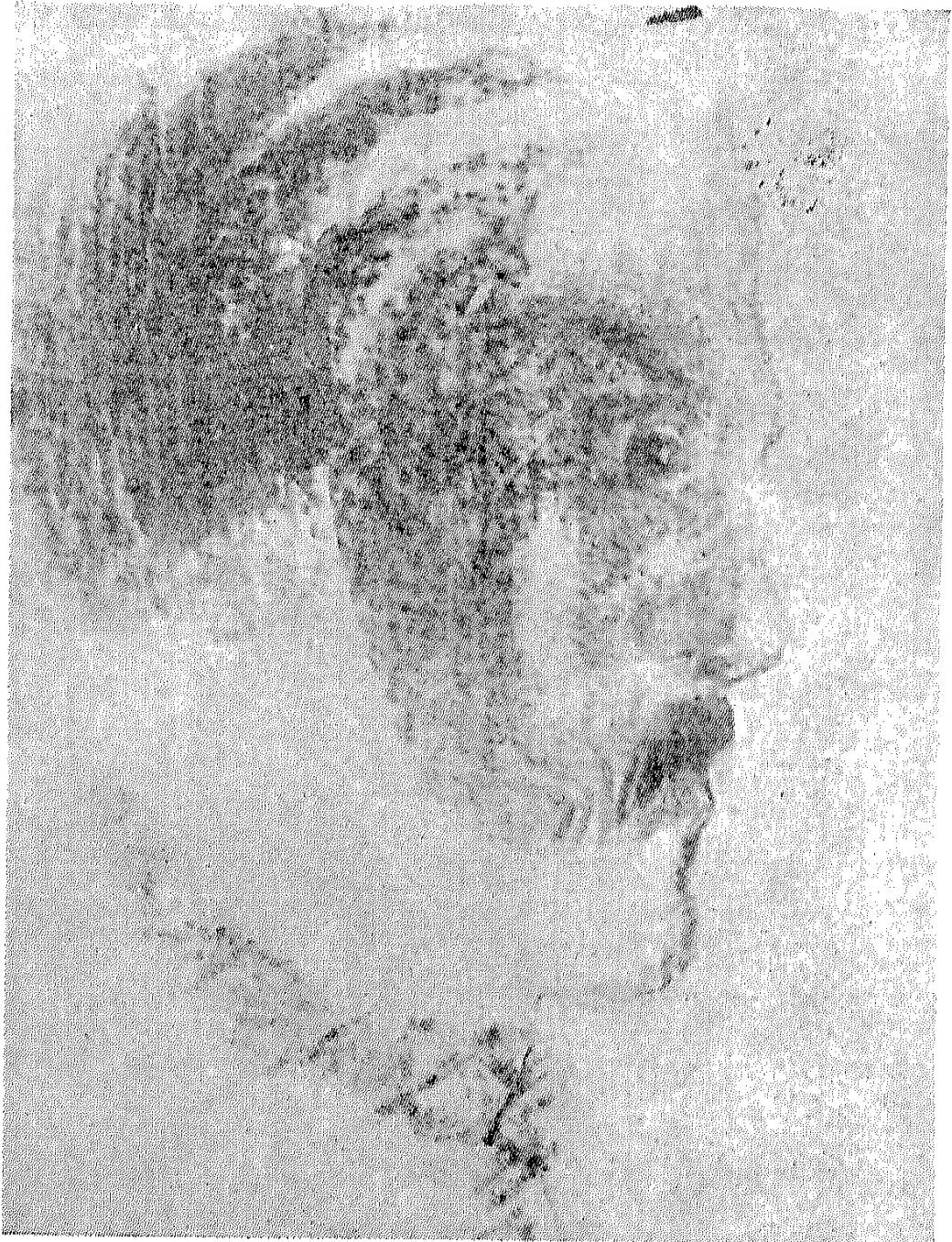
– انه يريد أن أهشّم له رأسه !

وقالت دونيا :

– أنت رجل دنىء سافل !

وهنف راسكولنيكوف يقول وهو يصد رازوميخين :

– لا كلمة ، ولا حركة !



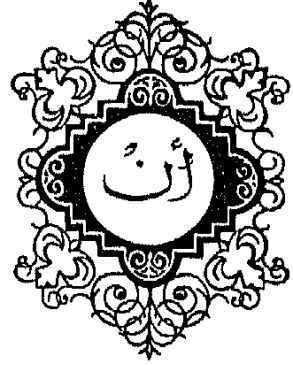
رازومیخین

ثم اقترب من لوجين ، وقال له تحت أنفه بصوت أجش لكنه واضح :

– هياً اخرج + اياك أن تقول كلمة واحدة ، والا ...
فتأمله بطرس بتروفتش بضع لحظات شاحب الوجه متقبض القسما
من الكره ، ثم استدار وخرج +

قلماً حمل قلب انسان من الحقد على انسان مثلما حمل قلب هذا
الرجل من الحقد على راسكولنيكوف + لقد عدّه مسؤولاً عن كل شيء +
ولكن يجب أن نذكر أنه منذ الآن ، أثناء هبوطه السلم ، كان
يتخيّل أنه لم يخسر القضية ، وأن الأمور فيما يتعلق بالسيدتين ما يزال
يمكن تدبيرها +

الفصل الثالث



النقطة الأساسية هي أن بطرس بتروفشس كان حتى آخر دقيقة لا يصدّق أن الأمور ستنتهي هذه النهاية • لقد تفاخر وتعاضم وتبجح الى ابعده حدود التفاخر والتعاضم والتبجح، وكان لا يتصور حتى امكانية أن تستطيع امرأتان بائستان الخروج على طاعته والتحرر من سلطانه • ان غروره وثقته بنفسه ورضاه عن ذاته وكبريائه ، ان هذا كله قد ساهم كثيراً في ترسيخ ذلك الاقتناع لديه • هو رجل بدأ من الصفر ، وتعود أن يعجب بنفسه اعجاباً شديداً ، وأن يقدر ذكائه وكفاءاته قدراً عظيماً ، حتى لقد كان في بعض الأحيان ، حين يخلو الى نفسه ، يتأمل وجهه في المرآة مدة طويلة ، فرحاً كل الفرحة • على أن الشيء الذي كان يحبه في الدرجة الأولى ، وينزله في المقام الأول من الاحترام ، انما هو المال الذي استطاع أن يجنيه بفضل عمله وبفضل وسائل أخرى أيضاً • ألم يكن هذا المال يتيح له أن يتعامل تعامل الند والند مع أناس أعلى منه مقاماً وأرفع منزلة ؟

و حين ذكرّ دونيا ، بمرارة ، أنه قد قرر أن يتزوجها رغم الشائعات المؤسفة التي كانت تجري بين الناس في حقّها ، فانما كان يتكلم صادقاً كل الصدق؛ حتى لقد كان يشعر بأعمق الاستياء من نكرانها هذا الجميل • على أنه حين خطب دونيا كان مقتنعاً كل الاقتناع بسخف جميع تلك الشائعات ، التي حرصت مارتا بتروفنا نفسها على أن تدحضها ، والتي

أصبحت لا تتناقلها الألسن في المدينة الصغيرة منذ مدة طويلة ، بعد أن أعاد الناس الى دونيا اعتبارها ، وأصبحوا يحبونها حباً شديداً • وما كان له على حال أن ينكر أنه كان عالماً بهذه الأشياء كلها حين الخطبة • ومع ذلك كان يحس أنه قد منّ على الفتاة بفضل عظيم حين ارتضى أن يرفعها الى مستواه ، حتى لقد كان يعدُّ هذا عملاً بطولياً من جانبه • وحين زار راسكولنيكوف كان يشعر أنه انسان محسن ، وكان يتوقع أن يقطف ثمرات عمله الخَيْر ، وأن يسمع من راسكولنيكوف أجمل آيات الشكر وأعظم عبارات التناء والمديح • لذلك كان بطرس بتروفتش ، أثناء هبوطه السلم ، يشعر بأنه انسان لم يفهم حق فهمه ، ولم يقدر حق قدره ، وأنه أهين اهانة بالغة •

أما دونيا فقد أصبحت ضرورة لا غنى عنها لحياته • حتى لقد بات لا يستطيع أن يتصور امكان العدول عنها • لقد حلم بالزواج منذ مدة طويلة ، منذ بضع سنين ، وكان حين يحلم بهذا الزواج ينتشى سكرآ ، ويعدُّ له العدة ويجمع من أجله المال • كان يتخيل ، في قرارة قلبه ، فتاة فاضلة فقيرة (لا بد أن تكون فقيرة) ، فتاة في ريعان الصبا وغضارة الشباب ، على جانب عظيم من الحسن والجمال ، تنتمي الى أسرة كريمة ، وتتمتع بتربية حسنة ، ولكنها مروعة خائفة بسبب نوازل كثيرة ألمت بها ، فلا بد أن تخضع له خضوعاً كاملاً ، وأن تدعن لمشيئته اذعاناً تاماً ، وأن تظل ترى فيه ، طوال حياتها ، الرجل الذي أحسن اليها وأنعم عليها ، فتقدسه تقديساً ، وتمحضه نفسها مخلصاً ، ولا تنتمي الى أحد سواه • ما أكثر المشاهد الجميلة والصور اللذيذة التي تراءت لخياله حول هذا الموضوع المغرى الممتع ، في اللحظات التي كانت تهدأ فيها نفسه قليلا حين يخلد الى الراحة من أعماله ! وها قد أوشك هذا الحلم الذي هدهد خياله طوال تلك السنين ، ها قد أوشك أن يتحقق : ان جمال آفدوتيا رومانوفنا

وحسن تربيتها قد اذهلاه ، وان وضعها السيء وحالتها اليائسة يحضانها عليها ويشدانه اليها كثيراً ؛ بل ان فيها شيئاً يفوق ما كان يأمله : ان الفتاة على جانب عظيم من الكبرياء والشمم ، والنشاط والقوة ، والعفة والفضيلة ، وهى أوسع منه ثقافة وأغزر علماً (كان هو يشعر بهذا) ، وان انسانة كهذه الانسانة هى التى ستحتفظ له طول حياتها بشعور الامتنان وعاطفة العرفان ، وهى التى ستمحى أمامه من فرط احترامها له وتقديسها اياه ، فليس عليه الا أن يأمر حتى تطيع !! وقد شاعت المصادقات بما يشبه العمد والقصد ، أن يقرر صاحبنا ، قبيل لقيها بقليل ، وبعد تاجيلات كثيرة ، أن يغير ميدان عمله وأن يقتحم مجالاً أوسع ، وأن يشق لنفسه طريقاً فى ذلك المجتمع الراقى الذى طالما شدته اليه أحلامه . كان صاحبنا قد قرر أن يجرب حظّه فى بطرسبرج . وهو يعلم حق العلم أن للنساء دوراً عظيماً فى هذا المجال ، وأن فيهن نفعاً كبيراً . ان الفتنة التى تشع من امرأة أخاذة فاضلة مثقفة يمكن أن تجمّل حياته ، وأن تجتذب اليه مودة الناس ، وأن تحيطه بهالة من المهابة والسحر

ولكن ها هو ذا كل شيء ينهار الآن دفعة واحدة ! لقد نزلت عليه هذه القطيعة المفاجئة نزول الصاعقة . هذه مهزلة فظيعة ، هذا سخف رهيب ! انه لم يزد على أن « تبجح » قليلاً ، ان وقته لم يتسع لأن يقول كل ما فى نفسه ؛ لقد كان يمزح ، لقد اندفع بعض الاندفاع هذا كل شيء فكيف ينتهى الأمر هذه النهاية الخطيرة ؟! انه يجب دونيا على كل حال ، يحبها بطريقته الخاصة لا ، لا ، يجب اصلاح كل شيء غداً ، غداً لا بد من معالجة الأمور ، لا بد من مداواة الأمور ، ولا بد خاصةً من احباط أعمال ذلك الغر الوقح الذى كان سبب البلاء كله .

وتذكر رازوميخين وهو يشعر بالضيق والانزعاج أيضاً ، لكنه

لم يلبث أن أسرع يطمئن نفسه من هذه الناحية • قال يحدث نفسه
ساخراً : « لا ينقصنى الا هذا ••• لا ينقصنى الا أن أوازن بينى وبينه ،
أن أضع نفسى فى مستواه ! » •

ان الشخص الذى كان لوجين يخشاه حقاً انما هو سفيدريجايلوف
الخلاصة : ان هموماً كثيرة كانت تنتظره •

•••••
•••••

قالت دونيا وهى تعانق أمها وتقبلها :

– لا بل أنا المذنبه ، أنا المذنبه ! لقد استسلمت لانغراء ماله ؟ ولكنى
أقسم لك يا أخى أننى لم أكن أتخيله رجلاً دنيئاً الى هذا الحد من
الدناءة • ولو قد كشفت حقيقته من قبل لما استسلمت لانغراء أى شىء
فى هذا العالم ! لا تتهمنى يا أخى !

فتمتت بولشيريا أنكسندروفنا تقول دون شعور ، كأنها لما تدرك
ما جرى بعد :

– الله خلّصنا منه ! الله خلّصنا منه !

وكانوا جميعاً مبتهجين مغتبطين ، حتى لقد انطلقوا بعد خمس
دقائق يضحكون • غير أن دونيا كان يشجب لونها من حين الى حين ،
وكانت تقطب حاجبها حين تتذكر ما عانته فى هذه الآونة الأخيرة • ما كان
لبولشيريا أنكسندروفنا أن تعتقد فى يوم من الأيام أنها يمكن أن تُسرَّ
لحادث كهذا الحادث • كانت فى ذلك الصباح نفسه ما تزال تتصور أن
القطيعة مع لوجين شقاء كبير ومصيبة عظيمة ! أما رازوميخين فكان يشعر
بسعادة قصوى • انه لا يجرؤ بعد أن يظهر فرحته اظهاراً كاملاً ، ولكنه

كان يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه كمن انتابته حمى • لكان قلبه قد تخلص من عبء ضخيم وحمل ثقيل • سيكون في وسعه بعد اليوم أن يقف عليهما حياته ، وأن يضع نفسه في خدمتهما • وما أكثر ما يستطيع أن يفعله منذ الآن ! على أن رازوميخين كان يطرد من ذهنه مشاريع المستقبل خائفاً من خياله •

راسكولنيكوف وحده ظل جالساً في مكانه متجهماً الوجه تقريباً ، حتى ليكاد يكون ذاهلاً شارد الفكر • انه وهو الذي ألح أكثر منهم جميعاً على أن يطرد لوجين ، يبدو الآن أقلهم اهتماماً بما جرى • وقدّرت دونيا ، رغم ارادتها ، أنه ما يزال يؤاخذها ويحقد عليها ، وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تتأمله خائفة وجلة •

سألته دونيا وهي تقترب منه :

– ماذا قال لك سفيدريجايلوف ؟

وصاحت بولشيريا ألكسندروفنا :

– آ ••• نعم ••• نعم ••• ماذا •••

فرفع راسكولنيكوف رأسه ، وقال :

– انه يصرُّ على أن يهدي اليك عشرة آلاف روبل ، وقد أعرب

عن رغبته في أن يراك مرةً أخرى بحضورى •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

– أن يراها؟ مستحيل •• لا يمكن أن يتم هذا بحال من الأحوال •

وكيف يجروُ أن يقدم اليها مالاً ؟

عندئذ روى راسكولنيكوف (بغير قليل من الجفاف) ما جرى بينه

وبين سفيدريجايلوف من حديث ، مغفلاً ذكر ما قصه عليه سفيدريجايلوف

من أن مارتا بتروفنا قد ظهرت له بعد موتها ، وذلك حتى لا يتعد عن الموضوع ، ولاشمئزازه من قول أية كلمة زائدة •

سألته دونيا :

– بماذا أجبتة ؟

– قلت له أولاً اننى لن أذكر لك كلمة واحدة عن طلبه • فأعلن لى عندئذ أنه سيسعى بجميع الوسائل الى أن يحصل منك على موعد • وقد أكد لى أن العاطفة الجامحة التى كان يشعر بها نحوك لم تكن الا هوى طارئاً ، وأنه أصبح الآن لا يشعر نحوك بأية عاطفة • كل ما يريد هو أن لا تتزوجى لوجين • على أن أقواله كلها كانت غامضة مضطربة •
مبهمة •

– ما رأيك فى هذا الرجل يا روديا ؟ ما هو الانطباع الذى أحدثته فى نفسك ؟

– أعترف بأننى لم أفهم حق الفهم • انه يقدم عشرة آلاف روبل ، ثم هو يزعم أنه ليس غنياً • يصرّح بأنه سيسافر الى مكان لا أدري أين هو ، ثم يبدو بعد عشر دقائق كأنه نسى ما قاله • وفجأة يذكر أيضاً أنه سيتزوج ، وأنهم قد وجدوا له خطيبة ••• أغلب الظن أنه يخفى خطأً معينة قد تكون سوداء • ولكن لا محل لأن نفترض أنه يبيّت لك نيات سيئة ، والا لما عمد الى أسلوب يبلغ هذا المبلغ من الحماسة • ولقد تكلمت باسمك فرفضت ما عرضه من مال عرضاً قاطعاً باتاً بطبيعة الحال • مهما يكن من أمر ، فقد بدا لى انساناً غريب الأطوار ••• حتى لقد رأيت فيه أعراض جنون • ولكن ربما أكون مخطئاً • على أن موت مارتا بتروفنا لا بد أن يكون قد خلّف فى نفسه أثراً كبيراً •

– رحمة الله عليها ! لسوف أظل أصلى لها دائماً ، دائماً • ما الذى كان يمكن أن نصير اليه ، أنا ودونيا ، لولا هذه الثلاثة آلاف روبل ؟ رباه ! لقد هبطت علينا هذه الأموال من السماء ! آه يا روديا ! فى هذا الصباح كان كل ما بقى لنا من مال هو ثلاثة روبلات ، ولم يكن قد بقى علينا الا أن نرهن ساعة دونيا بأقصى سرعة ، حتى لا نطلب مالاً من هذا الرجل قبل أن يخطر بباله أن يعرضه علينا من تلقاء نفسه •

بدا على دونيا أن عرض سفيدريجايلوف قد أدهشها وأذهلها •
فبقيت واقفة ، ساكنةً مفكّرةً •

قالت فى دمدمة وهى ترتعش :

– ان فى ذهنه أمراً رهيباً !

ولاحظ راسكولنيكوف هذا الرعب الشديد • فقال لدونيا :

– أظن أنه سيتاح لى أن ألقاه أكثر من مرة •
وهتف رازوميخين قائلاً بلهجة قوية :

– لا تخافوا ، سوف نراقبه مراقبة دقيقة • لن يغيب عن بصرى •
لقد اذن لى روديا بذلك • قال لى هو نفسه منذ قليل : « عليك أن تحمى دونيا » • هل تأذنين لى بهذا أنت أيضاً يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

ابتسمت دونيا ، ومدّت اليه يدها ، ولكن وجهها حافظ على تعبيره عن الهم والقلق • وكانت بولشيريا ألكسندروفنا تنتظر اليها وجلة مرتاعة . غير أن الأمل فى الحصول على الثلاثة آلاف روبل كان قد هدأ روعها وطمان نفسها •

وبعد ربع ساعة كانوا قد انهمكوا فى محادثة حامية • وحتى راسكولنيكوف ، الذى لزم الصمت ، كان يصغى بانتباه • كان رازوميخين يتكلم فى اسهاب وحرارة كأنه يلقي خطاباً :

— لماذا ، لماذا تسافران ؟ ما عساكما تعملان فى مدينتكم الصغيرة الكريهة تلك ؟ أنتم هنا قد اجتمع شملكم ، وكل واحد منكم محتاج الى الآخر ، محتاج اليه اشد الاحتياج • ابقيا بعض الوقت على الاقل • أما أنا فاقبلونى صديقاً ، اقبلونى شريكاً • وانى لأؤكد لكم أننا سنشئ مشروعاً ممتازاً • اسمعوا : سأعرض عليكم مشروعى بأدق تفاصيله • لقد وافقتى هذه الفكرة منذ الصباح ، قبل أن يحدث شئ مما حدث الآن ••• اليكم الموضوع : ان لى عمأ (سأعرفكم به ، هو شيخ لطيف جداً محترم جداً) ••• وهذا العم يملك رأس مال قدره ألف روبل ، ويعيش من راتب تقاعدى يفي بحاجاته • وهو ما برح منذ سنتين يلح على أن أقترض منه هذا المبلغ بفائدة قدرها ستة فى المائة • اننى أدرك حيلته : فكل ما يريد هو أن يساعدنى • فى العام الماضى لم أكن محتاجاً الى هذا المبلغ ، أما فى السنة الحالية فاننى لا أنتظر الا وصول عمى لأطلبه منه • فاذا أضفتم ألف روبل من عندكم الى هذه الألف روبل كان معنا ما يكفينا لبدء المشروع ، فنكون شركاء • فما هو ذلك المشروع ؟ » •

هنا طفق رازوميخين يشرح مشروعه ، فأفاض فى الكلام على أن جميع أصحاب المكتبات ودور النشر عندنا أناس يجهلون مهنتهم ، وأن الوضع العام لهذا السبب مؤسف جداً ، وأكد أن المنشورات الجيدة تباع بسهولة ، وأنها ربما درت أرباحاً طائلة • كان رازوميخين يحلم أن يصبح ناشراً ، منذ أن بدأ يعمل لحساب غيره منذ سنتين بفضل معرفته لثلاث لغات أجنبية (رغم أنه أعلن لراسكولنيكوف قبل ستة أيام أنه « ضعيف » * فى الألمانية ، والحق أنه لم يزعم له ذلك الا ليشجعه على أن يقبل ترجمة نصف ما كان هو بصدد ترجمته ، وعلى أن يأخذ الثلاثة روبلات سلفه : لقد كذب ، ولم ينطل كذبه على راسكولنيكوف) •

وتابع رازوميخين كلامه قائلاً بحرارة وحماسة :

— فلماذا ، نعم لماذا ندع الفرصة تفلت منا مع اننا نملك لها أحسن وسيلة للنجاح ، أعنى رأس المال ؟ صحيح أنه سيكون علينا أن نعمل كثيراً ، ولكننا سوف نعمل ، تعملين أنت يا آفدوتيا رومانوفنا ويعمل روديون وأعمل أنا • ان نشر بعض الكتب يدرُّ أرباحاً طيبة ، وان ما سيعيننا وما سيكون مصدر قوتنا ، هو أننا سنحسن اختيار الكتب التي يجب أن تُترجم • سوف نترجم ، ونشر ، وتتابع في الوقت نفسه دراستنا • اننى أستطيع أن أكون الآن نافعاً ، لأننى حصلت خبرة واسعة • لقد سلخت سنتين كاملتين في العمل مع الناشرين ، فأصبحت أعرف شؤون النشر معرفة تامة • صدقونى اذا قلت لكم ان الأمر أيسر مما تظنون • فلماذا ، لماذا لا نتهمز الفرصة التي تعرض لنا ؟ اننى أعرف كتابين أو ثلاثة كتب لم أحدث عنها أحداً قط ، ويكفى أن أعرض فكرة نشرها حتى أجنى من ذلك مائة روبل عن كل كتاب ؛ بل هنالك كتاب آخر لا أبيع فكرة ترجمته بخمسمائة روبل ! ولا يمكن أن يتردد هؤلاء الناشر الحمقى أىّ تردد اذا أنا ذكرت لهم أسماء تلك الكتب ! أما الجانب المادى من المشروع ، أعنى الطباعة والورق والبيع وما الى ذلك ، فانكم تستطيعون أن تعتمدوا علىّ فيه كل الاعتماد • اننى أعرف هذه الأمور معرفة عميقة • وسوف نبدأ بداية متواضعة ، ولكننا سنوسّع المشروع فى المستقبل • ومهما يكن من أمر فسوف نجنى ما يسدُّ حاجاتنا ويفى بنفقاتنا •

كانت عينا دونيا تسطمان • قالت :

— ان ما تقوله يعجبني كثيراً يا دمترى بروكوفتشس !

وتدخلت بولشيريا ألكسندروفنا فقالت :

— أنا لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً بطبيعة الحال • قد يكون هذا كله

حسناً جداً ، الله أعلم ••• ولكن ••• من جهة أخرى ••• طبعاً •••

حين يشرع المرء فى شىء ما ، فانه يسير قليلاً فى المجهول !... على كل حال سيكون علينا حتماً ، اذا نحن قررنا المضى فى هذا المشروع ، أن نمكث هنا ولو بعض الوقت .

• ونظرت الى راسكولنيكوف .

سأله دونيا :

– ما رأيك أنت يا أخى ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

– رأى أن فكرته ممتازة • ولكن لا ينبغي لنا ، بعد ، أن نفكر فى انشاء دار نشر كبيرة • يجب علينا أن نكتفى بأن ننشر فى البداية خمسة أو ستة كتب مضمونة النجاح • أنا نفسى أعرف كتاباً سيباع حتماً • أما عن كفاءة رازوميخين ، فيجب أن تكونوا مطمئنين • لسوف يعرف كيف يكفل لمشروعه النجاح • على كل حال ، سيتسع وقتنا للكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى ...

صاح رازوميخين يقول :

– مرحى ! والآن اسمعوا : توجد هنا ، فى هذا المنزل نفسه ، شقة صغيرة يؤجرها أصحابها الذين أجرؤكم هذه الغرفة • انها شقة مستقلة لا تتصل بباقي الغرف • هى مفروشة • وليس أجرها باهظاً • فيها ثلاث حجرات • خذوها مؤقتاً • سأمضى أرهن ساعتك غداً ، فأجيئكم بالمال ، ثم يدبر كل شىء • الأمر الأساسى هو أن تستطيعا أن تعيشا كلتاكما هنا ، ومعكما روديا ... ولكن الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

سألت بولشيريا ألكسندروفنا ابنها مرتاعة :

– كيف يا روديا ؟ أنت ذاهب ؟

وصاح رازوميخين يسأله مستكراً :

- أفي مثل هذه اللحظة تذهب ؟

وكانت دونيا تنظر الى أخيها بدهشة تمازجها ريبة • كان راسكولنيكوف ممسكاً قبعته يتهيأ للخروج • وقال بلهجة غريبة :

- لكأنكم حقاً ستدفنوننى ، أو لكأنكم تودعوننى الى الأبد على

• الأقل

وكان يبتسم ، لكن ابتسامته لا تشبه الابتسام فى شيء • وأضاف

يقول :

- ومن يدرى على كل حال ؟ لعلنا نلتقى الآن آخر لقاء فعلاً !

كان راسكولنيكوف قد تصوّر هذه الفكرة بينه وبين نفسه ، فاذا

هى تخرج من فمه من تلقاء ذاتها على غير ارادة منه •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

- ماذا أصابك يا روديا ؟

وسألت دونيا أخاها بلهجة غريبة :

- الى أين أنت ذاهب يا روديا ؟

فأجاب متهرباً كأنه غير واثق بما يريد أن يقوله :

- نعم ، لا بد أن أذهب •••

غير أن قراراً وحشياً ضارياً كان يُقرأ فى وجهه الشاحب • وتابع

كلامه :

- أقصد ••• حين جئت الى هنا ••• كنت أريد أن أقول لك

يا أماء ، ولك أنت أيضاً يا دونيا ، ان من الأفضل لنا أن نفترق بعض

الوقت • أنا أحس بأننى مريض ، أنا لست هادىء البال ، سأرجع فى

المستقبل ، حين *** حين يصبح ذلك فى الامكان • لن أنساكم ، وسأظل
أحبكم *** دعونى ، دعونى وحيداً ! ذلك ما كنت قد قررته • وقد
قررته واعياً كل الوعى ، مدركاً كل الادراك ! *** أريد أن أكون
وحيداً مهما يحدث لى ، سواء أهلكت أم لم أهلك ! انسونى نسياناً
تاماً ، ذلكم أفضل *** لا تسألوا عنى ، لا تستطلعوا أخبارى • سوف
أجىء من تلقاء نفسى متى وجب أن أجىء *** أو سوف أدعوكم الى •
ولعل كل شىء سيُسبِعث بعثاً جديداً حينذاك • أما الآن فاعدلوا عن رؤيتى
وتنازلوا عن لقائى اذا كنتم تحبوننى ، والا شعرت نحوكم بكره وبنقض •
اننى أحس بهذا *** وداعاً !

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا :

— رباء ! يا رب !

كانت الأم والأخت مرتاعتين ارتياعاً لا سبيل الى مغالته • وكذلك
كان رازوميخين •

قالت الأم المسكينه تتوسل الى ابنها :

— روديا ، روديا ! فلنتصالح يا روديا ! فلنعد كما كنا !

استدار راسكولنيكوف ببطء ، واتجه نحو الباب ، فأدرسته دونيا ،
وهمست تقول له مشتعلة العينين استياءً واستنكاراً :

— أخى ، ماذا تفعل بأمننا !

فألقي عليها نظرة ثقيلة • وتمتم يقول بصوت خافت كأنه لا يعى
ما أراد أن يقول وعياً تاماً :

— ما هذا بشىء ، سأرجع ، سأرجع ***

• وخرج

هتفت دونيا تقول :

– انسان خالٍ من الاحساس ! أنانى فظيع !
 – بل هو مجنون ، لا خالٍ من الاحساس ! لقد فقد عقله ،
 كيف لا ترين هذا ؟ أنت الخالية من الاحساس ...
 كذلك دمدم رازوميخين هامساً فى أذن الفتاة بعاطفة قوية وهو
 يضغط يدها ضغطاً عنيفاً • ثم هتف يقول لبولشيريا ألكسندروفنا التى
 أصبحت أقرب الى الموت منها الى الحياة •
 – سأرجع حالاً !
 وأسرع يخرج من الغرفة •
 كان راسكولنيكوف ينتظره فى آخر الدهليز • وقال له :
 – كنت أعرف أنك ستهرع الىّ لتلحق بى • عد اليهما ، وابق
 معهما • وكن عندهما غداً ... وكن عندهما دائماً ... قد أرجع اذا
 استطعت ... وداعاً !
 وابتعد دون أن يمد اليه يده مصافحاً •
 غمغم رازوميخين يقول مرتبكاً أشد الارتباك ، حائراً أبلغ الحيرة :
 – ولكن الى أين تذهب ! ماذا بك ؟ ما الذى أصابك ؟
 فتوقف راسكولنيكوف مرة أخرى •
 – أقول لك مرة أخيرة الىّ الأبد : لا تسألنى عن شىء ، فليس
 عندى ما أجيبك به ... ولا تأت الىّ ! قد أرجع أنا الى هنا •• دعنى ••
 أما هما فلا تتركهما ... هل تفهم ؟
 كان الظلام يسود الدهليز • وكان الشابان قريبين من مصباح •
 لبنا قرابة دقيقة ينظر كل منهما فى صاحبه صامتاً • سوف يتذكر
 راسكولنيكوف هذه الدقيقة طوال حياته • ان النظرة الحارة الثابتة التى
 تصدر عن عيني راسكولنيكوف كان يبدو أنها تزداد عنفاً وقوة فى كل

لحظة ، وكانت تنفذ الى أعماق نفس رازوميخين ، وتغوص في قرارة وجدانه • ارتعش رازوميخين فجأة • كأن شيئاً غريباً قد مرّ بينهما ••• هي فكرة تتسلل خفية ، تندس خلسةً ، ولكنها فظيعة ، رهيبة ، جهنمية ، سرعان ما فهمها هذا وذاك !••• اصفرّ وجه رازوميخين اصفرار الموت ! قال راسكولنيكوف فجأة وقد تقلص وجهه وتقبض تقبضاً أليماً :

- هل فهمت الآن ؟

ثم أضاف :

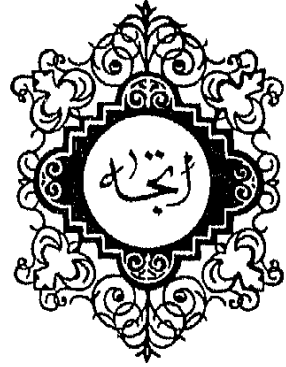
- ارجع الى هناك • عد اليهما •

قال ذلك ثم استدار بحركة عنيفة ، ومضى •••

لن أصف ما جرى في ذلك المساء عند بولشيريا ألكسندروفنا • لن أصف كيف رجع رازوميخين الى المرأتين ، كيف هدأ روعهما ، كيف أكّد لهما أن من الواجب أن يُترك روديا للراحة بعد المرض ، وكيف حلف لهما أن روديا سيرجع لا محالة ، وأنه سيأتي يزورهما ، بل وأنه سيجيء اليهما كل يوم ، وانما يجب أن لا يُزعج الآن لأنه في حالة عصبية شديدة ، وأنه ، هو رازوميخين ، سيمضى اليه ، ليسهر عليه ، ويعتنى به ، ويجيئه بطبيب حاذق ، بأحسن طبيب في المدينة ، بل بعدد من الأطباء يفحصونه في آن واحد •

الخلاصة أن رازوميخين قد أصبح للمرأتين ، منذ ذلك المساء ، ابناً وأخاً •

الفصل الرابع



راسكولنيكوف رأساً نحو المنزل الذي تسكن فيه
صونيا قرب القنائة • هو منزل من طابقين ، هو
مبنى قديم مطلى بلون أخضر •

استطاع أن يعثر على البواب وأن يحصل منه
على معلومات موجزة مقتضبة أتاحت له مع ذلك أن يصل الى مسكن الحياط
كابرنائوموف • لمح في ركن من الفناء مدخل سلّم ضيق مظلم ، فصعد
أخيراً الى الطابق الأول ، ودخل الرواق الذي يدور حوله • وفيما هو
يطوّف في الظلام متسائلاً أين عسى يكون باب كابرنائوموف ، فتّح على
حين فجأة بابٌ يقع على مسافة ثلاث خطوات منه ، فتشبّث بهذا الباب
على غير ارادة منه •

- مَنْ هنا ؟

كذلك سأل صوت امرأة مضطرب •

فأجاب راسكولنيكوف :

- هذا ••• هذا أنا ••• جئت لأراك !

واجتاز الباب الى حجرة المدخل الصغيرة • كان في الحجرة كرسي
خاسف ووضعت عليه شمعة صغيرة في طبق متعقف من نحاس •

هتفت صونيا تقول بصوت ضعيف :

- أهذا أنت ؟ رباه !

• ووقفت فى مكانها كالمسمره •

– من أين الدخول الى غرفتك ؟ من هنا ؟

ألقى راسكولنيكوف عليها هذا السؤال ، ثم مضى ينتقل الى الغرفة محاولاً أن لا ينظر الى صونيا •

وتبعته صونيا بالشمعة بعد دقيقة ، فوضعتها فى مكانها ، ووقفت أمامه بالغة من شدة القلق والرعب لهذه الزيارة التى لم تكن متوقعة ان الاضطراب الذى اجتاح نفسها واستولى عليها كان اضطراباً لا يمكن وصفه • واحمر وجهها الشاحب فجأة ، حتى لقد صعدت الى عينيها دموع • كانت تشعر بخجل وخزى وسعادة فى آن واحد •••

تحول راسكولنيكوف عنها بسرعة ، وجلس على كرسى موضوع قرب المائدة • لقد تسنى له بنظرة واحدة أن يفتش الغرفة كلها •

هى غرفة واسعة سعة كافية ، لكن سقفها واطىء جداً • انها الغرفة الوحيدة التى أجبرها كابرناؤموف • وهى تتصل بمسكنه بباب فى الجدار الأيسر • وعلى الجهة اليمنى ، يوجد فى الجدار باب آخر ، يظل مقفلاً بالمفتاح دائماً ، ويفضى الى شقة أخرى • ان الغرفة تشبه أن تكون سقيفة ، لها شكل مضلع رباعى غير منتظم ، فمنظرها لهذا السبب يؤذى البصر • ان حائطاً ذا نوافذ ثلاث تطل على القناة ، يقطعها قطعاً مورباً ، فاحدى الزوايا ، وهى زاوية حادة جداً ، تنور فى آخر الغرفة ، فلا يستطيع المرء أن يميز هنالك شيئاً فى ضوء الشمعة الضئيل الضعيف • أما الزاوية الأخرى فهى منفرجة انفرجاً كبيراً • ولا يكاد يوجد فى الغرفة أثاث • هناك سرير فى الركن الأيمن ، وهناك الى جانب السرير كرسى أقرب الى الباب • وعلى طول الحائط نفسه ، قبالة الباب المؤدى الى الشقة الثانية ، توجد مائدة من خشب أبيض ، يغطيها غطاء أزرق ، وبقربها كرسيان من قش • وفى حذاء الحائط المقابل ، على مقربة من

الزاوية الحادة ، تقبع منضدة صغيرة غير مدهونة ، وكأنها تائهة في الفضاء •
 ذلك كل ما تضمه الغرفة • أما ورق الجدران فأصفر مهترىء مدخن
 مسودٌ في الأركان • لا بد أن الغرفة تكون شديدة الرطوبة في الشتاء •
 ان الفقر يخطف البصر ، حتى ان السرير لم يكن له ستارة •

كانت صونيا تنظر صامتةً الى زائرها الذي كان يتفحص الغرفة
 بانتباه يبلغ من الشدة وبهدوء يبلغ من القوة أنها أخذت ترتعد رعباً آخر
 الأمر ، كأنها واقفة أمام قاض سيتوقف عليه مصيرها كله •
 قال لها دون أن يرفع عينيه :

– اننى أصل في ساعة متأخرة جداً ••• أليست هي الحادية عشرة ؟
 فدمدمت صونيا تقول :

– نعم •

ثم أسرع تضيف ، كأن ذلك خروج لها من المازق :
 – نعم نعم ، هي الحادية عشرة ••• منذ قليل دقت ساعة أصحاب
 البيت • هي الحادية عشرة فعلاً •••

قال راسكولنيكوف متجههم الوجه :

– أجيء اليك الآن آخر مرة • وقد لا أراك بعد اليوم قط •
 قال لها ذلك مع أن هذه هي المرة الأولى التي يزورها فيها •
 سألته :

– أنت مسافر ؟

– لا أدري ••• سيتقرر كل شيء غداً •

– اذن لن تذهب غداً الى عند كاترين ايغانوفنا ؟

وكان صوت صونيا يختلج •

– لا أدري ••• كل شيء رهن بالغد ••• بصباح الغد • ثم ان
المسألة ليست هذه : لقد جئت لأقول لك ان •••

ورفع اليها نظرة حاملة ، فأدرك فجأة أنه جالس ، على حين أنها
ما تزال واقفة أمامه •

قال لها بصوت تبدل على حين فجأة ، فأصبح فيه رقة وعذوبة
ومودة :

– لماذا تبقين واقفة ؟

فجلست • وظل يتأملها قرابة دقيقة ، ظل يتأملها بحجة ، بعاطفة ،
بما يشبه أن يكون شفقة • ثم قال لها :

– ما أشد نحولك ! ما هذه اليد ؟ انها لتكاد تكون من هزالها
شفافة ! أصابعك أصابع ميت •••

فأجابته قائلة :

– هكذا كنت دائماً •

– حتى حين كنت تقيمين مع أهلك ؟

– نعم •

– نعم نعم ••• هذا طبيعي •••

كذلك قال بلهجة متقطعة • ان تعبير وجهه ونبرة صوته قد تبدلا
من جديد فجأة • ونظر مرة أخرى حواليه •

– أمن أسرة كابرناؤموف استأجرت هذا ؟

– نعم •

– هل يقطنون وراء هذا الباب ؟

– نعم ••• لهم غرفة كهذه •

- هل يعيشون جميعاً في غرفة واحدة ؟
- نعم ، يعيشون جميعاً في غرفة واحدة •
- قال راسكولنيكوف متجهماً الهيئة :
- لو كنت أعيش في مثل هذه الغرفة لشعرت في الليل بخوف •
- فأجابت صونيا ، وكأنها لم تثب الى رشدتها بعد ، ولا جمعت شتات أفكارها :
- أصحاب البيت لطاف جداً • وجميع الأناث ، جميع الأناث لهم هم • انهم طيبون جداً ، وكثيراً ما يأتي أولادهم الى عندي •
- هم ثناءون ، أليس كذلك ؟
- نعم *** هو يثنأىء ويعرج • وامرأته أيضاً • بل قل انها لا تثأىء ، ولكن كأن الكلمات لا تريد أن تخرج من فمها • انها طيبة جداً • كان هو قناً • ولهما أولاد • الكبير وحده يثنأىء •• أما الآخرون فهم عليلون فحسب ••• لكنهم لا يثنأون •
- ثم أضافت تسأله مدهوشة بعض الدهشة :
- كيف عرفت أنت هذا ؟
- أبوك قص على كل شيء • قال لي كل شيء عنك ••• وحكى لي أيضاً كيف خرجت في الساعة السادسة من الصباح لتعودى بعد الساعة الثامنة ، وكيف ركعت كاترين ايغانوفنا أمام سريرك •
- اضطربت صونيا • ثم دمدمت تقول مترددة :
- رأيتة اليوم رؤية واضحة مميّزة •
- من ؟
- أبى • كنت سائرة في الشارع ، غير بعيد عن هنا ، عند الناصية ،

في نحو الساعة العاشرة ، فترأى لى أنه يسير أمامى • لكأنه هو حقاً •
حتى لقد خطر ببالي أن أسرع الى كاترين ايفانوفنا •••
- كنت تتجولين ؟

فقلت صونيا بصوت متقطع ، وقد اضطربت من جديد ، وخفضت
عينها :

- نعم •

- هل كانت كاترين ايفانوفنا تسيء معاملتك حتى لتكاد تضربك
حين كنت تعيشين معهم ؟

صاحت صونيا تقول وهي تنظر الى راسكولنيكوف نظرة فيها مايشبه
الذعر :

- لا ، لا ، ما هذا الذى تقوله ؟

- أأنت تحيينها اذن ؟

- هي ؟ أظن •••

كذلك قالت صونيا بلهجة شاكية ، وصوت بطيء ، ضامةً يديها
بحركة تنم على الألم • وواصلت كلامها تقول :

- ليتك ••• ليتك تعرفها ! انها كالطفلة تماماً • عقلها مضطرب
اضطراباً تاماً ••• لقد قاست في حياتها آلاماً كثيرة ••• ومع ذلك ،
ما أذكاهما ! ما أكرمها ! انها طيبة جداً ! أنت لا تعرف ، أنت لا تستطيع
أن تعرف ! آه !•••

قالت صونيا هذه الكلمات بحزن شديد • كان الألم يهصر قلبها ،
فكانت تلوى يديها من فرط الكمد ، واحمرّت خداهما من جديد ، حتى
صارا بلون الأرجوان • كان العذاب يُقرأ في عينيها • واضح أن وترأ
حساساً جداً قد مُسّ الآن في نفسها ، وأنها ترغب رغبة قوية في أن

تعبّر عن شيء ، فى أن تتكلم ، فى أن تدافع عن كاترين ايفانوفنا • ان نوعاً من شفقة حارقة لا ينطفىء أوارها يرتسم الآن على قسّمات وجهها •
وتابعت كلامها تقول :

– تضربنى ؟ هى تضربنى ؟ ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ وهبها ضربتتى ! أى ضير فى ذلك ؟ انك لا تعرف شيئاً ، لا تعرف شيئاً البتة ! هذه انسانة تعيسة شقية بائسة ••• وهى مريضة ••• انها تشد العدالة ••• انها تسعى الى العدالة ••• هى طاهرة نقية • انها من شدة اقتناعها بأن العدالة لا بد أن توجد فى كل شيء ، تطلب العدالة فى كل شيء • قد يعذبونها تعذيباً شديداً ثم هى لا تقترف أى ظلم يجافى العدالة • انها لا تفهم أن لا يسود العدل حياة البشر ، وهى لذلك تفضّب كما يغضب طفل ، كما يغضب طفل ! انها امرأة عادلة ، عادلة •••

– وما الذى ستصيرين اليه ؟

كذلك سألها راسكولنيكوف ، فألقت عليه نظرة مستفهمة • قال لها :

– سيقون على ذراعيك • صحيح أنك كنت قبل الآن تحمّلين كل شيء على ذراعيك ، وأن أباك كان يجيء اليك أنت ليطلب مالا « يذهب به سكره » • ولكن ما الذى سيحدث الآن ؟

قالت صونيا بحزن :

– لا أدرى •

– هل يقون هناك ؟

– لا أدرى • ان أجر المسكن لم يُدفع ، ويظهر أن صاحبة البيت قد أرادت اليوم أن تطردهم ؛ فأعلنت كاترين ايفانوفنا أنها لن تمكث دقيقة واحدة •

— لماذا تتعاضم هذا التعاضم ؟ أعليك تعتمد ؟

— لا تتكلم هكذا ، لا ...

ثم استأنفت تقول وقد اضطربت من جديد ، أو قل اهاجت من جديد ، كما يفعل طائر من طيور الكنارى أو غيرها من الطيور :

— نحن نشترك فى كل شىء ، أنا وهى ...

ثم أضافت تسأله وقد ازدادت حماسة وحرارة :

— ماذا تريد لها أن تكون ؟ آه ... ما أكثر ما ذرفت من دموع ،

ما أكثر ما ذرفت من دموع فى هذا اليوم ! ان عقلها مضطرب ، ألم تلاحظ أنت هذا اذن ؟ نعم ، عقلها مضطرب ، عقلها مختل : تارة تقلق كطفلة صغيرة من أجل أن يكون كل شىء على ما يرام غداً ، من أجل أن يكون على المائدة مقبّلات ... ومن أجل أن تضم المأدبة كل ما ينبغى أن تضمه من أطعمة ؛ وتارة تلوى يديها كمدأ وحسرة ، وتبصق دماً ، وتذرف دموعاً ، وتدق رأسها بالحائط من فرط اليأس . ثم ما تلبث أن تتعزى من جديد ، واضعة أملها فيك ، قائلة أنك الآن سندها ، وانها ستقترض مالاً من أحد الناس ، لتعود بى الى مسقط رأسنا ، فنشئ هناك مدرسة لبنات الأسر النبيلة أكون أنا مفتشة فيها ، ونبدأ عندئذ حياة جديدة كل الجدة . وهى فى هذه الحالة تأخذ تقبلنى وتضمنى الى صدرها وتواسينى وتعزىنى . آه ما أقوى ايمانها باحلامها هذه ، ما أقوى ايمانها بهذه الأحلام ! هل يمكننا أن نعارضها ؟ مستحيل ! ... اليوم قضت النهار كله فى مسح الأرض وغسل الملابس وترقيع الثياب . ورغم ضعفها الشديد سعدت الى غرفتها بطشت ، فما ان وصلت حتى كانت أنفاسها قد تقطعت ، وحتى خارت قواها فلم تملك الا أن تتهاوى على سريرها مهدودة . وفى هذا الصباح ذهبنا كلتانا الى السوق من أجل أن نشتري أحذية لبوليتشكا ولينيا ، لأن أحذيتيها قد تمزقت تمزقاً تاماً ،

ولكن لم يكفنا ما كان معنا من مال ، رغم جميع حساباتنا ، لأنها اختارت أحذية جميلة لطيفة ، فهي صاحبة ذوق كما تعلم ، فما كان منها الا أن أجهشت تبكى ، هنالك ، فى وسط الدكان ، أمام الباعة • لقد بكت لأن ما معنا من مال لم يكن كافياً • حقاً كان منظرها يثير أعماق الألم •••

قال راسكولنيكوف وهو يبتسم ابتسامة مرة :

— يفهم المرء بعد هذا أن تعيشى هذه الحياة التى تعيشينها •••

فهمت صونيا تقول :

— ولكن هى ، هى ، ألا ترئى لحالها ؟ ألا تشفق عليها ؟ أنا أعلم أنك وهبت لها آخر قرش تملكه ، مع أنك لم تكن قد رأيت شيئاً بعد • فماذا لو كنت قد رأيت كل شىء ؟ آه ! يارب ! كم من مرة ، كم من مرة أبكيتها • ألا اننى لأشعر بالحزى والعار ! لقد أبكيتها حتى قبل موت أبى بأسبوع ! نعم ، كنت قاسية ، قاسية ! كم من مرة تصرفت هذا التصرف ! آه ••• ما أشد ما أشعر به اليوم من خزى وعار حين أتذكر هذا !

كانت صونيا تلوى يديها حسرةً وهى تتكلم ، من فرط ما كانت تحس به من ألم •

قال لها راسكولنيكوف :

— أنت القاسية اذن ؟

— نعم أنا القاسية ، أنا •••

وعادت تتابع كلامها وهى تبكى ، فقالت :

— جئت أزورهم فى ذلك اليوم ، فقال لى المرحوم : « اقرئى لى

يا صونيا ، فاننى أحس صداعاً فى رأسى ••• اقرئى لى هذا الكتاب » • هو كتاب أعاره اياه آندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف الذى يسكن فى

هذا المنزل ويقتنى كتباً عجيبة ! قلت له : « آن لى أن أذهب » ، ولم أشأ أن أقرأ له ، لأننى قد أتيت الى عندهم خاصة من أجل أن أرى كاترين ايفانوفنا ياقات صغيرة : كانت اليزابت السمسارة قد جاءتنى بياقات وأكمام جميلة جداً ، جديدة كل الجدة ، تزينها رسوم حلوة ، مع أنها بخسة الثمن ، وقد أعجبت كاترين ايفانوفنا بها كثيراً ، فجربتها على نفسها فوجدتها جميلة ، جميلة جداً . فقالت لى : « صونيا ، اهديها لى » ، أرجوك » . نعم هذا ما قالت له لى : « أرجوك » ، لأنها هامت بها هياماً جنونياً . ولكن ما عساها تصنع بها ؟ ما حاجتها اليها ؟ المهم أنها أخذت بها ، هكذا ، لأنها تذكّرُها بالعهد الجميلة الماضية ! ان كاترين ايفانوفنا تنظر فى المرأة ، فتعجب بنفسها ، وليس عندها ثوب تلبسه ، ليس عندها ثوب واحد ، ليس عندها شيء البتة ، منذ سنين عدة ! وهى لا يمكن أن تطلب من أحد شيئاً فى يوم من الأيام ، لأنها شديدة الالباء والكبرياء ، وتؤثر على ذلك أن تعطى ما بقى عندها . ومع ذلك طلبت منى أن أعطيها تلك الياقات الصغيرة ، لأنها وجدتها جميلة جداً . ولم أشأ أنا أن أحرم نفسى منها ، فقلت لها : « فيم تنفعك هذه الياقات يا كاترين ايفانوفنا ؟ » . نعم ، ذلك ما قلته لها . آه . . . ما كان ينبغى أن أقول هذا الكلام بحال من الأحوال ! ألقى علىَّ عندئذ نظرة ينفطر لها القلب . . . عبّر وجهها عندئذ عن حزن فظيع . . . لأننى رفضت أن أعطيها الياقات . . . وشعرت أنا بألم شديد من رؤيتها على تلك الحال . . . ليست الياقات هى التى أحزنتها ، وانما أحزنها رفضى أنا . . . لقد رأيت ذلك واضحاً كل الوضوح . آه . . . ليتنى أستطيع أن أرجع الى وراء ، وأن أستردّ كل ما أفلت من لسانى ! آه . . . اننى . . . ولكن ماذا ؟ لا بد أن هذا كله لا يعينك فى شيء !

سألها راسكولنيكوف :

- أأنت عرفت اليزابت السمسارة ؟

فأجابته مدهوشةً بعض الدهشة :

- نعم *** هل عرفتها أنت أيضاً ؟

قال راسكولنيكوف بعد صمت ، دون أن يجيب عن سؤال دونيا :

- كاترين ايفانوفنا فى آخر درجات مرض السل ، وستموت

قريباً ***

- لا ، لا ، لا تقل هذا الكلام *

قالت صونيا ذلك ، وتناولت يديه على غير شعور منها ، كأنها تتوسل

اليه أن لا يحدث هذا الأمر *

قال راسكولنيكوف :

- ولكن الأفضل أن تموت !

فأخذت صونيا تردّد مروّعةً تائهة العقل زائغة النظرات :

- لا ، ليس هذا أفضل ، ليس هذا أفضل ***

- والأولاد ، ما أنت صانعة بهم عندئذ ، ما دمت لا تستطيعين أن

تأخذيهن الى بيتك وأن تضميهن اليك ؟ ***

- آه *** لا أدرى ***

بذلك هتفت صونيا يائسة وهى تمسك رأسها بيديها * كان واضحاً

أن هذه الفكرة قد وافتها غير مرة ، وأن راسكولنيكوف لم يزد على أن

أيقظها *

وعاد الفتى يلجج فى السؤال بغير رحمة فيقول :

- وماذا اذا مرضت أنت فنقلت الى المستشفى قبل موت كاترين

ايفانوفنا ؟ ما الذى سيحدث عندئذ ؟

— آه ••• ما هذا الذى تقوله؟ ما هذا الذى تقوله؟ ذلك مستحيل.

وتقبَّض وجه صونيا على رعب فظيع وذعر رهيب •

وتابع راسكولنيكوف القاء أسئلته وهو يتسهم ابتسامة لا رحمة فيها:

— مستحيل؟ كيف؟ لا شيء يكفل لك أن لا تمرضى • فما الذى

سيحدث لهم حين تمرضين؟ سيصيرون فى الشارع، وستمضى هى تسعل

وتستجدى وتدق رأسها بالحائط كما تفعل اليوم بينما الأولاد يبكون •

ثم تتهاوى، فننقل الى قسم الشرطة، ثم الى المستشفى، فتموت • أما

الأولاد •••

— لا، لا، لن يأذن الله بهذا •

ذلك ما أفلت من لسان صونيا بعد لحظة بصوت مختنق • كانت قد

استمعت لكلامه صامتةً تنظر اليه مروعةً، ضامةً يديها فى ضراعة

خرساء كأن كل شيء متوقف عليه •

نهض راسكولنيكوف وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً • وانقضت

دقيقة • كانت صونيا واقفةً، متهدلة الذراعين، خافضة الرأس، تعاني

ألماً شديداً وعذاباً رهيباً •

سألها وهو يتوقف أمامها فجأةً:

— وما من وسيلة لادخار أى مال للأيام السود، أليس كذلك؟

فدمدمت تجيبه:

— طبعاً ••• لا •••

ثم أضاف ساخراً:

— ولكن هل حاولت؟

— حاولت •

٥٥

- ولم تفلح المحاولة ؟ طبعاً لم تفلح ! لا داعى الى السؤال •••

وعاد يسير فى الغرفة • وانقضت دقيقة أخرى • قال :

- وسيكون مصير بوليتشكا كمصيرك حتماً •

فهمت صوتيا تقول بصوت قوى ، طائش ، كأنها طُغنت بخنجر :

- لا ، لا ، هذا مستحيل • ان الله ، ان الله لن يسمح بمثل هذا

السقوط !

- دعيك من هذا الكلام ! انه يسمح بمثله وأكثر •

فرددت صوتيا تقول خارجةً عن طورها :

- لا ، لا ، ان الله سيحميها !

أجاب راسكولنيكوف بفرح خييث :

- ولكن قد لا يكون هناك اله !

ثم ضحك ونظر اليها •

عندئذ تشوه وجه صوتيا تشوهاً فظيماً ، وسرت فى قسماتها رعدة من تشنج • وألقت على راسكولنيكوف نظرة زاخرة بعتب قوى ولوم شديد ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكن لم توافها كلمة واحدة ؛ وفجأة انفجرت تشنج نشيجاً مرأ ، نشيجاً مرأ جداً ، وهى تغطى وجهها بيديها •

قال راسكولنيكوف بعد صمت :

- تقولين ان كاترين ايفانوفنا قد فقدت عقلها ، ولكننى أرى أنك

أنت نفسك قد فقدت عقلك •

وانقضت خمس دقائق • كان راسكولنيكوف يسير فى الغرفة طولاً

وعرضاً ، دون أن يتكلم ، ودون أن ينظر اليها • واقترب منها أخيراً •

كانت عيناه تسطعان • أمسك كتفيها بيديه ، وأنعم النظر الى وجهها الغارق فى الدموع • كانت نظرتة جافة ، ملتبهة ، حادة • وكانت شفتاه تختلجان اختلاجاً قوياً جداً • وانحنى فجأةً بحركة سريعة ، فسجد أمامها ، وقبّل قدميها • تراجعت صونيا مروّعة كأنها ترى مجنوناً • والحق أن هيئته كانت هيئة مجنون •

تمتمت تقول شاحبة الوجه ، منقبضة الصدر انقباضاً أليماً :

— ماذا تفعل ؟ ما هذا الذى تفعله ؟ أمامى أنا تسجد ؟

فسرعان ما نهض ، وقال لها بلهجة وحشية :

— أنا لا أسجد أمامك أنت •••

ثم ابتعد نحو النافذة • وأضاف يقول بعد لحظة وهو يعود الى قربها :

— اسمعى : لقد قلت منذ قليل لرجل كان يهينك انه لا يساوى

طرف اصبعك ••• واننى قد شرّقت أختى حين أتحت لها اليوم أن تجلس الى جانبك •

هتفت صونيا تقول مرتاعة :

— آه ••• ما هذا الذى قلته ؟ هل قلته أمامها ؟ جلوسها الى جانبي

يشرّفها ؟ ولكننى ••• ولكننى أعيش فى العار ! آه ••• ما هذا الذى قلته ؟ •

— أنا لم أقل ذلك مفكراً فى العار والخطيئة ، وانما قلته مفكراً

فى عذابك العظيم •••

ثم أضاف يقول فى حماسة :

— أما أنك خاطئة فهذا صحيح • وخطيئتك الكبرى هى أنك

ضحيت بنفسك وأهلكت نفسك « سدى » • نعم ، انه لأمر فظيع ، انه
لأمر فظيع أن تعيش كما تعيشين ، فى الوحل الذى تكرهين ، عالمة أنت
نفسك أنك بهذا لا تساعدين أحداً ، ولا تستطيعين أن تنقذى أحداً
(يكفى المرء أن يفتح عينيه) •

ثم قال خارجاً عن طوره :

- ولكن قولى لى أخيراً : كيف يمكن أن يجتمع فى نفسك مثل هذا
العار ومثل هذه الحطة مع أنبل العواطف وأقدس المشاعر ؟ ألا انه ليكون
أقرب الى العدل كثيراً ، وأقرب الى العقل كثيراً ، أن تلقى بنفسك فى الماء
منكسة الرأس ، وأن تنتهى من هذا الوضع مرة واحدة الى الأبد !•••
سألته صونيا بصوت ضعيف ، وهى ترفع نحوه نظرتها الأليمة :

- وما عسى يصيرون اليه ، هم ، اذا أنا فعلت ذلك ؟

غير أن هذه الفكرة التى أوحى اليها راسكولنيكوف لم يبد أنها
أدهشتها • وألقى عليها راسكولنيكوف نظرة خاصة •

لقد قرأ راسكولنيكوف فى نظرة الفتاة كل شىء • ان تلك الفكرة
كانت تراودها اذن • لعلها من يأسها قد فكرت تفكيراً جاداً ، مرات
كثيرة ، فى امكان وضع حد لحياتها آخر الأمر ، وبلغت من جد التفكير
فى هذا أن النصيحة التى أسداها اليها راسكولنيكوف لم تثر فى نفسها
أية دهشة تقريباً • حتى أنها لم تلاحظ قسوة الكلمات التى قالها لها (لقد
فاتها طبعاً معناها الحقيقى ، ولم تدرك الزاوية الخاصة التى كان راسكولنيكوف
ينظر منها الى موضع العار ، وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك) • ولكن
راسكولنيكوف أدرك ادراكاً تاماً مدى ما كانت تقاسيه من عذاب بسبب
وضعها الشائن ، وأدرك ادراكاً تاماً أنها تعاني هذا العذاب منذ مدة
طويلة •

وتساءل راسكولنيكوف : « ما الذى أمكن أن يمنعها حتى الآن من انفاذ عزمها على التخلص من حياتها ؟ » • وعندئذ فقط انما أدرك حقاً قيمة هؤلاء اليتامى فى نظر صونيا ، وقيمة هذه المسكينة كاترين ايفانوفنا المصدورة ، شبه المجنونة ، التى تدق رأسها بالحيطان •

ولكن هذا لم يمنعه أن يدرك ادراكاً واضحاً كذلك أن صونيا ، بحكم طبعها وبحكم تربيتها ، لا يمكنها مع ذلك أن تستمر على أن تحيا هذه الحياة ؟ حتى انه ليحيره ويدهشه أن يرى صونيا تبقى فى هذا الوضع طوال هذه المدة دون أن تُجَنَّ هى أيضاً بعد أن لم تسعفها شجاعتها فتتحر غرقاً فى الماء • صحيح أنه كان يفهم أن وضع صونيا ليس الا حادثة طارئة فى المجتمع ، حادثة طارئة لكنها ليست وحيدة واأسفاه ! ليست وحيدة البتة ، ولا هى استثنائية ! غير أن كون هذه الحادثة طارئة ، بالاضافة الى ما بقى للفتاة من تربيتها الماضية ، وبالاضافة الى ماضيها كله ، كان خليقاً بأن يقتلها منذ الخطوات الأولى التى قطعتها على هذا الطريق الدنىء الذى سلكته • فما الذى كان يبقياها على هذا الطريق اذن ؟ ليس هو حب الدعارة قطعاً ، فان هذا العار كله (ذلك أمر يراه المرء واضحاً) لم يزد على أن مسّها مساً خفيفاً بحكم طبيعة الأشياء ، أما قلبها فلم تتسلل اليه قطرة واحدة من رذيلة • ان راسكولنيكوف يرى هذا كله : لقد كانت صونيا واقفةً أمامه على حقيقتها •••

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هناك ثلاثة طرق تفتح أمامها : أن تلقى بنفسها فى القناة ، أن تصير الى ملجأ للمجانين ••• أن تندفع فى الدعارة التى تخبل العقل وتجمد القلب • » • ان هذه الفكرة الأخيرة هى التى ينفر منها راسكولنيكوف أكثر مما ينفر من الفكرتين الأوليين ، ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح شكاكاً رياباً منذ الآن ، وهو الى ذلك شاب ، وهو الى ذلك ذو فكر مجرد ، والفكر المجرد

قاسٍ ، لذلك لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن الاعتقاد بأن هذا الافتراض الثالث ، أعنى افتراض الدعارة هو أقرب الافتراضات الى الصدق ...

ولم يلبث أن هتف يتساءل بينه وبين نفسه : « ولكن هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ هل يمكن أن تغوص نفس ما تزال طاهرة نقية ، هل يمكن أن تغوص في هذا المستنقع واعيةً شاعرة ؟ هل بدأ هذا الغوص في المستنقع القذر فعلاً ؟ هل من الجائز أنها لم تستطع أن تحتمل حياة كهذه الحياة حتى الآن الا لأن الرذيلة لا تبدو لها كريهة حقيرة الى هذا الحد ؟ » فلما وصل راسكولنيكوف من تساؤله الى هنا ، هتف يقول كما فعلت صونيا منذ قليل : « لا ، لا ، ان الشيء الذي صدّها عن اغراق نفسها في القناة حتى الآن انما هو فكرة « الخطيئة » ، وكذلك « هم » ... ولئن لم تجن حتى الآن ... ولكن من ذا الذي يزعم أنها لم تجن حتى الآن ؟ أصبح أنها ما تزال تملك عقلها ؟ هل يمكن أن يتكلم أحد كما تتكلم هي ، وأن تفكر كما تفكر ، اذا كان ما يزال سليم العقل ؟ هل يستطيع المرء أن يبقى أمام الهوة على هذا النحو ، أن يبقى هذا البقاء أمام المستنقع القذر الذي أخذ يغوص فيه ، وأن يحرك يده في الوقت نفسه بإشارة تتم على العجز ، وأن يسدّ أذنيه كلما حدّث عن الخطر ؟ أليس معجزةً من المعجزات أنها تنتظر ؟ نعم ، لا شك في ذلك . ولكن أليست هذه علامات جنون ؟ » •

وتلبث راسكولنيكوف على هذه الفكرة في اصرار وعناد • ان حلاً كهذا يرضيه أكثر من أي حل آخر • وأخذ يتفحص الفتاة بانتباه شديد •

سألها :

– اذن أنت تصلين لله يا صونيا ؟

لم تجب صونيا ، وكان واقفاً أمامها ينتظر جوابها •

ودمدت صونيا تقول مسرعةً بقوة عنيفة ، وهى تلقى عليه نظرة
مختلصة ساطعة :

– ما الذى يمكن أن أصير اليه ان لم أؤمن بالله ؟

وتناولت يده ، وضغطتها بيدها ضغطاً قوياً •

قال يحدث نفسه : « نعم ، تلك هى الحقيقة » •

وسألها ليجبرها على الكلام :

– وماذا يفعل الله من أجلك ؟

فلبث صونيا صامتةً مدةً طويلةً ، كأنها لا تستطيع أن تجيب •
وكان الانفعال يهز صدرها الضعيف • وهتفت تقول له أخيراً وهى تنظر
اليه بقسوة وغضب :

– اسكت ، لا تسألنى عن شىء بعد الآن • أنت لا تستحق أن •••

فقال راسكولنيكوف يحدث نفسه مردداً فى عناد واصرار : « تلك
هى الحقيقة ، تلك هى الحقيقة • » •

ودمدت صونيا تقول بسرعة وهى تخفض عينيها من جديد :

– الله يفعل كل شىء !

وبعاطفة جديدة كل الجدة ، بعاطفة غريبة تشبه أن تكون مرضاً ،
كان راسكولنيكوف يتفرس فى هذا الوجه الصغير ، النحيل ، الشاحب ،
غير المتسق ، المتكسر الزوايا ، ويتفرس فى هاتين العينين الزرقاوين
الرفيقتين العذبتين الحلوتين اللتين تستطيعان مع ذلك أن تسطعا بلهيب قوى



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وأن تعبرا عن عاطفة تبلغ هذا المبلغ كله من القسوة والقوة والعنف ؛
 ويتفرس في هذا الجسم الضاوي الهزيل الذي ما يزال يرتجف استياءً
 وغضباً ••• فكان كل شيء يبدو له غريباً مزيداً من الغرابة شيئاً بعد
 شيء ، حتى ليكاد يكون مستحيلًا • وكان يردد قائلاً لنفسه : « هذه
 مخلوقة ضعيفة العقل ، هذه مخلوقة ضعيفة العقل • • »

وكان على المنضدة كتاب لاحظته راسكولنيكوف عدة مرات حين
 مروره أمام المنضدة • فيها هو ذا يتناول الكتاب الآن وينظر فيه • انه
 الانجيل باللغة الروسية : كتاب مجلّد ، عتيق مهترى •

صاح يسأل صونيا من آخر الغرفة :

- من أين هذا الكتاب ؟

وكان ما يزال واقفاً في مكانه نفسه على بعد ثلاث خطوات من

المائدة •

فأجابته صونيا على مضض دون أن تنظر اليه :

- جىء الىّ به •

- من جءك به ؟ •

- اليزابت • كنت قد طلبته منها •

قال راسكولنيكوف بينه وبين نفسه : « اليزابت ! ما أغرب هذا ! »
 ان كل شيء هنا يبدو له غريباً عجيباً أكثر فأكثر ، من لحظة الى أخرى •
 وقرّب الكتاب من الشمعة وأخذ يتصفحه •

وسألها فجأة :

- أين يجىء ذكر لعازر ؟

فظلت صونيا مطرقةً الى الأرض بعناد ولم تجبه • وكانت واقفة غير بعيد من المائدة وقفةً مواربة •

- أين الحديث عن قيام لعازر؟ * أرنيه يا صونيا •

فألقت نظرة مواربة • ودمدمت تقول له بقسوة دون أن تقترب منه :

- لست تبحث عنه في موضعه • انه في الانجيل الرابع •

قال لها :

- ابحثي عنه واقريه لى يا صونيا •

ثم جلس ، ووضع كوعيه على المائدة ، وأسند رأسه الى يده ، لافتاً عينيه ، متجههم الهيئة ، متهيئاً للاصغاء ، قائلاً لنفسه : « بعد ثلاثة أسابيع ، سأكون الفرسخ السابع * ، فيما أظن ، اللهم الا أن يحدث لى ما هو شر من ذلك » •

دنت صونيا من المائدة مترددة ، بعد أن استمعت لطلب راسكولنيكوف فى شك وريب • وتناولت الكتاب مع ذلك •

سألته وهى تنظر اليه من فوق المائدة بطرف عينها :

- ألم تقرأه اذن من قبل ؟

وكان صوتها يزداد قسوةً شيئاً بعد شيء • أجابها راسكولنيكوف :

- قرأته منذ زمن طويل ••• فى أيام الدراسة •

- وفى الكنيسة ، ألم تسمعه ؟

- لا أذهب الى الكنيسة • هل تذهين أنت الى الكنيسة أحياناً

كثيرة ؟

تمتمت صونيا تقول :

– ل... لا

• فابتسم راسكولنيكوف

– فهمت • وأغلب الظن أنك لن تحضري دفن أبيك في الغد
أيضاً، أليس كذلك؟

– بل سأحضر... لقد ذهبت الى الكنيسة في الأسبوع الماضي
أيضاً • وأقمت قداساً •

– لمن؟

– لاليزابت • لقد قتلت بساطور •

توترت أعصاب راسكولنيكوف مزيداً من التوتر • وأخذ يشعر
بدوار •

– هل كنت صديقة لاليزابت؟

– نعم... كانت اليزابت امرأة صالحة... وكانت تجيء الى...
نادراً... لم يكن في وسعها أن تزورنى أكثر من ذلك • وكنا نقرأ
معاً... وكنا نتحدث... ستري الله *... •

ترجعت هاتان الكلمتان المستمدتان من الكتب ترجعاً غريباً في نفس
راسكولنيكوف • وقال لنفسه: « وهذه معلومات جديدة! أحاديث سرية
بين اليزابت وصونيا... بين مخلوقتين كلتاها ضعيفة العقل! هنا يصبح
المرء نفسه ضعيف العقل... بالعدوى!... » •

وهتف يقول لها بالحاح وحنق:

– اقرئى!

ولكن صونيا ما تزال مترددة • كان قلبها يخفق خفقاناً شديداً •

لكأنها لا تجرؤ أن تقرأ له • وكان هو ينظر إليها معذباً ، قائلاً لنفسه :
« يا للمجنونة المسكينة ! » •

تمتتم تقول له بصوت خافت ، كأنها مقطوعة الأنفاس :

– ما حاجتك الى ذلك وأنت لا تؤمن ؟

فأجابها يقول مصراً :

– بل اقرئى ! أريد أن تقرئى ! أما كنت تقرئين لاليزابت ؟•••

فتحت صونيا الكتاب ، ووجدت العبارات المطلوبة • كانت يداها
ترتجفان ، وكان صوتها مختنقاً • حاولت مرتين أن تبدأ القراءة ، ولكنها
لم تفلح في نطق الكلمة الأولى • ثم قرأت أخيراً :

« وكان انسان مريضاً ، وهو لعازر ، من بيت عنيا ••• » * •

ولكن صوتها اختلاج وتحطم منذ الكلمة الثالثة ، كما يتحطم وتر

مشدود • لقد انقطع تنفسها • وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً جداً •

أدرك راسكولنيكوف بعض الادراك لماذا لم تعزم صونيا أمرها على
أن تقرأ له ، فكان كلما ازداد ادراكاً لهذا ، ازداد الحاحاً في طلب القراءة
بمحافظة وغضب • كان يرى رؤية واضحة لماذا يشق عليها ويحز في نفسها
أن تكشف عما يخصها « هي » ، وأن تبوح به • أدرك أن هذه العواطف
هي « سرها » فعلاً ، ربما منذ مراهقتها ، منذ الوقت الذي كانت تعيش
فيه مع أسرتها بين أب شقى وزوجة أب جعلها الحزن مجنونة ، قرب
أطفال جياع ساعيين ، في بيئة لا ترتفع فيها الا صرخات مسعورة وملامات
متصلة لا تنقطع • ولكنه كان يعلم في الوقت نفسه – هو واثق من
هذا – أنها على تألمها الشديد وخوفها القوي تحس رغم حزنها وخشيتها
برغبة جارفة مؤلمة في أن تقرأ ، وفي أن تقرأ له « هو » ، من أجل

أن يسمع ، ومن أجل أن يسمع « الآن » خاصة ، « مهما يحدث بعد ذلك » • كان راسكولنيكوف يقرأ هذه الرغبة في عيني الفتاة ، وكان يدركها من احتياج أعصابها •

تحاملت صونيا على نفسها ، وبذلت جهداً كبيراً ، فكبحت التشنج الذي ألمَّ بحلقها فقطع صوتها منذ بداية الآية الأولى ، وتابعت قراءة الاصحاح الحادى عشر من انجيل يوحنا ، ووصلت الى الآية التاسعة عشرة :

« وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا الى مرثا ومريم ليعزّوهما عن أخيهما • فلما سمعت مرثا أن يسوع آتٍ لاقته • وأما مريم فاستمرت جالسةً فى البيت • فقالت مرثا ليسوع : يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخى • لكننى الآن أيضاً أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله اياه » •

هنا توقفت صونيا عن القراءة مرةً أخرى ، وهى تشعر بالحجل من أن صوتها يختليج وأنه سيتحطم من جديد ••• ثم تابعت القراءة :

« قال لها يسوع : سيقوم أخوك • فالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة ، فى اليوم الأخير • قال لها يسوع : أنا القيامة والحياة • من آمن بى فسيحيا ولو مات • وكل من كان حياً وآمن بى فلن يموت الى الأبد • أتؤمنين بهذا ؟ » •

استردت صونيا أنفاسها بجهد عنيف وألم شديد ، وأخذت تقرأ بصوت واضح ولهجة قوية كأنها تعترف بايمانها هى نفسها على رءوس الأشهداء :

« قالت له مرثا : نعم يا سيد • أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله ، الآتى الى العالم • » •

وأوشكت صونيا أن تتوقف عن القراءة ، ولكنها رفعت عينيها «إليه»
بحركة قوية ، فسرعان ما ثابت الى نفسها ، واستمرت تقرأ • كان
راسكولنيكوف يصغى الى القراءة ساكناً جامداً ، دون أن يلتفت ،
واضعاً كوعيه على المائدة ، ناظراً الى جانب • وبلغت صونيا الآية الثانية
والثلاثين :

« فلما أتت مريم الى حيث كان يسوع ورأته ، خرّت عند رجله
قائلةً : يا سيد ، لو كنتَ ههنا لم يمت أخى • فلما رآها يسوع تبكى
واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب • وقال : أين
وضعتموه ؟ قالوا له : يا سيد ، تعال وانظر • بكى يسوع • فقال اليهود :
انظروا كيف كان يحبه • وقال بعض منهم : ألم يكن يقدر هذا الذى
فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » •

كان راسكولنيكوف قد التفت نحوها وأخذ ينظر اليها منفعلًا
مضطرباً • نعم ، صدق ظنه ! لقد كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً وتعانى من
حمى حقيقية • انه توقع ذلك • وكانت تقترب من الآيات التى تروى
المعجزة العظيمة الكبرى ، فكان شعور بالانتصار يجتاح نفسها • ان
صوتها يرن رنين معدن • ان الفرح والظفر يترجعان فى نفسها ويشدان
ازرها • واختلطت الأسطر أمام عينيها ، واضطرب بصرها ، لكنها كانت
تعرف ما تقرؤه على ظهر القلب • انها حين قرأت الآية الأخيرة : « ألم
يكن يقدر هذا الذى فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ؟ » ،
قد خففت صوتها ، معبرةً بحماسة ملتبهة عن شك واستياء أولئك
اليهود العمى الذين سيركعون بعد قليل كمن نزلت عليهم صاعقة ،
وسيجهشون باكين ، وسيؤمنون • قالت لنفسها : وهو ، « هو » أيضاً ،
الأعمى ، الذى لا يؤمن ، هو أيضاً سيسمع ، وهو أيضاً سيؤمن ،

نعم ، نعم ، سيؤمن ، سيؤمن فوراً ، حالاً . فكان هذا التوقع يجعلها ترتعش فرحاً . وتابعت قراءتها :

« فأنزعج يسوع أيضاً فى نفسه وجاء الى القبر . وكان القبر مغارة وقد وضع عليه حجر . قال يسوع : ارفعوا الحجر . قالت له مرثا أخت الميت : يا سيد ، قد أتنن لأنه هنا منذ أربعة أيام . »

أبرزت صونيا فى قراءتها كلمة « أربعة » . وتابعت تقرأ :

« قال لها يسوع : ألم أقل لك ان آمنت ترين مجد الله . فرفعوا الحجر ، ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال : أيها الأب ، أشكرك لأنك سمعت لى . وأنا كنت أعلم أنك تسمع لى فى كل حين . ولكن لأجل هذا الجمع الواقف حولى قلت هذا ، ليؤمنوا أنك أنت أرسلتنى . ولما قال يسوع هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلمّ خارجاً . فخرج الميت . . . »

قرأت صونيا هذه الكلمات الأخيرة بصوت قوى ظافر ، وكانت ترتجف وترتعش كأنها ترى المشهد بعينها .

« . . . ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع : حلّوه ودعوه يذهب . »

« فكثيرون من اليهود الذين جاءوا الى مريم ومرثا ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به . »

لم تمض صونيا فى القراءة الى أبعد من هذا . لقد عجزت عن ذلك . فطوت الكتاب ونهضت بحركة قوية نشيطة ، ودمدمت تقول بصوت قاس متقطع :

— هذا كل ما يُروى عن قيام لعازر .

وتجمدت في مكانها مشيخةً وجهها ، كأنها تستحي أن ترفع
عينها نحو راسكولنيكوف • وكانت ما تزال ترتجف من الحمى •

كان عقب الشمعة التي ذابت في الصحن المتعقف منذ مدة ، تلقى
ضياءً ضعيفاً على القاتل والمومس وقد ضمتهما قراءة « الكتاب الخالد »
في هذه الغرفة البائسة •

وانقضت خمس دقائق أو تزيد •

ونفض راسكولنيكوف ، واقرب من صونيا ، وقال لها فجأة بصوت
قوى وقد اكفهر وجهه :

- انما جئت لأحدثك في أمر بعينه •

ف نظرت اليه صونيا صامتة • وكان وجهه يفصح عن عزيمة وحشية

قال :

- تركت اليوم أهلى : أمى وأختى • فلن أذهب اليهما بعد الآن •

لقد قطعت صلتي بهما قطيعة تامة •

فسألته صونيا مصعوقة :

- لماذا ؟

ان اللقاء الذي تمَّ بينها وبين أم راسكولنيكوف وأخته منذ قليل
قد ترك في نفسها أثراً خارقاً ، رغم أنها لم تستطع أن تحددّه • فلما
سمعت نبأ هذه القطيعة شعرت بما يوشك أن يكون رعباً وذعراً •

أضاف راسكولنيكوف يقول :

- لم يبق لى سواك • هلمى نسافر معاً • لقد جئت اليك • نحن

ملعونان كلانا ، فلنسافر معاً !

وكانت عيناه تسطعان • قالت صونيا لنفسها هي أيضاً : « ان هيئته
تدل على أنه مجنون » •
وسألته مرتاعة :
- نسافر الى أين ؟

وتراجعت متقهقرة على غير ارادة منها • قال لها :
- أنى لى أن أعرف ! كل ما أعرفه أن الطريق الذى سنقطعه
واحد • أنا واثق بهذا ، ولا أعرف شيئاً سواه • وان هدفنا واحد
أيضاً •

كانت تنظر اليه ولا تفهم • كل ما كانت تدركه هو أنه انسان
شقى شقاء رهيباً ، شقى الى غير نهاية •
وأضاف راسكولنيكوف يقول :

- ما من أحدٍ منهم يستطيع أن يفهم ما تقولينه • أما أنا فقد
فهمتكم • أنا فى حاجة اليك • ولهذا السبب انما جئتكم •
تمتمت صونيا قائلة :
- لست أفهم •••

- ستفهمين فى المستقبل • ألم تفعلى مثل الذى فعلت أنا ؟ أنت
أيضاً خرقت القانون ، أنت أيضاً ••• أنت أيضاً دمّرت حياة ••• هي
حياتك طبعاً ، ولكن ما الفرق ؟ كان يمكنك أن تعيشى بروحك • ولسوف
ينتهى بك المطاف فى المستقبل الى قرب « سوق العلف » ••• ولكنك لن
تستطيعى أن تحتلمى ذلك ، فان بقيت « وحيدة » فسوف تفقدين عقلك
مثل • انك منذ الآن أشبه بمجنونة • فلماذا لا نسافر اذن معاً ، لماذا
لا تتبع طريقاً واحداً ؟ فلنسافر !

تمت صونيا تقول وقد هزتها كلمات راسكولنيكوف هزاً غريباً
قويّاً :

– لماذا ، لماذا تقول هذا الكلام ...

– لماذا ؟ لأن بقائي على هذه الحال أصبح مستحيلاً • هذا هو
السبب • لا بد للمرء آخر الأمر من أن يبكي ، بدلاً من أن يصرخ
قائلاً كطفل صغير : « الله لن يسمح بهذا » • قولى لى : ما الذى سيحدث
إذا اقتادوك غداً الى المستشفى ؟ ان الأخرى قد فقدت عقلها ، وهى مصابة
بداء السل ، وستموت قريباً • والأولاد ؟ هل يمكن أن لا تضع بوليتشكا
هى أيضاً ؟ ألم ترى هنا ، فى نواصى الشوارع ، أطفالاً أرسلتهم أمهاتهم
فى طلب الصدقات ؟ لقد عرفت أنا أين تعيش هذه الأمهات ، وفى أى
ظروف تعيش • ان الأطفال لا يمكن أن يبقوا فى أمثال تلك الأماكن
أطفالاً • فى أمثال تلك الأماكن يصبح الطفل الذى عمره سبع سنين ،
يصبح داعراً أو لصاً • والأطفال مع ذلك هم صورة المسيح ، « لهم
ملكوت الرب » * ؛ لقد أمر الرب باحترامهم وحبهم • هم انسانية
المستقبل ...

ردت صونيا تقول وهى تلوى يديها ألماً وتجهش باكياً
هستيرياً :

– ما العمل اذن ؟ ما العمل اذن ؟

– ما العمل ؟ نحطّم مرة واحدة كلّ ما يجب تحطيمه ، ولا شيء
غير ذلك • تتحمل العذاب • ماذا ؟ ألا تفهمين ؟ سوف تفهمين
فى المستقبل ! الحرية والسيطرة ، السيطرة خاصة ! السيطرة على جميع
المخلوقات المرتجفة ، على كل هؤلاء النمل • • ذلك هو الهدف ! تذكرى
هذا ! تلك هى وصيتى لك • لعل هذه آخر مرة أكلمك فيها • اذا لم

أجىء غداً ، فستعلمين كل شيء بنفسك ، فاذكري حينئذ كلماتي • قد تفهمين معناها فى يوم من الأيام ، بعد سنة ، ولكن اذا جئت غداً ، فسأقول لك من الذى قتل اليزابت • وداعاً !

ارتعشت صونيا ذعراً • وسألته وهى ترمقه بنظرة متوحشة :

– أنت تعرف حقاً ••• من الذى قتلها ؟

– أعرف ذلك ، وسأقوله لك ••• لك وحدك ! لقد وقع اختياري عليك • لن أجىء اليك لاستغفرك ؛ وانما لأحدثك ببساطة • لقد اخترتك منذ مدة طويلة لأحدثك ، اخترتك منذ اللحظة التى كلمنى فيها أبوك عنك ، وكانت اليزابت ما تزال حية • وداعاً ! لا تناولينى يدك ! الى الغد ! •

وخرج • كانت صونيا تنظر اليه وكأنها تنظر الى مجنون ، ولكنها كانت هى نفسها أشبه بمجنونة ، وكانت تشعر بذلك • وكانت تحس بدوار •

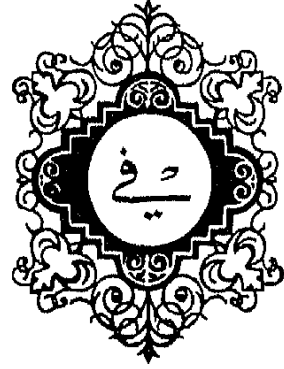
تساءلت : « رباه ! كيف يعرف من الذى قتل اليزابت ؟ ما معنى هذه الأقوال ؟ فظيع ، فظيع !••• » • ولكن لم يخطر ببالها « أن ••• » • لم يخطر ببالها هذا فى لحظة من اللحظات ، لم يخطر ببالها فى أية لحظة من اللحظات ! وقالت تحدث نفسها : « لا بد أنه شقى ، لا بد أنه شقى شقاء رهيباً ! ترك أمه وأخته • لماذا ؟ ماذا جرى ؟ ما نيته ؟ ماذا قال لى ؟ لقد لثم قدميَّ وقال لى ••• قال لى ••• نعم ••• قال لى ذلك بوضوح ••• قال لى انه أصبح لا يستطيع أن يحيا بدونى ••• آه ••• رباه !••• »

قضت صونيا الليل كله فى حمى وهذيان • فتارة تنهض بوثبة واحدة فتأخذ تبكى وتلوى يديها الماءً ، وتارة تهوى الى نوم محموم

فترى فى الحلم بوليتشكا وكاترين ايفانوفنا واليزابت وقراءة الانجيل ••
وتراه هو ••• هو ••• بوجهه الشاحب ، وعينيه المتقدتين ، يلثم قدميها ،
ويبكي ••• آه ••• يارب !•••

وراء الباب ، وراء ذلك الباب نفسه الذى يفصل غرفة صونيا عن
شقة جرترود كارلوفنا ريسليش ، كانت توجد غرفة وسيطة ، خالية مند
مدة طويلة ، هى جزء من شقة السيدة ريسليش ، وكانت السيدة ريسليش
تريد أن تؤجرها ، كما تدل على ذلك اللافتة الموضوعه على باب مدخل
العمارة ، والأوراق الصغيرة الملتصقة على زجاج النوافذ التى تطل على
القناة • وقد اعتادت صونيا أن تعد هذه الغرفة خالية غير مسكونة • غير
أن السيد سفيدريجايلوف كان قد التصق بالباب فى هذه الغرفة الخالية ،
فأصغى الى كل الحديث الذى جرى بين صونيا وراسكولنيكوف ، حتى اذا
خرج راسكولنيكوف لبث هو لحظة يفكر ، ثم رجع سائراً على رءوس
الأصابع الى غرفته المتصلة بهذه الغرفة الخالية ، فتناول كرسيه وجاء يضعه
برفق وهدوء على الباب المؤدى الى غرفة صونيا • لقد شاقه الحديث الذى
جرى بين الفتاة وبين راسكولنيكوف كثيراً ، ورأى أنه جدير بأن يسمع
وأن يحفظ ؛ وبلغ من شدة اعجابه بهذا الحديث ورضاه عنه وابتهاجه
به أنه حمل الكرسي وجاء يضعه على الباب حتى لا يضطر فى المرة القادمة
التي قد يكون الغد موعدها - من يدري ؟ - أن يزعب نفسه بالبقاء واقفاً
طوال ساعة كاملة • هكذا سيتاح له أن يجلس جلسة مريحة ، فتكون
متعته من جميع النواحي كاملة •

الفصل الخامس



الغد ، في الساعة الحادية عشرة تماماً ، حين وصل راسكولنيكوف الى قسم الشرطة ، ودخل على مكاتب مفوض التحقيقات* ، وطلب مقابلة بورفير بتروفتشس ، أدهشه أنه طُلب اليه أن ينتظر ، لقد انقضت عشر دقائق على الأقل قبل أن يُستدعى ، وكان يتنبأ أن يُستقبل فوراً .

ظل واقفاً في وسط قاعة الانتظار ، بينما كان يذهب ويجيء من حوله أناس لا يبدو عليهم أنهم يكثرثون به أى اكتراث . وفي الغرفة المجاورة التي يدل مظهرها على أنها غرفة مكتب ، كان يجلس عدد من الكتبة عاكفون على الكتابة ، وكان واضحاً أن أحداً منهم لا يعرف من راسكولنيكوف هذا وما الذي يعمله هناك .

وكان راسكولنيكوف يُجيب على ما حوله نظرةً قلقةً فيها ارتياب ، متسائلاً : ترى ألا يوجد هنا ، على مقربة منه ، شخص سرّي ما ، جاسوسٌ ما ، مكلف بمراقبته ، وبمنعه من الخروج اذا هو أراد أن يخرج ؟ ولكن لا . . . لم يكن ثمة شيء من هذا القبيل . لم يكن ثمة الا مستخدمون صغار ، غارقون في أعمالهم الصغيرة ، وأشخاصٌ آخرون ، لكن هؤلاء الأشخاص الآخرين كانوا هم أيضاً لا يهتمون به ، ويدعون له أن يتنقل حراً على ما يشاء له هواه . وها هي ذى فكرة تنبت في ذهنه

وتترسخ ترسخاً ما ينفك يزداد عمقاً : لو كان ذلك الشخص اللغز الذي لقيه بالأمس ، لو كان ذلك الشبح الذي ظهر له من تحت الأرض ، لو كان يعلم كل شيء ، لو كان قد رأى كل شيء ، أفكان يُترك له ، هو راسكولنيكوف ، أن ينتظر هذا الانتظار هادئاً ؟ أفكانوا يصبرون عليه حتى الساعة الحادية عشرة ، حتى الساعة التي ارتأى فيها أن يجيء من تلقاء نفسه ليدلى بأفادته ؟ اذن لم يش به ذلك الرجل بعد ... او أنه هو أيضاً لا يعرف شيئاً معيناً (وكيف كان يمكن أن يرى أى شيء على كل حال ؟) • واذن لم يكن كل ما حدث له بالأمس ، هو راسكولنيكوف ، الا سراياً ، الا رؤيا ضخّمها خياله المهتاج المريض • ان هذا الاكتشاف كان قد فرض نفسه على راسكولنيكوف منذ أمس ، في لحظة هي من أعنف لحظات شعوره بالخطر ومن أقوى لحظات احساسه باليأس •

وفيما كان راسكولنيكوف يفكر في هذا كله مرةً أخرى ، وفيما كان يتهيأ لكفاح جديد ، شعر فجأةً بارتعاش ، فغلت نفسه غلياناً شديداً اذ تصور أنه انما يرتعش خوفاً ، لأنه سيقف أمام بورفير بتروفتشس الكريه • ان أفضح شيء هو أن يلقي هذا الرجل من جديد • انه يكرهه كرهاً لا حدود له ، كرهاً ليس له نهاية • وكان يخشى أن يؤدي به هذا الكره ، على نحو من الأنحاء ، الى أن يفضح نفسه • وبلغ غضبه من القوة أنه أوقف ارتعاشه فوراً • وأعدّ راسكولنيكوف، نفسه لأن يدخل على الرجل هادئاً كل الهدوء ، وحلف ليقيناً صامتاً الى أبعد حدود الصمت ، يفتح عينيه وأذنيه ويسيطر في هذه المرة على مزاجه المهتاج المريض ، مهما يحدث من أمر ...

وفي اللحظة التي اتخذ فيها راسكولنيكوف هذا القرار ، دُعِيَ الى الدخول على بورفير بتروفتشس •
كان بورفير بتروفتشس عندئذ وحيداً في غرفته • انها حجرة لا هي

بالكبيرة ولا هي بالصغيرة ، تضم مكتباً كبيراً موضوعاً أمام ديوان مغطى بقماش مشمّع ، وتضم منضدة ، وخزانة في ركن من الأركان ، وعدة كراسي من خشب أصفر تقشر طلاؤه ؛ وهذا كله من أثاث الإدارة • وفي الجدار الذي يقع في آخر الغرفة ، أو قل في الحاجز الذي يقع في آخر الغرفة ، يوجد باب مغلق : فلا بد اذن أن وراء هذا الحاجز حجرات أخرى •

فما ان أُدخل راسكولنيكوف حتى أغلق بورفير بتروفتش ذلك الباب الذي كان قد دخل منه ، وبقي الرجلان وحيدين •

استقبل مفوض الشرطة زائره طلق المحيياً متودداً متحياً في ظاهر الأمر ؛ ولم يستطع راسكولنيكوف الا بعد عدة دقائق أن يدرك من بعض العلامات أن بورفير بتروفتش مرتبك بعض الارتباك ، فكأنه أزعج اثناء قيامه بمهمة سرية •

بدأ بورفير بتروفتش يتكلم وهو يمد الى راسكولنيكوف يديه فقال :

— آ ••• عزيزى ••• هانت ذا اذن ••• فى نواحيننا ... تفضل... اجلس يا عزيزى ! ولكن لعلك لا تحب أن أخاطبك بقولى يا عزيزى ، « فقط » ، هكذا ! ••• لا تحسب هذا نوعاً من رفع الكلفة وعدم التخرج ، أرجوك ••• ولكن لماذا لا تجلس ؟ اجلس هنا ، على الديوان •••
جلس راسكولنيكوف دون أن يحوّل عنه عينيه •

وقال يحدث نفسه مرتاباً : « فى نواحيننا ••• اعتذارات عن رفع الكلفة وعدم التخرج ••• هذا التعبير الفرنسى « فقط » ••• صحيح أنه مدّ الى يديه ، لكنه لم يناولنى لا هذه ولا تلك منهما ، بل سحبهما فى الوقت المناسب ••• » •

كان كل من الرجلين يرقب صاحبه ويرصده ، ولكن ما ان تلتق
نظراتهما حتى يحولّانها بسرعة كومض البرق *

قال راسكولنيكوف :

– جئتُك بالعريضة الصغيرة ... في موضوع الساعة ... اليك
هي * أهكذا يجب أن تُحرَّر أم علىَّ أن أعيد كتابتها ؟

– ماذا ؟ أي عريضة ؟ آ ... نعم ، نعم ، اطمئن ، هذا هو
المطلوب تماماً *

كذلك قال بورفير بتروفتش بسرعة كأن أمراً ما كان يستحبه ،
ثم تناول الورقة وألقى عليها نظرة خاطفة * وواصل كلامه بذلك التعجل
نفسه فقال مؤكداً :

– ذلك هو المطلوب تماماً * لا يجب أكثر من هذا ...

ووضع الورقة على مكتبه * ثم بعد دقيقة ، بينما كان يتكلم في أمر
آخر ، تناول الورقة من جديد ومضى يرتبها في درج المنضدة *

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

– قلت لي بالأمس ، « فيما يخيّل اليَّ » ... انك تودُّ ... أن
تستجوبني ... رسمياً ... عن علاقتي ... بالمرأة القتيلا ...

وأسرع راسكولنيكوف يقول لنفسه : مؤنباً : « عجيب ... لماذا
أضفت جملة « يخيّل اليَّ » هذه ؟ » *

ثم أسرع يقول لنفسه على الفور : « ولكن لماذا أقلق هذا القلق كله
من قولي « يخيّل اليَّ » ؟ » *

وشعر فجأة بأن هذا الاتصال وحده ببورفير بتروفتش ، وهذه

الكلمات وهذه النظرات المتبادلة وحدها قد كانت كافيةً لأن تحدث في نفسه ارتياباً شديداً * * * وأن هذا كله خطر ، خطر خطراً رهيباً ، فقال لنفسه مقررماً : « غلط ، غلط ، سأفصح أمري من جديد » *

جمعهم بورفير بتروفتش يقول :

— نعم ، نعم ، اطمئن * * * ليس الأمر بمستعجل * * * ليس الأمر بمستعجل البتة * * *

وكان بورفير بتروفتش يقول هذا الكلام وهو يدور حول المكتب طولاً وعرضاً ، ولكن دون ما هدف فيما يبدو ، كأنه لا يعرف ما الذي كان يجذبه نحو النافذة ، ثم يجذبه نحو مكتبه ، ثم يجذبه نحو النافذة فالكتب من جديد *

وكان وهو يسير يتحاشى نظرة راسكولنيكوف الريابة ، ولكن كان في بعض الأحيان يتوقف فجأة ، فيحدّق الى محدّته وجهاً لوجه * انه لمشهد غريب ، مشهد هذا الرجل القصير السمين ، المدوّر ككرة ، الذي كان كأنه يتدحرج من هنا وهناك ، ثم يعود يثب على الفور من جميع الجدران ، وجميع الأركان *

— أماننا متسع من الوقت ، أماننا متسع من الوقت * * * هل تدخّن ؟ هل تملك ما * * * اليك سيجارة (قال ذلك وهو يفتح علبة سجائره) * * * اننى استقبلك هنا ، ولكن شقتى هناك ، وراء هذا الحاجز * أنا أسكن على نفقة الدولة ، ولكنى أسكن مؤقتاً فى خارج الدائرة كما تعلم * * * نعم ، ذلك أن هناك اصلاحات صغيرة وجب اجراؤها هنا ، وقد أوشكت الآن أن تنتهى * شىء عظيم أن يسكن المرء على نفقة الدولة ، هه ؟ شىء عظيم جداً * ما رأيك ؟ هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وهو يلقي عليه نظرة تشبه أن تكون ساخرة:

- نعم ، شيء عظيم جداً !

فردّد بورفير بتروفتش هذه العبارة وكأنه أصبح يفكر فجأة في شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف :

- شيء عظيم جداً ، شيء عظيم جداً ***

وأضاف بما يشبه أن يكون صراخاً ، وهو يحدّق الى راسكولنيكوف متوقفاً أمامه :

- نعم ، شيء عظيم جداً *

ان هذه الطريقة الحمقاء السخيفة في ترداد هذه العبارة (أن السكنى على نفقة الدولة شيء عظيم جداً) تناقض بعض المناقضة ما كان قاضي التحقيق يرمى به راسكولنيكوف من نظرة جادة ، متأمّلة ، ملغزة . ولكن ذلك لم يزد على أن فاقم غضب راسكولنيكوف ، فلم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فاذا هو يتحدى تحدياً فيه غير قليل من الطيش ، فيسأل بورفير بتروفتش فجأة ، وهو يلقي عليه نظرة تكاد تكون وقحة ، حتى لكانه يجد في وقاحته هذه لذة وتمعنة :

- هل تعلم أن هناك ، فيما يقال ، قاعدة قضائية ، أسلوباً قضائياً يمكن أن يستخدمه جميع قضاة التحقيق ، هو أن يتحدث أحدهم أولاً في أمور تافهة سخيفة أو حتى في أمور هامة لكنها غريبة عن الاستجواب كل الغرابة ، وذلك من أجل أن يطمئن الشخص الذي يستجوبه ، أو قل من أجل أن يسهيه ، من أجل أن ينوّم انتباهه ، ثم اذا هو يهوى على رأسه فجأة بالسؤال الحاسم الخطير الرهيب ؟ أليس هذا

صحيحاً ؟ يظهر أن هذا الأسلوب قد طُبِقَ حتى الآن تطبيقاً دقيقاً ،
وروعى مراعاة تامة •

– اذن ، اذن ، أنت تظن أنني انما حدثتك عن المساكن التي تقدمها
الدولة على نفقتها ، من أجل أن ••• هه ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ، وفضّضَ جفنيه وطرف بعينه وبان في
وجهه تعبير عن مرح ومكر ، وامحت تجاعيد جبينه الدقيقة ، وتضيق
عيناه الصغيرتان ، وتمددت أخيراً قسماته، فحدّق الى عيني راسكولنيكوف
وانفجر يضحك ضحكاً عصبياً طويلاً يهزُّ جسمه كله • وأراد
راسكولنيكوف أن يحمل نفسه على مجاراته في الضحك ، فهمّ أن
يضحك هو أيضاً ، ولكن بورفير بتروفتش حين رأى راسكولنيكوف
يوشك أن يشاركه ضحكه ، انتابته نوبة مسعورة من ضحك بلغ من
القوة أن وجهه احمر احمراراً شديداً ، فتغلب اشمئزاز راسكولنيكوف
عندئذ على تعقله ، فأمسك عن الضحك، وقطب حاجبيه، ونظر الى بورفير
بتروفتش طويلاً ، نظرة كارهة حاقدة ، وظل لا يحوّل عنه بصره الى ان
انتهى بورفير من ضحكه المصطنع المقنع • والحق أن الرجلين كليهما لم
يلتزمَا جانب الحكمة والتبصر والتعقل : فأما بورفير فكان كمن يسخر من
زائره صراحةً ، وأما راسكولنيكوف فقد استقبل ذلك الضحك بكره
شديد ، وهو كره لم يظهر على القاضى أنه ضاق به أو انزعج منه على كل
حال • وذلك أمر لفت انتباه راسكولنيكوف : لقد أدرك راسكولنيكوف
أن بورفير لم يكن مرتبكاً أى ارتباك منذ قليل ، وأنه هو الذى وقع

فى الفخ ، وأن هناك أمراً يجهله ولا شك ، أمراً مبيناً مخبأً سينصب على رأسه بعد لحظة ...

لذلك انتقل الى الجرد قدماً ، فنهض متناولاً قبعته ، وبدأ يتكلم فقال بلهجة جازمة غير أن فيها احتياجاً قوياً :

— يا بورفير بتروفتش ، لقد أعربت أمس عن رغبتك فى أن ترانى من أجل أن تستجوبنى (أبرز راسكولنيكوف كلمة « تستجوبنى » هذه) ، وهأنا ذا قد جئت ، فان كنت فى حاجة الى أن تعرف شيئاً ما ، فاستجوبنى ، والا فاسمح لى أن أنصرف . ليس فى وقتى متسع . هناك أمور تنادىنى ... يجب علىّ أن أحضر دفن ذلك الموظف الذى داسته الخيل أمس ...

وأضاف يقول :

— وقد سمعت أنت عن الحادثة التى وقعت له ...

ولكنه سرعان ما ندم على أنه أضاف هذه الجملة فإزداد من ذلك غضبه ، وتابع كلامه فقال :

— لقد تعبت من هذا كله ، تعبت ، هل تفهم ؟ تعبت منذ زمن طويل ... ولعل ذلك أحد الأسباب التى جعلتني مريضاً ...

وشعر مرةً أخرى بأن الجملة التى أضافها عن مرضه ليست فى محلها أيضاً ، فتابع يقول رافعاً صوته :

— الخلاصة ... استجوبنى من فضلك ... أو دعنى أنصرف فوراً . ولكن اذا استجوبتني فيجب أن يتم الاستجواب وفقاً للأصول

المطلوبة والقواعد المتبعة ، وبغير ذلك لا أسمح لك به • لذلك أودّعك الآن فليس علينا أن نجتمع في خلوة •

صات بورفير بتروفتشس يقول مغيّراً لهجته ووضعه على حين فجأة، منقطعاً عن الضحك دفعةً واحدة :

– عجيب ! ماذا جرى لك ؟

ثم أردف يقول :

– اطمئن ، أرجوك ...

وكان يذهب ويجيء مهموم البال • وفجأةً طلب الى راسكولنيكوف أن يجلس ، وقال له :

– لدينا متسع من الوقت ، لدينا متسع من الوقت ، وهذا كله لاقيمة له البتة • بالعكس : أنا مسرور جداً من أنك جئت إلينا أخيراً ! اننى استقبلك كما يُستقبل ضيف • أما عن ذلك الضحك اللعين ، فاعذرني يا عزيزي روديون رومانوفتشس ... هذا هو اسمك ، أليس كذلك ؟ روديون رومانوفتشس ... ان ملاحظتك المرهفة قد أثارت في نفسى مرحاً شديداً ... حقاً انه ليتفق لى أحياناً أن أتواكب ككرة من المطاط طوال نصف ساعة • اننى سريع الى الضحك • حتى اننى أخشى أن أصاب بنوبة قلبية • ولكن لماذا لا تجلس ؟ هلاًّ جلست ! أرجوك أن تجلس يا عزيزي ، والا اعتقدت أنك زعلان !

كان راسكولنيكوف صامتاً يصغى ويلاحظ ، وما يزال مقطّب الحاجبين من الغضب • وقد جلس ، لكنه ظل ممسكاً قبعته بيده •

وتابع بورفير بتروفتشس كلامه وهو ما يزال يتجول في الغرفة ، ويتحاشى نظرة ضيفه ، فقال :

- سأذكر لك شيئاً يا عزيزي روديون رومانوفتشس ، لأعطيك فكرةً عن طبيعتي • أنا رجل ما أزال عازباً كما ترى ، فأنا اذن لا أعاشر الناس ولا أختلف الى المجتمع كثيراً ، وأنا اذن رجل غامض ، مجهول • وأنا عدا ذلك انسان مكتمل التكوين ، متعظّم الجسم ، متخدر الاحساس ، و ••• و ••• هل لاحظت يا روديون رومانوفتشس أنه عندنا ، أقصد عندنا في روسيا ، ولا سيما في أوساطنا البطربرجية ، ما ان يلتق شخصان ذكيان - مثلنا نحن ، أنا وأنت ، ان صح التعبير - حتى نرى هذين الشخصين عاجزين طوال نصف ساعة عن العثور على كلمة واحدة يقولها أحدهما للآخر ؟ ان كلاً منهما ينظر الى صاحبه ككليين من خزف ، وان كلاً منهما يخشى صاحبه ويخاف منه • ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، السيدات مثلاً ••• أو أفراد المجتمع الراقى ••• أفراد الطبقة العليا ••• نعم ، ان لجميع الناس موضوعاً يتحدثون فيه ، « ذلك واجب لا مفرّ منه » * • ولكن أفراد الطبقة المتوسطة ••• الأفراد الذين هم مثلنا ••• يكونون دائماً مرتبكين صموتين ••• أعنى منهم أولئك الذين يفكّرون • فما سبب هذا يا عزيزي ؟ هل الاهتمامات الاجتماعية هي التي تعوزنا ، أم نحن أناس شرفاء جداً فلا يريد أحدنا أن يخدع صاحبه ؟ لا أدري ••• فما رأيك أنت ؟ ولكن هلاًّ تركت قبعتك ! لكأنك تريد أن تنصرف فوراً • هذا مؤسف • أما أنا فمسرور حقاً •••

ترك راسكولنيكوف قبعته ، ولكنه ظل صامتاً متجهماً الوجه يصغى بجدي ورسانة الى ثمرات بورفير بتروفتشس المفككة ، متسائلاً بينه وبين نفسه : « أيريد حقاً أن ينوّم انتباهي بهذا السيل المتدفق من اللغو التافه السخيف ؟ » •

وواصل بورفير بتروفتشس كلامه يقول :

– لست أقدم لك قهوة ، فليس هذا بالمكان المناسب • ولكن لماذا لا تحب أن تجالس صديقاً طيباً مدة خمس دقائق ••• لتسليته قليلاً ••• هذا عدا واجبات الوظيفة كما تعلم ••• وأرجوك خاصةً يا عزيزى أن لا تزعل اذا رأيتنى على هذه الحال أسير فى الغرفة طولاً وعرضاً ••• معذرةً يا عزيزى ••• اننى أخشى كثيراً أن أزعلك ••• ولكن لا بد لى من شىء من الرياضة ••• اننى جالس دائماً ••• ويسرنى كثيراً أن يتاح لى الآن أن أمشى قليلاً خلال خمس دقائق ••• هى البواسير يا عزيزى ••• وأنا أريد دائماً أن أعالجها بالتمارين الرياضية ••• يقال ان رجالاً من مستشارى الدولة ، رجالاً من كبار موظفى الدولة ، يقفزون على الحبل كل يوم على نظام مطرد ، ويجدون فى ذلك لذة • نعم ، ان العلم هو الذى يطالب بهذا فى أيامنا ••• أما التزاماتى هنا ، أما هذه الاستجابات وهذه الشكليات كلها التى جئت على ذكرها ، فعليك أن تعلم حقاً يا عزيزى روديون رومانوفتش أن هذه الاستجابات كثيراً ما تحيّر القاضى أكثر مما تحيّر المتهم ••• كما ألمت أنت الى ذلك بكثير من رهافة الملاحظة و نفاذ البصيرة (لم يكن راسكولنيكوف قد ألمع الى شىء من هذا البتة) • نعم ، ان المرء ليرتبك ، ان المرء ليرتبك حقاً ، وتختلط عليه الأمور • وهذا يتكرر هو نفسه دائماً ، يتكرر هو نفسه دائماً ، على وتيرة واحدة ، كقرع الطبل ••• نعمة واحدة ••• على أننا موعودون الآن باصلاحات ، فستتغير اسماؤنا * على الأقل • هى • هى • هى •! ••• أما عن أساليبنا القضائية – على حدّ تعبيرك الظريف الفكه – فأنا أوافقك على رأيك كل الموافقة • قل لى من فضلك : أى متهم لا يعرف ، ولو كان أجهلاً فلاح ، أن المحقق انما يبدأ بمحاولة تنويمه (على حدّ تعبيرك المناسب الموفق) ، بأن يلقي عليه أسئلة لا تمت الى الموضوع بصلة ، ثم يهوى على رأسه بالموضوع كأنه يهوى عليه بساطور •••

هىء هىء هىء ••• تعبيرك الموفق أيضاً ••• هىء هىء! ••• اذن لقد ظننتَ فعلاً أننى حين حدثتك عن مسألة السكنى على نفقة الدولة انما كنت أريد ••• هىء هىء! يا لك من فتى مليء بالسخرية! لا، لن أفعل شيئاً من هذا • آ ••• بالمناسبة ••• ان كلمة تستدعى كلمه أخرى، وان فكرة تستحضر فكرة ثانية ••• لقد أشرت، منذ قليل، الى أصول الاستجواب وقواعده، كما تتذكر ••• أشرت الى الشكل الذى يجب التقيد به فى الاستجواب • ولكن قل لى: ما هو الشكل؟ ان الشكل، فى كثير من الأحيان، لا يكون له أى معنى • ورب حديث ودى أنفع كثيراً من استجواب يتقيد فيه المحقق بالشكل، ويلتزم فيه القواعد والأصول • طبعاً ••• لا يمكن أن يختفى الشكل اختفاء تاماً، فى وسعك أن تطمئن من هذه الناحية • ولكن ما الشكل فى حقيقة الأمر؟ ليس ينبغى للشكل أن يعرقل عمل قاضى التحقيق فى كل لحظة • ان مهنة قاضى التحقيق فنٌ حر ان صبح التعبير ••• أو هى شىء يشبه أن يكون ••• هىء هىء هىء! •••

توقف بورفير بتروفتش ليسترد أنفاسه • كان يتكلم متدفقاً كالسيل، فتارةً يقذف عبارات جوفاء لا معنى لها دون كلل أو ملل، وتارةً يدس كلمة صغيرة أشبه بلغز، ليعود بعد ذلك فوراً الى هنده التافه ولغوه السخيف • وكان كمن يركض فى الغرفة ركضاً، هازأً ساقيه القصيرتين السميتين مزيداً من الهز، واضعاً يده اليمنى وراء ظهره، محرراً يده اليسرى بإشارات تتناقض مع أقواله تناقضاً غريباً. ولاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه قد توقف أثناء جريه السريع مرتين أو ثلاثاً أمام الباب، وبدا عليه أنه يصيح بسمعه لحظة. تساءل راسكولنيكوف: «أهو ينتظر شيئاً؟» •

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال مرحباً وهو يلقي نظرة فيها طيبة أرعشت الشاب وأثارت شكوكه وريبه :

- الواقع أنك على حق تماماً حين تسخر من اجراءاتنا القضائية...
 هيء هيء... ان أسالينا - بعضها لا كلها طبعاً - توهم بأنها مستوحاة
 من سيكولوجيا عميقة ، مع أنها في حقيقة الأمر مضحكة تماماً ، بل هي
 في كثير من الأحيان عقيمة ، ولا سيما عند التقيد بالشكل تقيداً دقيقاً .
 ولكن ... فلنعد الى مسألة الشكل هذه نفسها : لنفرض أنني مكلف
 بالتحقيق في قضية ، وأننى أعرف أو قل أعتقد اننى أعرف أن الجانى هو
 فلان أو فلان ... أنت تنتهياً لمهنة القضاء يا روديون رومانوفتش ، أليس
 كذلك ؟

- نعم ، كنت أدرس القانون .

- طيب ، هذا اذن مثال صغير يمكن أن يفيدك فى المستقبل ، ان
 صحح التعبير . آ... لا يذهبن بك الظن الى أنني أريد أن ألقنك دروساً
 أنت الذى تكتب مقالات عن الاجرام . لا ، فانما أنا أضرب لك هذا المثال
 من حيث هو واقعة . لنفرض أنني ظننت أن فلاناً أو فلاناً من الناس هو
 الجانى . فعلام أقلق فلاناً أو فلاناً قبل اللحظة المناسبة ، حتى ولو ملكت
 أدلة عليه ؟ صحيح أنني قد أضطر أن أعتقل فلاناً بأقصى سرعة ، ولكن
 فلاناً الآخر الذى ليس له ذلك الطبع نفسه ، قد أتركه يتجول فى المدينة ،
 هه ؟ أحسب أنك لا تفهم عنى تماماً ، لذلك سأعرض لك الأمر بمزيد
 من الوضوح . لنفرض أنني قبضت عليه قبل الأوان ، أفلمت أمنحه
 بذلك نوعاً من عون نفسى ؟ هيء هيء ! أضحكك هذا الكلام ؟ (ان
 راسكولنيكوف لم يخطر بباله قط أن يضحك . كان جالساً ، كازاً
 شفثيه ، لا يحوّل عن عينى بورفير بتروفتش نظرتة المتقدة الملتهبة) .

هذا هو الأمر رغم ذلك ، ولا سيما مع بعض الأفراد • نعم نعم ، الأفراد متنوعون تنوعاً كبيراً ، ولا بد من تنوع الأسلوب بتنوع هؤلاء الأفراد • قد تقول لى ان هناك اثباتات ••• طيب : لنسلم بأن هناك اثباتات ! ولكن الاثباتات يا عزيزى تكون فى أكثر الأحيان ذات حدّين ، وانا قاضى تحقيق ، فعندى اذن نواحى ضعف ، أعترف لك بذلك • أنا أتمنى أن يكون دليلى قاطعاً صارماً كاستدلال رياضى ، كبرهان رياضى • انا فى حاجة الى برهان بديهي كقولك ان اثنين واثنين أربعة ، أو الى شىء يشبه أن يكون برهاناً رياضياً فى وضوحه وجلالته • فاذا اعتقلتُ الشخص قبل الأوان ، فاننى مهما يكن اقتناعى قوياً بأنه هو الجانى ، أحرم نفسى بذلك من الوسائل التى ستحملة على الكشف عن نفسه كشفاً أتم • لماذا؟ لأننى أكون قد ألزمته بوضع معيّن ان صح التعبير ، أى أكون قد حددته فطمأنته من الناحية النفسية ، فيفلت منى ويدخل فى قوقعته ، لعلمه بأنه اعتقل وانتهى الأمر • يقال ان الناس الأذكياء فى سياستوبول ، بعد معركة ألما * رأساً ، قد خافوا كثيراً فى أول الأمر من أن يهاجمهم العدو فوراً وأن يستولى على سياستوبول فى الحال • فلما رأوا أن العدو قد آثر القيام بحصار على الأصول ، فبدأ يحفر الخندق الأول ، سُرواً سروراً عظيماً واطمأنوا اطمئناناً كبيراً • فبذلك يطول الأمر شهرين أو أكثر ، لأن الانتهاء من حصار على الأصول لا بد له من وقت • ما بالك تضحك أيضاً؟ أما تزال لا تصدقنى؟ أنت على حق ، من وجهة نظرك ، على ح •• قى ! هذه حالات خاصة ، وأنا أوافقك كل الموافقة • ان الحالة التى أعرضها لك الآن حالة خاصة تماماً • ولكن يجب علينا يا عزيزى روديون رومانوفتش أن نعلم حق العلم أن الحالة العامة التى تلائمها جميع الأصول القضائية وجميع الأنظمة ، والتى على أساسها تُحسب هذه الأنظمة وتُسجّل فى الكتب ، لا وجود لها ، وذلك لسبب بسيط هو

أن كل فعل (ولنفرض أنه جريمة) سرعان ما يتحول الى حالة خاصة ، بل الى حالة خاصة جداً لا تشبه في شيء أى فعل آخر . وفى بعض الأحيان تعرض حالات غريبة مضحكة فى نوعها . وفى تلك الحالات أدع الشخص وحيداً ، لا أزعبه ، لا أعتقله ، ولكنه اذا علم أننى فى كل ساعة ، بل فى كل دقيقة ، أعرف كل شيء ، وأننى أراقبه ولا تغمض عيني عنه ؛ اذا أصبح فريسة ارتياب مستمر وخوف متصل ، فيمينا ليأخذته عندئذ دوار ، وليأتين من تلقاء نفسه . وقد يحدث أيضاً أن ينساق الى اقتراف شيء لا يقل وضوحاً عن كون اثنين واثنين أربعة ، شيء يمكن أن يوصف بأنه ذو طابع رياضى . وتلك هى المتعة واللذة فى الأمر . يمكن أن يحدث هذا لفلاح بسيط ، ويمكن أن يحدث لرجل من أشباهنا ، لرجل ذكى عصرى مثقف . ذلك أنه أمر هام جداً يا عزيزى أن نعرف الاتجاه الذى تطور فيه شخص من الأشخاص . ثم ان هناك الأعصاب ، الأعصاب ، أترك نسيت الأعصاب ؟ الأعصاب هى الضعيفة الآن ، هى المريضة ، هى المستتارة . وما قولك فى الالتهاب ؟ ان اهدتاجاً كثيراً قد تجمع وتراكم فى الناس ! وأؤكد لك أن هذا بعينه مصدر للمعلومات لا ينضب ! فهل يضيرنى اذن أن أترك الرجل يتجول فى المدينة حراً طليقاً ؟ ألا فليستمر على التجول . اننى لا أعترض على هذا أى اعتراض . فأنا أعلم ، مهما يحدث ، أنه «فريستى الصغيرة» وأنه لن يفلت منى ! الى أين عساه يهرب ؟ الى الخارج ؟ قد يهرب بولندى الى الخارج ، أما « هو » فانه لن يهرب ، لا سيما وأنه تحت بصرى وسمعى ، واننى اتخذت الاحتياطات اللازمة . أترأه يفر الى آخر البلاد ؟ ولكن فى آخر البلاد لا يعيش الا فلاحون ، لا يعيش الا روس حقيقيون ، أما هو الذى تثقف ثقافة حديثة ، فانه يؤثر السجن على أن يجاور أجانب كفلاحينا هى على أن هذا كله أمازيح

على الهامش • ما الهرب؟ أمر شكلي صرف • ليس هذا هو الشيء الأساسي • فالرجل لن يهرب ، لا لأنه لن يعرف الى أين يذهب فحسب ، بل هو لن يهرب لأسباب «سيكولوجية» أيضاً • هيء هيء • • • تعبير موفق جداً ، هه؟ لا ، لا ، انه لن يهرب ، وذلك بفعل قانون طبيعي ، حتى ولو عرف الى أين يذهب ! أما رأيت فراشة تحوم حول شمعة؟ ألا انه سيدور حولى دوران الفراشة حول الشمعة • ستأخذ تثقل عليه الحرية ، وسيأخذ يفكر ، وسيرتبك ؛ سيقع فى شباك ينسجها هو نفسه ، سيخلق لنفسه خوفاً رهيباً • بل انه سيهيبىء لى مهزلة رياضية يدعها هو ، مهزلة من نوع « $2 + 2 = 4$ » ، شريطة أن أدع له فرصة بطبيعة الحال • وسيظال ، بغير انقطاع ، يحوم حولى على دوائر ما تنفك تضيق ، ثم اذا هو يسقط فى فمى دفعة واحدة ، فأبلعه ، وما ألدّ هذا ! هيء هيء ، ما رأيك؟

لم يجب رسامكولنيكوف • ظل جالساً ، شاحب الوجه ، جامداً ، ما ينفك يحدّق الى وجه بورفير بتروفتش بانتباه ثابت • حدث نفسه يقول متجمداً من الرعب : « هذا درس رائع • • • ليست الحكاية اليوم حكاية الهرة تعبت بالفأرة كما كانت بالأمس • لا ، ليست قوته هي ما يريد اليوم أن يظهره لى فى غير طائل ، أو أن يوحى الىّ به • • • هو أذكى من أن يفعل ذلك • ان له الآن هدفاً آخر ، فما هو هذا الهدف؟ دعك يا صاحبي ، غباءً ما تفعل ، سخافات • • • أنت تحاول أن تخيفنى • • • أنت تمكر وتحتال • • • ليس لديك أى دليل • ورجل الأمس لا وجود له • أنت تحاول أن تربكنى وأن تشوشنى وأن تنير أعصابى سلفاً حتى تهوى علىّ بالضربة المفاجئة متى انهدت قواى • • • ولكن خاب فألك ، ولسوف تطيش ضربتك فما تصيب هدفاً ، نعم ، سوف تطيش ضربتك • • • ولكن ما باله يوحى الىّ بما يجب أن أعمله !

الى هذا الحد ، ليس الأمر طبيعياً!... آهو يعوّل على أعصابى المريضة ؛
لا ، لا يا صاحبي ، لقد أخطأ ظنك ، وعمى بصرك... ومهما تكن قد
أعددت من شيء... طيب ، سنرى ماذا ما أعددت!...»

واستجمع راسكولنيكوف قواه كلها ، يستعد لمواجهة نازلة رهيبه
مجهولة . ودّى في بعض اللحظات لو ينقض على بورفير بتروفتش فيخنقه
في الحال . انه منذ دخوله قد خشى أن يشعر بمثل هذا الغضب . وهو
يشعر الآن بأن فمه جاف ، وبأن قلبه يخفق خفقاناً شديداً ، وبأن الزبد
ينقاطر على شفتيه . ومع ذلك قرر أن يصمت ، وأن لا يقول كلمة واحدة
قبل أن يحين الحين . أدرك أن هذه هي الحطة المثلى في ظرف كظرفه ،
فهو بذلك يتجنب فضح نفسه بكلامه ، وهو بذلك أيضاً يثير أعصاب
محدثه بصمته ، فلعل محدثه هو الذي سيفضح نفسه ويكشف عن
نياته اذ يتكلم . ذلك ما كان يأمله راسكولنيكوف على الأقل .

استأنف بورفير كلامه بمزيد من المرح ، حتى لقد كان ينقنق
تلذذاً ، فقال وهو ما يزال يدور في الغرفة :

— لا ، أنت لا تصدقني . أرى أنك لا تصدقني . تظن أنني أمطرك
بأمازيح صغيرة تافهة . وانك لعلي حق طبعاً . فان الله نفسه قد وهب لي
مظهراً جسيماً لا يمكن أن يثير لدى الآخرين الا خواطر مضحكة . أنا
مهرّج ! ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك ، بل أن أكرره على مسامعك ،
يا عزيزي روديون رومانوفتش : يجب عليك أن تعذر الشيخ الذي
يكلمك . أنت شاب ، أنت في زهرة العمر ان صحّ التعبير ، وأنت لذلك
تقدر الذكاء الانساني قدراً كبيراً كسائر الشباب . ان حدة الفكر وحجج
العقل المجردة تفتتك . أنت على وجه العموم تشبه « المجلس الحربي
الأعلى » * الذي كان بالنمسا في الماضي ، هذا اذا صدق حكمي في الشؤون
العسكرية : ان أعضاء هذا المجلس هم الذين سحقوا نابوليون وأمسروه ،

فى خطتهم التى وضعوها على الورق • نعم ، انهم فى مكاتبهم ، قد هياؤا
 كل شىء ، ورتبوا كل شىء ، بدقة كاملة ، ونظام رائع • ذلك ما فعلوه
 على الورق • أما فى الواقع فان قائدهم الجنرال ماك هو الذى استسلم
 مع جيشه كله ••• هىء هىء هىء ••• أننى أرى ، يا عزيزى
 روديون رومانوفتش أنك تسخر منى ، لأننى أنا المدنى أضرب أمثلةً
 مستمدة من التاريخ الحربى • ولكن ما حيلتى ؟ هذه نقطة الضعف فى ،
 اننى أحب فن الحرب ، وأبلغ من جبهه أننى أقرأ جميع ما يتصل
 بالحرب من قريب أو بعيد • لا شك أننى خطأت اختيار مهنتى فى هذه
 الحياة • كان علىّ أن أعمل فى الجيش • هذا حق • لو عملت فى الجيش ،
 فلعلنى لا أصبح قائداً عظيماً مثل نابوليون ، ولكننى أصبح « ميجر »
 ناجحاً ••• هىء هىء هىء ••• الخلاصة ••• ما دمت الآن بسبيل
 أن أقول لك الحقيقة عن هذه « الحالة الخاصة » ، فان الواقع والطبيعة ،
 يا سيدى العزيز ، هما من الأمور الهامة جداً • نعم ، صدق
 شيخاً مثلى • اننى أتكلم جاداً لا هازلاً يا روديون رومانوفتش (حين
 قال بورفير بتروفتش هذا الكلام ، فانه وهو الذى لا يكاد يبلغ الخامسة
 والثلاثين من عمره ، قد غدا أشبه بشيخ فعلاً ؛ حتى ان صوته تغير ،
 وظهره تحذب) • ثم اننى رجل صريح • ألت رجلاً صريحاً ؟
 ما رأيك ؟ أظن أن هذا واضح • الخلاصة : أنا أقول لك هذا كله
 مجاناً ، لا أطلب جزاء ولا شكوراً • فلأكمل كلامى : أن يكون المرء
 ذكياً فتلك ميزة لامعة فى رأى • ان الفكر زينة الطبيعة ان صح التعبير ،
 وهو عزاء الحياة • وما أكثر ما يستطيع الرجل الذكى أن يعتمد اليه من
 حيل • فكيف تريد لقاضى تحقيق مسكين أن لا يتوه وأن لا يضل فى
 شعاب هذه الحيل ، ولا سيما اذا كان خياله نفسه يضلله لأنه انسان
 كسائر البشر ؟ ولكن الطبيعة نفسها تهب الى نجدة قاضى التحقيق المسكين ،

فتخرجه من الارتباك وتنقذه من المأزق • وذلك هو البلاء ، وذلك هو ما ينسأه شبابنا « الذكى » الذى « يتخطى جميع الحواجز » (على حد التعبير الذى استعملته أنت بالأمس فى كثير من الرهافة والمكر) • قد يعمد صاحبنا الى الكذب - أنا أتكلم طبعاً عن شخص من الأشخاص دون تعيين ، عن « حالة خاصة » ، عن رجل مجهول - وقد يكذب كذباً فيه غاية البراعة والمكر • وقد يظن عندئذ أنه سينتصر ، أنه سيقطف ثمرات مكره ، ولكن هاهو ذا يغمى عليه فجأة فى اللحظة الحرجة الخطرة ! لنسلم بأن علينا أن نحسب حساب مرضه • فكثيراً ما يشعر المرء باختناق حين يوجد فى غرفة فاسدة الهواء • ولكن صاحبنا يكون مع ذلك قد قدّم الينا قرينة من القرائن • صحيح أنه ذرّ الرماد فى العيون بكثير من الحذق والبراعة ، ولكنه لم يحسب حساب الطبيعة الى درجة كافية وذلك هو الفخ ! وفى مرة أخرى ينساق مع ذكائه المتوقد ، فيأخذ يعبت بالشخص الذى يشتمه فيه ؛ فيُشحب لونه عمداً كأنما ليتسلى ، ولكن شحوبه لا يخلو عندئذ من عنصر طبيعى فكأنه شحوب حقيقى ، وهذه قرينة أخرى يقدمها • وهبه استطاع أن يخدع محدثه فى تلك اللحظة ، فان محدثه لا بد أن يرجع عن خطئه فى الليل • نعم ، هكذا تجرى الأمور فى كل خطوة • ثم انه يبادر هو نفسه الى السبق ، فيأخذ يتدخل فى أمور لا يسأله أحد عنها ، ويثرثر دون انقطاع فيما كان يحسن به أن يسكت عنه وأن لا يتكلم عليه ، ويسترسل فى تلميحات والماعات • نعم ••••• يجىء من تلقاء نفسه ويأخذ يطرح أسئلة : « لماذا لم يُعتقل حتى الآن ؟ » الخ • هى • هى ••••• وهذا يمكن أن يقع حتى لأذكى رجل ، يمكن أن يقع لعالم نفسى ، يمكن أن يقع لأديب • ان الطبيعة مرآة ، ان الطبيعة أصفى مرآة ، فيكفى المرء أن ينظر فيها • نعم ، هذا هو الأمر •

ولكن ما بالك تصفر اصفراراً شديداً يا روديون رومانوفتشس ؟ هل ينقصك هواء ؟ أفتح النافذة ؟

هتف راسكولنيكوف يقول :

— لا ، لا تزعج نفسك !

ثم انفجر يضحك وهو يكرر قوله :

— أرجوك ، لا تزعج نفسك !

وقف بورفير أمامه ، وانتظر قليلاً ، ثم انطلق يضحك هو نفسه ضحكاً مجلجلاً • فنهض راسكولنيكوف قاطعاً ضحكه الهستري فجأة ، وقال بصوت قوى متميز ، رغم أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه المصطكتين :

— يا بورفير بتروفتشس ، انى أرى أخيراً بوضوح أنك تشتهه فى

وتنسب الى مقتل المعجوز واختها اليزابث • وانى لأعترف لك من جهتى بأننى قد سئمت هذا الأمر وضقت به منذ مدة طويلة • فان كنت تعتقد أن من واجبك أن تلاحقنى ملاحقة قانونية فلاحقنى ، وان كنت تعتقد أن من واجبك أن تعتقلنى فاعتقلنى ، ولكننى لا أسمح لأحد أبداً بأن يضحك علىّ وأن يعذبنى هذا التعذيب •

وأخذت شفته ترتجفان ، وسطعت عيناه غضباً ، ودوى صوته دويماً قوياً بعد أن كان حتى ذلك الحين مكظوماً • قال يصرخ بكل قواه ، وهو يضرب المكتب بقبضة يده :

— لا ، لن أسمح بهذا أبداً ، هل تسمع يا بورفير بتروفتشس ؟ لن

أسمح بهذا أبداً !

فصاح بورفير بتروفتشس يقول مرتاع الهيئة :

— آه •• يا رب !•• ماذا هنالك ؟ عزيزى روديون رومانوفتشس

صديقى ، ماذا أصابك ؟

فصرخ راسكولنيكوف يردد مرة اخرى قوله :
- لن أسمح بهذا أبداً !

فدمدم بورفير بتروفتش يقول بارتياح ويكاد يلصق وجهه بوجه
راسكولنيكوف :

- طيب ، طيب ، اخفض صوتك ! والا قد يسمعون فيجيئون ،
فما عسى نقول لهم اذا جاءوا ؟ هلاً فكرت في هذا !

فكان راسكولنيكوف يردد بطريقة آلية وقد أخذ يهمس هو أيضاً :
- لن أسمح بهذا أبداً ، لن اسمح بهذا أبداً !

فاستدار بورفير وهرع الى النافذة يفتحها بسرعة شديدة ، قائلاً :
- ليدخل شيء من هواء . وأنت تحسن صنعاً يا عزيزى اذا شربت
قليلاً من الماء ، فهذه نوبة ***

وأسرع نحو الباب يريد أن يطلب الماء ، غير أن ابريقاً ملآن كان
يوجد هناك فى ركن من أركان الغرفة ، فدمدم يقول وهو يركض نحو
الابريق :

- اشرب يا صديقى العزيز ، فعسى أن يحسن اليك شرب قليل
من الماء .

دُهِش راسكولنيكوف أشد الدهشة من هذا الذعر بل ومن هذا
العطف اللذين أظهرهما له بورفير بتروفتش ، فوقف فاغر الفم يلاحظ
صاحبة باستطلاع شديد . ولكنه رفض الماء .
قال بورفير بتروفتش :

- روديون رومانوفتش ، عزيزى ! لسوف تفقد صوابك ان أنت
أصررت هذا الاصرار ، أوكد لك *** خذ *** اشرب *** اشرب
ولو جرعة واحدة .



قاضي التحقيق ، بورفير بتروفيتش
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

واستطاع أن يحمله على تناول الكأس • وأوشك راسكولنيكوف أن يحمل الكأس الى شفثيه بطريقة آلية ، ولكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه فجأة ، فعاد يضع الكأس على المائدة باشمئزاز •
قال بورفير بتروفتش وهو يظهر كثيراً من الملاطفة والمراعاة ، ولكنه ما يزال محتفظاً بالقلق والاضطراب :

— نعم ، هذه نوبة حقاً ! ••• هانت ذا قد عدت الى مرضك القديم •
رباه ! هل يمكن أن لا يدارى المرء نفسه الى هذا الحد ؟ لقد جاءنى دمترى بروكوفتش أيضاً ، أمس ••• أنا أوافق ••• أوافق على أن لى طبعاً سيئاً ••• أتكلم ••• وأتكلم ••• وهذه هى النتائج التى تستخرجانها من كلامى ! ••• رباه ! نعم ، جاءنى أمس ، مساءً ، بعدك ، وتعشينا ، وتكلم ، وتكلم ، فلم أفعل الا أن أرفع ذراعى الى السماء ! بالمناسبة ، يخطر ببالى الآن هذا السؤال : أترارك أنت أرسلته ؟ ولكن اجلس يا عزيزى ! هلاًّ جلست ! اجلس ، ناشدتك الله ! •••

أجاب راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

— لا ، لم أرسله أنا ••• ولكنى علمت أنه جاء اليك ، وكنت أعرف سبب مجيئه أيضاً •••

— كنت تعرف سبب مجيئه ؟

— نعم ، كنت أعرف سبب مجيئه ، فماذا تستنتج من ذلك ؟

— يا عزيزى روديون رومانوفتش ، هل تظن أننى أجهل أى عمل من أعمالك ؟ اننى أعرف كل شىء ، اننى مطلع على كل شىء ! أنا أعرف مثلاً أنك ذهبت « تستأجر تلك الشقة » عند هبوط الليل ، وأنتك شددت حبل الجرس ، وأنتك ألقيت أسئلةً عن الدم ، وأنتك حيرت العمال

والبوايين • اننى أفهم حق الفهم الحاله النفسية التى كنت عليها • ولكننى
أؤكد لك أنك بهذه الطريقة ستفقد عقلك حتماً ، أحلف لك !•• سوف
يستولى عليك الدوار • ان الغضب الذى أنارته فيك الاساءات ، اساءات
القدر أولاً و اساءات رجال الشرطة بعد ذلك ، ان هذا الغضب ، مهما
يكن غضباً نبيلاً ، يغلى غلياناً شديداً فى نفسك ، وأنت لذلك تمضى الى
هنا وهناك ، لتجبر الناس ، ان صح التعبير ، على أن يصفوا اليك ،
ولتحملهم على الانتهاء من هذه المسألة دفعةً واحدة الى الأبد • نعم ،
لأنك قد ضقت بجميع هذه السخافات ، وسئمت جميع هذه الشبهات •
أليس هذا صحيحاً ؟ ألم أدرك حالتك النفسية ؟••• ولكننى أقول لك
انك بهذه الطريقة لن تفقد عقلك أنت وحدك ، وانما ستجعل صديقنا
رازوميخين يفقد عقله أيضاً • انه « أطيب » كثيراً من أن يُقحمَ فى مثل
هذه الأمور ، وأنت تعلم ذلك حق العلم • انك أنت مريض ، أما هو
فإنسان طيب ، وسيلتصق مرضك به ••• سأقصُ عليك هذا حين تهدأ
يا عزيزى ••• ولكن ما بالك لا تجلس ؟ اجلس يا عزيزى ناشدتك
الله ! ارجوك ، استرح ، ان وجهك منقلب ••• هلاًّ جلست !•••

جلس راسكولنيكوف • لقد انقطع ارتجاجه ، ولكن جسمه كله كان
يحترق من الحمى • وكان يصغى الى بورفير بتروفتش الذى يتحرك
حوله بكثير من المودة والصدقة ، كان يصغى اليه بدهشة ذاهلة وانتباه
شديد • ولكنه كان لا يصدق كلمة واحدة مما كان يقوله قاضى
التحقيق ، رغم أنه كان يميل ميلاً غريباً الى التصديق • ان الأقوال
المفاجئة ، غير المتوقعة ، التى قالها بورفير عن الشقة قد صعقتة صعقاً :
« كيف ؟ أهو يعرف حتى حكاية الشقة هذه ؟ ويتحدث عنها هو
نفسه ؟ » •

تابع بورفير كلامه فقال بسرعة :

- نعم ، فى حولياتنا القضائية حالة تشبه هذه الحالة تقريباً ، حالة سيكولوجية مرضية ، كالحالة الراهنة • اتهم رجل نفسه بارتكاب جريمة قتل • يا لها من قصة ! لقد اخترع عالماً بكامله من الأوهام ، وقدّم وقائع ، ووصف ظروفًا شابت بعضها ببعض ! لماذا ؟ لأنه ، على غير ارادة منه اطلاقاً ، كان مسئولاً بعض المسئولين عن جريمة القتل تلك - بعض المسئولية فقط - فلما عرف أنه قد أمدّ الفاعلين بسبب دفعهم الى ارتكاب جريمة القتل ، استولى عليه قلق شديد وخوف رهيب ، وأخذ يرتكب حماقات ، وأخذت تتراءى له أخيلة وأوهام ، واختلطت فى عقله الأمور ، واستطاع أن يقنع نفسه بأنه هو القاتل • ولكن محكمة النقض اكتشفت الأمر أخيراً ، فبرّئ المسكين ، وجعل تحت الوصاية • شكراً لمحكمة النقض ! آ • • • آ • • • طبعاً يا عزيزى • • • من الممكن جداً أن يصاب المرء بحمى حارة حين تكون أعصابه جانحة الى الاهتياج هذا الجنوح ، وحين يذهب فى الليل يشد أجراساً بل ويسأل عن آثار دماء • • • ان هذه السيكولوجيا قد تعلمتها من الممارسة العملية • حتى لقد يحدث لانسان فى مثل هذه الحالات أن يرغب فى القاء نفسه من النافذة أو من برج ناقوس • هذا احساس له اغراء شديد • هو المرض يا روديون رومانوفتش ، هو المرض ! أنت قد أسرفت فى اهمال معالجة مرضك ! كان عليك أن تستشير طبيباً خبيراً ، لا صاحبك السمين البسيط ذاك ! هو الهذيان يا صاحبي ! كل شىء مردّه عندك الى الهذيان !

أخذت الغرفة كلها تدور أمام عيني راسكولنيكوف ، لحظة •
« هل يمكن أن يظل يكذب حتى الآن ؟ مستحيل ، مستحيل ، ومع ذلك • • • » • ان هذه الفكرة الأخيرة قد روعت راسكولنيكوف ، وكان يحس مدى ما تدفعه اليه من حنق مسعور ، وكان يحس أيضاً أن هذا الغضب يمكن أن يفقده عقله •

صاح يقول وهو يركّز جميع قوى عقله من أجل أن ينفذ الى لعبة بورفير :

- أنا لم أكن أهذى ! كنت أملك نفسي تماماً ، أملك نفسي تماماً ، أملك نفسي تماماً ؟

- نعم ، أسمع وأفهم • أمس أيضاً قلت انك لم تكن تهذى ، حتى لقد ألححت على هذه النقطة • كل ما يمكن أن تقوله ، أنا أفهمه • هـى هـى ! ••• ولكن اصغ الىّ قليلاً يا عزيزى الشهم ، يا عزيزى الطيب روديون رومانوفتش • هبنا سلّمنا بهذا ••• لو كنت أنت الجانى حقاً ، لو كنت أنت الجانى فعلاً ، أو لو كان لك أى شأن فى هذه القضية المشؤومة ، أكنت تلح هذا الالحاح على أنك لم تكن تهذى ، وعلى أنك فعلت ما فعلت واعياً كل الوعى ؟ أهذا ممكن ؟ فى رأى أنك كنت ستعتمد عندئذ الى نقيض ذلك تماماً ! لو كنت تشعر بأنك الجانى ، أفما يكون الأفضل عندئذ أن تلحّ ، خلافاً لذلك ، على أنك انما فعلت ما فعلت وأنت فى حالة هذيان ؟ أليس كذلك ؟

كان فى هذا السؤال مكر • ارتد راسكولنيكوف الى الوراء مستنداً الى ظهر الأريكة ؛ ومال بورفير بتروفتش نحوه صامتاً ، فأخذ راسكولنيكوف يحدّق اليه مدهوشاً متحيراً •

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

- كلمة أخرى عن السيد رازوميخين ، أقصد عن مسألة كونه أتى الىّ من تلقاء نفسه أو بتحريض منك • لقد كان من الأفضل لك أن تقول انه جاء من تلقاء نفسه وأن تنكر أن يكون قد جاء بتحريض منك ، ومع ذلك أراك تلح على أن تذكر أنه جاء الىّ بتحريض منك •

لم يكن راسكولنيكوف قد ألحّ على هذا فى وقت من الأوقات •

وشعر بقشعريرة تسرى في ظهره • ثم قال بصوت ضعيف بطيء وقد تقبضت شفثاه على ابتسامه أليمة :

— ما تزال تكذب •

ثم أضاف يقول شاعراً هو نفسه بأنه أصبح لا يزن كلماته كما يجب أن يزنها :

— أنت تريد أن تبيِّن لي من جديد أنك ترى مكري رؤية واضحة،
وأنك تعرف كل أجوبتي سلفاً • أنت تحاول أن تخيفني ، أو أنت
تسخر مني لا أكثر •

وفيما كان يقول له هذا الكلام ، ظل يحدِّق إليه ، ثم اذا بعداوة
لا حدود لها تسطح في عينيه ، فهتف يقول :

— أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • انك تعلم حق العلم أن خير
خطة يتبعها مجرم هو أن يذكر بعض الحقائق في حدود الامكان ، وأن
لا يخفي ما لا حاجة الى اخفائه • أنا لا أصدِّقك !

قال بورفير ضاحكاً ساخراً :

— ما أحذقك ! ان المرء لا يعرف حقاً من أى طرف يمسكك •
هذه اذن فكرة ثابتة عندك ! أنت اذن لا تصدقني ؟ ولكنني أؤكد لك أنك
تصدقني ، وأنك صدقتني حتى الآن بعض التصديق ، وسأفعل ما يجعلك
تصدقني تصديقاً كاملاً ، لأنني أحس نحوك بعاطفة صادقة حقاً ، ولأنني
أتمنى لك الخير مخلصاً •

أخذت شفثا راسكولنيكوف ترتجفان •

وتابع بورفير بتروفتش كلامه يقول وهو يمسك ذراع راسكولنيكوف
امسكاً رقيقاً ، بمودة وصدافة ، فوق الكوع قليلاً :

- نعم ، أتمنى لك الخير ، ثق بهذا ... وأقول لك مرةً أخيرة ان عليك أن تعتني بصحتك • من أجلك انما جاءت أسرتك ، فكّر في هذا ولا تنسه ! يجب عليك أن تهديء روع أهلك ، وأن تظهر لهم عاطفة ومحبة ، ولكنك لا تزيد الآن على أن تروّعهم ...

- ما شأنك أنت وهذا ؟ ثم من أين علمته ؟ وفيم يهتمك ويعنيك ؟ أنت اذن تراقبني ، وأنت تحرص على أن أعرف هذا !

- اسمع يا عزيزي ، أنا انما حصلت على هذه المعلومات كلها منك أنت ، منك أنت ! ألسنت تلاحظ اذن أنك من شدة ثورة أعصابك أول من يقص كل شيء ، عليّ وعلى الآخرين ؟ ولقد عرفت أيضاً ، في مساء أمس ، تفاصيل شائعة جداً ، من السيد رازوميخين ، دمترى بروكوفتش رازوميخين • لقد قاطعتني الآن ، ولكنني أقول لك انك رغم رهاقة فكرك قد أفقدك شكك وحذرك القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً. انظر مثلاً في مسألة الجرس تلك التي أتينا على ذكرها منذ قليل ، والتي هي واقعة هامة جداً ، ثمينة جداً (هي كذلك بلا جدال) : طيب ، لقد أطلعتك بنفسى على هذه الواقعة ، أفلا تستخرج أنت من هذا شيئاً ؟ هل كنت أفعل ذلك لو كنت أرتاب فيك أى ارتياب ؟ بالعكس ، فلو كنت أرتاب فيك حقاً ، لكان عليّ أن أنوّم مخاوفك ، وأن لا أدعك ترى أنني على علم بهذه الواقعة ، وأن أوجهك في اتجاه آخر تماماً ثم أهوى عليك بها فجأة كأنها ضربة مطرقة (على حد تعبيرك) • لو كنت أرتاب فيك أقل ارتياب لأخذت ألقى عليك أسئلة كهذه الأسئلة : « قل لي أيها السيد : ما الذي ذهب بك الى شقة المجنى عليها ، في الساعة العاشرة من المساء ، بل في الساعة الحادية عشرة تقريباً ؟ لماذا شددت حبل الجرس ؟ ولماذا ألقيت أسئلةً عن الدم ؟ لماذا حاولت بعد ذلك أن تحيّر البوابين ، وأردت أن تقاد الى قسم الشرطة ؟ » كان ينبغي لي ، وفقاً للأصول المتبعة،

أن انتزع منك افادة ، ثم أن أفتش منزلك ، وربما أن أعثقلك • ولكنني فعلت خلاف ذلك تماماً • واذن فانا لا أشبهه فيك أى اشتباه • حقاً لقد فقدت القدرة على ادراك الأشياء ادراكاً سليماً ، فأنت لا ترى شيئاً ••• أكرر لك هذا !•••

ارتجف راسكولنيكوف من قمة الرأس الى أخمص القدمين ، وبلغ من قوة الارتجاف أن بورفير بتروفتش قد اضطر أن يلاحظ ذلك •

وصاح راسكولنيكوف يقول بمزيد من القوة :

— أنت لا تفعل شيئاً غير أن تكذب • لست أفهم نيائك ، ولكنك تكذب ، تكذب • منذ قليل لم تكن تكلمنى بهذا المعنى • لا يمكن أن يخطئنى ظنى • أنت تكذب !

استأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال متحمساً ، على احتفاظه بهيئة المرح والسخرية ، دون أن يبدو عليه أى اكتراث بما قد يكون رأى راسكولنيكوف فيه :

— أنا أكذب ؟ أنا أكذب ؟ عجيب كلامك ! كيف تصرفت أنا معك منذ قليل ، أنا قاضى التحقيق ؟ لقد أوجيت اليك أنا نفسى بالوسائل التى تستطيع أن تدافع بها عن نفسك ؟ لقد عرضت عليك أنا نفسى تلك السيكولوجيا كلها : « المرض ، الهذيان ، عنت الاهانات ، الكآبة ، رجال الشرطة ••• » ، النخ النخ • هىء هىء هىء ! ومع ذلك أسارع فأقول لك ان جميع حجج الدفاع السيكولوجية هذه ، وجميع أساليب التملص هذه ، وجميع هذه الأعذار والتعلات ليست قوية مثينة ، حتى انها ذات حدين • فإذا أنت تعللت « بالمرض والهذيان » وإذا أنت قلت « انك قد راودتك هلوسات ، وانك أصبحت لا تتذكر شيئاً » ، فان كلامك هذا كله يكون جميلاً ، ولكن المرء يستطيع أن يسألك عندئذ : لماذا تراودك هذه

الأحلام وهذه الهلوسات وحدها دون غيرها ؟ ذلك أن من الممكن أن تكون أحلامك وهلوساتك غير هذه تماماً ، أليس كذلك ؟ ما رأيك ؟
هـى هـى هـى !... .

رشقه راسكولنيكوف بنظرة فيها كبرياء واحتقار . ثم قال بصوت قوى وهو ينهض فيصدم بورفير قليلاً :

– باختصار يا بورفير بتروفتش : أريد أن أعرف أنت تعمدنى مبراً من كل شبهة أم لا ؟ تكلم يا بورفير بتروفتش ، تكلم كلاماً واضحاً ، بسرعة ، حالاً !

هتف بورفير بتروفتش يقول بمرح وسخرية ودون أى ارتباك :
– حقاً انك لمتعب !... ما حاجتك الى أن تعرف هذا ، الى أن تعرف هذا كله ، مع أن أحداً لم يبدأ حتى فى أن يقلق راحتك أى اطلاق ؟ يا لك من طفل ! لسان حالك يقول : « أريد أن ألعب بالنار ! » . فلماذا ، لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب كله ؟ هلاً شرحت لى الأسباب التى تدفمك الى أن تلقى علينا هذه الأسئلة كلها ؟ هه ؟

صاح راسكولنيكوف حانقاً :

– أكرر لك أننى أصبحت لا أطيق أن أحتمل

– أن تحتمل ماذا ؟ عدم اليقين ؟

كذلك قاطعه بورفير . فصرخ راسكولنيكوف قائلاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده من جديد :

– كفى سخرية ! لا أستطيع ! هل تفهم ؟

– اخفض صوتك ، اخفض صوتك ، والا سمعوك ! اننى أنبهك الى هذا جاداً . حذار ! لست أمزح !

كذلك قال بورفير متمتماً ، ولكن تعبير وجهه قد اختلف الآن
 عما كان عليه منذ قليل ، حين كان أشبه بتعبير وجه امرأة مروّعة *
 بالعكس : هو الآن « يلقي أوامر » * انه قاسى الهيئة ، مقطب الحاجبين ،
 فكأنه عدل دفعةً واحدة عن جميع الأسرار وجميع الاماعات الملتبسة *
 ولكن ذلك لم يدم الا لحظة *

اضطرب راسكولنيكوف ، وأوشك أن يندفع فى نوبة غضب
 جديدة ، ولكن الشيء الغريب أنه خضع فى هذه المرة أيضاً للأمر الذى
 صدر اليه ، فخفض صوته *
 وهمس يقول من جديد :

- لن أرضى بأن أٌعذب هذا التعذيب ***
 لقد أدرك ، وهو يشعر بألم يمازجه كره ، أنه لا يستطيع الا أن
 يخضع لهذا الأمر القاطع * ولكنه ازداد من ذلك غضباً وحنقاً *
 وأضاف يقول :

- اعتقلنى ! فتش بيتى ! ولكن اتبع الأصول والقواعد بدلاً من
 أن تعبت بى هذا العبث ! *** ليس من حقت أن ***
 فقاطعه بورفير قائلاً وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة نفسها ،
 مع تظاهره بالسرور من رؤية راسكولنيكوف :

- ما هذا الكلام يا عزيزى ؟ انا انما دعوتك بغير كلفة ، دعوتك
 كما يدعو صديق صديقه *

- لا أريد صداقتك ، لا أريدها ، أنا أبصق عليها ، هل تسمع ؟
 انظر : هاأنا ذا أتناول قبعتى وأنصرف * فما عساك تقول الآن اذا كان
 فى نيتك أن تعتقلنى ؟
 وتناول راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب *

فقال بورفير مقهقهاً وهو يمسك ذراعه من جديد ، فوق الكوع قليلاً ، ويوقفه قرب الباب :

– ولكن ألا تريد أن أطلع عليك بمفاجأة صغيرة ؟

كان مرح بورفير يزداد ازدياداً واضحاً ، وكان مزاحه يظهر ظهوراً أقوى ، فأنتهى ذلك الى اخراج راسكولنيكوف عن طوره • فقال وهو يتجمد في مكانه فجأة ، وينظر الى بورفير مذعوراً :

– أية مفاجأة صغيرة ؟ ماذا تعنى ؟

– المفاجأة الصغيرة قابعة هناك ، وراء هذا الباب ، هيء هيء هيء ! حتى لقد أقفلت عليها بالمفتاح ، مخافة أن تهرب •

قال بورفير ذلك وهو يوميء بيده الى الباب المغلق في الحاجز ، الباب المنفضى الى شقته •

فقال راسكولنيكوف وهو يقترب من الباب ويريد أن يفتحه :

– ماذا ؟ أين ؟

ولكن الباب كان مقفلاً بالمفتاح فعلاً •

قال بورفير :

– الباب مقفل • اليك المفتاح !

وناوله مفتاحاً أخرجه من جيبه •

زأر راسكولنيكوف يقول وقد أصبح لا يسيطر على نفسه :

– أنت تكذب ! أنت لا تفعل غير أن تكذب ! أنت تكذب أيها

المهرج اللعين !

قال راسكولنيكوف ذلك وهجم على بورفير ، فتراجع بورفير نحو الباب ، ولكن دون أن يظهر عليه أى رعب . وقال :

— ولكن ، يا عزيزى روديون رومانوفتش ، لست تستطيع أن تفضح نفسك أكثر مما تفضح نفسك بهذا . لقد خرجت عن طورك .
لا تصرخ ، والا استدعيت رجالى !

— أنت تكذب ! لن يحدث شيء ! استدع رجالك ! لقد كنت تعلم أننى مريض ، فأردت أن تهيج أعصابى وترهقنى ارهاقاً يدفعنى الى أن أفضح نفسى ! تلك كانت غايتك . لا . . . لا بد لك من وقائع ! أريد وقائع ! لقد فهمتُ الآن كل شيء . أنت لا تملك وقائع ، أنت لا تملك الا افتراضات تافهة سخيفة حقيرة ، هى افتراضات زاميتوف ! كنت تعرف طبعى ، فأردت أن تخرجنى عن طورى لتفقدنى بعد ذلك صوابى بقساوسة ونواب* . . . ألسنت تنتظرهم هم ؟ ماذا تنتظر ؟ أين هم ؟
انت بهم !

— أى نواب تعنى يا عزيزى ؟ ما هذا الكلام العجيب ؟ يا لأفكارك هذه ما أغربها ! ليس فى وسعى ، من باب « التقيد بالشكل ومراعاة الأصول » ، على حد تعبيرك ، ليس فى وسعى أن . . . انك تجهل أصول الاجراءات القانونية يا عزيزى ! ولكنك سترى . . . سوف تنقيد بالشكل ونراعى الأصول .

بهذا جمجم بورفير ، وكان أثناء ذلك يصيح بسمعه صوب الباب .

وفعلاً ، سُمعت فى تلك اللحظة ضجة فى الغرفة المجاورة .

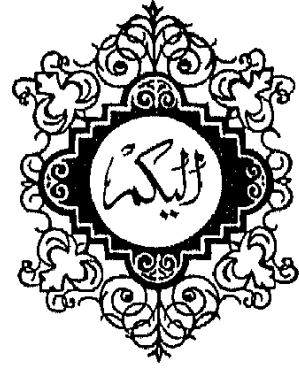
هتف راسكولنيكوف يقول :

— آ . . . ها هم أولاء يجيئون ! لقد استدعيتهم ، لقد كنت

تنتظرهم ، لقد كنت تعوّل عليهم *** طيب *** ائت بهم جميعاً الى هنا
 *** ائت بالنواب ، وبالشهود ، وبجميع من تشاء *** ائت بهم ! أنا
 مستعد ، مستعد !

غير أن حادثاً غريباً قد وقع حينذاك ، حادثاً يبلغ من البعد عن
 التوقع والتنبؤ فى سياق الأمور أنه لا راسكولنيكوف ولا بورفير بتروفتش
 كان يمكن أن يتصور خاتمة كهذه الخاتمة *

الفصل السادس



كيف تصور راسكولنيكوف المشهد حين تذكره
في المستقبل :

ان الضجة التي سُمعت من وراء الباب قد
ازدادت بسرعة شديدة ، ثم شقَّ الباب قليلاً •

فصاح بورفير بتروفتش يسأل غاضباً :

— ماذا هنالك ؟ ألم أنبهكم مع ذلك ؟

فلم يحصل على جواب ، ولكن كان واضحاً أن أشخاصاً كثيرين
كانوا يقفون وراء الباب يحاولون أن يصدُّوا أحد الناس عن اقتحامه •
فسأل بورفير بتروفتش متوجساً :

— ماذا هنالك ؟

فأجابه أحد الأصوات قائلاً :

— جيء بالمعتقل نيقولا •

فصرخ بورفير قائلاً وهو يهرع نحو الباب :

— لا داعي الى ذلك ! اذهبوا ! يمكن الانتظار ! من الذي جاء به

الى هنا ؟ ما هذه الفوضى ؟

فبدا ذلك الصوت نفسه يتكلم فقال :

– ولكنه ***

غير أن الرجل لم يلبث أن انقطع عن الكلام فجأة •
ان صراعاً حقيقياً قد نشب في ثانيّين ؛ وبدا أن أحداً من الناس
كان يُصدّ بالقوة عن الدخول ، ثم اذا برجل شاحب الوجه جداً يقتحم
غرفة بورفير بتروفتش •

ان مظهر هذا الرجل كان في أول الأمر غريباً كل الغرابة • كان
شاخصاً ببصره الى أمام ، ولكن لا يبدو عليه أنه يرى أحداً • وفي عينيه
يسطع عزم وحشى ، ولكن شحوباً كشحوب الموتى يغشى وجهه في الوقت
نفسه ، كأنه قد اقتيد الى المفصلة • وشفتهان بيضاوان بياضاً تاماً ، وهما
تختلجان قليلاً •

هو رجل ما يزال شاباً ، يرتدى ثياب عامل ، متوسط الطول ،
نحيل الجسم ، قد قصّ شعره على صورة صحن ، وقسمات وجهة دقيقة
قاسية •

وكان يحتشد على الباب مستطلعون كثيرون ، وكان بعضهم يحاول
أن يدخل •

ان هذا المشهد الذى وصفناه الآن لم يدم الا دقيقة واحدة •
قال بورفير بتروفتش مدمماً من بين أسنانه ، منزعجاً أشد
الانزعاج ، خارجاً عن طوره :

– اذهب ! لم يحن الحين بعد ! انتظر حتى أستدعيك ! لماذا أسرعتم
في المجيء به هذا الاسراع كله ؟

ولكن نيقولا جثا على ركبتيه • فهتف بورفير بتروفتش يقول
مذهولاً :

— ماذا دهالك ؟

فقال نيقولا فجأةً ، بصوت مختنق لكنه قوى :

— أنا الجانى ! هذه جريمتى ! أنا القاتل !

فخيم صمتٌ مطبقٌ خلال عشر ثوان ، حتى لكأن جميع الحضور قد جمدوا . وحتى الحارس سقطت يده ، وتراجع نحو الباب تراجعاً آلياً ، ولبث هناك ساكناً لا يتحرك .

وهتف بورفير بتروفتش يسأل نيقولا بعد أن خرج من ذهوله القصير :

— ماذا هنالك ؟

فكرر نيقولا بعد صمت قصير :

— أنا ... القاتل !

— كيف ؟ أنت ؟ من ذا قتلت ؟

— آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابت ايفانوفنا . قتلتهما بضربات

ساطور ...

وأضاف يقول فجأةً :

— كنت قد فقدت عقلى ...

وصمت مرةً أخرى ، وكان ما يزال راكعاً .

بدت علائم التفكير على بورفير بتروفتش بضع لحظات ، ولكنه استرد نشاطه وحماسه فجأةً ، فأوماً للحضور بحركة من يده أن اخرجوا . فأسرعوا يطيعون أمره ؛ وأُغلق الباب من جديد . وبعد ذلك ، نظر بورفير بتروفتش الى راسكولنيكوف الذى كان واقفاً فى ركن من الغرفة يتأمل نيقولا زائغ الهيئة . وهمّ أن يكلمه ، ولكنه أمسك فجأةً ،



نيقولا ، الدهان

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وتفرس فيه ، ثم أسرع ينتقل ببصره الى نيقولا ، ثم الى راسكولنيكوف ،
ثم الى نيقولا مرةً أخرى •

لا يدري المرء ما هو ذلك الغضب الذي استبد ببورفير بتروفشس
على حين فجأة ، فاذا هو يهجم على نيقولا فيقول له بلهجة تشبه أن يكون
فيها كره :

– لماذا تجيء تقول لى منذ الآن انك كنت قد فقدت عقلك ؟ أنا لما
أسألك بعد أكنت قد فقدت عقلك أم لا ! قل : أأنت الذى قتلت ؟
قال نيقولا :

– نعم ، أنا الذى قتلت • أصرّح بذلك •

– هيه ••• وبماذا قتلت ؟

– بساطور كنت قد حملته •

– ألا انك لمتعجل حقاً • وحدك ؟

لم يفهم نيقولا السؤال •

– هل قتلتهما وحدك ؟

– نعم • ميتكا برىء • لم يشارك فى الجريمة أية مشاركة •

– لا تتعجل هذا التعجل كله فى الكلام عن ميتكا • هيه ••• ولكن

كيف فعلت ، كيف فعلت لتنزل السلم ؟ لقد رأكما البوابون كليكما •

أجاب نيقولا متعجلاً ، كأنه يريد أن يفرغ من الأمر بأقصى

سرعة :

– انما ركضت عندئذ ••• مع ميتكا ••• دفعاً للشبهات •

هتف بورفير بتروفشس يقول :

- هذا هو الأمر ، هذا هو الأمر •

وجمعهم يقول بينه وبين نفسه :

- انه يكرر ما لُقِّن من كلام •

ولمح راسكولنيكوف فجأةً من جديد •

أغلب الظن أنه قد بلغ من شدة اهتمامه بنيقولا أنه كان قد نسى وجود راسكولنيكوف لحظة من الزمان • وها هو ذا قد تذكره الآن فجأةً ، حتى لقد اضطرب •

قال لراسكولنيكوف وهو يرتمى نحوه :

- روديون رومانوفتشس ، عزيزى ، معذرة • ليس فى امكانك أن تبقى هنا ، أرجوك ••• حقاً لم يبق لك هنا شأن ••• وأنا نفسى ••• يا للمفاجأة !••• أرجوك •••

قال له ذلك وهو يتناول ذراعه ، ويشير له الى الباب •

طبعى أن راسكولنيكوف لم يكن قد أدرك بعدُ ماذا جرى ، ولكنه قد استرد ثقته • فقال يخاطب بورفير بتروفتشس :

- لكأنك لم تكن تتوقع هذا •

فأجابه بورفير :

- ولا كنتَ تتوقعه أنت يا عزيزى ! انظر كيف ترتجف يدك !

- وأنت أيضاً ترتجف يا بورفير بتروفتشس !

- نعم ، أنا أيضاً أرتجف ••• لأننى لم أكن أتوقع هذا •

وكانا قد وصلا الى الباب. وكان بورفير ينتظر خروج راسكولنيكوف

نافذ الصبر •

قال راسكولنيكوف فجأة :

– وأين المفاجأة الصغيرة ؟ لماذا لم تطلع عليّ بها ؟

قال بورفير بتروفتش مقهقهاً :

– انه يتكلم ويتكلم وما تزال أسنانه تصطك ! هيه ! انك لا تخلو من سخرية • هيتاً ، الى اللقاء !

– أحسب أن من الأفضل أن تقول : « الوداع » !

فغمغم بورفير بتروفتش يقول متقبّض الشفتين كأنه يبتسم :

– كل شيء مرهون بإرادة الله ، كل شيء مرهون بإرادة الله •

لاحظ راسكولنيكوف وهو يجتاز المكاتب أن أنظاراً كثيرة كانت تحدّق اليه • وفي حجرة المدخل أتيح له أن يرى في وسط الجمهور بوابي « تلك » العمارة اللذين اقترح عليهما في ذلك المساء أن يقتاداه الى قسم الشرطة • كانا واقفين ، وكأنهما ينتظران شيئاً ما • لكنه ما ان صار في السلم حتى سمع وراءه صوت بورفير بتروفتش من جديد • فلما التفت رآه قد أدركه وهو يلهث لهاثاً قوياً •

– كلمة ، كلمة لا أكثر يا روديون رومانوفتش • فيما يتعلق بكل ما حدث ستجرى الأمور على مشيئة الله ، ولكن ما يزال عليّ ، من باب التقيد بالشكل ومراعاة الأصول ، أن ألقى عليك بعض الأسئلة • لهذا سنلتقي مرةً أخرى ، أليس كذلك ؟

قال بورفير بتروفتش ذلك ووقف أمامه مبتسماً • ثم أردف يقول مرةً أخرى :

– أليس كذلك ؟

في وسع المرء أن يفترض أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، ولكن من الواضح أنه لم يستطع ذلك •

كان راسكولنيكوف قد اطمأن اطمئناناً تاماً ، وأصبح يشعر برغبة قوية في التفاخر :

— وأنت أيضاً ، يا بورفير بتروفتشس ، لا تؤاخذني على ما بدر مني منذ قليل • لقد اندفعت بعض الاندفاع •••

فعاد بورفير بتروفتشس يقول بلهجة يكاد يكون فيها فرح :

— لا قيمة لهذا ••• لا قيمة لهذا ••• أنا أيضاً سىء الطبع •••
أعترف بذلك ، اعترف بذلك • ولكننا سنلتقى من جديد ، ان شاء الله •
سنلتقى أكثر من مرة •

قال راسكولنيكوف :

— وستعارف تعارفاً نهائياً • أليس كذلك ؟

فقال بورفير بتروفتشس مؤيداً :

— نعم ، ستعارف تعارفاً نهائياً •

قال ذلك وهو ينظر الى راسكولنيكوف في جد وحرصانة ، رغم أنه يغمز بعينه • وأضاف يسأله :

— أنت ذاهب الآن الى عشاء عيد ميلاد ؟

— بل الى عشاء جنازة •

— نعم نعم ، عشاء جنازة ! راع صحتك •• الصحة أهم شيء ، هه ؟

أجابه راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

— لا أدري حقاً يا بورفير بتروفتشس ما الذي يجب أن أتمناه لك •

ولكنه التفت فجأة ، فأضاف يقول وهو يقابل بورفير وجهاً لوجه :
 - اننى أتمنى لك نجاحاً كبيراً + ولكن ما أسخف وظيفتك !
 وكان بورفير بهم³ أن ينصرف ، ولكنه ما ان سمع هذا الكلام حتى
 سأل ناصباً أذنيه :

- وظيفتى سخيفة ؟ لماذا ؟

- دعك + + + دعك !

لا شك فى أنك عذبت هذا المسكين نيقولا عذاباً شديداً ، عذاباً
 سيكولوجياً + + + على طريقتك + + + الى أن اعترف + لا شك فى أنك
 ظلمت تحقنه ليلاً نهاراً بقولك : « أنت القاتل ، أنت القاتل » + والآن
 وقد اعترف ستمضى تحقنه بنعمة أخرى قائلاً له : « أنت تكذب + لست
 أنت القاتل + لا يمكن أن تكون أنت القاتل + لقد دُفعت الى التظاهر
 بأنك أنت القاتل ، ولكن + + + » + فكيف لا تكون وظيفتك سخيفة
 والحالة هذه ؟

- هىء هىء هىء ! + اذن لقد لاحظت منذ قليل ما قلته أنا لنيقولا
 من أنه « يردد ما لقن » ؟

- كيف لا ألاحظ ذلك ؟

- ها + + + انك لحاضر الذهن حقاً ! انك تلاحظ كل شىء ! ان لك
 فكراً فكهاً حاداً ! لقد عرفت كيف تضرب على وتر السخرية + هيه + + +
 يقال ان جوجول كان ، بين سائر الكتاب ، هو الذى يملك هذه الموهبة
 الى أقصى درجة ، أليس كذلك ؟

- نعم ، جوجول +

- صحيح + هو جوجول + الى اللقاء !

عاد راسكولنيكوف الى بيته رأساً . وكان قد بلغ من شدة الارهاق والاعياء أنه ما كاد يصل حتى ارتدى على ديوانه ، فمكث عليه ربع ساعة لا لشيء الا ليستريح ويستجمع شتات أفكاره . لم يحاول حتى أن يعلل سلوكه فيقول . كان مذهولاً مشدوهاً . كان يرى في اعترافه فيقول شيئاً يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب ، شيئاً لا يستطيع على كل حال أن يدرك معناه وأن ينفذ الى كنهه . ولكن النتائج لم تلبث أن تبدت له واضحة جلية : ان كذب هذا الاعتراف لا بد أن يظهر ، ولا بد أن يعودوا اليه ويتشبهوا به من جديد . على أنه سيقى حراً الى أن يحين ذلك الحين . فينبغي له حتماً أن يقوم بشيء ما ليضمن سلامته ، لأن الخطر متربص به فلا يمكن تفاديه !

لا يمكن تفاديه ؟ الى أي حد ؟ وأخذ الموقف يتضح . فحين تذكر راسكولنيكوف ، « على وجه الاجمال » ، المشهد الذي جرى بينه وبين بورفير ، لم يستطع أن لا يرتجف خوفاً . صحيح أنه لا يعرف أهداف بورفير بعد ، ولا يستطيع أن يدرك جميع حساباته . ولكنه قد اكتشف جزءاً من لعبته ، وما من أحد يستطيع كما يستطيع راسكولنيكوف أن يفهم مدى الخطر المتربص به من « اللعبة » التي حاولها بورفير . لقد أوشك راسكولنيكوف أن يفضح نفسه فضحاً تاماً بأن يقدم لبورفير وقائع ثابتة . كان بورفير يعرف ما يتصف به راسكولنيكوف من اندفاع مرضى ، وقد نفذ الى حقيقة طبعه منذ أول نظرة ، فكان يسير بخطى واثقة مطمئنة ، وان يكن قد أسرف في التعجل بعض الاسراف . صحيح أن راسكولنيكوف قد تورط في كلامه مع بورفير ، ولكنه لما تقدم له « وقائع ثابتة » . فليس هناك حتى الآن الا ظنون وتخمينات . ولكن هل كان يرى الموقف على حقيقته ؟ ألم يكن مخطئاً البتة ؟ ما هي النتيجة المعينة المحددة التي كان بورفير يسعى اليها اليوم ؟ هل كان قد دبّر

شيئاً لهذا اليوم نفسه ؟ ما عسى يكون هذا الشيء على وجه الدقة ؟ أكان يتوقع شيئاً ما ؟ كيف كانا سيفترقان منذ قليل لولا أن نزلت ، بفضل نيقولا ، تلك النازلة التي لم تكن في الحسبان ؟ كان بورفير قد اكتشف كل لعبته تقريباً • صحيح أنه قد أسرف في التعجل بعض الاسراف ، ولكنه قد اكتشف لعبته على كل حال (أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في أقل تقدير) • ولو كان يملك معلومات أخرى لما قصر في اظهارها والاستناد إليها • ثم ما هي تلك المفاجأة التي ألمع إليها ؟ أكانت هذه مزاحاة ؟ وهل لهذه المزاحاة من معنى أم هي ليست بذات معنى ؟ هل في باطنها شيء يشبه أن يكون قرينة قاطعة أو واقعة ثابتة ؟ هل يرتبط هذا برجل الأمس ؟ وأين اختفى ذلك الرجل ؟ أين هو اليوم ؟ ذلك أنه اذا صدق أن بورفير يملك شيئاً اثباتياً ، فلا يمكن أن لا يكون هذا الشيء ذا علاقة برجل الأمس •

ظل راسكولنيكوف جالساً على سريره ، مائلاً الى أمام ، واضعاً كوعيه على ركبتيه ، دافئاً وجهه في يديه • وما يزال ارتعاش عصبي يهز جسمه كله • ونهض أخيراً ، فتناول قبعته ، ولبث يحلم خلال لحظة ، ثم اتجه نحو الباب •

ان نوعاً من احساس تنبؤي كان يقول له انه في هذا اليوم على الأقل يستطيع أن يعد نفسه في أمان • وشعر فجأة بشيء من فرح : أراد أن يذهب الى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة • كان قد فات أوان حضور الدفن طبعاً ، ولكنه يستطيع أن يصل الى المأدبة في حينها ، فيرى هنالك صونيا فوراً •

توقف ، وفكّر ، وظهرت على شفتيه ابتسامة مريضة • وقال يردد بينه وبين نفسه :

– اليوم ! اليوم ! فى هذا اليوم نفسه يجب ***

وفى اللحظة التى همَّ فيها أن يفتح الباب ، ففتح الباب من تلقاء نفسه فجأة • ارتعش راسكولنيكوف ، وتراجع الى الوراء بوثبة • كان الباب ينفتح ببطء ورفق • وظهر شكل انسانى ، هو شكل الرجل الذى خرج بالأمس « من تحت الأرض » •

وقف الرجل على العتبة ، ونظر الى راسكولنيكوف صامتاً ، ثم تقدم فى الغرفة خطوة • هو اليوم كما كان بالأمس حزين الوجه جداً ، وها هو ذا يزفر زفرة كبيرة بعد لحظة قصيرة • ليس يعوزه الا أن يسند خده على راحة يده ، وأن يميل برأسه الى جانب حتى يشبه امرأة عجوزاً كل الشبه •

سأله راسكولنيكوف كالمجنون :

– ماذا تريد ؟

فلزم الرجل الصمت لحظةً أخرى ، ثم انحنى أمامه فجأة حتى كاد يلامس الأرض ، بل لقد لمس الأرض بيده اليمنى على كل حال •

صاح راسكولنيكوف يسأله :

– ماذا تفعل ؟

فقال الرجل بصوت خافت :

– أنا مذنب !

– ما ذنبك ؟

– أننى راودتنى أفكار شريرة خبيثة !

ونظر كل منهما الى الآخر • وتابع الرجل كلامه فقال :

– كنتُ منزعجاً • فلما جئتُ أنت فى ذلك اليوم ، ولعلك كنت

عندئذ في حالة سكر ، فطلبت من البوابين أن يقتادوك الى قسم الشرطة ، وألقيت أسئلة عن الدم ، ألمني أن أرى أنهم لم يكثرثوا بالأمر ، وعدوك سكران لا أكثر ، وبلغتُ من شدة الألم أنني أرققت فلم أستطع الى النوم سيلاً • واذ حفظت عنوانك ، فقد جئت مساء أمس أسألك •••

قاطعته راسكولنيكوف قائلاً وقد بدأ يفهم ويدرك :

- من الذي جاء ؟

- أنا ، أنا الذي أسأت اليك •

- أنت اذن من تلك العمارة ؟

- نعم ، ولقد كنت عند الباب الكبير مع الآخرين ، ألا تتذكر ؟
لى هنالك دكان صغيرة ، منذ زمن طويل • أنا أعمل في اصلاح الفراء ،
وأقوم بعملى فى بيتى • والأمر الذى ألمني خاصة •••

تذكر راسكولنيكوف تذكراً واضحاً ، على حين فجأة ، كل المشهد الذى جرى أمس تحت الباب الكبير • فقال لنفسه : حقاً كان هنالك ، عدا البوابين ، أشخاص عدة بينهم نساء • وتذكر أيضاً أن صوتاً من الأصوات قد اقترح اقتياده الى قسم الشرطة • انه لم ير وجه الرجل الذى تكلم حينذاك ؟ ولو قد رآه لما كان فى وسعه أن يتعرفه على كل حال • ولكن راسكولنيكوف يتذكر أنه التفت نحو الرجل وأجابه •

هذا هو اذن تفسير ليلة أمس تلك المروعة ! وأفزع ما فى الأمر أنه كاد يضيّع نفسه فعلاً بسبب حادثة « تافهة » الى هذا الحد من التافهة • ان هذا الرجل لا يستطيع اذن أن يروى شيئاً آخر غير ذهابه الى الشقة وسؤاله عن الدم • معنى هذا أن بورفير أيضاً لا يملك أى دليل قاطع ، لا يملك أية واقعة ثابتة ، عدا ذلك « الهذيان » ، عدا تلك « السيكولوجيا ذات الحدين » ، هو لا يتصور اذن واقعة أخرى

(ولا يجب عليه أن يتصور ، لا يجب عليه ، لا يجب عليه) ♦♦ ما النبى
 كان يمكن أن يصنعوه به اذن ؟ كيف كان يمكن أن يربكوه وأن
 يورطوه فى الاعتراف ولو اعتقلوه ؟ وينتج عن هذا اذن أن حادثة
 ذهابه الى الشقة لم يعلم بها بورفير بتروفتش الا منذ قليل ، وكان قبل
 ذلك يجهلها ♦

هتف راسكولنيكوف يسأل الرجل فجأة وقد ومضت فى ذهنه
 فكرة مباغتة :

- أأنت بنفسك قلت اليوم لبورفير ♦♦♦ اننى ذهبت الى هناك ؟

- بورفير ؟

- نعم ، قاضى التحقيق ♦

- صحيح ♦ قلت له ذلك ♦ فلأن البوابين لم يذهبوا اليه فى ذلك
 اليوم ، ذهبت اليه أنا ♦

- اليوم ؟

- قبلك بدقيقة واحدة ♦ وقد سمعت كل شيء ، كل شيء ، سمعت

كيف كان يعذبك ؟

- أين ؟ كيف ؟ متى ؟

- منذ قليل ، هناك ، عنده ، وراء الحاجز ♦ بقيت هنالك طول

الوقت ♦

- كيف ؟ أنت « المفاجأة الصغيرة » اذن ؟ ولكن كيف تمَّ

هذا ؟ قل !

بدأ الرجل يتكلم فقال :

- حين رأيت البوابين لا يريدون أن يطيعونى ، ويرفضون أن

يذهبوا الى قسم الشرطة بحجة أن الوقت متأخر ، وأن قاضي التحقيق سيؤاخذهم على أنهم لم يجيئوا اليه بسرعة أكبر ، تضايقت كثيراً ، وأرقت طول الليل ، وحصلت على معلوماتي • فلما حصلت عليها ، ذهبت الى قسم الشرطة في هذا الصباح • في المرة الأولى لم يكن القاضي هناك ، فرجعت بعد ساعة ، فلم أستقبل • وفي المرة الثالثة قبلوني • رويت للقاضي الأشياء كما وقعت ، فأخذ يركض في الغرفة وهو يلطم صدره بقبضة يده ، ويقول : « ماذا تفعلون معي يا عصابة من قطاع الطرق ؟ لو قد عرفت هذا لأرسلت جنوداً يجيئونني به ! » • وبعد ذلك خرج راكضاً ، ونادى أحداً ، فأخذ يكلمه في ركن • ثم عاد نحوي ، وأخذ يلقي عليّ أسئلة ويشتمني • لا مني كثيراً • وقصصت أنا عليه كل شيء ، وذكرت له أيضاً أنك بالأمس لم تجرؤ أن تجيئني ، وقلت له انك لم تتعرفني • عندئذ عاد يجري في الغرفة ويلطم صدره • كان يركض ركضاً ، وكان غاضباً • • • ومنذ ذُكر له أنك أتيت ، قال لي : « أسرع ، اختبي وراء الحاجز ، وابق هنالك بدون حراك ، مهما تسمع » • وحملني الىّ بنفسي كرسياً ، وأغلق عليّ الباب قائلاً : « قد استدعيتك » • ولكن حين جيء بنيقولا ، صرفني بعد أن صرفك فوراً • وقال لي : « سأستدعيتك مرةً أخرى لأستجوبك » •

– وهل استجوب نيقولا أمامك ؟

– صرفني بعد أن صرفك فوراً ، وأخذ يستجوب نيقولا •

توقف الرجل عن الكلام ، وانحنى مرةً أخرى ، ولامست احدى أصابعه الأرض مرةً أخرى ، وقال :

– اغفر لي وشايتي والاساءة التي ألحقتها بك •

فأجابه راسكولنيكوف :

– الله يغفر لك !

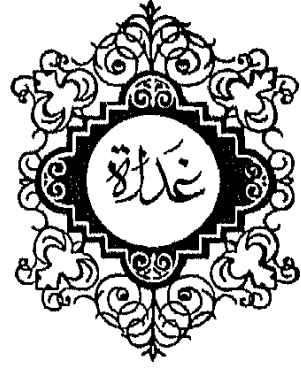
وبعد أن نطق الرجل بذلك الكلام انحنى مرة ثالثة ، ولكنه لم ينحن في هذه المرة حتى الأرض ، بل حتى الحزام فقط ، ثم استدار على عقبيه ببطء وخرج من الغرفة •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « كل شيء ذو حدين ، كل شيء هو الآن ذو حدين » • ثم غادر الغرفة هو أيضاً ، وقد أصبح واثقاً بنفسه أكثر من أى وقت مضى •

قال وهو يهبط السلم ويتبسم ابتسامة ساخرة : « الآن ستتابع الصراع » • وكانت الابتسامة الساخرة موجهةً ضدّ نفسه في هذه المرة : كان يتذكر عندئذ « جنبه » ، بكره واحتقار •

الجزء الخامس

الفصل الأول



اليوم المشؤم الذي جرت فيه المناقشة الحادة بين بطرس بتروفتش وبين دونيا وبولشيرييا ألكسندروفنا ، استيقظ بطرس بتروفتش من نومه وثاب الى صوابه ، فأدرك ممتعضاً أكبر الامتعاض ، أنه مضطر الى أن يقبل ، قبوله لواقع راهن حاسم ، الأمر الذي كان يبدو له بالأمس حادثة تشبه أن تكون خيالية مستحيلة رغم حدوثها فعلاً . ان الأفعى السوداء ، أفعى الأنانية الجريحة المهانة ، قد ظلت تعض قلبه طوال الليل . فما ان نهض عن فراشه حتى أسرع ينظر الى وجهه في المرآة . لقد كان يخشى أن يكون قد أصيب أثناء نومه بازدياد في افراز الصفراء . غير أن كل خطر من هذه الناحية كان ، حتى الآن على الأقل ، قد تمّ تفاديه . فلما تأمل في المرآة وجهه النحيل الأبيض المتعجّن قليلاً منذ بعض الوقت ، عزّاه وواساه أن يتصور أنه لا بد واجد في مكان ما خطيئة قد تشوقه أكثر مما شاقته دونيا . ولكنه لم يلبث أن رجع عن وهمه ، فبصق بصقة قوية من شدة غضبه ، فأثار ذلك ابتسامة خرساء لكنها ساخرة في شفتي صديقه الشاب أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف الذي يسكن معه . ولم تغب هذه الابتسامة عن نظر بطرس بتروفتش الذي أسرع يحقد عليه بسببها مزيداً من الحقد بعد أن وقعت بينه وبينه في الآونة الأخيرة أمور كثيرة أخذها عليه وسجلها له . وتضاعف غضبه وحنقه حين قدّر فجأة أنه ما كان ينبغي

له أن يطلع آندره سيميونوفتش على نتائج المقابلة • هذه خطيئة ثانية يرتكبها منذ أمس بشدة الاندفاع ، وفورة الغضب ، وتسرع البوح ••• وشاءت المصادفات طوال ذلك الصباح ، كأنما عن قصد وعمد ، أن تنصب عليه المزعجات تلو المزعجات ، وأن تلاحقه المنغصات بعد المنغصات • فحتى في مجلس الشيوخ كان ينتظره اخفاق في القضية التي كان يعالجها • وقد أحقته خاصة مالك الشقة التي استأجرها بطرس بتروفتش استعداداً لزواجه المرتقب ، وأصلحها على نفقته هو • فان مالك الشقة هذا ، وهو رجل من رجال الحرف أصاب بعض الغنى ، وأصله ألماني ، قد رفض رفضاً قاطعاً أن يفسخ بنداً واحداً من بنود عقد الايجار ، وأصرّ على أن يدفع له بطرس بتروفتش كامل الغرامة المنصوص عليها في العقد عند فسخ العقد ، رغم أن بطرس بتروفتش كان سيسلمه الشقة بعد أن جُددت تجديداً شبه تام • وهذا نفسه حدث في متجر الأثاث ، فان صاحب المتجر لم يشأ أن يرد اليه روبلاً واحداً من المبلغ الذي دفعه له عربوناً على شراء الأثاث ، رغم أن قطعة واحدة من قطع الأثاث لم تكن قد وصلت الشقة بعد • قال بطرس بتروفتش لنفسه صارفاً بأسنانه : « لن أتزوج مع ذلك خصيصاً من أجل أثارك ! » • وفي الوقت نفسه ومضت في ذهنه فكرة يائسة من جديد ، فتساءل : « أمن الممكن حقاً أن يكون كل شيء قد ضاع ، أن يكون كل شيء قد ضاع ضياعاً حاسماً ؟ ألا أستطيع مع ذلك أن أقوم بمحاولة جديدة ؟ » • وتراعت له صورة دونيتشكا الفاتنة الأخاذة ، فتمزق قلبه حسرةً ولوعةً من جديد ، وعانى عذاباً أليماً خلال دقيقة ، فلو كانت الرغبة وحدها في قتل راسكولنيكوف كافيةً لقتله ، لرغب تلك الرغبة على الفور •

وقال لنفسه وهو يعود الى غرفة ليزياتنيكوف كاسف البال مكتئب النفس حزيناً : « من أخطائي أيضاً أنني لم أعطيهم مالا ! شيطان يأخذني !

ما بالى تصرفت تصرف يهودى ؟ ولم يكن هذا مع ذلك عن بخل وشح ،
وانما أنا أردت أن أبقينهم فى حالة الحاجة والعوز ، حتى أجعلهم يعدوننى
منقذا ومخلصاً . . . آه . . . لو أننى أعطيتهم خلال هذه المدة . . . ألفاً
وخمسمائة روبل مثلاً ، لاعداد جهاز العرس . . . لو أننى قدمت هدايا
صغيرة ، لو أننى قدمت أنواعاً من تلك العلب الصغيرة واللوازم الضرورية
والمجوهرات والأقمشة وسائر تلك الأشياء التافهة التى يجدها المرء
فى متجر كنوب أو فى المتجر الانجليزى * بأثمان بخسة ، لو أننى فعلت
ذلك لجرت الأمور مجرى أوضح ، ولقامت المسألة على أسس أقوى
وأوطد . ما كان لدونيا عندئذ أن تفسخ الخطوبة بمثل ذلك الاستخفاف .
ذلك شأن هذا النوع من الناس : يعتقدون أنهم مضطرون حتماً عند فسخ
الخطوبة الى ردّ الهدايا والمال جميعاً . فلو كنت قد قدمت اليهم هدايا
ومالاً لعزّ عليهم ولشقى عليهم أن يردّوا . . . ثم ان ضميرها كان
سيعذبها اذا هى فكرت فى فسخ الخطوبة : كانت ستقول لنفسها : كيف ؟
أأطرد على حين فجأة رجلاً كان كريماً لطيفاً فى جميع الأوقات ؟ هم
. . . لقد ارتكبت خطأً فاحشاً . . . ثم أسرع بطرس بتروفتش ينعت
نفسه بأنه غبى وهو يصرف بأسنانه من جديد - بينه وبين نفسه طبعاً .

فلما وصل الى هذه النتيجة عاد الى بيته وقد ازداد الشر والحقق
فى نفسه أضعاف ما كانا عليه عند خروجه منه . وقد لفتت انتباهه
الاستعدادات التى كانت قائمة فى غرفة كاترين ايفانوفنا لمأدبة الجنازة .
كان قد سمع عن هذه المأدبة منذ أمس كلاماً غامضاً ، حتى لقد كان
يخيّل اليه أنه يتذكر أنه دُعى الى هذه المأدبة ، ولكنه لاستغراقه فى
همومه الخاصة لم ينتبه الى اى شىء عداها . وأسرع يستطلع مدام
لييفكسل التى كانت أثناء غياب كاترين ايفانوفنا فى المقبرة منهمكةً حول
المائدة ، وكانت تهمّ أن تنهض ، فعرف أن المأدبة ستكون فخمة وأن جميع

المستأجرين مدعوون إليها ، حتى الذين لم يعرفوا منهم المتوفى ، بل وحتى آندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف ، رغم اشتجاره حديثاً مع كاترين ايفانوفنا ، وأنه هو نفسه ، بطرس بتروفتش ، ليس مدعواً فحسب ، بل هو الى ذلك يُنتظر حضوره بفارغ صبر ، لأنه بين سائر المستأجرين أعلاهم شأنًا وأعظمهم قدراً • وقد دُعيت أيضاً آماليا ايفانوفنا بكثير من الاحترام والاحتفال ، رغم ما وقع بينها وبين كاترين ايفانوفنا فى الماضى من حوادث طارئة مؤسفة ، وهى الآن لهذا السبب سيدة المنزل وربة البيت ، ولا يخلو ذلك من أن يُحدث لها لذة ومسرة • وهى فوق هذا كله ، رغم ارتدائها ثياب الحداد ، تتبخر بثوب من حرير ، جديد أنيق رشيق ، مزدان بزخارف كثيرة ، تبدو فخورة به متباهيةً معتزة •

هذه الوقائع كلها وهذه المعلومات كلها أُوحت الى بطرس بتروفتش بفكرة ما ، فلما دخل غرفته أو قل غرفة آندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف كان مشغول البال بتلك الفكرة ، ذاهلاً بها عمماً عداها • ذلك أنه قد عرف أن راسكولنيكوف أحد المدعويين •

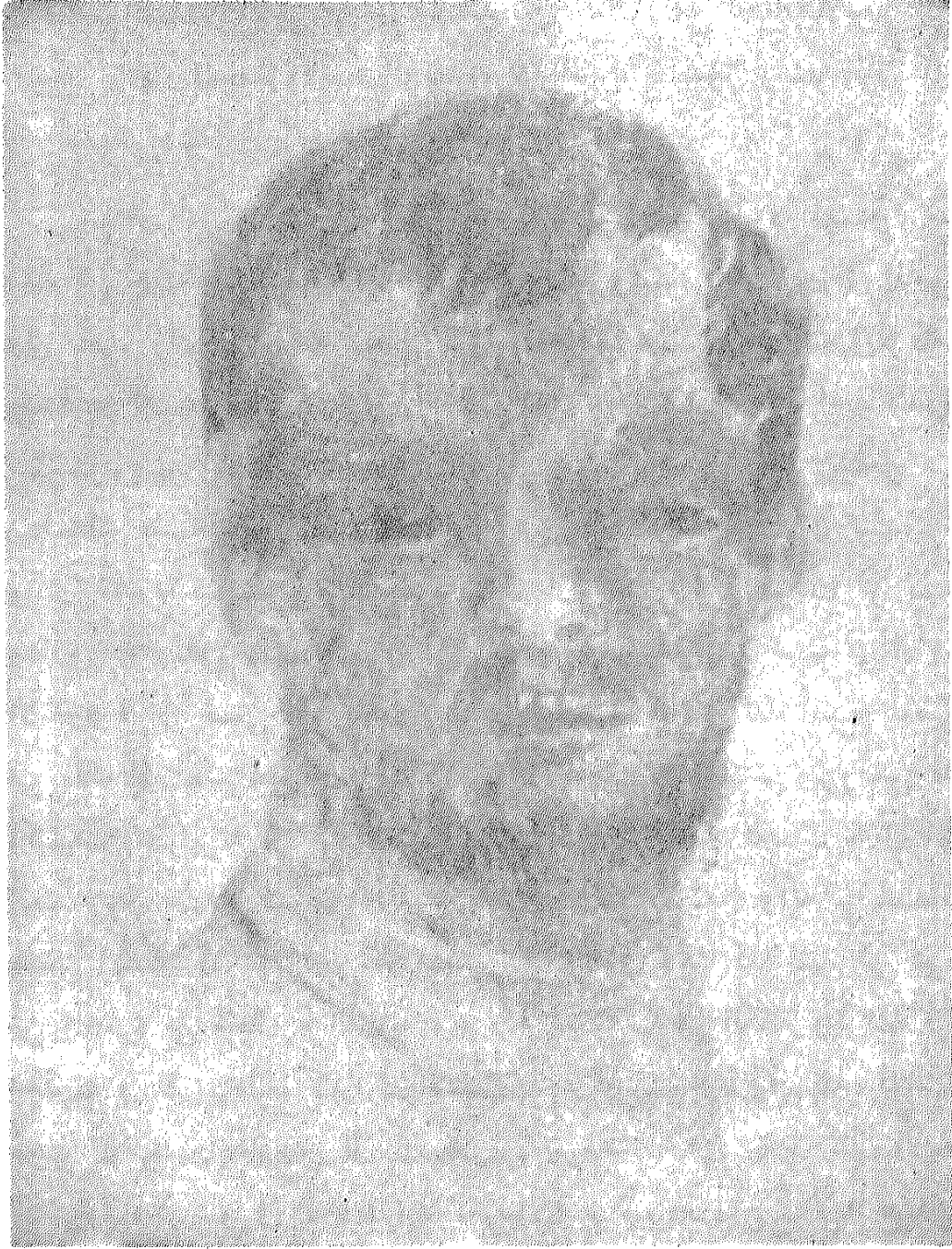
لسبب من الأسباب قضى آندره سيميونوفتش ذلك الصباح كله فى غرفته • وكانت قد قامت بين هذا السيد وبين بطرس بتروفتش علاقات غريبة لكنها طبيعية على كل حال : كان بطرس بتروفتش يحتقر ليزياتنيكوف ويكرهه أشد الكره ، تقريباً منذ اليوم الذى أقام فيه عنده ؛ ومع ذلك كان يبدو عليه فى الوقت نفسه أنه يخشاه بعض الخشية • لقد نزل عند آندره سيميونوفتش منذ وصوله الى بطرسبرج ، لا بسبب البخل الشديد فحسب - رغم أن هذا هو الدافع الرئيسى فى حقيقة الأمر - بل لسبب آخر أيضاً • انه ، وهو فى الريف ، قد سمع عن ربيه اليتيم آندره سيميونوفتش ، أنه شاب تقدمى متطور ، بل وأنه يلعب دوراً هاماً لدى بعض الفئات الغريبة التى أصبحت أشبه بالأساطير • فتأثر بطرس بتروفتش

بهذه الصورة التي قامت في ذهنه عن صاحبه • ان هذه الفئات القوية ،
العامة بكل شيء ، التي تحتقر جميع الناس ، وتفضح جميع الناس ، كانت
توحى اليه منذ مدة طويلة برهبة خاصة هي رهبة غامضة على كل حال •
لا شك أنه لاقامته بالأقاليم لم يستطع أن يكون لنفسه فكرة دقيقة (حتى
ولا تقريبية) عن شيء « من هذا النوع » • كل ما هنالك أنه سسمع ،
كسائر الناس ، أنه يوجد ، في بطرسبرج خاصة ، أناس يسمون تقديمين
أو عدميين أو مصلحين * ، النخ ، ولكنه كان ، ككثير من الناس ، يضحّم
دلالة هذه الألفاظ ومعناها ، حتى ليشوّهها تشويهاً عجيباً • وهو منذ بضع
سنين انما يخشى « الشهيرات » العامة أكثر مما يخشى أى شيء آخر •
نعم ، ذلك هو الأساس الرئيسى الذى تقوم عليه مخاوفه المتصلة المتزايدة ،
ولا سيما حين يحلم بنقل مركز نشاطه وأعماله الى بطرسبرج • بهذا
المعنى نستطيع أن نقول انه كان « مروّعاً » حقاً كما يُروّع الأطفال
الصغار فى بعض الأحيان • انه قبل هذه الآونة بضع سنين ، قد شهد
فى الريف ، وكان ما يزال فى بداية مزاولته مهنته ، حالة رجلين من
أصحاب التأثير والنفوذ أصابتهما تلك الشهيرات العامة فالت منهما بقسوة
شديدة • وقد دافع هو عن ذينك الرجلين فكانا يحميانه ويرعبانه بعد
ذلك • فأما احدى القضيتين فقد انتهت بالرجل الذى ناله التشهير الى
الفضيحة والجرسة ، وأما القضية الثانية فكانت لصاحبها مصدر كثير من
المتاعب والنكد • ذلكم هو السبب الذى جعل بطرس بتروفتشس يحرص
منذ وصوله الى بطرسبرج على أن يوضح لنفسه الأشياء ، وأن يفهم
الأحوال ، وأن لا تفوته المبادرة اذا اقتضى الأمر ذلك ، فى سبيل أن ينال
الخطوة لدى « أجيالنا الشابّة » • وكان يعوّل فى هذا على آندره
سيميونوفتشس • وعلى هذا النحو انما استطاع ، مثلاً ، حين التقى
براسكولنيكوف ، أن يقول بضع عبارات منمقة جاهزة مستمدة من غيره •

وهو لم يلبث ، بطبيعة الحال ، أن اكتشف في آندره سيميونوفتش شخصاً عادياً تافهاً غراً الى أبعد الحدود . ولكن ذلك لم يغيّر رأيه ، ولبث قلقاً غير مطمئن . انه على وجه الاجمال لا شأن له بهذه الأفكار كلها (التي كان آندره سيميونوفتش يقرع بها أذنيه ، ويصدّع بها رأسه) ، وانما كانت له غاية معينة وهدف محدد : كان يريد أن يعرف ، بأقصى سرعة ، « ماذا » حدث هنا و « كيف » حدث ؟ هل هؤلاء الناس أقوياء لهم حول وطول ، وسلطان ونفوذ ؟ هل عليه هو أن يخشى شيئاً ما ؟ أترأه يوشى به اذا هو شرع في هذا الأمر أو ذلك ؟ واذا وُشى به ، فما هي النقاط التي ستكون محل الوشاية وموضع التنديد والشهير ؟ بل أكثر من ذلك : ألا يستطيع المرء ، اذا هم كانوا أقوياء ذوى سلطان ، أى يتسلل اليهم بطريقة أو بأخرى وأن يغشهم ويضلّهم ؟ أهذا ضرورى حقاً أم لا ؟ أليس فى وسع المرء ، بواسطتهم ، أن يهيم لنفسه نجاحاً فى عمله وتقدماً فى مهنته مثلاً ؟ بايجاز : كانت مئات من الأسئلة تلقى نفسها عليه .

وكان آندره سيميونوفتش هذا ، وهو مستخدمٌ فى مكان ما بمثابة موظف ، كان رجلاً هزليلاً بائساً عليلاً ؛ وهو قصير القامة ، أشقر شقرةً غريبة ، له على جانبيه خديه لحيّتان يبدو مزهواً بهما زهواً شديداً . وهو فوق ذلك يشكو من أوجاع فى عينيه دائماً على وجه التقريب . واذا كان طبعه رخواً فان أحاديثه تدل على غرور يبلغ فى بعض الأحيان حد الغطرسة الوقحة ، وذلك يتنافى مع شكله وقامته تنافياً مضحكاً .

على أنه كان عند آماليا ايفانوفنا يُعدُّ من أحسن المستأجرين ، لأنه كان لا يشرب ، ولأنه كان يدفع أجر غرفته فى مواعده على نظام مطرد لا يتخلف . غير أن آندره سيميونوفتش كان رغم جميع هذه المزايا



ليزيا تنيكوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسنديا كورساكوفا

رجلاً غيباً في حقيقة الأمر • ان العاطفة الهوجاء هي التي ربطته بالآراء
التقدمية و « أجيالنا الصاعدة » • انه واحد من تلك الفئة الكبيرة من
الأغبياء والفاشلين الذين لا يفوتهم أبداً أن يتعلقوا على الفور بالأفكار التي
يعرفون أنها رائجة رواج « الموضة » ، والذين يفسدون ويشوهون كل
ما يستعملونه ، ولو كان تعلقهم به صادقاً مخلصاً •

ثم ان ليزياتنيكوف ، رغم أنه مسالم الى أبعد حدود المسالمة ، قد
أخذ من جهته يضيق ذرعاً بصاحبه بطرس بتروفتش الذي كان في الماضي
ولى أمره والوصى عليه ، حتى أصبح لا يطبق احتمال مساكنته في غرفته.
نشأ بين الرجلين كليهما نفورٌ متبادل من تلقاء نفسه • لقد أخذ آندره
سيميونوفتش يلاحظ ، رغم غيابه ، أن بطرس بتروفتش يسخر منه
ويضحك عليه ويحتقره ، وأنه ليس في حقيقته ما يحب أن يبدو •
وكان آندره سيميونوفتش قد حاول أن يشرح له نظريات فورييه
ودارون ، ولكن بطرس بتروفتش أصبح يحلو له ، ولا سيما في الأيام
الأخيرة ، أن يصغى الى كلامه ساخراً مستهزئاً ، حتى لقد أصبح يمضى
في ذلك الى حد اهاتته • وانما نشأ ذلك عن أن بطرس بتروفتش قد
اكتشف بغريزته أن ليزياتنيكوف ليس رجلاً غيباً فحسب ، بل أنه
أيضاً رجل متبجح ليس له أية علاقات هامة في بيئته ، وأنه لم يسمع
ببعض الأفكار الا على نحو غير مباشر ، وأنه فوق ذلك كله ليس على شيء
من المقدره في مجال « الدعاية » ، لأنه يضطرب في الكلام ويرتبك في
الحديث ، فلا يستطيع كثيراً أن يشهرّ بأحد أو بشيء • وفي هذه المناسبة
يجب أن نشير عابرين الى أن بطرس بتروفتش كان خلال تلك الأيام
العشرة (ولا سيما في البداية) قد استقبل ، برضى وارتياح ، الأماديج التي
كان يكيلها له آندره سيميونوفتش ، حتى ولو كانت غريبة جداً ، أو قل
على الأقل انه لم يكن يرفضها أو يعترض عليها • كان يصمت مثلاً حين

ينسب إليه آندره سيميونوفتش أنه يتنوى أن يعاون قريباً ، بل قريباً جداً ، في انشاء « كومون » جديدة في مكان ما بشارع ميشتيانسكايا (شارع البورجوازيين) أو حين ينسب إليه أنه ينوى أن لا يمنع دونيا من أن تتخذ لها عشيقاً ولو شاء لها هواها أن تفعل ذلك منذ الشهر الأول بعد الزواج ؛ أو حين ينسب إليه أنه لن يعمد الأولاد الذين سيولدون له ، النخ . كان بطرس بتروفتش ، على عادته ، لا يُنكر المزايا التي تُنسب إليه ، حتى لقد كان يسمح بأن تكال له أماديح من ذلك النوع ، فإلى هذا الحد كان يحب أن يُمدح .

ان بطرس بتروفتش الذي بدّل هذا الصباح عدداً من السندات لبعض الأسباب ، جالسٌ الآن الى المنضدة يراجع عدداً حزم الأوراق المالية . وهذا آندره سيميونوفتش الذي لم يكده يملك مالا في يوم من الأيام يتجول في الغرفة ويتظاهر بأنه ينظر الى حزم الأوراق المالية بغير اكرات ، بل وباحتقار . ولكن بطرس بتروفتش لم يكن يستطيع أن يصدّق أن آندره سيميونوفتش ينظر الى هذه الحزم بغير اكرات حقاً . وكان آندره سيميونوفتش من جهته يتصور بكثير من المرارة أن بطرس بتروفتش ربما كانت تدور في رأسه تلك الفكرة ، وربما كان يجد فيها لذة ، وربما كان يريد أيضاً ، بعرض هذه الأوراق المالية ، أن يسخر من صديقه الشاب ، وأن يذكره على هذا النحو بكل تفاهته ، وبكل الفرق بينهما وبكل المسافة التي تفصلهما .

وقد وجده في ذلك اليوم أكثر حدة ، وأقل انتباهاً منه في أي وقت مضى ، رغم أنه هو آندره سيميونوفتش قد اندفع يشرح نظريته المفضّلة في ضرورة اقامة « كومون » جديدة من نوع خاص . ان الملاحظات القصيرة التي كان يرسلها بطرس بتروفتش مع انشغاله بتنقيح الكرات على أسلاكها في جهاز العدّ ، كانت تتسم بسخرية واضحة

وتتصف بقلة الكياسة • ولكن آندره سيميونوفتش ، هذا الداعية من دعاة « الأفكار الانسانية » ، كان ينسب اعتكار مزاج بطرس بتروفتش الى الأثر الذي أحدثته في نفسه فسخ الخطبة ؛ وكان يحترق شوقاً الى التعرض لهذا الموضوع بأقصى سرعة ، لأنه يريد أن يدلى في هذا الصدد ببعض الآراء التقدمية التي قد تواسى صديقه المحترم ، والتي « لا بد » أن تكون نافعة في تطوره المقبل •

قاطع بطرس بتروفتش صاحبه في أهمّ موضع من حديثه سائلاً على حين فجأة :

— ما مادبة الجنازة هذه التي تُهيأ عند تلك ... الأرملة ؟
فأجابه آندره سيميونوفتش باستغراب قائلاً :

— كأنك لا تعلم ! لقد حدثتك عن أمر هذه المادبة أمس ، حتى لقد شرحت لك آرائي في هذا النوع من الاحتفالات • ثم اننى قد سمعت أنها دعتك أنت أيضاً • وقد كلمتها أنت نفسك بالأمس •

— ما كنت أتوقع أن تبدد هذه الغيبة التي صارت شحاذاة ، ما كنت أتوقع أن تبدد في سبيل حفلة عشاء كل المال الذي أخذته من ذلك الغيبى الآخر ... أقصد راسكولنيكوف ! لقد دُهشت منذ قليل حين مررت بمسكنها • استعدادات عظيمة ! حتى الخمر لا ينقص هذه المادبة !

وتابع بطرس بتروفتش كلامه يريد أن يجرّ الحديث الى غاية لا يعرف المرء ما هي :

— دُعى أشخاص كثيرون ... الشيطان وحده يعلم ...
ثم أضاف يسأل فجأة وهو يرفع رأسه :

— ماذا ؟ تقول اننى مدعو أيضاً ؟ متى دعيت ؟ لا أذكر أننى دُعيت !

على أنني لن أحضر • ما عساني فاعلاً هناك ؟ كل ما في الأمر أنني قلت لها بالأمس ، عابراً ، ان في وسعها أن تحصل ، لأنها أرملة موظف معوزة ، على معونة يساوي مقدارها مرتبات سنة • أتراها دعنتي لهذا السبب وحده ؟ هيء هيء !•••

قال ليزياتنيكوف :

- أنا أيضاً لا أنوى أن أحضر •

- أمل ذلك • فقد ضربتها ضرباً مبرحاً بيديك ، فمن الطبيعي جداً أن يعذبك ضميرك اذا أنت فكرت في الذهاب الى عندها •

سأله ليزياتنيكوف بقوة وحرارة وقد احمر وجهه :

- من ذا ضربت ضرباً مبرحاً ؟ عنن تتكلم ؟

- عن كاترين ايفانوفنا طبعاً • لقد ضربت كاترين ايفانوفنا مند شهر ؟ أو هذا ما سمعته أمس على الأقل • انظروا الى رجال المبادئ والعقائد هؤلاء ! هذه طريقتهم في حل قضية المرأة ! هيء هيء هيء !

وكانما خففت هذه الكلمات عن بطرس بتروفتش ، فعاد ينهمك في حساباته •

وصاح ليزياتنيكوف يقول بلهجة حانقة معتازة ، وكان لا يطيق أن يذكره أحد بتلك القصة :

- ما هذه الاحماقات ونمائم • ما هكذا جرت الأمور ، وانما جرت الأمور على نحو آخر تماماً ! لم يطلعوك على الواقع كما حدث • هذه أقاويل ، هذه أقاويل لا أكثر ! أنا انما دافعت عن نفسي فحسب ! فهي التي هجمت على مكشّرة عن أنيابها منسبةً مخالباها ، فما زالت بي حتى

تفت لي حيةً بكاملها ! أحسب أن من حق كل انسان أن يدافع عن نفسه • ثم اننى لا أسمح لأى مخلوق أن يعتمد فى معاملتى الى العنف ، وذلك ايماناً منى بمبدأ لا أحمده ، لأن العنف استبداد • فماذا كان يجب علىّ أن أفعل ؟ أبقى أمامها ميسوط الذراعين ؟ كل ما فعلته هو أننى دفعتها عنى •

كان لوجين ما يزال يقهقه بوحشية :

- هىء هىء هىء !•••

- أنت تسعى الى مشاجرتى ، لأنك معتكر المزاج • وهذه حماقات لا شأن لها بقضية المرأة اطلاقاً ، اطلاقاً • لقد فهمت الأمر مقلوباً • اننى لأعتقد أنه متى اعترف المرء بأن النساء مساوية للرجال فى كل شىء ، حتى فى باب القوة (كما يؤكد هذا منذ الآن) ، فقد وجب الإبقاء على المساواة فى هذه الحالة أيضاً • طبعاً •••• أنا قلت لنفسى بعد ذلك ان أمثال هذه المسائل ينبغى أن لا تطرح أصلاً ، لأن المنازعات ما ينبغى أن توجد ، حتى انها ستكون فى مجتمع المستقبل أموراً لا يمكن تصورها ، وانه لشىء غريب ، تبعاً لذلك ، أن نشهد المساواة فى مشاجرة • أنا لست غيباً الى الحد الذى •••• رغم أن المشاجرات ما تزال قائمة طبعاً بانتظار ذلك •••• أعنى أن المشاجرات ستزول فى المستقبل ، لكنها ما تزال الى اليوم موجودة •••• هو ! ان المرء ليرتبك حين يكلمك ، وتختلط عليه الأمور •••• مهما يكن من أمر فليس هذا هو السبب فى اننى لن احضر العشاء • وانما أنا أمتنع عن حضوره تقيداً بالمبدأ ، حتى لا أشارك فى هذه العادة السخيفة من العادات الاجتماعية ، أعنى مأدبة الجنائز • نعم ، ذلك هو السبب • على اننى قد احضر المأدبة ، ولو لأضحك منها ، واستهزىء بها •••• من المؤسف أنه لن يكون هنالك قس ، والا لما فوتت على نفسى فرصة الحضور •

- أى أنك كنت ستجلس الى مائدة الناس لتبصق بعد ذلك فى الأطباق ، ولتبصق أيضاً على أولئك الذين دعوك ؟ أليس كذلك ؟

- ليس الأمر أمر بصاق بل أمر احتجاج • أنا ان فعلت ذلك فانما أفعله لتحقيق أهداف مفيدة • ففى وسعى بهذا أن أنفع التقدم وأن أنفع الدعاية نفعاً غير مباشر • ان على كل انسان أن يساهم فى تنمية الدعاية ، وكلما فعل ذلك على نحو قاطع كان هذا أجدى • ان فى امكانى أن ابذر الفكرة ، أن ألقى البذرة • ومن هذه البذرة ستخرج حقيقة • فىم اسىء اليهم اذا فعلت ذلك ؟ قد يشعرون فى أول الأمر طبعاً بأن اساءةً لحقتهم ، ولكنهم سيرون بعد ذلك هم أنفسهم أننى كنت نافعاً لهم • انظر الى قضية المرأة تيربييفا عندنا (المرأة التى تنتمى الآن الى الكومون) ••• لقد تركت أهلها واستسلمت لرجل ، فأخذوا عليها أنها كتبت الى أبويها قائلةً انها أصبحت لا تريد أن تعيش فى الأوهام الاجتماعية ، وانها تؤثر الزواج الحر • لقد قال الناس عندئذ ان تصرفها ازاء أبويها كان فيه كثير من الغلظة ، وانها كانت تستطيع أن تراعيهما وتداريهما ، وكانت تستطيع على الأقل أن تستعمل فى رسالتها أسلوباً أرق • أما أنا فأرى أن هذا الكلام كله سخف ، وان على المرء أن لا يستعمل أسلوب الرقة أبداً • بالعكس : لا بد من الاحتجاج ••• وانظر الى المرأة فارتس : لقد عاشت مع زوجها سبع سنين ، ثم تركته وتركت ولديها ؛ وفى الرسالة التى بعثت بها اليه لم تتخرج من سرح رأيها بوضوح تام ، فقالت : « أدركت أننى لن أستطيع أن أكون سعيدة معك فى يوم من الأيام • ولن أغفر لك ، ما حييت ، أنك أخفيت عنى أن هناك تنظيمًا آخر للمجتمع على أساس الكومون • لقد عرفت ذلك حديثاً من رجل عظيم استسلمت له وسأشئ معه كوموناً • أقول لك هذا بصراحة ، لأننى أعتقد أنه ليس من الأمانة ولا من الشرف فى شئ أن أكذب عليك وأن أخدعك • دبّر

أمورك على النحو الذى يرضيك ، ولا تأمل أن ترانى عائدة اليك ***
 انك متخلف مسرف فى التخلف • أتمنى لك أن تكون سعيداً • « •
 هكذا انما ينبغى أن تكتب أمثال هذه الرسائل •

– أليست تيربيفا هذه هى تلك التى قلت لى انها الآن فى زواجها

الحر الثالث ؟

– لا بل هى فى زواجها الحر الثانى اذا نحن أحسنا النظر فى
 الأمور • وهبها فى زواجها الحر الرابع أو الخامس ، فأى ضمير فى هذا ؟
 لئن أسفت يوماً على موت أبوى فأنما أسفت على ذلك فى هذا اليوم •
 حتى لقد اتفق لى مراراً أن قلت لنفسى : لو كان أبواى حين لعرفت كيف
 أحتج عليهما ! نعم ، لو كانا حين لفعلت ذلك عامداً ، فأظهرتهما على
 آرائى ، وأدهشتهما أيما ادهاش ! حقاً اننى أتمنى لو أراهما حين ***
 حقاً انه ليؤسفننى أنهما ماتا !

قاطعهُ بطرس بتروفتش قائلاً :

– لتستطيع أن تدهشهما ؟ هى • هى ! *** طيب *** افعل ما يحلو
 لك *** ولكن قل لى : أنت تعرف بنت المتوفى طبعاً ، تلك الفتاة الصغيرة
 النحيلة ، فهل صحيح ما يقال عنها ؟

– ما قيمة هذا ؟ فى رأى ، أعنى فى قناعتى الشخصية أن وضعها
 هو الوضع الطبيعى للمرأة • لم لا ؟ أقصد *** « يجب أن نميز » • •
 لا شك أن وضعها هذا ليس فى المجتمع الحالى وضعاً طبيعياً ، لأنه ناشئ
 عن اضطرار واکراه ، أما فى المجتمع المقبل ، فسيكون وضعاً طبيعياً تماماً ،
 لأنه سينشأ عن اختيار حر • ثم ان هذه الفتاة من حقها ، الآن أيضاً ،
 أن تعيش كما تعيش • انها تتألم ، وألمها هو رأس مالها ان صحَّ التعبير ،
 ففى وسعها أن تتصرف فيه على النحو الذى تشاء • صحيح أن رهوس

الأموال هذه لن يبقى لها في مجتمع المستقبل علة وجود ، ولكن دور البغي سيتخذ دلالة أخرى ، وسيتم تنظيمه تنظيماً عقلياً • ولنرجع الآن الى شخص صوفيا سيميونوفنا : اننى أرى أن سلوكها هو في هذه الأزمنة احتجاج قوى مجسّد على نظام المجتمع ؛ وأنا لهذا السبب احترمها احتراماً عميقاً ، بل أكثر من ذلك اننى أعتبط لرؤيتها على هذه الحال •
- لكننى سمعتُ أنك قد طردتها من هذا البيت •

اعترت ليزياتنيكوف حالة غضب شديد عنيف ، وزأر يقول :

- هذه أيضاً نمائم ! ان الأمور لم تجر على هذا النحو ، لم تجر على هذا النحو قط ! حقاً انها لم تجر على هذا النحو ! ان كاترين ايفانوفنا هى التى اخترعت كل شيء ، لأنها لم تفهم شيئاً • أنا لم أحاول فى يوم من الأيام أن أحظى بصوفيا سيميونوفنا : كنت أكتفى بتثقيفها بعيداً عن كل مصلحة بريئاً من كل غاية ؛ كنت أحاول أن أنمى فيها روح الاحتجاج • لم أكن فى حاجة الا الى احتجاجها وحده • ثم ان صوفيا سيميونوفنا نفسها قد أدركت حق الادراك أنها أصبحت لا تستطيع أن تقيم هنا فى مسكن مفروش •

- هل كنت تدعوها الى الاشتراك فى الكومون ؟

- أنت لا تعيد الا السخرية ، ولكنك تخطيء هنا خطأ فادحاً • •
اسمح لى أن أقول لك ذلك ! • • • انك لا تفهم من أمر الكومون شيئاً • فى الكومون ، لا وجود لهذا الدور • وانما نُظِمَّت الكومون من أجل أن لا يكون لهذا الدور وجود • فى الكومون سيتغير هذا الدور تغيراً تاماً ، فما هو غبى هنا سيصبح ذكياً هنالك ، وما يبدو هنا فى الظروف الحالية مخالفاً للطبيعة سيصبح هنالك طبيعياً • كل شيء مرهون بالبيئة

التي يعيش فيها الانسان * كل شيء تحدده البيئة ، والانسان في ذاته لا شأن له * أما صوفيا سيميونوفنا فان علاقاتي بها ما تزال طيبة ، وهذا دليل على أنها لم تعددني في يوم من الأيام عدواً أو مسيئاً * نعم ، اننى أحاول الآن أن أجتذبها الى الكومون ، ولكن لأسباب أخرى تماماً * لماذا تضحك ؟ اننا نريد أن ننشئ كوموناً خاصة بنا ، ولكننا نريد أن ننشئ هذه الكومون على أسس أوسع من الأسس السابقة * لقد مضينا في اعتقاداتنا الى مدى أبعد ، وأنكرنا أشياء أكثر ، فلو خرج دوبروليوبوف من قبره لتشاجرت معه حتماً ، ثق بذلك ! أما بيلنسكى فلو خرج من قبره لأبدته ابادة ! * وأنا الآن مستمر في تنشئة صوفيا سيميونوفنا * ان لها طبيعة طيبة حسنة ، حسنة جداً !

– هياً ! انك تستفيد من هذه الطبيعة الطيبة الحسنة ! هىء هىء ..

– أنا ؟ لا ، لا ! بالعكس ...

– بالعكس ؟ أنت تقول هذا الكلام ؟

– فى وسعك مع ذلك أن تصدقنى * ما هى الأسباب التي يمكن أن تدفعنى الى اخفاء الحقيقة عنك ؟ هلاً أجبتنى من فضلك ؟ نعم ، هناك ظاهرة غريبة : لكأنها معى متحرجة ، وجلة ، بل وخجلة !

– وأنت أثناء ذلك مستمر فى تنشئتها ! هىء !... تبرهن لها على أن أنواع الحياء هذه كلها ما هى الا غباوات وبلاغات !...

– لا ، لا !... آه ... ما أغلظ وما أغبى تأويلك هذا لكلمة « التنشئة » ، اعذرني ! ألا انك اذن لا تفهم شيئاً على الاطلاق ! آه ... يا رب !... ما أشد تخلفك حتى الآن !... نحن ننشد حرية المرأة ، وانت ليس فى رأسك الا ... اذا تركنا جانباً مسألة العفة بوجه عام ، وهى شيء لا جدوى منه فى ذاته ، بل هى شيء سخيف أيضاً ، فاننى

أقبل تحفظها معى كل القبول : فما دامت هذه ارادتها فمن حقها أن ••
 طبعاً ، اذا قالت لى فى ذات يوم : « أنا أريدك » ، فسأعد ذلك حظاً
 سعيداً ، لأن هذه الفتاة تعجبني كثيراً • أما الآن ، الآن على الأقل ، فربما
 كان لا يوجد أحد يعاملها بمثل ما أعاملها أنا به من لطف ومداراة
 ومراعاة • اننى انتظر وآمل ، هذا كل شىء •

– الأفضل أن تقدم إليها هدية صغيرة • أراهن أن هذه الفكرة لم
 تخطر ببالك ، أليس كذلك ؟

– أنت لا تفهم شيئاً ، سبق أن قلت لك ذلك ! صحيح أنها مومس ،
 ولكن المسألة ليست هنا ، ليست هنا البتة ! أنت تحتقرها ، لا أكثر
 ولا أقل • انك بالاستناد الى واقعة مخلة بالشرف فى رايك ، تابى على
 كائن انساني أن ينظر إليها نظرة فيها روح انسانية • الا انك تجهل حتى
 طبيعتها ! ان هناك شيئاً واحداً آسف له ، هى أنها منذ زمن قد انقطعت
 عن القراءة انقطاعاً تاماً ، وأصبحت لا تستعير منى أى كتاب •
 كانت قبل ذلك تستعير منى كتباً • ومما يبعث على الأسف أيضاً أنها رغم
 كل ما تملكه من طاقة كبيرة ، ورغم كل ما تتصف به من عزم على
 الاحتجاج – لقد سبق أن برهنت على ذلك مرة – لا يبدو فيها قدر
 كاف من الاستقلال ، قدر كاف من ••• من السلبية ، قدر كاف من
 التأهب للتحرر نهائياً من أوهامها الاجتماعية ••• وسخافاتنا • ومع ذلك
 فهى تفهم بعض المسائل فهماً رائعاً • لقد أدركت أكمل الادراك مسألة
 تقويل اليد ، مثلاً • لقد أدركت أحسن الادراك أن الرجل حين يقبل يد
 المرأة انما يعدها أدنى منه منزلة وأقل قدراً • لقد ناقشنا هذه المسألة
 عندنا ، فسرعان ما ناقشتها معها • وقد أصغت الى بائبها شديد أيضاً
 حين كلمتها عن النقابات العمالية فى فرنسا • وأنا الآن بسبيل أن أشرح

لها مسألة حرية دخول الغرف على نحو ما ستطرح هذه المسألة
في المستقبل *

— ما هذه المسألة أيضاً ؟

— لقد أثيرت في الآونة الأخيرة هذه المسألة : هل من حق عضو
في الكومون ، رجلاً كان أو امرأة ، أن يدخل غرفة عضو آخر ، رجلاً
كان أو امرأة ، في أية ساعة من الساعات ... وقد تقرر أن له هذا
الحق *

— غريب ! ماذا لو كان العضو ، الرجل أو المرأة ، مشغولاً في تلك
الساعة بتلبية حاجة طبيعية ؟ هيء هيء ! ...

غضب آندره سيميونوفتش ، وصاح يقول مبغضاً :

— آه ... هانت ذا تعود الى هذه المسألة ! ان الأمر الهام في نظرك
انما هو هذه « الحاجات » اللعينة ! ألا انتى لأحقد على نفسى لأننى تكلمت
أمامك عن هذه الحاجات اللعينة ! شيطان يأخذك ! هذه عثرتك وعثرة جميع
أشباهك * وأنكى ما فى الأمر أنهم يلقون بهذا على رأسك قبل أن
يعرفوا ما هى المسألة * كأن ذلك من حقهم ! وكأن فى ذلك ما يدعو الى
الفخر والاعتزاز ! آ ... لقد سبق أن قلت غير مرة ان هذه المسألة
ما ينبغى أن تعرض أمام أعرار مبتدئين الا بعد أن يتم اكتسابهم وضمهم
الى المذهب * بتعبير آخر : ما ينبغى أن يعالج هذه المسألة الا انسان تطور
تطوراً كافياً وتحققت له تنشئة مناسبة * ثم قل لى : ما الذى تراه فى
المراحيض من شىء مخجل الى هذا الحد محتقر الى هذه الدرجة ؟ انتى
مستعد لأن أنظف ما تشاء من مراحيض * وصدقتى اذا قلت لك ان هذا
لا ينطوى على أى تضحية من جهتى * ذلك عمل كغيره من الاعمال ، بل
انه الأكبر كثيراً من عمل رجلٍ مثل رافايل أو بوشكين ، لسبب بسيط
هو أنه أكثر نفعاً * *

– وأكثر نبلاً ، أكثر نبلاً ، هيء هيء !... .

– ما معنى كلمة « النبيل » هذه ؟ اننى لا أفهم أمثال هذه التعبيرات حين يكون الأمر أمر وصف نشاط انساني . « أكثر نبلاً ! » . هذه ترهة ، هذه سخافة ، هذا وهم اجتماعى بالِ أرفضه وأحتقره . الشيء النبيل هو الشيء « النافع » للانسانية . ذلك هو الشيء النبيل حقاً . أنا لا أفهم الا كلمة واحدة ، وهذه الكلمة هي : « النافع » . اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك ، فذلك هو اعتقادى !

كان بطرس بتروفتشس يتمطى . لقد انتهى من حساباته وأخذ يرتب ماله . ولكنه أبقي جزءاً من هذا المال على المائدة ، لا يدري أحد لماذا .

ان مسألة المراهيض هذه كانت ، رغم تفاهتها ، سبباً لمشاجرات عدة بين بطرس بتروفتشس وصديقه الشاب . والغباء فى الأمر أن آندره سيميونوفتشس كان يغضب فعلاً ، أما لوجين فما كان يرى فى هذا الا فرصة للتسلية والاسترخاء . وكان فى تلك اللحظة خاصة يشتهى أن يُغَيظ ليزياتنيكوف .

– بسبب اخفاقك مساءً أمس انما أنت معتكر المزاج الى هذا الحد اليوم .

بهذا الكلام أفلت أخيراً لسان ليزياتنيكوف الذى كان رغم كل « استقلاله » ورغم كل روح « الاحتجاج » لديه ، لا يجرؤ فى العادة ان يعارض بطرس بتروفتشس معارضة صريحة ، وكان على وجه العموم يلتزم فى معاملته ما ألف أن يلتزمه فى معاملته منذ شبابه من كياسة وأدب واحترام .

وقد قاطعه بطرس بتروفتشس قائلاً بتعالٍ وامتعاض :

– قل لى : هل تستطيع أو هل أنت على قدر كاف من حسن الصلة وعمق المودة مع الفتاة المذكورة بحيث يمكنك أن ترجوها أن تأتي الى هنا حالاً؟ أظن أنهم لا بد أن يكونوا قد عادوا الآن جميعاً من المقبرة • لقد سمعت وقع أقدام ، و ••• أود لو أرى هذه الفتاة •

سأله ليزياتسكوف مدهوشاً :

– ولكن لماذا؟

فأجابه :

– هكذا ••• يجب أن أكلمها • اننى مسافر بين يوم ويوم ، وأحب أن أنقل اليها ••• فى وسعك أن تحضر حديثنا على كل حال ، بل ذلك أفضل ، والا فقد تتخيل ما لا يعلمه الا الله !•••

– لن أتخيل شيئاً البتة • وانما أنا ألقىت سؤالى هكذا ••• فاذا كنت فى حاجة الى أن تراها فلا أسهل من احضارها • أنا ذاهب لأجيبك بها • وثق اننى لن أزعجك •

وعاد ليزياتسكوف مع صونيا فعلاً بعد خمس دقائق • دخلت صونيا مدهوشة أشد الدهشة ، خجلة وجلة الى أقصى حد ، على عادتها • انها خجلة وجلة دائماً فى مثل هذه الأحوال • كانت منذ طفولتها تخشى التعرف الى أناس جدد ، وتخاف من الوجوه الجديدة ، وقد تفاقم هذا الميل عندها مزيداً من التفاقم الآن •

استقبلها بطرس بتروفنش استقبالاً « لطيفاً مهذباً » ، ولكنه أضاف الى هذا الاستقبال ، والحق يقال ، نوعاً من المرح والألفة يليقان ، فى رأيه ، برجل يبلغ ما يبلغه هو من نجد ووقار واحترام ، حين يعامل مخلوقة شابة الى هذا الحد ، « شائقة » الى هذه الدرجة ، بمعنى من المعانى •

وأسرع بطرس بتروفتش «يطمئن» صونيا سيميونوفنا ، ويجلسها أمام المائدة قبالة. جلست صونيا وألقت نظرةً حولها - على ليزياتنيكوف، وعلى المال الموضوع على المائدة ، ثم على بطرس بتروفتش فجأةً من جديد . ومنذ تلك اللحظة لم تحوّل بصرها عنه ، كأن شيئاً ما كان يشدها إليه .

اتجه ليزياتنيكوف نحو الباب ، فنهض بطرس بتروفتش ، وأمسك ليزياتنيكوف وهو يدعو صونيا بإشارة من يده الى أن تبقى جالسة . وقال يسأل صاحبه همساً :

- هل راسكولنيكوف ذاك هناك ؟ هل جاء ؟

فأجابه ليزياتنيكوف :

- راسكولنيكوف ؟ نعم ، هو هناك . فماذا ؟ نعم ، هو هناك . وصل منذ قليل ، رأيته . فماذا ؟

- أطلب منك ملحاً أن تبقى معنا ، أن لا تتركني في خلوة مع هذه . . . الفتاة . هذه قضية لا قيمة لها ، ولا يعلم الا الله ما عسى يُستنتج منها اذا . . . لا أريد أن يمضي راسكولنيكوف يتقول « هناك » . . . هل تفهم الى ماذا أشير ؟

أجاب ليزياتنيكوف وقد أدرك الأمر :

- أفهم ، أفهم . نعم ، أنت على حق . في قناعتى الشخصية أنك تضخّم الأخطار تضخيماً كبيراً . . . ولكنك مع ذلك على حق . طيب . سأبقى . سأمكث هنا ، قرب النافذة ، حتى لا أضايقك . . . في رأيى أنك على حق . . .

عاد بطرس بتروفتش نحو الأريكة ، وجلس قبالة صونيا ، ونظر

اليها بانتباه ، ثم لم يلبث أن اصطنع هيئة فيها كثير من الوقار والجد حتى لتكاد تكون نظرة قاسية ، وهو يقول لها بينه وبين نفسه « لا تخطرن ببالك الحواطر يا جميلة ! »

اضطربت صونيا وفقدت كل سيطرة لها على نفسها • وبدأ بطرس كلامه فقال بلهجة فيها كثير من الجد ، ولكنها لهجة متوددة في الوقت نفسه :

– أرجوك أولاً أن تتكلمي يا صونيا سيميونوفنا ، فتعذري عني لأملك المحترمة *** أليست كاترين ايفانوفنا بمثابة الأم لك ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كان يبدو على بطرس بتروفتش أنه يضمّر أحسن نيات الصداقة • فأسرعت صونيا توجيه مروّعة مذعورة :

– نعم ، حقاً ، هي لى بمثابة الأم •

– فاعتذري لها عن أنني لا أستطيع ، بسبب ظروف مستقلة عن ارادتي ، أن أجيء الى عندكم فأكل المعجنّات *** أقصد أن أشارك في مأدبة الجنّازة ، رغم الدعوة اللطيفة التي وجهتها اليّ •

– سأقول لها هذا ، فوراً ***

قالت صونيا ذلك ونهضت مسرعة •

فقال بطرس بتروفتش وهو يمنعها من القيام ، ويتسّم لسذاجة الفتاة ولجهلها بالمواضع الاجتماعية :

– ليس هذا كل شيء « بعد » • انك لتجهلينى اذن ، يا صونيا سيميونوفنا اللطيفة جداً ، اذا كنت تتصورين اننى لسبب يبلغ هذا المبلغ

من التفاهة ولا يتعلق الا بى أنا ، يمكن أن أسمع لنفسي بأن أزعج شخصاً مثلك • ان لى هدفاً آخر تماماً •

عادت صونيا تجلس بسرعة شديدة • وأخذت الأوراق المالية وأنواع العملة الباقية على المائدة تتراقص أمام عينيها من جديد ، فسرعان ما اشاحت وجهها عنها بقوة ، ونظرت الى بطرس بتروفتشس • لقد لاح لها فجأةً أنه عار رهيب عليها أن تنظر الى مالٍ ليس مالها ، لا سيما « وهى ما هى » • تلبث بصرها فى أول الأمر على النظارة ذات الاطار الذهبى ، التى كان بطرس بتروفتشس يمسكها بيده اليسرى ، وتلبث فى الوقت نفسه على الحاتم الجميل جداً ، الضخم جداً ، المزدان بحجر أصفر ، الساطع فى الأصبع الوسطى من تلك اليد نفسها • ولكنها حوّلت بصرها فجأةً ، واذ لم تعرف الى أين توجه عينيها ، حدّقت بهما الى عيني بطرس بتروفتشس لا تحركهما يمناً ولا يسرة •

وبعد فترة من صمت تابع بطرس بتروفتشس كلامه بلهجة فيها مزيد من الجدل أيضاً :

- أتيتحت لى أمس فرصة تبادل بضع كلمات مع المسكينة كاترين ايفانوفنا ؟ فأدركت من تلك الكلمات القليلة وحدها أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى حالة منافية للطبيعة ، ان صح التعبير •

فقال صونيا مؤيدة :

- نعم ••• فى حالة منافية للطبيعة •

- أو فى حالة مرضية اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح •

- ، نعم ، اذا أردنا الكلام بلغة أبسط وأوضح ••• نعم ••• هى

مریضة •

– هذه هي المسألة ... وقد هزنتى مشاعر انسانية ومشاعر عطف
ان صح التعبير ، فوددت لو أنفعها فى شىء ما ، لأننى أتنبأ بالمصير الشقى
البائس الذى سثول اليه لا محالة • يُخيل الى أن الأسرة التعيسة كلها
قد أصبحت تعتمد عليك وحدك •

سألته صونيا فجأة :

– اسمح لى أن أسألك ... هل صحيح أنك كلمتها أمس عن
امكان الحصول على معاش تقاعد ؟ ... لقد قالت لى أمس انك مستعد
لأن تتولى القيام بالمساعى اللازمة من أجل أن تحصل لها على هذا المعاش •
فهل هذا صحيح ؟

– غير صحيح البتة ، بل هو أيضاً سخف • كل ما فعلته هو اننى
أشرت الى جواز الحصول على نجدة مؤقتة يمكن أن تُدفع لأرملة موظف
مات أثناء الخدمة – وهذا لا يتحقق طبعاً الا اذا كان هنالك أناس يرعون
هذه الأرملة ويحمونها – ولكننى أعتقد أن أباك لم يستوف عدد السنين
المطلوبة فى الوظيفة ، حتى انه فى الآونة الأخيرة فقد صفة الموظف •
ومعنى ذلك ، باختصار ، أن الأمل الصغير الذى كان يمكن أن يراودنا
يضعف فى هذه الأحوال مزيداً من الضعف ، لأن حق أهلك فى التعويض
لا وجود له ... بالعكس ... فما أغرب أن تفكر أمك منذ الآن فى
معاش ! ... هى ، هى ، هى ! يا للسيدة المتعجلة ! ...

– نعم ... هى ... معاش ... لأنها سريعة التصديق ... وطيبة ...
وهى لأنها طيبة ، تظن أن ... وتصدق ... ثم ان فكرها قد خلق
هكذا • نعم ... معذرة ...

كذلك قالت صونيا مشوشة وهى تنهض من جديد لتصرف •
قال بطرس بتروفنش :

- اسمحى لى ! ... انك لم تسمعى بعد' كل شىء *

فجمجت صونيا تقول :

- نعم ، لم أسمع بعد' كل شىء *

وعادت صونيا تجلس مرة ثالثة وقد بلغت ذروة الارتباك

والاضطراب *

وتابع بطرس بتروفتش كلامه فقال :

- اننى ، وقد رأيت الحالة التى هى فيها مع ولدين بانسين ، رغبت ، كما سبق أن قلت لك ذلك ، فى أن أكون نافعاً لها بمقدار ما تتيحه لى وسائلى ، نعم بمقدار ما تتيحه لى وسائلى لا أكثر من ذلك * فمن الممكن مثلاً أن ننظم اكتاب تبرعات ، أو حتى أن ننظّم سحب يانصيب ، أو أى شىء آخر من هذا القبيل ... كما يحدث هذا فى حالة كهذه الحالة بين الأقارب أو حتى بين أجنب يريدون أن يهبوا الى مساعدة أناس نزلت بهم مصائب الدهر * فعن هذا المشروع انما أردت أن أحدثك * انه مشروع ممكن التحقيق *

ثأثأت صونيا تقول محدقةً الى بطرس بتروفتش فى عناد واصرار:

- نعم ، ذلك شىء حسن جداً ... جزاك الله خيراً ...

- الأمر ممكن ، ولكن ... سنتكلم عن هذا فيما بعد ... بل يمكننا أن نبدأ منذ اليوم * على كل حال سنلتقى فى هذا المساء ، وستتفق * سنرسي الأسس ، كما يقال * تعالى الى هنا فى نحو الساعة السابعة ... وسيحضر آندره حديثنا فيما آمل ... غير أن هناك أمراً يجب أن نبرزه ابرازاً خاصاً منذ الآن * ومن أجل هذا الأمر يا صونيا سيميونوفنا انما أبحث لنفسى أن أزعجك باستدعائك الى هنا * فى رأى أن المال الذى سنجمعه يجب أن لا نضعه بين يدي كاترين ايفانوفنا نفسها ، حتى ان فى ذلك

خطراً • ومأدبة هذا المساء دليل واضح على ذلك : ان كاترين ايفانوفنا وهى لا تملك لقمة تضعها تحت ضرسها غداً ، ولا تملك حذاءين تتعلمهما فتقى نفسها السير حافية ، لا تحبجهم اليوم عن شراء خمرة الروم الجامايكى بل والنيذ الماديرى والقهوة ، اذا لم يخطيء ظنى • لقد رأيت هذا كله عابراً • وغداً يقع كل شىء على عاتقك أنت ، ويكون عليك أن تقدمى لهم حتى خبزهم اليومى ، وذلك أمر لا يُعقل ! لهذا أرى أن ينظم اكتاب التبرعات بحيث لا تتمكن الأرملة المسكينة من أن ترى حتى لون المال ان صح التعبير ، وبحيث لا يطلع على الأمر أحد غيرك أنت • ألسنت على حق ؟

— لا أدرى ! ••• فى هذا اليوم وحده انما هى •• ذلك لا يحدث الا مرة واحدة فى الحياة ••• انها شديدة الرغبة فى أن تكرم ذكرى الراحل ••• وهى ذكية جداً • على كل حال ، افعل ما تراه مناسباً •• وسأكون ••• وسيكونون جميعاً ••• وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء ••• واليتامى ••

لم تكمل صونيا جملتها ، وأجهشت باكية •

قال بطرس بتروفتش :

— فكّرى جيداً فيما قلته لك • والآن أرجو بانتظار ذلك أن تقبلى عن أمك هذا المبلغ مشاركةً منى فى اكتاب التبرعات • وانى لآمل خاصةً أن لا يُذكر اسمى فى هذه المناسبة • يؤسفنى أن أعبأى الكثيرة لا تسمح لى بالتبرع بأكثر من هذا المبلغ •••

قال بطرس بتروفتش ذلك ومدّ الى صونيا ورقة مالية بعشرة روبلات عنى بطيئاً طياً دقيقاً • فتناولت صونيا الورقة المالية محمّرة الوجه خجلاً ، ثم نهضت بوئبة واحدة ، ودمدمت بضع كلمات ،

واستأذنت بالانصراف بسرعةً اسراعاً شديداً • فشيّعها بطرس بتروفتشس حتى الباب بأبهة وجمال • وخرجت آخر الأمر من الغرفة متعجلةً عصيةً مرهقةً ، وعادت الى كاترين ايفانوفنا وهي على حال من الاضطراب الشديد •

طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد كان آندره سيميونوفتشس ، الذي لم يشأ أن يقطع عليهما الحديث ، كان يبقى ساكناً قرب النافذة تارة ، أو يسير في الغرفة تارةً أخرى • فلما خرجت صونيا اقترب من بطرس بتروفتشس فجأةً ، ومدت اليه يده يصفحه برصانة ووقار ، قائلاً له :

– لقد سمعت كل شيء و « رأيت » كل شيء (ألحَّ آندره سيميونوفتشس على كلمة « رأيت » هذه الحاحاً خاصاً) • هذا عمل نبيل ، أقصد هذا عمل انساني ! لقد أردت أن تتحاشى كل تعبير عن الشكر والامتنان ، لاحظتُ أنا ذلك • صحيح أنني من ناحية المبدأ أعارض كل احسان أو بر ، لأن الاحسان أو البر لا يستأصل الشر بل يبقيه ويفغديه ، ولكنني لا أملك مع ذلك الا أن اعترف بأنني تأملت عملك بشيء من الرضى والمسرّة واللذة • نعم نعم ، أعجبنى عملك •

جمعهم بطرس بتروفتشس يقول متأثراً بعض التأثير ، متأملاً ليزياتيكوف في شيء من الحذر والريب :

– هذه كلها أمور تافهة !

– لا ، ليست أموراً تافهة ! ان رجلاً جرح جرحاً حاداً كما جرحت أنت باسائة الأمس ، ثم هو قادر في الوقت نفسه على أن يفكر في شقاء الآخرين وبؤسهم ، ان رجلاً كهذا الرجل – رغم أنه بتصرفه على هذا النحو يرتكب خطأ من الناحية الاجتماعية – جدير بالتقدير

خليق بالاحترام • الحق أنني لم أكن أتوقع هذا منك يا بطرس بتروفتش ، لا سيما وأن آراءك ••• آه ••• ما أشد الحرج الذي ماتزال تسببه لك هذه الآراء ! ما أشد تأثرك مثلاً بقضية الأمس تلك ! (بهذا هتف آندره سيمونوفتش الطيب ، وقد شعر نحو بطرس بتروفتش بمودة ومحبة على حين فجأة) ولكن لماذا ، لماذا حرصت هذا الحرص كله على ذلك الزواج « الشرعى » ، يا بطرس بتروفتش ، النيل جداً ، اللطيف جداً ، ما حاجتك الى هذه « الشرعية » فى الزواج ؟ اضربنى ان شئت ، ولكنى أشعر بسعادة حين أتذكر أن هذا الزواج لم يتم ، وأنت حر ، وأنت لم تمت بعدُ موتاً تاماً بالنسبة الى الانسانية • نعم ، أشعر بسعادة حين أتذكر ذلك • هأنت ذا ترى أنني أصارحك بما فى قلبى •

أجاب لوجين من أجل أن يقول شيئاً ما :

— اذا كنت أحرص على الزواج ، فلأنى لا أريد أن ينبت لى قرنان ، وأن أربى أولاد الآخرين ، كما يحدث فى الزواج الحر الذى تدعون اليه •

ضرب آندره سيمونوفتش الأرض بقدمه كحصان المعركة سمع صوت البوق ، وسأل صاحبه متحمساً :

— الأولاد ؟ قلت الأولاد ؟ اننى أسلّم بأن الأولاد يثيرون مشكلة اجتماعية هامة جداً ، ولكن مسألة الأولاد ستحل بطريقة أخرى تماماً . ان بعضهم يمضى الى حد انكار الأولاد انكاراً تاماً ، كما ينكر كل اشارة الى الأسرة على كل حال • وسنتحدث عن مشكلة الأولاد فيما بعد • أما الآن فلنقف على مسألة القرنين هذه ، لأننى أحبها حباً خاصاً • ألا فاعلم ان هذا التعبير السىء المستمد من لغة الفرسان ، المستعار من كلام رجال مثل بوشكين ، سوف يُنبذ من معاجم المستقبل نبذاً تاماً • ما هذه القرون

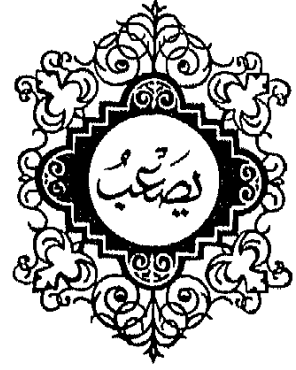
التي تتحدثون عنها؟ هه ! لماذا تتحدثون عن قرون؟ نعم ، هناك قرون .
ولكن الزواج الحر هو الذى لن يكون فيه قرون ! ليست القرون الا
نتيجة طبيعية للزواج الشرعى . انها الاقتصاص منه ان صح التعبير .
انها الاحتجاج عليه . وبهذا المعنى يمكن أن نصفها بأنها ليس فيها حتى
شيء من مذلة . فلو اضطررت يوماً أن أتزوج زواجاً شرعياً - وهذا
افتراض مستحيل - لكان يسرنى ويسعدنى أن ينبت لى قرنان من تلك
القرون التي تتحدثون عنها . سوف أقول عندئذ لزوجتى : « يا صديقتى ،
أنا حتى هذه اللحظة لم أزد على أن أحببتك ، أما الآن فانى أضيف الى
الحب احتراماً ، لأنك عرفت كيف ترفين احتجاجاً » . أتضحك؟ أنت
تضحك لأنك لا تملك من القوة ما يمكنك من التحرر من الأوهام
الاجتماعية . أنا أفهم أن يمتعض الزوج من خيانة زوجته فى الزواج
الشرعى ، ولكن هذا بعينه انما هو النتيجة البائسة لواقعة هي أيضاً بائسة ،
بالنسبة الى الطرفين كليهما . أما حين يحمل الرجل قرنين صراحةً ،
كما هي الحال فى الزواج الحر ، فان القرنين يندم عندئذ وجودهما ان
صح التعبير ، ويصبح من غير الممكن تصورهما ، ويفقدان حتى اسم
القرنين ؛ بل ان فى وسعى أن أقول ان امرأتك تبرهن لك بذلك على
مدى احترامها لك ، لأنها حكمت عليك بأنك لا تستطيع أن تحول بينها
وبين سعادتها ، وبأنك متطور متقدم الى الحد الذى يمنعك من الانتقام منها
بسبب أنها اتخذت لها خليلاً جديداً . يميناً انه ليخطر ببالي أحياناً اننى
اذا تزوجت - زواجاً حراً أو زواجاً شرعياً ، سيان - فلربما أجيء
لامرأتى بعشيق متى تأخرت عن اتخاذ عشيق من تلقاء نفسها . ولأقولنَّ
لها عندئذ : « يا صديقتى ، أنا أحبك ، ولكننى أريد بالاضافة الى ذلك
أن تحترمينى . اننى أحرص على هذا . اليك عشيقاً ! » . ألسنت على
حق؟ ألسنت على حق؟

كان بطرس بتروفتش يصغى اليه ضاحكاً ، ولكن دون أن يبدى كثيراً من الاهتمام ، حتى انه لم ينتبه الى الكلام الا قليلاً ، لأنه كان يفكر فى شىء آخر تماماً ، وقد لاحظ لينزياتنيكوف ذلك آخر الأمر .

لقد كان بطرس بتروفتش يعانى اضطراباً شديداً ، فكان يفرك يديه ويمعن فى التفكير .

ذلك كله تذكره آندره سيميونوفتش فيما بعد ، وفهمه .

الفصل الثاني



علينا أن نحدّد ، على وجه الدقة ، الأسباب التي أنبتت في دماغ كاترين ايفانوفنا المختل فكرة مآدبة الجنّازة هذه . لا بدّ أنّها أنفقت على هذه المآدبة قرابة عشرة روبلات من العشرين روبلاً التي أخذتها من راسكولنيكوف لانفاقها على احتفالات الدفن . لعل كاترين ايفانوفنا كانت تعتبر نفسها مضطرة الى تكريم ذكرى الراحل تكريماً «لائقاً» ، حتى يعلم جميع المستأجرين ، ولا سيما أماليا ايفانوفنا ، أن «الراحل لم يكن أدنى قيمة منهم ، بل ربما كان أعلى كثيراً» ، وأنه ما من أحد منهم يحق له بعد اليوم أن «يُدلّ بنفسه» حين يفكّر فيه . ولعلها كانت تنقاد خاصة «لزهو الفقراء» ذلك الذي يدفع كثيراً من البؤساء بمناسبة بعض الاحتفالات التي لا يستطيعون التملص منها بسبب عاداتنا المتأصلة ، الى أن يبذلوا آخر ما يملكون من قوى وآخر ما يملكون من مال ، حتى لا يكونوا «دون الآخرين» وحتى لا «يحكم عليهم» الآخرون . ومن الجائز جداً كذلك أن تكون كاترين ايفانوفنا في ذلك الظرف بعينه ، أي في اللحظة التي بدا فيها أن الجميع هجروها ، قد أرادت أن تبرهن لجميع أولئك «المعوزين» الذين هم المستأجرون ، أنها امرأة تعرف كيف تعيش وكيف تستقبل ، وأنها نشأت لتحيّا طرازاً من الحياة مختلفاً عن هذا الطراز كل الاختلاف ، وأنها تربّت في «منزل نبيل ، منزل ارستقراطي ، منزل كولاونيل» ، وانها اذن لم تُخلق لتتولى

بنفسها كنس الأرض وغسل أسمال الأولاد في الليل • ان اندفاعات الزهو والصلف والغرور هذه تستبد أحياناً بأشد الناس فقراً ، وتستبد بأناس مهجورين ليس لهم أحد ، ولا يندر أن نرى هذه الاندفاعات تستحيل في بعض اللحظات الى حاجات حقيقية ، حاجات ماسة قوية • ثم ان كاترين ايفانوفنا ليست من تلك النساء اللواتي يُجندلن بسهولة : فمهما تكن الظروف رهيبه ، فلا شيء يمكن أن « يجهز » على عزيمتها وأن يهدم ارادتها • ثم ان صونيا كانت على حق حين قالت ان دماغ أمها قد أخذ يخلت قليلاً قليلاً • الواقع أن الأمر لم يتضح بعد ، ولكن لا شك أن كاترين ايفانوفنا قد تحمّلت من المحن منذ بعض الوقت ، ولا سيما في السنة الأخيرة ، ما لا بد أن يكون له أثر في عقلها • ثم ان مرض السل يهيب المصاب به لاضطراب الملكات العقلية متى بلغ مرحلة معينة •

لم تكن « الخمر » كثيرة جداً ولا متنوعة جداً ، ولم يكن هناك خمره ماديرية ، فتلك مبالغة • ومع ذلك كان ثمة خمره : نبيذ وفودكا وروم وبورتو • وكان هذا كله من أنواع رديئة طبعاً ، ولكن مقاديره كانت كافية • وقد هيأوا ، بالاضافة الى حلوى الأرز التقليدية ، صنفين أو ثلاثة أصناف من الطعام (منها فطائر) أُعدت في مطبخ آماليا ايفانوفنا • وحضر سماوران لمن يريدون أن يشربوا الشاي أو يحتسوا « البنس » بعد الوجبة • ان كاترين ايفانوفنا هي التي تولت بنفسها شراء الأشياء ، يساعدها في ذلك أحد المستأجرين وهو بولندي رث مسكين لا يعلم الا الله لماذا يسكن عند السيدة ليفكسل • ان هذا البولندي لا يكف عن السعي هنا وهناك ماداً لسانه (كأنه كان يحاول أن يلفت الانتباه خاصة الى هذا الأمر) ؛ وهو في كل لحظة ، بأي مناسبة وبغير مناسبة ، يخف الى كاترين ايفانوفنا ، ويلاحقها الى السوق ، ويغدق

عليها لقب « السيدة الليوتنانة* » بغير حساب ، الى أن ضاقت به ونفدت صبرها عليه ، مع أنها كانت قد أعلنت في أول الأمر أنها لولا هذا الرجل لضاعت . لقد كان من طبع كاترين ايفانوفنا أن تضىف أجمل الألوان على على أول شخص تلتقاء ، وأن تغرقه بالمدح الى أن يشعر بحرج وخجل ، وأن تنسب اليه مزايا لا وجود لها في الواقع - ولكنها تعتقد هي بوجودها صادقة غير مراثية - ثم اذا « بأوهامها تتبدد » ، واذا هي تخاشنه وتغلظ له القول ، واذا هي آخر الأمر تطرد ذلك الشخص نفسه الذي كانت تقدسه تقديساً منذ ساعات قليلة . ان لها طبعاً مرحاً ميالاً الى التسامح ، ولكنها بسبب أنواع المصائب وصنوف الاخفاق التي تلاحقت عليها أخذت « تطالب » في كثير من الحدة والمرارة أن يعيش جميع الناس حياة هدوء وفرح ، وأن لا يجروء أحد أن يعيش على غير هذا النحو ؛ فاذا حدث أيسر نشاز أو أقل فشل خرجت عن طورها . فهي بعد أن تكون قد هدهدت نفسها بأقوى الآمال وأجمل الأمنى وأسطع الأخيلى وأبهى الأوهام تأخذ ، في لحظة واحدة ، تلعن الأقدار وتشتتم الدهر ، وترغى وتزبد ، وتعصف وترعد ، وتخرب كل ما يقع تحت يدها ، وتضرب برأسها الجدران .

وقد اكتسبت آماليا ايفانوفنا ، هي أيضاً ، على حين فجأة ، قيمة عظيمة وشأناً كبيراً في نظر كاترين ايفانوفنا ، لا يدري أحد لماذا . . . فأصبحت كاترين تقدر آماليا قدراً عظيماً وتحترمها احتراماً هائلاً . . . ولكن لعل مرد ذلك الى المأدبة التي تريد كاترين أن تقيمها ، والى أن آماليا قد عرضت من تلتقاء نفسها أن تشارك في اعداد هذه المأدبة : لقد تعهدت آماليا بنصب المائدة ، وتقديم المفرش ، وتأمين الصحون ، الخ ، وتعهدت باعداد الطعام في مطبخها . حتى ان كاترين ايفانوفنا نفسها ،

حين ذهبت الى المقبرة ، قد خولتها كل السلطات ، وفوّضتها في كل أمر ؛ والحق أن كل شيء قد أُعدَّ على أحسن وجه ، وهيئت المائدة تهيئة لا مأخذ عليها • صحيح أن الصحن والشوكات والسكاكين والكؤوس الكبيرة والصغيرة ، والفناجين ، كانت مختلفة غير متجانسة ، من مصادر شتى وأنواع متباينة ، لأنها استعيرت من مستأجرين مختلفين ، ولكن كل شيء كان في الساعة المحددة قد وُضع في مكانه ، حتى ان آماليا ايفانوفنا التي كانت تشعر بأنها قامت بواجبها ونهضت بمهمتها على خير وجه ، والتي كانت تتحلى بثوبها الأسود وتضع على رأسها قبعة تزينها أشرطة صغيرة جديدة ، قد أخذت تستقبل المدعوين ، عند عودتهم من المقبرة ، بشيء من الافتخار والاعتزاز • وهذا الاعتزاز ، رغم أنه مشروع ، قد ساء كاترين ايفانوفنا، لا يدري المرء لماذا ! فكانت كاترين تقول لنفسها : «لكننا لم نكن لنستطيع أن نعد المائدة بدون آماليا ايفانوفنا ! » • وكذلك ساءتها القبعة ذات الأشرطة الجديدة • فكانت تقول لنفسها: « تُرى ألن تتباهى هذه الألمانية بأنها مالكة البيت ، وبأنها تفضلت وتنازلت فساعدت سكان بيتها المساكين من باب البر والاحسان ؟ ان المائدة ، في منزل والد كاترين ايفانوفنا الذي كان كولونيلاً وكان شبه حاكم ، كانت تُعدُّ أحياناً لأربعين ضيفاً ، وما كان لامرأة مثل آماليا ايفانوفنا أو قولوا آماليا لودفيجوفنا أن تُقبل هنالك في المطبخ ! » • واشتد أزر كاترين ايفانوفنا بهذه الحاطرة ، فاكتفت مؤقتاً بأن تظهر لآماليا ايفانوفنا شيئاً من الفتور والبرود • وهناك ظرف مزعج آخر ساهم بعض المساهمة في احناق كاترين ايفانوفنا : وهو أن المستأجرين الذين دُعوا الى الجنازة لم يكد يشترك أحد منهم في الموكب ، عدا البولندي الذي شيع جثمان المتوفى الى المقبرة • أما المأدبة أو قل وجبة الطعام الخفيفة فان الفقراء والتافهين

وخدمهم هم الذين حضروها ، حتى ان بعضهم قد جاء اليها بشباب هي خرق رثة وأسمال بالية : أى أن الاحتفال لم يكن فيه على وجه الاجمال شىء من أبهة . لكأن المتقدمين فى السن وأهل الجد والوقار من المستأجرين قد تعاهدوا فيما بينهم على أن يمتنعوا عن الحضور . من ذلك مثلاً أن بطرس بتروفتش لوجين ، وهو الذى يمكن أن يقال انه أعلاهم قدراً وأرفعهم شأنًا ، لم يحضر المأدبة ، مع أن كاترين ايفانوفنا قد أعلنت جهاراً منذ العشية للجميع (لآماليا ايفانوفنا وبوليتشكا وصونيا والبولندى) أن بطرس بتروفتش رجل من أنبل الناس وأكرمهم ، وأنه ذو صلوات عالية ، وأنه غنى جداً ، وأنه كان صديقاً لزوجها الأول ، وانه قد سبق أن استقبل فى منزل أبيها ، وأنه لذلك قد وعد ببذل جميع المساعى من أجل أن تحصل على معاش تقاعدى كبير .

يجب أن نذكر هنا أن كاترين ايفانوفنا اذا اتفق لها أن أطرت شيئاً من الأشياء ، كعلاقات عالية أو ثروة طائلة ، فانها تفعل ذلك دائماً مبرأة من المصلحة منزهة عن المنفعة ، لا يدفعها اليه أى حساب شخصى ، وانما هي تفعله بنوع من كرم فياض وحماسة دافقة ، لا ترجو الا لذة مدح أحد الناس واضفاء قيمة كبيرة عليه .

وكما امتنع لوجين عن حضور المأدبة ، امتنع كذلك عن حضورها - ربما من باب « الاقتداء به » - ذلك الوند المشثوم ليزياتيكوف . « ماذا يظن نفسه ؟ نحن ما دعوناها الا شفقة عليه وبراً به ، نحن مادعوناها الا لأنه يسكن فى نفس الغرفة التى يسكن فيها بطرس بتروفتش الذى هو من معارفنا وأصحابنا ، فكان من المحرج لنا أن لا ندعوه . . . » . وهناك سيدة وابنتها (والابنة متقدمة قليلاً فى السن) لم تليسا الدعوة أيضاً . ان هاتين المرأتين ، رغم أنهما لا تسكنان عند آماليا ايفانوفنا الا منذ أسبوعين ، قد شككتا عدة مرات من الضجة والصرخات الآتية من

غرفة أسرة مارميلادوف ، ولا سيما حين كان المتوفى يعود الى البيت سكران ، وهذا أمر قد وصل الى مسامع كاترين ايفانوفنا طبعاً عن طريق آماليا ايفانوفنا ، وذلك حين هددتها هذه ، أثناء تشاجرها معها ، بأنها ستطردها من البيت هي وأسرتها ، صارخةً بأعلى صوتها أنهم « يزعجون جيراناً نبلاء لا يرقون هم الى مستوى نعالهم » . ولقد قررت كاترين ايفانوفنا ، عامدةً ، أن تدعو هاتين المرأتين اللتين « لا ترقى هي الى مستوى نعليهما ! » ، وكانت تحرص على دعوتهما حرصاً خاصاً لأنها كانت اذا اتفق أن التقت باحدى هاتين المرأتين تراها تشيح عنها وجهها باحتقار . قالت كاترين ايفانوفنا لنفسها : « بهذا تعرفان أننا نمضي بالنبل الى حدٍ نسيان الاساءات والاهانات ، وسيكون في وسعهما بهذه المناسبة نفسها أن تدركا أن كاترين ايفانوفنا لم تألف أبداً أن تعيش في ظروف كهذه الظروف . » . وكانت تنوى أن تشرح لهما هذه الحقيقة على المائدة ، وأن تحدثهما كذلك عن منصب « الحاكم » الذي كان يحتله المرحوم أبوها ، وربما استطاعت كذلك أن تُسمعهما بطريقة غير مباشرة أنه لا داعي لأن تشيحا بوجهيهما حين تلقيانها ، وأن هذه الحركة حركة غبية .

وقد غاب عن المأدبة أيضاً رجلٌ ضخّم الجسم يقولون انه ليوتنان كولونيل (وهو في حقيقته كابتن محال على التقاعد) ؛ ولكن علم أنه « طريح الفراش » من فرط السكر منذ الليلة البارحة .

الخلاصة أنه لم يحضر المأدبة الا هؤلاء : البولندي ؛ وموظف هزيل قمى . يرتدى فراكاً وسخاً وينشر رائحة كريهة ؛ ورجل آخر عجوز قصير أصم يكاد يكون أعمى ، كان في الماضي يشغل وظيفة في ادارة البريد لا يدرى أحد ما هي ، وهناك مجهول يدفع عنه أجرة غرفته عند آماليا ايفانوفنا منذ مدة طويلة لا يدرى أحد لماذا ؛ وقد جاء الى المأدبة

ليوتنان متقاعد سكران لم يكن في حقيقة أمره الا موظفاً في ادارة التموين ، وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً سفيهاً في كل لحظة ، ولا يرتدى سديرة فتصوروا قلة الحياء وفرط الوقاحة ، يا للعار ! وقد جاء رجل آخر فجلس الى المائدة رأساً حتى دون أن يحيى كاترين ايفانوفنا ، وجاءت في النهاية « شخصية » أخرى تلبس ثوب المنزل لأنها لا تملك غيره رداءً . ولكن ذلك قد بلغ من الخروج عن حدود اللياقة أنه أمكن اخراج الرجل بجهود متضافرة قامت بها آماليا ايفانوفنا والبولندي . ثم ان البولندي قد اصطحب رجلين بولنديين آخرين لا يذكر أحد أنهما سكنا عند آماليا ايفانوفنا في يوم من الأيام ، ولا لقيهما أحد في هذا المنزل يوماً على الأقل .

ذلك كله أزعج كاترين ايفانوفنا ازعاجاً شديداً فتساءلت تقول :
« أمن أجل « هؤلاء » اذن قمنا بهذه الاستعدادات كلها ؟ » .

ومن أجل أن يتسع المكان كانوا قد اضطروا الى العدول عن اجلاس الأولاد الى المائدة ، فلقد كان الأولاد يكادون يشغلون وحدهم كل الغرفة . لذلك أقيمت لهم مائدة خاصة في ركن بأخر الغرفة على صندوق ، وأُجلس الولدان الأصغر ان على دكة ، وعُهد الى بوليتشكا ، بصفتها الكبرى ، أن تراقبهما وأن تطعمهما وأن تمخطهما ، « كما يفعل بأولاد أسر راقية » .

الخلاصة أن كاترين ايفانوفنا قد اضطرت ، راضيةً أو كارهة ، أن تستقبل جميع هؤلاء الناس ، فاستقبلتهم بمزيد من الوقار والرصانة ، بل وبشيء من التعالي والعجرفة ، حتى لقد ألفت على بعضهم نظرة فيها قسوة خاصة ، ثم دعتهم أن ينتقلوا الى المائدة وقد ظهرت في هيتها معاني الاحترار والازدراء . وقد اعتقدت ، لسبب أو لآخر ، أن آماليا ايفانوفنا

هى المسئولة عن غياب المدعويين المرموقين ، فكانت تخاطبها بلهجة بلغت من الوقاحة أن آماليا ايفانوفنا سرعان ما لاحظت ذلك ، فاستاءت أشد الاستياء ، وأضمرت أكبر الضغن . ان بداية كهذه البداية لا تبشر بخير .

• وجلس الجميع أخيراً الى المائدة •

كان راسكولنيكوف قد وصل في لحظة العودة من المقبرة تقريباً • فسعدت كاترين ايفانوفنا أقصى السعادة ، أولاً لأنه بين سائر المدعويين « الرجل المثقف الوحيد » الذى سيحتل بعد سنتين ، كما يعرف الجميع ، كرسى استاذ جامعتنا ؛ وثانياً لأنه ما ان وصل حتى بادر يعتذر لها بكثير من الاحترام عن أنه لم يستطع أن يشارك فى الجنازة رغم رغبته الشديدة وحرصه الكبير •

ومنذ تلك اللحظة لم تتركه كاترين ايفانوفنا ؛ فقد أجلسته الى يسارها (وكانت آماليا ايفانوفنا قد جلست الى اليمين) ، ورغم مشاغلها المتصلة من حيث هى ربة البيت ، ورغم السعال الرهيب الذى كان يقطع كلامها ويخفقها فى كل لحظة ، والذى كان يبدو أنه تفاقم مزيداً من التفاقم منذ يومين ، فانها لم تنقطع عن التحدث الى راسكولنيكوف ، وعن أن تفضى اليه همساً بكل ما كان يعتلج فى قلبها ، ولا سيما باستيائها الشديد من اخفاق الأدبية • على أن ضحكاً مجلجلاً كان يعقب ذلك الاستياء فى كثير من الأحيان ، ضحكاً لا تستطيع أن تكظمه ، وهو ضحك على المدعويين وعلى صاحبة البيت خاصة •

– ذلك كله انما سببه هذه المرأة الشريرة ! (كانت كاترين ايفانوفنا تقول ذلك وتومىء لراسكولنيكوف بحركة من رأسها الى صاحبة البيت آماليا ايفانوفنا) • انظر اليها ! انها تحملق بعينيها ؛ هى تعلم أننا نتكلم عنها ، ولكنها لا تستطيع أن تفهم ، ان عينيها تخرجان من رأسها !

هو ••• هو! ••• بومة حقاً! هاهاها! هيء هيء هيء! وما الذي تريد أن تبرهن لنا عليه بقبعتها هذه؟ هيء هيء هيء! هل لاحظت أنها تريد أن تظهرني أمام الملأ جميعاً بمظهر محميتها، وأن تبين أنها انما تشرتني اذ تحضر هذا العشاء؟ لقد طلبت منها، لاعتقادي بأنها انسانة لائقة، أن تدعو أناساً محترمين، وأن تدعو خاصة أولئك الذين عرفوا زوجي الراحل • فانظر بمن جاءتنى: لقد جاءتنى بمهرتجين وصعاليك قديرين! انظر الى ذاك الرجل الذي لم يغسل وجهه! حقاً انهم لقطع حيوانات تمشى على قدمين! وما قولك بهؤلاء البولنديين الصغار؟ هاهاها! هيء هيء هيء! ما من أحد سبق أن رأهم هنا، لا ولا رأيتهم أنا هنا، فى يوم من الأيام! فلماذا اذن جاءوا؟ هل تستطيع أن تقول لى لماذا جاءوا؟ ما أعظم هدوءهم فى جلوسهم واحداً الى جانب واحد! ما أظرفهم! هيه، يا «سيد»! (كذلك نادى أحدهم فجأة ناطقة كلمة «سيد» باللغة البولندية) هل أخذت فطائر؟ خذ مزيداً، واشرب بيرة، اشرب بيرة! واشرب فودكا! ألا تريد أن تشرب فودكا؟ - انظر اليه، لقد نهض بوثة واحدة، وها هو ذا يحيى منحنيًا انحناءً شديداً ••• انظر ••• انظر! مساكين ••• لا بد أنهم جائعون جداً! لا بأس! فليأكلوا! هم لا يتحدثون ضجة على الأقل ••• ولكن ••• ولكن ••• لا أكتمك أننى أخشى أن يأخذوا ملاعق الفضة وهى لصاحبة البيت • يا آماليا ايفانوفنا (كذلك نادى صاحبة البيت فجأة بصوت عالٍ تقريباً) ••• اننى أنبهك منذ الآن الى أننى غير مسئولة اذا هم سرقوا ملاعقك!

وسُرت كاترين ايفانوفنا من قولتها هذه، فأخذت تضحك ضحكاً جنونياً، ثم عادت تومىء برأسها الى صاحبة البيت قائلة لراسكولنيكوف:

- انها لم تفهم! فى هذه المرة أيضاً لم تفهم! ما تزال فاعرة الفم، محملقة العينين، جوالة الطرف! انظر اليها، انظر! هي بومة حقاً،

بومة ••• قلت لك انها بومة ••• ولكن بأشرطة جديدة ! ها ها ها ! •••
 وهنا استحال ضحكها الى سُعال لا يطاق ، استمر خمس دقائق •
 تلتخ منديلها بالدم ، وظهر العرق على جبينها كحبات اللؤلؤ ؛ آرت
 راسكولنيكوف بقعة الدم فى صمت ، وما ان استردت أنفاسها حتى
 دمدمت تقول له وقد تخضبت وجنتاها بحمرة قانية وبلغت أقصى
 الاضطراب :

– انظر مثلاً : لقد عهدت اليها بمهمة دقيقة جداً هى أن تدعو تلك
 السيدة وابنتها • هل تعرف من أعنى ؟ فكان عليها فى مثل هذه الحالة أن
 تتصرف بكثير من الكياسة والفن والحدق ، ولكنها لم تحسن التصرف ،
 فاذا بتلك الحمقاء الأخرى ، اذا بتلك المخلوقة القروية ••• ذلك أنها
 ليست فى الواقع الا أرملة ميجر جاءت الى هنا تسعى الى الحصول على
 معاش تقاعدى ، فهى تنتظر فى حجرات الدخول متقلبة متسكعة هنا
 وهناك ، متبرجة مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ رغم أنها فى الخمسين
 من عمرها (هذا معروف) ••• اذا بتلك المخلوقة لا تتنازل أن تجيء ،
 بل ولا ترسل كلمة اعتذار ، كما يليق بالمرء أن يفعل فى مثل هذه
 الأحوال اذا كان على شىء من الأدب والتهذيب ! وبطرس بتروفتش ،
 اننى لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يجيء هو أيضاً ! ولكن أين صونيا ؟
 أين ذهبت ؟ آ ••• ها هى ذى أخيراً ! أين كنت يا صونيا ؟ غريب منك
 أن تكونى قليلة التقيد بالمواعيد حتى فى يوم جنازة أبك • افسح لها
 مكاناً الى جانبك يا روديون رومانوفتش • هذا مكانك يا صونيتشكا !
 اغرفى لك طعاماً ! خذى سمكاً بالبالوظة ، فهذا أحسن الطعام • سنجيثك
 بفطائر فوراً • والأولاد ، هل غُرف لهم طعام ؟ هل أصبتم من كل شىء
 يا بوليتشكا ؟ هىء هىء هىء ! طيب ، عظيم ! كونى هادئة عاقلة يا لينا !

وأنت يا كوليا لا تهزز ساقيك هكذا ! ابق جالساً كما يجب أن يجلس ولد من أسرة محترمة • ماذا تقولين يا صونيشكا ؟

أسرعت صونيا تنقل اعتذارات بطرس بتروفتشس ، محاولة أن تتكلم بصوت قوى حتى يسمع جميع الضيوف كلامها ، ومستعملة أرقى التعابير ، حتى تلك التى كان يصطنع استعمالها بطرس بتروفتشس ، بعد أن تُجمِّلها مزيداً من التجميل أيضاً • وأضافت الى ذلك قولها ان بطرس بتروفتشس قد رجاها أن تبلغ أمها أنه سيجىء متى أتحت له الفرصة ليتحدث فى الأعمال على انفراد ، وليتفق على الاجراءات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، الخ ، الخ ، الخ •••

كانت صونيا تعلم أن هذا قد يهدىء كاترين ايفانوفنا ، ويدغدغ غرورها ، ويرضى كبرياءها خاصة •

وجلست الى جانب راسكولنيكوف بعد أن حيسته بسرعة ، ونظرت اليه نظرة مستطلعة • على أنها طوال ما بقى من وقت كان يلوح عليها انها تتحاشى أن تنظر اليه وأن تكلمه • كانت تبدو ذاهلة ، رغم أنها لم تحوّل عينيها عن كاترين ايفانوفنا وأنها كانت تحاول أن تتنبأ برغباتها • ولم تكن صونيا ولا كاترين ايفانوفنا تلبسان ثياب الحداد ، لأنهما لا تملكان ثياب حداد : كانت صونيا ترتدى ثوباً كستنائياً قائماً ، وكانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوباً من قماش هندي ذى خطوط داكنة ، وهو الثوب الوحيد الذى تملكه •

وقد أحدثت اعتذارات بطرس بتروفتشس أحسن الأثر • فبعد أن أصغت كاترين ايفانوفنا الى كلام صونيا برصانة ووقار ، سألت عن صحة بطرس بتروفتشس بلهجة فيها تلك الرصانة نفسها وذلك الوقار نفسه • ثم لم تبطئ ، فأسرعت « توشوش » راسكولنيكوف قائلة بصوت قوى ان

رجلاً يبلغ من جلال القدر ما يبلغه بطرس بتروفتشس لا يليق أن يقع بين أفراد قطع كهذا « القطيع العجيب من الناس » ، مهما يكن اخلاصه للأسرة ، ومهما تكن روابط الصداقة التي كانت تربطه بالمرحوم أبيها .
ثم أضافت تقول بصوت يكاد يكون عالياً :

– من أجل ذلك ترانى ، يا روديون رومانوفتشس ، أشكر لك شكراً خاصاً أنك لم تحتقر دعوتى ولم ترفض حضور مآدبتى رغم هذه البيئة وهذا الجوّ . وانى لأعتقد على كل حال أن صداقتك القوية للمرحوم زوجى هى التى حملتك وحدها على أن تفى بالوعد .

وهنا شملت المدعوين مرةً أخرى بنظرة فيها كبرياء ووقار ، ثم رفعت صوتها فجأة تسأل الشيخ الأصم الجالس الى الطرف الآخر من المائدة « هل يريد مزيداً من الشواء وهل سكبوا له شيئاً من خمرة البورتو » . فلم يجب الشيخ ولبث مدة من الزمن لا يفهم ما كان يُسأل عنه رغم أن جيرانه حاولوا أن يشرحوه له ضاحكين . كان فاجر الفم ينظر حوالبه فى كل جهة ، فكان ذلك يثير مزيداً من الضحك والمرح .

– يا للغبى الأبله ! انظر ! ولماذا جىء به الى هنا ؟

وتابعت كاترين ايفانوفنا كلامها تخاطب راسكولنيكوف :

– أما بطرس بتروفتشس فقد كنت دائماً أمحضه ثقة كاملة .
والتفتت فجأة نحو آماليا ايفانوفنا فألقت عليها نظرة قاسية مروّعة ، وأردفت تقول صارخة :

– هو لا يشبهه طبعاً هاتيك النساء السافلات اللواتى ما كنّ ليُقبلن عند أبى حتى خادمت فى المطبخ ، واللواتى اذا ارتضى زوجى الراحل أن يشرّفهن باستقبالهن فانه ما كان ليفعل ذلك الا من فرط طيبة قلبه .

صاح موظف التموين قائلاً وهو يفرغ في جوفه كأس الفودكا
الثانى عشر :

– نعم ، كان يجب أن يشرب ••• هذا صحيح ••• كان يجب
مجالسة الزجاجة حباً كثيراً! •••

أجابت كاترين ايفانوفنا باندفاع شديد :

– نعم ، كان لزوجى هذا الضعف ، ولكنه كان رجلاً طيباً نبيلاً ،
يجب أسرته ويحترمها • ان عيبه الوحيد هو أن هذه الطيبة نفسها كانت
تدفعه الى أن يثق بأناس فاسدين وأن يركن اليهم ••• الله يعلم مع من
كان يعاقر الحمرة ••• مع رجال لا يساوون نعلى حذاءيه ! تصور
يا روديون رومانوفتش أننا وجدنا فى جيبه ديكاً صغيراً من حلوى ! كان
لا ينسى أولاده حتى حين يأخذ منه السكر كل ماخذ !

صرخ موظف التموين السابق يسأل :

– ديكاً صغيراً ؟ هل قلت ديكاً صغيراً ؟

أبت كاترين ايفانوفنا أن تتنازل فتجيبه ، وها هى ذى تفرق فى
نوع من أحلام اليقظة، وتتنهد • ثم استأنفت كلامها مخاطبة راسكولنيكوف:

– لعلك تظن ، كما يظن جميع الناس ، أنني أسرفت فى القسوة
عليه • ولكن هذا غير صحيح • لقد كان يعتبرنى ، كان يعتبرنى كثيراً ،
كثيراً • ما كان أنبل روحه وأطيب نفسه ! ولكم كنت أشفق عليه ، فى
بعض الأحيان ! كان يتفق له أن يجلس فى ركن من الأركان ، ويأخذ
ينظر الى من ركنه ذلك ، فأبلغ من الشفقة عليه عندئذ أنتى أود
لو ألعبه ، ولكنى كنت أقول لفسى : « لو دللته فسوف يسكر من

جديد ، • لم يكن يمكن صدّه عن الشراب وردعه عنه الا باظهار شيء
من القسوة •

زار موظف التموين السابق يقول وهو يصب لنفسه كأساً جديداً
من الفودكا :

نعم ، كان يُشدُّ له شعره ! حدث هذا مراراً !

أجابت كاترين ايفانوفنا تقول بلهجة قاطعة ، وهي تتجه الى موظف
التموين :

– ان أمثال هؤلاء البلهاء لا يستحقون أن يُشدَّ لهم شعرهم
فحسب ، بل يستحقون أيضاً أن يُستقبلوا بضربات مقشّة ! ولست أتكلم
الآن عن الراحل ...

والتهبت البقع الحمر في وجنتيها مزيداً من الالتهاب ، وارتفع
صدرها ، ولم يبق الا دقيقة واحدة حتى يمكن أن تثير كاترين ايفانوفنا
شجاراً فاضحاً • وكان كثيرون يضحكون مقهقهين ، كان كثيرون يجدون
في ذلك لذة وتمعّة • أخذوا يستثيرون الموظف ويحرضونه ، هامسين له
بأشياء في أذنه • كان واضحاً أنهم يريدون أن يصبوا على النار زيتاً •
بدأ الموظف كلامه فسألها :

– اسمحي لي أن أسألك عمّن كنت تتكلمين اذن ... على كل
حال ، لا بأس ... فما هذه كلها الا ترهات ! أرملة ، أرملة مسكينة !
أنا أغفر وأعفو وأصفح ! دعونا ...

قال ذلك وجرع كأساً أخرى من الفودكا •

ظل راسكولنيكوف جالساً يصغى بصمت واشمئزاز • لم يكذب

يلمس الطعام الذي كانت كاترين ايفانوفنا لا تنقطع عن ملء صحنه به ، بل انه لم يتظاهر بأنه يأكل الا من أجل أن لا يزعجها • وكان يحدث الى صونيا ولا يحوّل عنها بصره • ولكن صونيا كانت تزداد قلقاً وهماً • انها توجس ، هي أيضاً ، أن المأدبة لن تنتهى بسلام ، فكانت ترقب الاهتياج المتزايد عند كاترين ايفانوفنا ، خائفةً وجلّة • وكانت تعلم ، فيما تعلم ، أنها ، هي صونيا ، السبب الرئيسي للاحتقار الذي حمل المرأتين الجديدتين علي أن ترفضاً دعوة كاترين ايفانوفنا • لقد علمت من آماليا ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة مضت الى حد الاستياء من توجيه الدعوة اليهما ، وتساءلت : « كيف يمكنني أن أجلس ابنتي الى جانب تلك «الآنسة» ؟ وكانت صونيا تقدّر أن كاترين ايفانوفنا قد وصل الى مسامعها شيء من هذا الكلام ؛ وان اهانة يلحقها أحد بصونيا لهي أشد وقعاً في نفس كاترين ايفانوفنا من اهانة تلحق بها هي أو بأولادها أو بأبيها ، فهذه اهانة قاتلة ، وصونيا تعلم أن كاترين ايفانوفنا لن يهدأ لها بال قبل أن « تبرهن لهاتين المرأتين التافهتين على أنهما كليهما » ، الخ الخ ! وشاءت المصادفات ، بما يشبه العمد ، أن ينقل أحدهم الى صونيا صحناً فيه قلبان من لبّ خبز أسود يخترقهما سهم • فاحمرت كاترين ايفانوفنا غضباً ، وأسرعت تقول بصوت عال ان المسئول عن ارسال هذا الصحن ليس الا « حماراً سكران » ، لا أكثر ولا أقل •

وكانت آماليا ايفانوفنا ، من جهتها ، توجس أن نازلة ستقع ، وتشعر عدا ذلك بأن موقف كاترين ايفانوفنا يهينها الى أعماق قلبها ، فمن أجل أن تغّير الجوّ السيء الذي يسود الحفل ، ومن أجل أن ترفع قدر نفسها في نظر الناس في الوقت ذاته ، أخذت على حين فجأة تروي أن شخصاً من معارفها اسمه « كارل ، وهو مساعد صيدلاني » ، قد استاجر عربة في الليل ، فأراد الحوذى أن « يقتله » فأخذ كارل يتوسل اليه أن

لا يفعل ، وضمَّ يديه باكياً ، وبلغ من الرعب أن قلبه كاد يشب من مكانه « . وكان في نطق آماليا لكنة ألمانية واضحة ، فقالت لها كاترين ايفانوفنا ، وهي تبسم ، ان عليها أن لا تروى نوادر روسية . فازداد استياء آماليا ايفانوفنا ، فردت عليها تقول بلغة تخالطها ألفاظ ألمانية ، وتسودها لكنة ألمانية ، ان أباه البرليني كان « رجلاً خطير الشأن جداً ، وانه كان يتجول واضعاً يديه في جيبيه دائماً . » . ولم تطق كاترين ايفانوفنا الساخرة صبراً ، فانطلقت تضحك ضحكاً صاخباً مجنوناً ، فكان على آماليا التي نفذ صبرها أن تبذل جهوداً كبيرة من أجل أن لا تنفجر . وعادت كاترين ايفانوفنا توشوش راسكولنيكوف بما يشبه المرح قائلة :

— يا للعجوز الأنيقة ! أرادت أن تقول ان أباه كان يتجول واضعاً يديه في جيبيه ، فاذا سمع المرء كلامها أمكن أن يظن أنها تريد أن تقول ان أباه كان ينبش جيوبه دائماً ! هيء هيء هيء ! هل لاحظت يا روديون رومانوفتش أن جميع هؤلاء الأجانب في بطرسبرج ، ولا سيما الألمان ، الذين يتقاطرون علينا من كل حدب وصوب ، هم جميعاً أغبي منا . انظر بنفسك : هل يمكن أن يروى أحد أن « كارل ، مساعد الصيدلاني ، كاد يشب قلبه من مكانه » ، وأن هذا الأبله قد « ضمَّ يديه باكياً » ، بدلاً من أن يوثق الحوذى ؟ آه ! يا للغبية الحمقاء ! هي تتخيل أن قصتها مؤثرة جداً . انها لا تدرك مدى ما في هذه القصة من سخافة وبلاهة ! في رأيي أن هذا الموظف السكر أذكى منها كثيراً ! ان المرء يرى على الأقل أنه ترك كل عقله في قاع كأسه ، أما الآخرون فهم جادون جداً ؟ يبلغ غاية الاضحاك ! . . . انظر كيف تُجِيل عينيها وتديرهما ! انها غاضبة ، انها غاضبة ! هاهاها ! هيء هيء هيء !

واذا انشرفت كاترين ايفانوفنا هذا الاشرار ، أسرع تندفع

فى سرد طائفة من التفاصيل ، فأعلنت أنها بفضل معاش التقاعد الذى ستحصل عليه ، سوف تفتح مدرسة داخلية للبنات النييلات فى مدينة « ت . . . » التى وُلدت فيها . ولم تكن كاترين ايفانوفنا قد أطلعت راسكولنيكوف على مشروعها هذا . لذلك أخذت تشرح هذا النبأ شرحاً مستفيضاً ، وأخذت تصف الحياة الرائعة التى ستعيشها وصفاً مسهباً . ولا يدرى أحد كيف وُجدت بين يديها ، على حين فجأة ، « شهادة المديح » تلك التى سبق أن تحدثت عنها المرحوم مارمیلادوف الى راسكولنيكوف حين ذكر له فى أول لقاء بالحمامرة أن زوجته كاترين ايفانوفنا قد رقصت ، فى يوم تخرجها من المدرسة الداخلية ، رقصة الشال ، « أمام الحاكم وشخصيات أخرى » . كان واضحاً أن الغرض من ابراز هذه الشهادة هو أن تثبت ان كاترين ايفانوفنا من حقها أن تفتح مدرسة داخلية ؛ ولكن كان الغرض من ابرازها أيضاً وخاصة هو أن تُخرس تينك المرأتين الفاسدتين اذا هما قبلتا الدعوة وأن تبرهن لهما برهاناً قاطعاً على أن كاترين ايفانوفنا تنتمى الى أسرة نبيلة ، بل يمكن القول انها تنتمى الى أسرة ارستقراطية ، فهى ابنة كولونيل ، وهى أفضل كثيراً من « أولئك النسوة المغامرات اللواتى ازداد عددهن ازدياداً كبيراً فى الآونة الأخيرة » . وسرعان ما دارت الشهادة بين أيدي المدعوين السكارى ، وذلك أمر حاذرت كاترين ايفانوفنا أن تعترض عليه أى اعتراض ، لأن الشهادة كانت « تنص نصاً صريحاً » على أن كاترين ايفانوفنا هى فعلاً بنت مستشار قضائى ، أى بنت كولونيل تقريباً . وقد تحمست كاترين ايفانوفنا فأفاضت فى الكلام على جميع تفاصيل الحياة الجميلة الهادئة التى تنتظرها فى مدينة « ت . . . » ، وتكلمت عن الأساتذة الذين ستدعوهم الى التدريس فى مدرستها ، وتكلمت عن شيخ محترم هو السيد مانجو الذى علّمها اللغة الفرنسية حين كانت تلميذة فى المدرسة الداخلية ، والذى ينهى الآن أيامه فى مدينة

«ت...» ، ولا شك أنه سيقبل أن يدرّس في مدرستها بأجور معقولة. وجاءت أخيراً على ذكر صونيا ، فقالت ان « صونيا ستذهب هي أيضاً الى مدينة ت... » ، وانها ستفعلها هنالك في أمور كثيرة » . ولكن حين قالت كاترين ايفانوفنا هذا الكلام ، خنق أحدهم ضحكةً عند الطرف الآخر من المائدة . فظاهرت كاترين بأنها لم تسمع الضحكة ، ورفعت صوتها لتعدد المزايب الأكيدة التي تتحلى بها صوفيا سيميونوفنا ، وأضافت أن صونيا سيميونوفنا « جديرة بأن تساعدها ، لما تمتاز به من رقة وعدوبة ، وصبر ودأب ، وتضحية وبذل ، ونبيل نفس وحسن تربية » . ثم ربت على خدي صونيا ، ونهضت تقبلها بحرارة مرةً أولى فمرةً ثانية .

واحمر وجه صونيا احمراراً شديداً . ثم ما لبثت كاترين ايفانوفنا أن أجهشت باكية على حين فجأة وهي تقول « انها ليست مخلوقة بلهاء بأئسة محطمة الأعصاب ، وانها قد نفذ صبرها وبارحتها قواها ... » وان المأدبة قد انتهت فليسكب الشاي ! » .

وكانت آماليا ايفانوفنا قد أضناها وأهلكها أنها لم تستطع أن تشارك في الحديث ، حتى ان احداً لم يستمع لها ولم يصنع الى كلامها ، فقامت في تلك اللحظة بمحاولة أخيرة . استجمعت شجاعته ووجهت الى كاترين ايفانوفنا ، رغم ما توجهه في قرارة نفسها من قلق وخشية ، ملاحظةً هي من أعمق الملاحظات وأشدّها جرأةً ، اذ قالت لها انه سيكون عليها في المدرسة الداخلية أن تعنى عناية خاصةً بغسيل البنات (قالت كلمة الغسيل بالألمانية) ، و « أن تستخدم لهذا الغرض سيدة محترمة » ، وان عليها كذلك أن لا « تدع لأية فتاة أن تقرأ روايات في الليل سراً » . وكانت كاترين ايفانوفنا نائرة الأعصاب مهدودة القوى ، ناهيك عن ازعاجات المأدبة ، فسرعان ما انفجرت تنهجم على آماليا ايفانوفنا قائلةً لها انها تقول « سخافات وحماقات » ، وانها لا تفهم شيئاً من شيء : فالاهتمام

بالغسيل هو فى مدرسة من المدارس الداخلية النيلة لا يقع على عاتق المديرية بل هو من اختصاص المحاسبة • أما قراءة الروايات فان الاشارة اليها هى فى حد ذاتها أمر غير لائق ، لذلك يحسن بآماليا ايفانوفنا أن تصمت فلا تقول شيئاً •

اصطبغ وجه آماليا ايفانوفنا بحمرة شديدة من فرط الاستياء ، فقالت غاضبة ان « نياتها حسنة » وانها لا تريد لها الا « خيراً كثيراً » رغم أنها منذ مدة طويلة لم تقبض منها أى مال (قالتها بالألمانية) من اجرة المسكن • فسرعان ما ردتّها كاترين ايفانوفنا الى مكانها ، اذ قالت لها انها تكذب فى ادعائها أنها « تريد لها الخير » ، لأنها فى الليلة البارحة نفسها ، بينما كان المتوفى ما يزال راقداً على المائدة ، جاءت تعذبها بمسألة اجرة المسكن هذه • وحالف التوفيق آماليا ايفانوفنا فى الردّ فقالت لها أنها « دعت السيدات ، ولكن تلك السيدات لم يجئن ، لأن تلك السيدات سيدات محترمات لا يمكن أن يلبين دعوة سيدة غير محترمة » • فأسرعت كاترين ايفانوفنا تلحُّ فوراً على أن آماليا ايفانوفنا ليست مؤهلة لأن تفصل فيما هو محترم وفيما هو ليس بمحترم ، لأنها هى نفسها غير محترمة • ولم تحتمل آماليا ايفانوفنا هذه الشتيمة ، فسرعان ما أعلنت أن « أباه البرلينى » (قالتها بالألمانية) كان رجلاً خطير الشأن جداً ، جداً ، وانه كان يمشى واضعاً يديه فى جيبيه ، وانه كان دائماً يزفر هكذا : بوف ••• بوف •••! ومن أجل أن تعطى عن أبيها صورة محسوسة أكثر من ذلك ، نهضت عن مكانها ودست يديها فى جيبيها ونفخت خديها وأخذت تخرج من فمها أصواتاً مبهمه لكنها تشبه « بوف ، بوف » ، فكان جميع المستأجرين يضحون بضحكٍ صاخب ، وكان يحلو لهم ، وقد أحسوا بأن معركة ستقع بين المرأتين ، أن يحرصوا آماليا ايفانوفنا باستحسانهم مزيداً من التحريض •

طفح الكيل بالنسبة الى كاترين ايفانوفنا ، فسرعان ما أعلنت بصوت قوى يسمعه الجميع « أن آماليا ايفانوفنا قد لا يكون لها « أب » أصلاً ، وأنها ليست الا سكيرة فنلندية من بطرسبرج ، وأنها لا بد أن تكون قد عملت طبخة أو ما هو أسوأ من ذلك أيضاً •

احمرت آماليا ايفانوفنا احمراراً شديداً وصاتت تقول : « ان كاترين ايفانوفنا هي التي قد لا يكون لها أب ، أما أبوها هي فقد كان يعيش ببرلين ، وكان يرتدى ردنجوتاً طويلاً ، وكان ينفخ دائماً : « بوف ، بوف » •

قالت كاترين ايفانوفنا باحتقار « ان أصلها هي يعرفه الجميع وأن الشهادة التي قرأها الحضور منذ لحظة تذكر هي نفسها بكلام مطبوع ان أبها كان كولونيلاً • أما أبو آماليا ايفانوفنا (اذا صح أن لها أباً) فلا بد أنه فنلندي من بطرسبرج كان بائع حليب ، ولكن أغلب الظن أنها لم يكن لها أب أصلاً ، والدليل على ذلك أننا لا ندرى حتى الآن هل الاسم الذي ينسبها الى أبيها هو ايفانوفنا أو لودفيجوفنا » •

هنا بلغ حنق آماليا ايفانوفنا ذروته ، فضربت المائدة بقبضة يدها وأعلنت تقول : « ان اسمها هو آماليا ايفانوفنا وليس آماليا لودفيجوفنا ، وان أبها كان اسمه يوحنا ، وانه كان عمدة مدينة ، وذلك منصب لم يشغله أبو كاترين ايفانوفنا في يوم من الأيام » •

اصفر وجه كاترين ايفانوفنا اصفراراً شديداً ، واهتز صدرها اهتزازاً عميقاً ، ونهضت عن مكانها وقالت بصوت قاسٍ ظاهره الهدوء : اذا تجرأت آماليا ايفانوفنا ولو مرةً واحدةً أخرى « فقارنت بين أبيها التافه الذي لا قيمة له ، وبين أبيها هي ، فلتزعن عنها قبعتها ولتدوسنها بقدميها » • فلما سمعت آماليا ايفانوفنا هذه الكلمات أخذت تركض في



آماليا ايفانوفنا

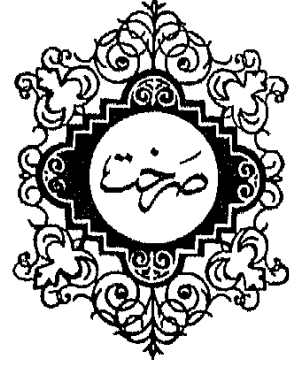
بريشة الفنانة السوفياتية الكسنديا كورساكوفا

الغرفة طويلاً وعرضاً ، وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة أنها صاحبة البيت ، وأن على كاترين ايفانوفنا أن « تخلى المسكن فوراً » • ثم أسرع تجميع ملاعقها الفضية من على المائدة • وأعقت ذلك جلبة لا توصف ، فالأصوات تنفجر من هنا ومن هناك ، والأولاد أخذوا يركضون ؛ واندفعت صونيا تريد أن تصد كاترين ايفانوفنا ولكن آماليا ايفانوفنا أشارت الى البطاقة الصفراء ، فما كان من كاترين ايفانوفنا الا أن دفعت عنها صونيا وهجمت على آماليا ايفانوفنا لانفاذ التهديد الذي أعلنته بصدد القبعة •

وفي تلك اللحظة فُتح الباب ، وظهر في العتبة بطرس بتروفتش لوجين فجأةً •

توقف لوجين لحظة ، وألقى على الحضور جميعهم نظرة قاسية فاحصة ، فهرعت كاترين ايفانوفنا نحوه •

الفصل الثالث



كاترين ايفانوفنا تقول :

– بطرس بتروفتش ! أنت على الأقل ، أنجدني ،
أغثنى ! أفهم هذه المخلوقة الغبية أنها لا يحق
لها أن تعامل بمثل هذه المعاملة سيده من أسرة
كريمة أخنى عليها الدهر ، وأن هناك محاكم لهذا الأمر ... سوف
أشتكى الى الحاكم العام بشخصه ... يجب أن تُسأل هذه المخلوقة عما
فعلت ! .. تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به أبى ... كن
حامياً لليتامى ...

قال بطرس بتروفتش مردداً مكرراً وهو يبعد كاترين ايفانوفنا
بحركة من يده :

– اسمحى لى يا سيدتى ، اسمحى لى ، اسمحى لى يا سيدتى *
أنا لم أشرف بمعرفة أبيك فى يوم من الأيام ، وأنت تعلمين هذا حق العلم
... اسمحى لى يا سيدتى ! (أخذ أحدهم يضحك ضحكاً صاخباً) *
ولست أنوى أن أشارك فى مشاجراتك المتصلة مع آماليا ايفانوفنا ... انا
انما جئت لأمر ... شخصى ، أنا انما جئت أطلب على الفور ايضاحاً من
ابنة زوجك صوفيا ايفانوفنا .. هذا هو اسمها ، أليس كذلك ؟ فاسمحى
لى أن أمر ...

قال بطرس بتروفتش ذلك وترك كاترين ايفانوفنا واتجه الى الركن المقابل من الغرفة ، حيث كانت صونيا •

تجمدت كاترين ايفانوفنا كأنما نزلت عليها صاعقة • لم تستطع أن تفهم كيف أمكن أن ينكر بطرس بتروفتش أن أباه قد أكرم ضيافته • انها وقد تخيلت تلك الضيافة أصبحت تصدقها وتؤمن بها هي نفسها • وهذه اللهجة التي تكلم بها بطرس بتروفتش ، هذه اللهجة الحسنة ، الرسمية ، التي فيها احتقار وتهديد ، قد أدهشتها أيضاً • على أن الجميع قد صمتوا منذ دخل بطرس بتروفتش • ان « رجل الأعمال الجاد » هذا يفوق سائر الحضور شأنًا ، ولقد كان واضحاً عدا ذلك أنه انما جاء لأمر خطير ، فلا بد أن يكون هناك سبب خارق دفعه الى أن يغشى هذه البيئة ، ولا بد اذن أن يقع حادث ما بعد قليل • وكان راسكولنيكوف الى جانب صونيا فتتحى حتى يدع له أن يمر • وبدا على بطرس بتروفتش أنه لم يلاحظه • وبعد دقيقة ظهر ليزياتنيكوف في عتبة الباب هو أيضاً • لم يدخل الغرفة ، غير أنه وقف مستطلعاً كذلك ، حتى ليكاد يكون مدهوشاً • وقد أصاح بسمعه مصغياً ، لكنه ظل مدةً طويلة يبدو عليه أنه لا يفهم الأمر الذي يدور عليه الكلام •

قال بطرس بتروفتش يخاطب الجمع :

– اغفروا لي ازعاجكم ، غير أن القضية هامة خطيرة ؛ بل اننى يهمنى أن تتجلى الأمور على رعوس الأشهاد • يا آماليا ايفانوفنا ، أرجوك وألح فى الرجاء أن تستمعى الى الحديث الذى سأجريه مع صوفيا ايفانوفنا ، بصفتك صاحبة البيت •

وتابع كلامه يقول مخاطباً صونيا التي كانت مذهولة وكانت مروعة مذعورة سلفاً :

– يا صوفيا ايفانوفنا ، بعد زيارتك فوراً افتقدت ورقة نقديه قيمتها مائة روبل كانت موجودة على المائدة عند صديقي أندره سيميونوفتش ليزياتنيكوف . فاذا كنت تعرفين بطريقة أو بأخرى أين توجد هذه الورقة المالية الآن ، فقلت لنا أين توجد ، فإن لك على عهد الشرف – وهؤلاء جميعاً شهود على ما أقول – أن تقف القضية عند هذا الحد ؛ والا كنت مضطراً أن أُلجأ الى اجراءات أخطر وليس لك عندئذ أن تلومى الا نفسك !

خيم على الغرفة صمت مطلق . حتى الأطفال الذين كانوا يكون سكتوا . وكانت صونيا واقفة ، شاحبة كأنها ميتة ، تنظر الى لوجين ولا تجد كلاماً تجيبه به . كان يبدو عليها أنها لا تفهم . وانقضت بضع ثوان .

سألها لوجين وهو يحدق اليها :

– هيد ؟ ما قولك ؟

فقال صونيا أخيراً بصوت واهن :

– لا أعلم

– حقاً ؟ لا تعلمين ؟ لا تعلمين شيئاً ؟

تذلك سألها لوجين مكرراً ، ولزم الصمت بضع ثوانٍ أخرى ، ثم استأنف كلامه فقال بجفاء وخشونة :

– فكرى يا آنسة ، فكّرى فى الأمر . أحب أن أمهلك بعض الوقت لتفكرى . اسمعى : لولا اننى واثق بما أقول ، موقن منه ، فاننى بحكم تجربتى ما كنت لأجازف فأوجه اليه اتهاماً مباشراً الى هذا الحد ، لأننى سأحاسب أنا نفسى عن توجيه مثل هذا الاتهام المباشر على رموس

الأشهاد اذا ظهر أنه خطأ فحسب • ذلك أمر أعرفه • اننى فى هذا الصباح قد بعث ، لقضاء حاجات شخصية ، بضعة سندات ذات ربيع ، قيمتها الاسمية ثلاثه آلاف روبل • ذلك هو الرقم المسجل فى دفترى • فلما عدت الى مسكنى - وان آندره سيميونوفتش شاهد على ذلك - أخذت أعدّ المال من باب التثبت والتحقق ، حتى اذا عددت ألفين وثلاثمائة روبل ، رتبها فى محفظتى ووضعت المحفظة فى الجيب الداخلى من ريدينجوتى • وبقي على المائدة نحو خمسمائة روبل أوراقاً نقدية ، منها ثلاث قيمه الواحدة مائة روبل • وفى تلك اللحظه دخلت أنت (تلميحه لدعوتى) ، وطوال المده التى قضيتها عندي ، كان يبدو عليك اضطراب شديد ، حتى انك قد نهضت أثناء الحديث ثلاث مرات • كنت تريد ان تخرجى - لا أدري لماذا ! - رغم ان محادثتى معك لم تكن قد انتهت • ان آندره سيميونوفتش يستطيع ان يؤكد هذا كله • وأغلب الظن انك لن ترفضى أنت نفسك ، يا آنسة ، ان تعترفى بأننى أرسلت آندره سيميونوفتش فى طلبك لهدف واحد هو ان أتكلم معك فى الوضع المحزن الذى آلت اليه قريبتك كاترين ايفانوفنا (التى لم أستطع ان أشارك فى مأدبتها) ، وفى وسائل مساعدتها بتنظيم اكتاب تبرعات أو اقامة يانصيب أو شىء من هذا القبيل • وقد شكرتني ، حتى ان الدموع ترقرقت من عينيك (اننى أروى الأشياء كما وقعت ، أولاً لأذكرك بها ، وثانياً لأبين لك أنه ما من تفصيل من التفاصيل قد امحى من ذاكرتى) • ثم تناولت من على المائدة ورقة بعشرة روبلات وأعطيتك اياها ، دليلاً على اهتمامى بقريبتك ، ومشاركة أولى منى فى مساعدتها • وهذا أيضاً قد رآه سيميونوفتش • وخلوت بعد ذلك الى آندره سيميونوفتش • وتحدث معه قرابة عشر دقائق • حتى اذا خرج عدت الى المائدة أنوى ان أرتب ،

على حدة ، المال الذى كان موضوعاً عليها ، وذلك بعد أن أعدّه مرة أخرى (كنت قد فررت ذلك من قبل) • فما كان أشد دهشتى حين وجدت أن ورقة مالية بمائة روبل قد فقدت • افصلى فى الأمر بنفسك : لا يمكننى بأية حال من الأحوال أن أشك فى آندره سيميونوفتش ، حتى ان هذه الفكرة وحدها تُشعرنى بالحجل والعار • لا ولا يمكن أن أكون قد أخطأت فى حساباتى ، لأننى قبل وصولك بدقيقة واحدة كنت قد ثبتت من صحة المجموع • لذلك ، ونظراً لاضطرابك الشديد أثناء المقابلة ، ونظراً لاستعجالك الخروج ، ونظراً لكونك قد ظللت واضعةً يديك على المائدة بضع لحظات ، ونظراً لوضعك الاجتماعى وما يخلقه من عادات ، فقد « أكرهت » ان صح التعبير ، أكرهت مرتاعاً مشمئزاً على أن أتوقف عند شبهة لا نسك أنها فاسية لكنها فى محلّها ولها ما يسوّغها • اضيف وأكرر أننى رغم يقينى « البديهي » الكامل أدرك أن القاء هذه التهمة لا يخلو من مخاطر أتعرض لها • ولكننى لم أتردد دقيقة واحدة ، كما ترين ، بل ثارت نائرتى واستعر حنقى ، وسأقول لك الآن لماذا ثارت نائرتى واستعر حنقى : ان سبب ذلك هو عقوبتك الأسود يا آنسة ؟ كيف ؟ أأدعوك الى مسكنى ، وأهتم بقريبتك المسكينة ، وأعطيك عشرة روبلات مساهمةً منى فى مساعدتها ، فتكافئنى هذه المكافأة فى تلك الدقيقة نفسها ؟ لا ، حقاً ليس هذا حسناً ! ولا بد من أن تُلَقِّنى درساً ! فكترى فى الأمر ! ثم اننى أطلب منك ذلك كصديق مخلص (وليس يمكن أن يكون لك فى هذه اللحظة صديق خير منى) : تذكرى هذا ، والا أصبحتُ بغير رحمة أو شفقة • هل تعترفين بأنك •••

دمدمت صوتياً تقول مذعورة :

– أنا لم أسلبك شيئاً • أنت أعطيتنى عشرة روبلات • ها هى ذى • اننى أردّها اليك •

واستلت صونيا من جيبتها منديلاً ، واهتدت الى العقدة التي عقدتها
فيه ففضتها وسحبت منها ورقة العشرة روبلات ومدتها الى لوجين •
قال لوجين ملحاً ، بلهجة اللوم والتقريع ، دون أن يتناول الورقة
المالية :

— ألا تعرفين اذن بالمائة روبل ؟

أجالت صونيا بصرها فيما حولها • كان الجميع ينظرون اليها بعيون
قاسية ، ساخرة ، مبغضة ! • • • وألقت نظرة على راسكولنيكوف •
كان راسكولنيكوف واقفاً ، مسنداً ظهره الى الجدار ، عاقداً ذراعيه
على صدره ، يحدّق اليها بعينين ملتئميتين •
وأفلتت من صونيا هذه الاستغاثة :

— يا رب !

قال لوجين فى رفق ، بل بصوت عذب :

— يا آماليا ايفانوفنا ، سيكون علينا أن نبلغ الشرطة ، فأرجوك
بانتظار ذلك أن ترسلى أحداً ينادى البواب • • •
قالت آماليا ايفانوفنا وهى تضرب كفاً بكف :
— يا اله الرحمة * ! كنت أعرف أنها لصة !

قال لوجين :

— ها • • • كنت تعرفين ذلك ؟ لا بد أن يكون هنالك اذن سبب
دعاك الى استخلاص هذه النتيجة ، واستخراج هذا الرأى فى الماضى !
فأرجوك يا آماليا ايفانوفنا ، المحترمة جداً ، أن تتذكرى هذه الكلمات
التي قلتها الآن ، وقد قلتها أمام شهود على كل حال •

أخذ الحضور يتكلمون بأصوات قوية في كل جهة من الجهات ،
وشمل الحفل كله اضطرابٌ كبيرٌ .

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول فجأةً وقد ثابت الى رشدها :
... كيف ؟

واندفعت مسرعةً نحو لوجين مرددة :

... كيف ؟ أتتهمها بالسرقة ؟ أتتهمها هي ؟ هي ، صونيا ؟ آه ...
يا للحقيرين ! يا للحقيرين !

وارتمت على صونيا ، فاحتضنتها بذراعيها المعروقتين الهزيلتين
ككُلابةٍ . وتابعت كلامها تقول :

... صونيا ! كيف تجرأت أن تقبلي عشرة روبلات من هذا الرجل؟
يا لك من حمقاء ! يا لك من حمقاء ! ردّيها اليه حالاً ، رديها اليه حالاً ،
روبلاته العشرة ! خذ ...

انتزعت كاترين ايفانوفنا الورقة النقدية من يد صونيا ، فدعتها
بيديها ، ورمتها في وجه لوجين ، فأصابت كرتها عينه ثم تدحرجت على
أرض الغرفة . فأسرت آماليا ايفانوفنا تشيلها ، وغضب بطرس
بتروفتش ، وصرخ قائلاً :

... أمسكوا هذه المجنونة !

وفي تلك الدقيقة ظهر عدة أشخاص آخرين يمكن أن نرى بينهم ،
عدا لينزياتنيكوف ، السيدتين القادمتين من الأقاليم ، اللتين تسكنان هنا منذ
مدة قصيرة .

صاتت كاترين ايفانوفنا تقول :

– كيف؟ المجنونة؟ أنا المجنونة؟ يا للأبله! يا للوغد الشقي! يا للرجل الدنيء! صونيا، صونيا، تسرق منه مالا؟ صونيا، سارقة؟ ولكنها قادرة على أن تعطيك مالا يا أبله!

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وانفجرت تضحك ضحكة هسترية، وهتفت تقول وهي تركز الى اليمين والى اليسار مشيرة لجميع الناس الى لوجين:

– رأيتم الى هذا الأبله؟

ولمحت صاحبة البيت فجأة فقالت:

– كيف؟ أفأنت أيضاً تدعين أنها سارقة؟ يا للدجاجة الألمانية! انظروا أيها الناس، انظروا!

وعادت تخاطب بطرس بتروفتش فقالت:

– آه... أنت... أنت... أجهلت أنها لم تترك هذه الغرفة لحظة واحدة أيها النذل، فما ان خرجت من عندك حتى جاءت تجلس الى جانبي؟ لقد رأها الجميع. جلست هنا، الى جانب روديون رومانوفتش! فتنشها اذن! فما دامت لم تذهب الى أى مكان، فلا بد أن يكون المال معها. ابحث اذن! ابحث اذن! ابحث! ولكن اذا لم تجد شيئاً يا عزيزى فلتحاسبن على افترائك! الى الامبراطور سأشكوك، الى الامبراطور، الى القيصر الرحيم! لأرتمين على قدميه حالا، فى هذا اليوم نفسه! أنا يتيمة! سيسمحون لى بالدخول! ماذا؟ أتظن أنهم لن يسمحوا لى بالدخول؟ أنت اذن مخطيء! لسوف أصل اليه، لسوف أصل اليه! آ... كنت تعوّل على خجلها وحيائها، على

رقتها وخفرها ، أليس كذلك ؟ على هذا انما كنت تبني أملك ! ولكننى ،
أنا ، لا أستحى يا عزيزى ! أنا عيناى ماء ! هيا فتش ! فتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك خارجةً عن طورها وقد أخذت تهز
لوجين بكل قواها وتجره نحو صونيا *

قال لوجين :

— أنا مستعد * * * أنا مستعد لأن أحاسب * * * ولكن هدئى روعك
يا سيدتى ، هدئى روعك ! انى لألاحظ حقاً أنك لا تستحين * * * (هنا
أصبح كلام لوجين دمدمة) * * * أمام الشرطة انما يحسن فى الواقع ان
* * * رغم أن وهنا شهوداً يكفى عددهم ويزيد * * * أنا مستعد * * * ولكن
هذه مهمة محرجة بالنسبة الى رجل * * * وذلك بسبب * * * بسبب الجنس
طبعاً * * * ليتنى أستطيع أن أطلب الى آماليا ايفانوفنا أن تساعدنى * * *
رغم أن الطريقة الواجبة ليست هذه الطريقة * * * ليست هذه الطريقة * * *
ما العمل ؟

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

— اختر من تشاء ! فليفتشها من يريد أن يفتشها ! صونيا !
اقلبى جيوبك أمامهم ! انظر ، انظر أيها الشيطان ! هانت ذا ترى أن
جييبها خال * رأيت ؟ واقلبى الجيب الآخر الآن ! انظر ! انظر !
رأيت ؟ رأيت ؟

ولم تكتف كاترين ايفانوفنا بقلب جيبي صونيا ، بل شدتهما شداً
عنيفاً لتظهرهما اظهاراً أوضح * فاذا بورقة صغيرة تثب عندئذ من الجيب
الثانى ، وهو الجيب الأيمن ، فترسم فى الهواء قوس دائرة ثم تسقط عند
قدمى لوجين *

جميع الحضور رأوا الورقة ، وكثيرون منهم أطلقوا صرخات •
 ومال بطرس بتروفتش على الأرض ، فتناول الورقة باصبعين ، وفضَّها
 على مرأى من الشهود كافة • انها ورقة مائة روبل قد طُويت ثمانى
 طيَّات • أجال بطرس بتروفتش يده فى جميع الاتجاهات حتى يتمكن
 الحضور جميعاً من رؤية الورقة رؤية واضحة •

أعولت آماليا ايفانوفنا تقول :

– سارقة ! لصة ! اخرجى من هنا ! نادوا الشرطة ، نادوا الشرطة !
 يجب ارسالهم الى سبيريا ! اخرجوا من هنا !

وارتفعت صيحات من كل صوب • وكان راسكولنيكوف صامتاً
 لا يحوّل بصره عن صونيا ، مع القائه نظرةً سريعةً على لوجين من حين
 الى حين • وما تزال صونيا واقفةً فى مكانها كأنها أصيبت بخبال ، حتى
 انها لا تبدو عليها دهشة • وفجأةً احمر خذاها احمراراً شديداً ، وأطلقت
 صرخة خفيفة ، وأخفت وجهها فى يديها • ثم صرخت بصوت ممزق
 يقطعه نسيج البكاء ، وهى تهرع نحو كاترين ايفانوفنا ، صرخت تقول :
 – لا ، لست أنا ! ••• أنا لم آخذها ! • لا أعلم !

فاحتضنتها كاترين ايفانوفنا بذراعيها ، وضمتها اليها بقوة كأنها تريد
 أن تجعل من صدرها متراساً يحميها •

وصرخت كاترين ايفانوفنا تقول على خلاف الدليل القاطع ، وهى
 تهددها فى ذراعيها كما يُهدد طفل صغير ، وتقبّلها طائشة العقل ،
 وتمسك يديها فتغرقهما لثماً :

– صونيا ! صونيا ! لست أصدق ! هانت ذى ترين أننى لا أصدق !
 أنت تسرقين ؟ أهم أغبياء حتى يصدقوا أنك تسرقين ؟ يا رب !•••

ثم صرخت تخاطبهم جميعاً :

- أنتم بلهاء ! أنتم بلهاء ! أنتم اذن لا تعرفون حتى الآن مدى ما تتمتع به من طيب القلب ونبيل النفس ! أنتم اذن لا تعرفون أية فتاة هي ! أهى تسرق ؟ هي ؟ ألا انها المستعدة أن تهب للناس آخر قميص تملكه ، ألا أنها المستعدة أن تسير حافية القدمين لتبيع آخر قميص تملكه ، ألا انها المستعدة أن تهب لكم أنتم آخر قميص تملكه اذا كنتم فى حاجة اليه ! نعم ، هذه هي طبيعتها ! ولئن تطوعت فأصبحت ذات بطاقة ، فلأن أولادى كانوا يتضورون جوعاً ! لقد باعت نفسها فى سيلنا ! اه ... يا زوجى الراحل ... يا زوجى المسكين الراحل ، هل ترى هذا ؟ هل ترى ؟ انظر الى مادبة الجنازة هذه التى تقام لك ! رباه ! ولكن ما بالكم لا تدافعون عنها أنتم ؟ ما بالكم تبقون جامدين كاللومياوات ؟ لماذا لا تدافع عنها أنت يا روديون رومانوفتش ؟ أتصدق أنت أيضاً أنها حقاً ... ؟ انكم جميعاً لا تساوون خنصرها ، جميعاً ، جميعاً ، جميعاً ! هلاً دافعتم عنها أخيراً ؟ رباه ! ...

كان لشهقات كاترين ايفانوفنا المسكينة ، المصدورة ، التى هجرها جميع الناس أثر قوى فى الحضور . ان هذا الوجه الحزين المخرب الضاوى من وجوه المصابين بداء السسل ؛ وان هاتين الشقيقتين اليابستين المدماتين ؛ وأن هذا الصوت الأجنش الصافر ؛ وان هذا النسيج المتشنج الذى يشبه نسيج الأطفال ؛ وان هذه الضراعة التى فيها ثقة كثقة الأطفال رغم ما فيها من يأس ؛ ان ذلك كله كان يبلغ من اثاره الشفقة وايلام النفس أن الجميع أصبحوا كمن يرثى لحال المرأة الشقية من أعماق نفسه . وسرعان ما « رثى لحالها » بطرس بتروفتش على كل حال . قال يهتف بصوت يعبر عن الحماية والرعاية :

- سيدتى ، سيدتى ! ان هذا الحادث لا يتناولك فى شيء البتة ؛ مامن

أحد يخطر بباله أن يتهمك بسوء النية أو المشاركة والتواطؤ ، لا سيما وأنتك توليت بنفسك قلباً جيوبها ، فهذا دليل على أنك لم تراودك آية شبهة • اننى مستعد أتم الاستعداد ، نعم ، أتم الاستعداد ، لأن أتسامح اذا كان البؤس هو الذى دفع صونيا سيميونوفنا ان صح التعبير • ولكن لماذا لم تشائى أن تعترفى يا آنسة ؟ لعلك كنت تخشين العار ؟ لعل تلك الخطوة كانت خطوتك الأولى فى هذا الطريق ؟ لعلك كنت قد فقدت صوابك ؟ ذلك أمر يفهم تماماً • ولكن لماذا ، لماذا وضعت نفسك فى موقف كهذا الموقف ؟

وأردف بطرس بتروفتش يشهد الحضور قائلاً :

– أيها السيدات والسادة ، اننى ، من باب الشفقة أو قولوا من باب الرأفة والرحمة ، ما أزال مستعداً لأن أعفر وأصفح ، رغم الشتم الشخصية التى وُجِّهت الىّ !

والتفت الى صونيا ، فقال لها :

– نعم يا آنسة ، ليكن الحزى الذى أصابك الآن درساً يفيدك فى المستقبل • لن أتابع هذه القضية • أريد أن تقف الأمور عند هذا الحد • يكفى هذا •

وبطرف العين أراد بطرس بتروفتش أن يلاحظ راسكولنيكوف ، فالتقت نظرتهما • كانت نظرة راسكولنيكوف المشتعلة الملتهبة تهم أن تسحق لوجين سحقاً •

ولم يبد على كاترين ايغانوفنا أنها سمعت شيئاً • كانت تعانق صونيا وتقبّلها كمجنونة • وكان الأطفال أيضاً يضمون صونيا بأذرعهم الصغيرة؛ وقد أجهشت بوليتشكا باكية ، (رغم أنها لم تفهم الأمر الذى يدور عليه

المشهد فهماً واضحاً) ، وألقت وجهها الجميل المنتفخ على كتف صونيا ،
مهتزة الجسم من النشيج •

– ما أنذل هذا !

كذلك قال صوتٌ رصين على حين فجأة قرب الباب •

التفت بطرس بتروفتش • فكرر ليزياتنيكوف قوله محذفاً إليه
متفرساً فيه :

– يا للندالة !

أصاب بطرس بتروفتش شيء يشبه أن يكون رعشة • لقد لاحظ
الجميع هذه الرعشة (وتذكروها فيما بعد) • تقدم ليزياتنيكوف بضع
خطوات • وقال مخاطباً بطرس بتروفتش وهو يقترب منه :

– وتجرو أن تُشهدني أيضاً ؟

– ما معنى هذا ••• يا آندره سيميونوفتش ؟ عمَّ ••• تتكلم ؟

كذلك دمدم لوجين متعثر اللسان •

أجابه ليزياتنيكوف بعنف ، وهو ما يزال يحدق إليه تحديقاً
قاسياً بعينين تشبهان أن تكونا عمياوين :

– معناه أنك كاذب مفتر ••• نعم ••• هذا ما يعنيه كلامي !

كان ليزياتنيكوف في حالة غضب رهيب • ونظر إليه واسكولنيكوف
هو أيضاً ، كأنما ليتلقف كلماته ويزنها وهي طائرة • وساد صمت
جديد • كان بطرس بتروفتش قد فقد سيطرته على نفسه تقريباً ،
ولا سيما في الوهلة الأولى •

وبدأ يتكلم فقال متلعثماً :

– اذا كنت تخاطبني أنا *** ولكن ماذا دهاك ؟ أنت في تمام عقلك ؟

– نعم ** أنا في تمام عقلي *** ولكنك أنت *** نذل ! آه ***
ما أنذل هذا ! لقد سمعت كل شيء ، وتعمدت أن أنتظر لأفهم كل شيء ،
ذلك أننى حتى هذه الساعة *** كانت تبدو لى الأمور منطقية جداً ،
اعترف بذلك ! *** نعم ، لماذا فعلتَ هذا ؟ *** اننى لا أفهم !

– ولكن ما الذى فعلته ؟ هلا كفتت عن الكلام بالغاز غبية ؟ لعلك
سكران ؟ لعلك شربت ؟

– بل لعلك أنت الذى شربت ، لا أنا ، أيها الرجل الدنيء ! ثم
اننى لا أشرب فودكا أيضاً ، لأن هذا يخالف مبادئى . هل تتصورون
أنه هو نفسه ، هو الذى أعطى صوفيا سيميونوفنا ، بيديه ، ورقة المائة
روبل هذه ؟ لقد رأيتُه بعينى رأسى ، أنا شاهد ، وفى وسعنى أن أحلف
على ذلك بأغلظ الأيمان !

وردّد ليزياتنيكوف يقول متجهاً الى الجميع والى كل واحد :

– هو ! هو ! هو !

أعول لوجين يقول :

– أنت مجنون أيها الغر ؟ لقد أقرت هى نفسها ، هى الواقعة
هناك ، بقربك ، أقرت أمام جميع الناس أنها لم تأخذ منى الا عشرة
روبلات . وكيف كان يمكنى أن أعطيها تلك الورقة بعد ذلك ؟

ردّد ليزياتنيكوف يقول صارخاً :

– رأيتُ ما فعلته ! رأيت ما فعلته ! وأنا مستعد ، رغم أن ذلك
يخالف مبادئى ، مستعد لأن أحلف اليمين أمام المحاكم *** لأننى

رأيتك تدس لها هذه الورقة خلسة * ولكننى ، لغبائى ، اعتقدت أنك تفعل ذلك من باب البر والاحسان * قرب الباب ، لحظةً كانت تودعك ، حين التفت ومددت لها يدك اليمنى ، دسست ورقة المائة روبل باليد اليسرى فى جيبيها خلسة * رأيت ذلك ! رأيت ذلك !

شحب لون لوجين * وصرخ يقول بوقاحة :

– ما هذه السخافات التى تقولها ؟ كيف كنت تستطيع ، وأنت واقف قرب النافذة ، أن تتعرف هذه الورقة ؟ ما هذا الا وهم ! * ما هذا الا وهم خلقتهم عينك الضيقتان الحسيرتان ! أنت تهذى !

– لا ، ليس هذا وهماً ! ورغم أننى وقفت بعيداً ، والحق يقال ، فقد رأيت كل شئ ، رأيت كل شئ ! صحيح أن من الصعب على المرء أن يميّز ورقة من بعيد وهو واقف قرب النافذة * ولكننى بفضل ظرف خاص جداً كنت أعلم أن تلك الورقة انما كانت ورقة مالية بمائة روبل ، اذ فى اللحظة التى أعطيت فيها صوفيا سيميونوفنا عشرة روبلات ، رأيتك تتناول من على المائدة ورقة مائة روبل (وقد رأيت هذا لأننى كنت عندئذ بالقرب منك) ؛ ولأن فكرة ما قد ومضت فى ذهنى حينذاك ، فأننى لم أنس أن هذه الورقة كانت بيدك * لقد طويتها واحتفظت بها فى يدك طول الوقت * ثم لم أفكر أنا بعد ذلك فى هذا الأمر التفصيلى ، ولكنك حين نهضت نقلت الورقة من يدك اليمنى الى يدك اليسرى ؛ وحين فعلت ذلك كدت تسقطها على الأرض * فتذكرت ذلك الأمر التفصيلى من جديد ، لأن تلك الفكرة نفسها قد ومضت فى ذهنى مرة أخرى : وهى أنك تريد أن تمن على صوفيا سيميونوفنا دون أن أعلم أنا ذلك * لهذا أخذت أراقبك وأرصد حركاتك ، فرأيت أنك أفلحت فى أن تدس تلك الورقة فى جيبيها ! رأيت ذلك ! رأيت ذلك ! وانى مستعد لأن أحلف يمينا !

كان لبيزياتنيكوف كمن يختنق * وأخذت الصيحات تنهمر من كل صوب ، وكان أكثرها يدل على الدهشة والاستغراب * غير أن بينها صيحات كان فيها شيء من تهديد أيضاً * واقترب الجميع من بطرس بتروفتش ، واندفعت كاترين ايفانوفنا نحو لبيزياتنيكوف *

- آندره سيميونوفتش ! لقد أخطأت الظن فيك ! دافع عنها ! أنت الوحيد الذى يدافع عنها ! هذه يتيمة ! ان الله هو الذى أرسلك لتساعدنا ! آندره سيميونوفتش ، يا عزيزى الطيب الشهم آندره سيميونوفتش !

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك ، وارتمت تر كع أمامه ، وهى لا تكاد تدرك ماذا تصنع !

زار لوجين يقول وقد بلغ ذروة الغضب :

- سخافات ! هذا كل ما تستطيع أن تمضغه من كلام : « نسيت ، تذكرت ، تذكرت ، نسيت ! » * ما معنى هذا ؟ فى زعمك اذن اننى دسست لها الورقة عمداً * * * ولكن لماذا ؟ ما عسى يكون هدفى من ذلك ؟ أى شى يجمع بينى وبين هذه ال * * *

- لماذا ؟ ذلك بعينه هو ما لا أفهمه أنا نفسى ، ولكن هذا لا ينفى أننى أقول الحقيقة ! اننى لم أخطىء فى شىء أيها الحقير النذل ؛ اننى أتذكر أن فكرة قد راودتنى فى تلك المناسبة ، حين كنت أشكرك مصافحاً * لقد قلت لنفسى عندئذ : « لماذا دس لها هذه الورقة خلسة ؟ » * لا يمكن أن لا يكون غرضه من ذلك الا أن يخفى عنى عمله ، لعلمه بأن مبادئى تتعارض مع فكرة الاحسان الفردى ، الاحسان الذى لن يخفف عن أحد تخفيفاً جذرياً فى يوم من الأيام ؟ * ثم خطر ببالى أنك ربما كنت تشعر بخرج من اهداء مثل هذا المبلغ الكبير بحضورى ؛ ثم اعتقدت

أنك انما أردت أن تحدث لها دهشةً حين ستعثر في جيبيها على ورقة مالية بمائة روبل (أنا أعلم أن بعض المحسنين يحبون أن يتصرفوا على هذا النحو) • ولكنني قلت لنفسي بعد ذلك أيضاً انك تريد أن تختبرها وأن تمتحنها ، أى أن تعلم هل تجيء اليك شاكرة بعد أن تجد الورقة • وبعد ذلك أيضاً تخيلت أنك انما أردت أن تتجنب كل تعبير عن الشكر والامتنان ، عملاً بالمبدأ القائل ان اليد اليمنى يجب أن تجهل •• الخ •• آه ••• ما أكثر الأفكار التي راودت ذهني حينذاك !••• وقد قررت أن أفكر في هذه المسألة على مهل ، ورأيت أن من غير اللائق أن أظهر لك منذ ذلك الحين انني عارف بسرّك • وقد راودتني عندئذ فكرة أخرى • تساءلت : « ماذا لو أضاعت صوفيا سيميونوفنا هذا المال قبل أن تلاحظ وجوده ؟ » وذلك هو السبب الذي دفعني أن أجيء الى هنا فأذكرها أو أعلمها أنك وضعت مائة روبل في جيبيها • ولكنني ، أثناء الطريق ، دخلت على السيدتين كوبليانينكوف ، لأعطيها كتاب « العرض العام للمنهج الوضعي » * ، ولأوصيهما خاصةً بقراءة مقالة بيدريت (ومقالة فاجنر أيضاً) ؟ ثم جئت الى هنا ، فانظر في وسط أية قصة وقعت ! هل كان يمكن أن تخطر ببالى تلك الأفكار كلها ، وهل كان يمكن أن أجرى تلك الاستدلالات جميعها ، لولا أنني رأيتك تدس المائة روبل في جيب صوفيا سيميونوفنا فعلاً ؟

حين أنهى آندره سيميونوفتش أقواله المفحمة وختمها بهذه النتيجة المنطقية شعر بتعب رهيب ، فكان العرق يقطر من جبينه • انه لا يجيد التعبير باللغة الروسية وا أسفاه (وان كان لا يعرف أية لغة أخرى) ، لذلك بدا عليه بعد مغامرته الخطابية ارهاق شديد ، حتى لكأنه أصيب بنحول وهزال • لكن حديثه أثار تأثيراً خارقاً • لقد تكلم بدون تصنع

أو افتعال ، وكان كلامه مقنعاً مفحماً ، فصدقه الجميع • وشعر بطرس بتروفتش أن الأمور لا تجرى على ما يحب • فهتف يقول :

– أنا لا تهمنى المسائل السخيفة التي خطرت ببالك في قليل ولا كثير ! ليس هذا ببرهان • من الجائز جداً أن تكون قد رايت ذلك كله في حلم • وأنا أقول لك انك تكذب يا سيد ! أنت تكذب ، وانت تفتري على ، يدفعك الى ذلك حقدٌ شخصي ، فأنت تضمر لي الضغينة لأنني لا أشارك آراءك الاشتراكية الملحدة • ذلك كل شيء !

ولكن هذه الحركة الدائرة لم تعد على بطرس بتروفتش بأى نفع • بالعكس : ارتفعت الدمدمات من كل جهة •

وصاح ليزياتيكوف يقول :

– ١ • • هذا ما تريد أن تصل اليه ! أنت تكذب ! استدع الشرطة ، وسأحلف اليمين • ليس هناك الا شيء واحد لا أستطيع أن أفهمه : ما الذى دفعه الى أن يتصرف هذا التصرف الدنيء ؟ يا للحقير ! يا للندل ! قال راسكولنيكوف بصوت قاس وهو يتقدم الى أمها :

– أنا أستطيع أن أشرح السبب الذى دفعه الى التورط فى مثل هذا الفعل • وانى لمستعد أن أحلف اليمين أنا أيضاً اذا لزم ذلك •

كان راسكولنيكوف يبدو حازماً • وأدرك الجميع من نظرة واحدة ألقوها عليه أنه يعرف القضية كلها فعلاً ، وأن الخاتمة قد اقتربت •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال متجهاً بالكلام الى ليزياتيكوف رأساً :

– الآن فهمت كل شيء ! لقد أحسست منذ بداية هذه الحكايه ان فى الأمر مكيدة قدرة ما ، أحسست ذلك بسبب ظروف خاصة لا يعرفها

أحد غيرى وسأكشف عنها لكم الآن ، لأنها أصل كل شيء • وأنت الذى أضأت لى الحقيقة نهائياً بشهادتك الثمينة يا أندره سيميونوفتش • أرجوكم جميعاً ، جميعاً ، أن تصغوا الىّ • ان هذا السيد (قال راسكولنيكوف ذلك مشيراً الى لوجين) قد خطب فى الآونة الأخيرة فتاة ••• فتاة ••• هى أختى آفدوتيا رومانوفنا راسكولنيكوف • لكنه منذ وصوله الى بطرسبرج أمس الأول قد حدث بينى وبينه شجار أثناء أول لقاء بيننا فطردته من مسكنى ، وذلك بحضور شاهدين اثنين • ان هذا الرجل شرير جداً ••• لم أكن أعرف أمس الأول أنه يسكن فى غرفة مفروشة عندك يا أندره سيميونوفتش ، ولم أكن أعرف اذن أنه فى يوم تشاجرنا نفسه ، أى أمس الأول بعينه ، قد رأى أننى بصفتى صديقاً للمرحوم السيد مارميلادوف قد أعطيت زوجته كاترين ايغانوفنا مالاً تنفقه على الاحتفال بالجنائز • ولكنه قد رأى ذلك فسرعان ما كتب الى أمى رسالة يبلغها فيها أننى قد وهبت كل ما أملك من مال ، لا لكاترين ايغانوفنا بل لصوفيا سيميونوفنا ، واصفاً هذه الفتاة بأحط النعوت ••• أقصد ••• واصفاً طبيعة علاقتى بها بأحط النعوت • وهو يهدف من ذلك طبعاً الى أن يحدث شقاً بينى وبين أمى وأختى ، عن طريق اقناعهما بأننى أتلف فى وجوه غير شريفة آخر مال يحرمان نفسيهما منه فى سبيل سدّ حاجاتى • وفى مساء أمس ، أثناء مقابلة تمت بينى وبين أمى وأختى ، وقد حضر هذه المقابلة ، أظهرت الحقيقة مبرهنات على أننى انما أعطيت المال لكاترين ايغانوفنا ، لانفاقه على الاحتفال بالجنائز ، ولم أعطه لصوفيا سيميونوفنا ، التى كنت منذ ثلاثة أيام لا أعرفها على كل حال ••• ولكننى أضفت الى ذلك أنه ، هو بطرس بتروفتش ، بكل مزاياه ، لا يساوى خنصر صوفيا سيميونوفنا التى يقول فى حقها ذلك الكلام الدنىء ! ثم سألتى هل أنا مستعد لأن أجلس صوفيا سيميونوفنا الى جانب أختى ،

فأجبتته بأننى قد فعلت هذا فى ذلك اليوم نفسه • وأغضبه أشدَّ الغضب أن يلاحظ أن أمى وأختى لا تريدان أن تتساجرا معى تصديقاً لنمائمه واقتراءاته ، فسرعان ما أخذ يتفوه بوقاحات لا تُغتفر • ونشأت عن ذلك قطيعة حاسمة بينه وبين اختى ، وطُرد شرّاً طردة • ذلك كله حدث أمس • والآن انتهوا : لو قد أفلح فى أن يبرهن اليوم على أن صوفيا سيميونوفنا سارقة ، لاستطاع أن يظهر لأمى وأختى أولاً أنه كان على حق حين اشتبه فى أمرها ، وثانياً أنه كان على حق حين غضب اذ علم أننى ساويت بينها وبين أختى ، خطيئته • جملة القول أنه بفضل ذلك كان يستطيع أن يظل يأمل فى أن يحدث شقاً بينى وبين أسرته وفى أن يسترد حظوته لديها • ناهيك عن أنه بذلك ينتقم منى شخصياً ، لأن من حقه أن يفترض أن شرف وسعادة صوفيا سيميونوفنا يهمانى كثيراً • ذلكم هو حسابه كله ! هكذا أفهم أنا القضية ! هذا هو دافعه ولا دافع سواه !

بهذه الكلمات ، أو بهذه الكلمات تقريباً ، ختم راسكولنيكوف كلامه الذى كثيراً ما كانت تقطعه صيحات التعجب من المستمعين ، الذين تابعوا كلامه بكثير من الانتباه • ولكن راسكولنيكوف ، رغم المقاطعات ، تكلم بلهجة حازمة هادئة ثابتة ، وبوضوح كامل ودقة لا يشوشها شىء • وكان لصوته المخلج ونبرته المنعقة وهيئته القاسية أثر شديد فى جميع الناس •

قال ليزياتنيكوف مؤيداً بحماسة :

— هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر ! هذا هو الأمر يقيناً ، لأنه سألتنى ، منذ دخلت صوفيا سيميونوفنا الغرفة ، هل « أنت موجود ، وهل رأيتك فى عداد الذين دعمهم كاترين ايفانوفنا » • لقد جذبنى الى شق

النافذة ليلقى علىّ هذا السؤال همساً • معنى ذلك أنه كان يحرص حرصاً مطلقاً على أن تكون موجوداً ! هذا هو الأمر تماماً !

كان لوجين صامتاً يتسهم باحتقار • لكنه كان شديد الشحوب • كأنه يفكر في الوسلة التي يخرج بها من المأزق • لعله كان يتمنى لو يدع كل شيء ويخرج ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن كثيراً في تلك اللحظة : فلو خرج لكان معنى خروجه صراحةً أنه يعترف بصحة الاتهامات الموجهة إليه ، وأنه قد افتري على صوفيا سيميونوفنا فعلاً • ثم ان الحضور ، وقد سكرُوا ، أخذوا يتحمسون • وهذا موظف التموين يصرخ صرخة أعلى من صراخ سائر الناس ، رغم أنه لم يفهم كل شيء ، مقترحاً اتخاذ اجراءات تسمى الى لوجين كثيراً • هذا الى أن هناك أشخاصاً لم يكونوا سكارى : لقد هرع أناس من جميع الغرف • البولنديون الثلاثة الصغار احتاجوا احتياجاً رهيباً فهم لا ينفكون يصرخون قائلين بالبولندية : « سيد حقير » ، ويجمعون مرددين تهديدات بلغتهم أيضاً •

كانت صونيا تصغى في جهد ، ولكن كان لا يبدو عليها أنها تفهم شيئاً هي الأخرى • لكأنها خارجة من غيبوبة • كانت لا تحوّل عينيها عن راسكولنيكوف ، شاعرةً أنه سندها الوحيد • وكانت كاترين ايفانوفنا تتنفس في مشقة ، وكانت حنجرتها تصدر أصواتاً جشاء ، وكانت تبدو مرهقة الى أبعد حدود الارهاق • الا أن وضع آماليا ايفانوفنا كان أغبي الأوضاع ، فهي فاعرة الفهم يبدو عليها أنها لا تفهم شيئاً البتة • كل ما هنالك أنها كانت تحس أن بطرس بتروفتش في مأزق • وأراد راسكولنيكوف مرةً أخرى أن يتكلم ، ولكنهم لم يدعوا له أن يفعل ، فالحضور جميعاً يصرخون في آن واحد ويحتشدون حول لوجين بالشتائم والتهديدات • ومع ذلك لم يفتّ هذا في عضد لوجين • واذ

رأى أن حملته على صوفيا سيميونوفنا خاسرة ، لجأ الى الوقاحة عامداً •
قال وهو يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور :

- اسمحوا لي أيها السادة ، اسمحوا لي ! أرجوكم أن لا تهددوني!
أؤكد لكم أن هذا لا يجدى ، وأنكم لن تبلغوا بهذه الطريقة شيئاً !
لست بالصبي الغر ••• بالعكس : أنتم الذين ستحاسبون أمام العدالة عن
أنكم استعملتم العنف لتغطية جرم • لقد انفضحت السارقة ، وسأشكوها
الى القضاء • والقضاة ليسوا عمياً ، ولا هم سكارى !••• القضاة لن يثقوا
بأقوال ملحدين زنديقين يعاديان النظام ولا يؤمنان بالدين ، ويتهماني
حقداً وانتقاماً ، وذلك ما اعترفا به بلسانهما لغبائهما ! نعم ، اسمحوا لي !
قال آندره سيميونوفتش :

- ألا فليخفف كل أثر لوجودك عندي على الفور ! هيّا غادر غرفتي
حالا ، وليتته كل شيء بيننا ••• آه ••• حين أتذكر كم أرهقت نفسي
طوال خمسة عشر يوماً في أن أشرح له •••

- ولكنني قلت لك أنا نفسي منذ قليل ، بينما كنت تلح أنت على
بقائي عندك ، انني مباح غرفتك حتماً • هناك شيء واحد أضيفه الآن :
هو أنك غبي أبله ! أتمنى لك أن يشفى عقلك وأن يتحسن بصرك
الحسير • اسمحوا لي يا سادة !

واستطاع أن يشق لنفسه ممراً • لكن موظف التموين لم يكن
يسمعه. بهذه الأذن ، ولم يشأ أن يخلى سبيله بهذه السهولة ، فتناول كأساً
عن المائدة فلوح بها ثم قذفها الى جهة بطرس بتروفتش بكل ما أوتى من
قوة • غير أن الكأس طارت نحو آماليا ايفانوفنا رأساً ، فأطلقت هذه
صرخات حادة ، بينما أخذ موظف التموين يتدحرج تحت المائدة بعد أن
أفقدته هذه الحركة توازنه •

انسحب بطرس بتروفتش الى غرفته ، وما انقضى على ذلك نصف ساعة حتى كان قد غادر المنزل •

كانت صونيا ، الوجلة بطبيعتها ، لا تجهل أن من السهل على اى انسان أن يسبب ضياعها وهلاكها • وكانت تعرف كذلك أن اى انسان يستطيع أن يهينها وأن يؤذيها دون أن تصيبه من ذلك أية اساءة تقريباً • ولكنها كانت ما تزال تعتقد حتى ذلك الحين أن فى وسعها ، بطريقة أو بأخرى ، أن تتجنب نمائم كبيرة وافتراءات ضخمة اذا هى عاملت جميع الناس وكلّ انسان بالتأنى والحذر ، والتواضع والمذلة ، والرقّة واللفظ • فخاب الآن ظنّها ، وكانت خيبة الظن هذه قاسية الوقع فى نفسها • صحيح أنها كانت تستطيع ، مدعنةً مستسلمة ، ودون دمدمة تقريباً ، أن تتحمل كل شيء ، وأن تتحمل حتى هذا • غير أن « هذا » قد بلغ من شدة الوطأة على نفسها ، فى الوهلة الأولى ، درجةً لا تطاق • فهى ، رغم انتصارها وتبرئتها ، ما ان زال رعبها الأول وما ان أفادت من ذهولها وأصبحت قادرة على أن تدرك الأمور ادراكاً صحيحاً ، حتى كان شعورها بأنها مهجورة واحساسها بالاهانة التى أُلحقت بها يقبضان صدرها قبضاً أليماً ، فاذا هى تصاب بنوبة عصبية • ثم اذا هى تفقد صبرها فتوالى هاربةً من الغرفة راكضةً الى مسكنها • حدث ذلك فور انصراف لوجين تقريباً • وآماليا ايفانوفنا التى أصابتها الكأس لم تتحمل كذلك ضحكات الحضور ، فاستعر غضبها ، وأخذت تطلق صرخات مجنونة ، ثم اتجهت نحو كاترين ايفانوفنا تحمّلها تبعه كل شيء ، وتقول لها :

— ارحلى من بيتى ! اخرجى حالاً ! الى الأمام ، سر !

كانت آماليا ايفانوفنا تقول ذلك وهى تقبض على كل ما يقع بين يديها من أمتعة كاترين ايفانوفنا فتلقيه على الأرض *

وكانت كاترين ايفانوفنا قد تهالكت على السرير مهدودة القوى مهدمة ، محطمة ، ، فلما رأت صاحبة البيت تفعل ذلك بأمتعتها وثبت عن السرير وهجمت عليها * ولكن الصراع لم يكن فيه أى تكافؤ ، فكانت الألمانية تهز كاترين وترجحها كأنها ريشة طائر *

— ماذا ؟ ألم يكف هذه المخلوقة أنها افترت على صونيا افتراءات شيطانية ، فهى تهجم علىّ أنا أيضاً ؟ كيف ؟ هل أرمى الى الشارع فى يوم وفاة زوجى ؟ أبعد أن تقبل ضيافتى ألقى الى الشارع مع اليتامى ؟ فالى أين يمكننى أن أذهب ؟

بهذا كانت تقول كاترين ايفانوفنا مخنقة من خلال النسيج * وصرخت تقول على حين فجأة وقد اشتعلت عيناها :

— هل يمكن أن لا يكون هناك عدالة يا اله السماء ؟ عمّن عساك تدافع ومن عساك تحمى اذا لم تدافع عنا نحن اليتامى ، واذا لم تحمنا نحن اليتامى ؟ طيب * * * لسوف نرى ! ان على الأرض قضاءً ومحاكم ! نعم ، هناك قضاءً ومحاكم ! سأتجه الى المحاكم ، سأجد المحاكم ! حالاً ! فوراً ! انتظرى قليلاً أيتها المخلوقة الدنيئة ! يا بوليتشكا ، ابقى مع الأولاد ! سأعود ! انتظرى فى الشارع اذا لزم الأمر ! سوف نرى هل فى هذا العالم حقيقة !

وألقيت كاترين ايفانوفنا على رأسها ذلك الشال المصنوع من جوخ السيدات ، الذى تحدث عنه المرحوم مارميلادوف ، وشقت لنفسها طريقاً بين جمهرة السكان السكارى البعثرين فوضى ، الذين كانوا لا يزالون

محتشدين فى الغرفة • واندفعت فى الشارع باكية ناشجة ، وهى تنوى على نحو غامض أن تمضى باحثةً عن العدالة فوراً مهما كلف الأمر •

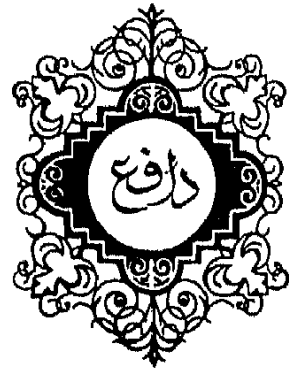
واستولى الرعب على بوليا ، فلطت فى ركن من الأركان قرب الصندوق ، مع الصغار المرتجفين المرتعدين ، وقد أحاطتهم بذراعيها منتظرةً عودة أمها •

وكانت آماليا ايفانوفنا تضطرب فى الغرفة ، وتطلق الصراخ بعد الصراخ ، وترعد ، وتلقى على الأرض كل ما تجده ثم تدوسه • وكان المستأجرون يصرخون كل من جهته • فبعضهم يعلقون على الأحداث بطريقةهم ، وبعضهم يتشاجرون ويتشائمون ، وبعضهم يغنون •

وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « والآن حان حينى أنا أيضاً • سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه الآن ! »

واتجه نحو مسكن صونيا •

الفصل الرابع



راسكولنيكوف عن صونيا دفاعاً متحمساً قوياً
 ضدّ لوجين رغم أن نفسه كانت تفيض هولاً
 شديداً وعذاباً أليماً • ولكنه شعر بعد تباريح
 الصباح برضى صادق وارتياح حقيقى لتغير
 مشاعره التي كان قد أصبح لا يطيق احتمالها ، بصرف النظر عن العاطفة
 التي دفعته الى التدخل مدافعاً عن صونيا • ثم انه لم ينس أنه على موعد
 وشيك مع الفتاة ، وهو موعد كانت فكرته تحدث له فى بعض الأحيان
 أشد أنواع القلق • كان «عليه» أن يبلغها أنه قتل اليزابت ، وكان يحس
 منذ الآن أنه سيشعر بعذاب شديد وألم ممض • وبحركة من يده ،
 أبعد هذه الفكرة عن ذهنه • لذلك فانه حين هتف يقول لحظةً خروجه
 من عند كاترين ايفانوفنا : « سوف نرى يا صوفيا سيميونوفنا ما قد تقولينه
 الآن » كان ما يزال خاضعاً للأثر الذى أحدثته فيه انتصاره منذ هنيهة على
 لوجين • غير أن شيئاً غريباً قد حدث حينذاك : فانه حين وصل الى مسكن
 كابرناؤموف شعر بقواه تبارحه على حين فجأة ، وشعر بخوف يستولى
 عليه ، فاحتار واضطرب ، ووقف أمام الباب وألقى على نفسه هذا السؤال
 العجيب : « هل يجب أن يقول لها من الذى قتل اليزابت ؟ » • وانما كان
 هذا السؤال عجيباً لأن راسكولنيكوف كان يشعر فى الوقت نفسه أنه

عاجز عن كتمان هذا الأمر بل يشعر أيضاً أنه يستحيل عليه أن يؤخر اعترافه هذا أى تأخير • كان لا يعرف ، بعد ، لماذا يستحيل عليه ذلك • وانما هو « يحس » تلك الاستحالة احساساً فحسب ، وكان هذا الاحساس الموجع الأليم بعجزه يثقل على نفسه ويرهقه من أمره حتى ليسحقه سحقاً • ومن أجل أن يضع حداً لحواطره وتأملاته ، وهمته وقلقه ، فتح الباب بغتةً ولاحظ صونيا من مكانه فى العتبة •

كانت صونيا جالسةً ، واضعةً كوعها على مائدتها الصغيرة ، دافئةً وجهها فى يديها • فلما رأت راسكولنيكوف نهضت بسرعة شديدة وهبت الى لقائه كأنها كانت تنتظره •

اقرب راسكولنيكوف من المائدة وجلس على الكرسي الذى تركته صونيا • كانت صونيا واقفةً على بعد خطوتين منه ، كالبارحة تماماً •

قال راسكولنيكوف وهو يشعر فجأةً بأن صوته يرتجف :

– هيه صونيا ! أرايت ؟ ان أساس الأمر كله انما « وضعك الاجتماعى والعادات التى يخلقها » • هل فهمت ؟

ارتسم الألم على وجه صونيا • وقاطعته تقول :

– لا تكلمنى خاصةً كما كلمتى أمس • أرجوك ، لا تفعل ما فعلته أمس • كفى تعذيباً !

وأسرعت تبسم ، مخافةً أن يسوءه هذا اللوم •

وأردفت تقول :

– كانت حماقةً منى أن انصرفت • فما الذى يجرى الآن هناك ؟ لقد أردت أن أعود ، لكننى كنت أقدر طوال الوقت أنك • • قد تجيء • •

روى لها راسكولنيكوف أن آماليا ايفانوفنا قد طردتهم من البيت
وأن كاترين ايفانوفنا مضت « تبحث عن الحقيقة » في مكان ما *

هتفت صونيا تقول :

— آه ! رباه ! هيّا بنا حالاً ، فوراً !

وتناولت خمارها *

صاح راسكولنيكوف يقول بلهجة حائقة :

— ما زلت كما كنت ! لا تفكرين الا فيهم ! هلاًّ بقيت معي قليلاً !

— لكن ... وكاترين ايفانوفنا ؟

— كاترين ايفانوفنا ستعرف كيف تهتدى اليك *

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أضاف يقول بحزن :

— ستجيئك بنفسها ما دامت قد خرجت * فان لم تجدك هنا كنت

أنت المذنبه *

جلست صونيا وهي فريسة تردد أليم * وصمت راسكولنيكوف

مطرقاً الى الأرض يجتر فكرة ثابتة *

ثم بدأ يتكلم فقال دون أن ينظر الى صونيا :

— لنسلم بأن لوجين لم يشأ أن يتابع الأمر ... ولكن لو شاء

ذلك ، لو كان ذلك داخلاً في حساباته ، لاستطاع أن يرسلك الى السجن

لولا وجودى ووجود ليزياتنيكوف ، أليس كذلك ؟

أجابت صونيا تقول بصوت ضعيف :

— نعم !

ثم كررت تقول قلقةً وكأنها غائبة عن نفسها :

- نعم !

قال راسكولنيكوف :

- ولكن كان من الجائز جداً أن لا أكون أنا موجوداً هناك *
أما ليزباتيكوف فانه لم يكن قد رجع الا مصادفةً *

صمت صونيا ولم تجب بشيء *

واستأنف راسكولنيكوف كلامه فقال :

- فماذا لو أودعت في السجن ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ هل
تتذكرين ما قلته لك أمس ؟

ظلت صونيا صامئة * وانتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قال وهو
يحمل نفسه على الابتسام :

- كنت أتصور أنك سوف تصرخين قائلةً مرة أخرى : « آه ... »
لا تقل هذا الكلام ! اسكت ! » *

ولم تجب صونيا أيضاً ، فسألها راسكولنيكوف بعد دقيقة :

- هيه ! أتعودين الى الصمت ؟ ولكن لا بد أن نتحدث عن شيء ما
على كل حال ! اننى ليهمنى كثيراً أن أعرف كيف يمكن أن تحلى
« مسألة » من المسائل ... على حد تعبير ليزباتيكوف (لكان
راسكولنيكوف كان يوشك أن يرتبك ، وتابع كلامه ...) * لا ، لا ، انا
لا أتكلم جاداً * تخيلى يا صونيا أنك كنت تعلمين سلفاً جميع نيات
لوجين ، وأنت كنت تعرفين معرفة اليقين الكامل أن كاترين ايفانوفنا
سوف تضيع بسبب هذه النيات ضياعاً تاماً ، هى والأولاد أيضاً ، وانك

ستعرضين أنت نفسك للانحدار (رغم أن هذا الأمر لا يهمك) ،
وكذلك بوليا . . . من جهة أخرى . . . لأن هذا الطريق هو الطريق
الذي ينفتح أمامها فعلاً . تخيلى هذا كله ثم تخيلى أنه يتوقف عليك
أنت أن يبقى على قيد الحياة اما هذا واما أولئك ، أى اما لوجين مع كل
الدناءات التى يرتكبها واما كاترين ايفانوفنا ، فماذا تقررين ؟ أتختارين
موتها أم تختارين موتها ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال .

نظرت اليه صونيا فى قلق . انها تحزر وراء هذه الكلمات الملتبسة
فكرة مخبأة تذكرها بشيء ما .

قالت وهى تثبت عليه نظرة فاحصة :

– كنت أوجس أنك ستلقى على سؤالاً من هذا النوع .

قال راسكولنيكوف :

– ليكن ذلك . فماذا تختارين ؟

سألته صونيا بنفور :

– لماذا تسألنى عن شيء لا يمكن أن يحدث ؟

– الأفضل اذن أن يبقى رجل مثل لوجين حياً وأن يستمر فى

ارتكاب حقاراته . هذا مع ذلك رأى لا تجسرين أيضاً أن ترتبه .

– ليس يخصنى أنا أن أنفذ الى أغراض « العناية الالهية » . . .

ولماذا تسأل عمّا لا نملك حق السؤال عنه ؟ ما جدوى هذه الأسئلة

الباطلة ؟ كيف يمكن أن يتوقف أمر كهذا الأمر على قرارى أنا ؟ من

الذى نصبنى قاضياً فأعلم من ذا يجب أن يحيا ومن ذا يجب أن لا يحيا ؟

جمعهم راسكولنيكوف يقول بلهجة كثية :

٥٥

– متى تدخلت « العناية الالهية » في الأمر ، لم يبق ما نقوله !

فهمت صوتيا تقول في ألم :

– الأولى أن تقول لي ما تريد أن تقوله ، بغير لف ولا دوران !
انك ما تزال تجتر شيئاً ما • هل من الممكن أن لا تكون قد جئت الا
لتعذبني ؟

ولم تطق صوتيا صبراً ، فأخذت تبكي بكاءً مرأً • فكان ينظر اليها
مكفهر الوجه حزيناً • وانقضت على ذلك خمس دقائق •

وتكلم أخيراً فقال بصوت رقيق عذب :

– نعم ، أنت على حق •

لقد تبدل راسكولنيكوف فجأة • ان لهجته التي كان فيها وقاحه
مقصودة وتحدد متعمد قد اختفت • حتى لقد ضعف صوته • وتابع
كلامه فقال :

– لقد قلت لك أمس انني لن أجيئك اليوم مستغفراً ، ومع ذلك
فانني بدأت كلامي بالاستغفار تقريباً • فحين تكلمت عن لوجين وعن
العناية الالهية كنت لا أتكلم الا عن نفسي ، وكنت استغفر يا صوتيا •

وأراد راسكولنيكوف أن يتسهم ، لكن تعبيراً عن العجز والتعب
تجلى في تلك الابتسامة الصفراء • وخفض رأسه وغطى وجهه بيديه •

وفجأة ، اجتاح قلبه احساسٌ غريب غير متوقع ، احساس بكره
عنيف نحو صوتيا • فاستغرب راسكولنيكوف هذا الاكتشاف بل روّعه
هذا الاكتشاف ، فرفع رأسه بعثةً ونظر اليها مجدداً • ولكن نظرته لم
تلتق الا بنظرة الفتاة التي كانت نظرة قلقة زاخرة بضراعة أليمة • لقد

كان فى تلك النظرة حب • وتبدد من نفس راسكولنيكوف كل احساس بالكره ، كما يتبدد حلم • لا ، لم يكن الأمر كما تصور ، لقد أخطأ فى فهم طبيعة العاطفة التى شعر بها • ذلك يعنى أن اللحظة الحاسمة قد وافت •

ومرةً أخرى دفن وجهه فى يديه ، وخفض رأسه • واصفر وجهه على حين بغته ، ونهض عن كرسيه ونظر الى صونيا ؛ ثم مضى يجلس على السرير بخطى آلية ، دون أن يقول كلمة واحدة •

كانت هذه الدقيقة تشبه كثيراً ، من ناحية الاحساس الذى شعر به ، تشبه كثيراً تلك الدقيقة التى كان فيها واقفاً وراء العجوز ، بعد أن أخرج الساطور من الازيم ، وأحس أنه « لم يبق ثمة لحظة يضعها » • سألته صونيا مروعةً :

– ماذا بك ؟

فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة • انه لم يكن يقدر أنه على هذا النحو « سينبثها » بالأمر • ولم يتمكن راسكولنيكوف من أن يفهم ما يحدث فى نفسه فى تلك اللحظة •

اقتربت صونيا منه برفق ، وجلست على السرير بقربه ، وانتظرت دون أن تحوّل عينيها عنه • وكان قلب صونيا يخفق خفقاناً قوياً حتى ليكاد ينفجر •

أصبح الموقف لا يُحتمل • أدار راسكولنيكوف نحوها وجهه المصطبغ بصفرة كصفرة الموت • وتقبضت شفتاه فلم يستطع أن ينطق أية كلمة • استولى الرعب على صونيا • فقالت مرددةً وهى تتعد عنه قليلاً :
– ماذا بك ؟

فدمدم يقول كأنسان استولى عليه الهذيان وأصبح لا يدري ماذا يقول، :

— لا شيء يا صونيا ، لا تتخافى ، حقاً ، متى فكّر المرء فى هذه الأمور أدرك أنها سفاسف وترهات وحماقات !

وأضاف يقول فجأة وهو ينظر إليها :

— لماذا جئت أعذبك أنت ؟ حقاً ، لماذا ؟ اننى لا أنفك ألقى على نفسى

هذا السؤال يا صونيا ،

لعله كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال منذ ربع ساعة ، ولكنه يعبر عنه الآن وهو فى حالة ضعف كامل ، فما يكاد يشعر بنفسه ، وما برح حسمه يرتجف بارتعاش متصل ،

قالت صونيا متألمةً وهى تتفحصه بنظرها :

... آه ، لشد ما تعذب نفسك !

— ما هذه كلها الا سخافات ! اسمعى يا صونيا : (ان فكرة من الأفكار قد جعلت شفقيه تلم بهما ابتسامة صفراء) هل تتذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس ؟

انتظرت صونيا قلقة ،

— لقد قلت لك عند انصرافى اننى ربما كنت أودّعك الى الأبد ، ولكننى ان جئت ، فسأقول لك من الذى قتل الزابث ،

أخذت صونيا ترتعش من الرأس الى القدمين ،

— فهأنذا أجيء لأقول لك من الذى قتل الزابث ،

تمتت تقول فى جهد ومشقة :

- كنت تتكلم جداً اذن حين قلت لى أمس ♦♦♦
- لكنها أسرعته تسأله كأنها ثابت الى رشدها فجأة :
- فكيف عرفت من الذى قتلها ؟
- كانت صونيا تتنفس تنفساً شاقاً • وكان وجهها يزداد شعوباً •
- قال راسكولنيكوف :
- أنا أعرف من هو القاتل •
- فلزمت صونيا الصمت مدة دقيقة • ثم سألته خائفة :
- وهل وجدوه ؟
- لا ، لم يجدوه •
- اذن كيف عرفت من هو ؟
- قالت ذلك بصوت مختنق ، بعد صمت جديد •
- التفت راسكولنيكوف اليها ، وأمعن فى النظر اليها • ثم قال لها وهو يرسم على شفثيه تلك الابتسامة المصنوعة نفسها :
- احزرى !
- وكان تشنجات عنيفة كانت تهز جسم صونيا كله •
- قالت صونيا وهى تبتسم كطفلة :
- ولكنك ♦♦ ولكنك تخب ♦♦♦ تخيفنى بهذا الكلام !
- تابع راسكولنيكوف كلامه وهو ما يزال ينظر اليها ويتفرس فيها كأن عينيه مشدودتان اليها شداً لا فكاك منه ، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل بصره عنها :

– هذا يبرهن على أن بينى وبينه « هو » صداقة حميمة • ولقد كان لا يريد قتل اليزابت تلك ، وانما هو قتلها ••• مصادفةً ••• لقد كان يريد قتل العجوز حين كانت وحيدة في البيت ••• وجاء ••• وعندئذ ••• قتلها هي أيضاً •

وانقضت دقيقة أخرى مروّعة • كان كل منهما ينظر في الآخر •
سألها بغتةً وهو يحس أنه يهوى من برج ناقوس :

– ألم تحزرى اذن ؟

همست صوتياً تقول بصوت لا يكاد يُدرك :

– ل ••• لا •••

– فكّرى !

فما كاد راسكولنيكوف يقول ذلك حتى غزاه اجساس مالوف جمّداً قلبه • نظر اليها فكأنما هو يرى في وجهها ملامح وجه اليزابت • وتذكر تذكرًا واضحاً متميزاً تعبير وجه اليزابت في اللحظة التي اقترب فيها منها مشهراً ساطوره ، فتراجعت نحو الحائط واضعةً يديها امامها ، كالأطفال الصغار حين يخافون فيثبتون على ما يخيفهم نظرة جامدة قلقة ويتراجعون ويمدون أيديهم الصغيرة ويوشكون أن يبكوا • كذلك كان شأن صوتياً في تلك اللحظة • لقد تأملته بعض الوقت بتلك الحيرة نفسها ، وبذلك الاضطراب نفسه ، وبذلك الارتياح ذاته ، ثم رفعت يدها اليسرى فجأة فلمست صدره بأطراف أصابعها في رفق ، ونهضت عن السرير ببطء ، وابتعدت عنه رويداً رويداً ، وهي تحدّق اليه مزيداً من التحديق • وارتسم هذا الرعب نفسه على وجه راسكولنيكوف ، ارتسم هو نفسه تماماً • ونهض راسكولنيكوف مثلما

نهضت ، وأخذ ينظر إليها وهو يتسم ابتسامة « الاطفال » تلك نفسها تقريباً *

وهمس يسألها أخيراً :

– هل حذرت ؟

قال صونيا مرتاعةً وهي تشهق شهقة رهيبية :

– يا رب !

وخارت قواها ، فسقطت على السرير دافئةً وجهها في الوسادة * ولكنها عادت تنهض بعد لحظة ، واقتربت منه ، وتناولت يديه ، وضغطتهما بأصابعها النحيلة ضغطاً كلابية * ثم استأنفت التحديق إليه * كانت تريد بهذه النظرة المكروبة أن تلتقط شيئاً من أمل * ولكن توقعها كان باطلاً * لم يبق أى شك * نعم ، ذلك هو الأمر ! وحتى فى المستقبل ، حين ستستحضر صونيا بخيالها تلك اللحظة ، سيبدو لها غريباً عجيباً أنها رأت على هذا النحو ، دفعةً واحدة ، أنه لم يبق مجال لأى شك * ما كان لها أن تجرؤ على الادعاء أنها كانت قد أوجست شيئاً من هذا النوع من قبل ، ومع ذلك فانها ما ان قال لها هذا حتى بدا لها أنها كانت قد أوجست « هذا الأمر نفسه » حقاً *

قال لها راسكولنيكوف متوسلاً فى ألم :

– كفى يا صونيا ، كفى !

لم يكن قد قدر أنه على هذا النحو سوف يعترف لها ، ولكن « على هذا النحو » انما تم الاعتراف *

خرجت صونيا عن طورها ، ووثبت ، ولوت يديها ، ومضت الى وسط الغرفة * ولكنها سرعان ما عادت الى قربه ، فجلست بجانبه حتى

ليكاد كتفها يلتصق بكتفه + وكان فكرة مباغتة قد ومضت في ذهنها ، فاذا هي ترتعش فجأة ، وتطلق صرخة ، وترتسى راكعةً أمام راسكولنيكوف ، لا تدري هي نفسها لماذا !

قالت :

— ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت بنفسك ؟

وارتمت على عنقه وضمته اليها ضمًا قويًا +

بدرت من راسكولنيكوف حركة تقهقر ، ونظر اليها وهو يتسّم ابتسامة حزينة +

— ما أغربك يا صونيا ! أتعاينني بعد أن قلت لك « ذلك » الأمر ؟ أنت لا تعرفين ماذا تفعلين !

صاحت صونيا تقول حتى دون أن تسمع ملاحظته :

— لا ، لا ، ليس في العالم كله الآن رجل أشقى منك +

وأجهشت تبكي فجأة ، كأنما ألت بها نوبة عصيئة +

ان عاطفة تجهلها صونيا منذ مدة طويلة تغرقها الآن كموجة غامرة ، وتملأ قلبها رقة وحنانًا . لم تحاول صونيا أن تقاوم هذه العاطفة + وانبجست من عينيها دمعتان ظللتا معلقتين بأهدابها +

سألها وهو ينظر اليها في أمل تقريباً :

— ألن تتركيني اذن يا صونيا ؟

فصاحت صونيا تجيبه :

— لا ، لن ، لن أتركك أينما تذهب ! سأتبعك ، سأتبعك الى أى

مكان ! آه ... يا رب ! ... آه ... ما أشقاني ! ... لماذا ، لماذا لم أعرفك من قبل ؟ لماذا لم تأت قبل هذا الأوان ؟ آه ... يا رب ! ...

– لكنني أتيت مع ذلك *

– الآن أتيت ! ولكن بما العمل الآن ؟

ثم ردت تقول طائشة العقل وهي تعانقه من جديد :

– معاً ، معاً ! سوف أذهب معك الى المعتقل !

أصابت هذه الكلمات قلبه ، وعادت تظهر على شفثيه تلك الابتسامة نفسها التي تشتمل على كره وتكاد تشتمل على تعالٍ وكبرياء *

– ربما كنت يا صونيا لا أحب أن أذهب الى المعتقل *

ألقت عليه صونيا نظرة سريعة * وبعد العاطفة الأولى التي غزت نفسها وهي عاطفة شفقة حارة أليمة نحو الانسان الشقى المذبذبة ، عادت تستولى عليها فكرة القاتل الرهيبة المروعة * ان لهجة كلماته الأخيرة ، وهي لهجة تبدلت على حين فجأة ، قد أرتها فيه صورة القاتل السفاح * ونظرت اليه مشدوهة * كانت لا تعرف ، بعد ، شيئاً * كانت لا تعرف لماذا حدث هذا أو كيف حدث * والآن تنبجس هذه الأسئلة جميعها في شعورها دفعة واحدة * ومرة أخرى عادت تشك : « أياكون هو قاتلاً ؟ مستحيل ... مستحيل ! » * ثم قالت وقد بلغت ذروة الدهشة والذهول :

– ولكن ما هذا ؟ أين أنا ؟ كيف ، كيف أمكنك و « أنت ما أنت »

أن تعزم أمرك على تلك الفعلة ؟ لماذا ؟

أجاب بلهجة مرهقة ، وكأنها ملتاعة :

– لأسرق * كفى يا صونيا !

لبثت صونيا متجمدة خلال لحظة ، ولكنها هتفت تقول فجأة :

— كنت جائعاً ! فعلت ذلك لتساعد أمك ، أليس كذلك ؟

تمتم يقول وهو يشيح وجهه ويخفض رأسه :

— لا يا صونيا ، لا *** لم أكن جائعاً الى ذلك الحد • الواقع أنني كنت أريد أن أساعد أمي *** ولكن هذا أيضاً ليس صحيحاً كل الصحة *** لا تعذبيني يا صونيا •

ضمت صونيا يديها احدهما الى الأخرى • وقالت :

— ولكن هل يمكن ، هل يمكن أن يكون هذا كله صحيحاً ؟ رباه ! أهذه هي الحقيقة ؟ من ذا الذي يمكن أن يصدّقها ؟ وكيف ، كيف يُعقل أن تقتل لتسرق ، أنت الذي تعطى آخر ما تملك ؟

ثم صاحت تقول فجأة :

— وذلك المال الذي قدمته الى كاترين ايفانوفنا •• وذلك المال •• يا رب ! هل يمكن أن يكون ذلك المال أيضاً •••

قاطعها راسكولنيكوف يقول مسرعاً :

— لا يا صونيا ••• ذلك المال ليس مصدره هذا •• اطمئني ! ذلك المال انما أرسلته الى أمي بواسطة تاجر ، وقد تلقيته أثناء مرضي ، في ذلك اليوم نفسه الذي أعطيتُه أمك ••• رازوميخين يعرف هذا ••• هو الذي قبضه نيابةً عني ••• كان ذلك المال مالي أنا ، مالي أنا حقاً •

كانت صونيا تصغى اليه جامدةً ، جاهدةً بكل قواها أن تفهم • وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال بصوت خافت وهيئة حاملة :

— أما المال الآخر ••• فإني لا أعلم هل له وجود • لقد انتزعت

من عنقها ••••• محفظة نقود من جلد ••••• محفظة نقود مملأى ، محشوة ،
 لكننى لم أفتحها ••••• لعل وقتى لم يتسع لفتحها ••••• أما الأشياء الأخرى
 ••••• أزرار الأكمام وسلاسل الذهب فقد أخذتها مع محفظة النقود فى
 آن واحد ، ومضيت أدفن ذلك كله فى فناء منزل بسارع ف ••••• ومايزال
 كل شيء هناك •••••

♦ كانت صونيا تصغى بانتباه ♦

– ولكن كيف تقول انك قتلت « لتسرق » ، فى حين أنك لم تستول
 على شيء ؟

كذلك سألته صونيا بسرعة شديدة ، محاولةً أن تثبت بهذه
 القشة ♦

قال راسكولنيكوف شارد الذهن :

– لا أدرى ••••• اننى لم أقرر بعدُ أستولى على ذلك المال أم لا •••
 ثم أضاف فجأة وقد عاد الى وعيه :

– يا له من سخف ، هذا الكلام الذى قلته الآن ، هه ؟

وومضت فى ذهن صونيا فكرة : « ألا يمكن أن يكون مجنوناً » ،
 ولكنها أسرعت تنبذ تلك الفكرة ♦ لا ، ان فى الأمر شيئاً آخر ، ولكنها
 لا تفهمه ، لا تفهمه البتة ♦

قال راسكولنيكوف فجأة بما يشبه الالهام :

– هل تعلمين يا صونيا ماذا سأقول لك الآن ؟

وأردف يقول مشدداً على كل كلمة من كلماته ، ملقياً نظرات
 ملغزة رغم أنها صادقة :

ـ لو أننى لم أقتلها الا بدافع الجوع ، فلربما كنت الآن «سعيداً» !
اعلمى هذا !

وهتف يقول بعد لحظة :

ـ ولكن فيم يعنك أن أعترف بأننى أخطأت؟ فيم يفيدك أن تتصرى
على هذا الانتصار الأبله؟ آه يا صونيا * * * أمن أجل هذا سميت اليك؟
أرادت صونيا مرةً أخرى أن تقول شيئاً ، ولكنها لزمت الصمت *
قال راسكولنيكوف :

ـ اذا كنت قد ناديتك أمس ، فلأننى كنت لا أستطيع أن أنادى
أحدًا غيرك *
سأله صونيا :

ـ ناديتنى الى أين ؟

ـ ما ناديتك لتقتلى أو لتسرقى * اطمئنى * ما ناديتك من أجل
هذا (كذلك ردّد وهو يبتسم ابتسامة مرة) ، فنحن مختلفان أحدنا عن
الآخر اختلافاً كبيراً * هل تعلمين يا صونيا أننى لم أدرك الا الآن الى
أين ناديتك أمس * حين ناديتك أمس ، لم أكن أعرف الى أين أناديك *
والحقيقة أننى ناديتك لتحقيق هدف واحد ، الحقيقة أننى سمعت اليك
لغرض واحد : هو أن لا تتركينى * قولى : أترضين أن لا تتركينى
يا صونيا ؟

شدت صونيا على يديه *

وهتف راسكولنيكوف يقول بعد دقيقة وقد بلغ غاية الكمد والحزن:

ـ لماذا ، لماذا ذكرت لها الأمر ؟ لماذا كشفت لها عن الحقيقة ؟

قال ذلك ونظر اليها شاعراً بعذاب لا نهاية له • وتابع كلامه فقال:

— هانت ذى تنتظرين منى شروحاً وتفسيرات يا صونيا • أنت هنا
تنتظرين هذه الشروح والتفسيرات • اننى أرى ذلك • ولكن ما عسانى
قائلاً لك ؟ انك لن تفهمى من الأمر شيئاً • ولن تزيدى على أن تتألمى
بسببى ! وأنت الآن تبكين ، وتقبلىنى من جديد • لماذا تقبلىنى ؟ ألاأنى
لم أستطع أن أحتمل العباء ، فجئت أتخفف منه بالقائه على غيرى ؟
« تألمى ، تألمى أنت أيضاً ، فذلك يخفف عنى أنا » • ذلك هو لسان
حالى • أفستطيعين أن تحبى جباناً كهذا الجبان ؟

هتفت صونيا تسأله :

— ولكن ألسنت تتألم أنت أيضاً ؟

ومرةً أخرى غمرته تلك العاطفة نفسها فرق قلبه لحظة • قال :

— صونيا ، ان لى قلباً شريراً ، انتهى الى هذا ، فيضىء لك أموراً
كثيرة • ولأننى شريبر انما جئت أيضاً • هناك أشخاص كان يمكن أن
لا ينجيوا • أما أنا فجبان ••••• جبان !••••• ولكن ••••• لا ضير !•••
ليس هذا هو الأمر الهام • وانما على الآن أن أتكلم ، ولست أدرى بم
أبدأ •

قال راسكولنيكوف ذلك وصمت مفكراً • ثم هتف يقول من

جديد :

— هيه ! نحن مختلفان أحداً عن الآخر اختلافاً كبيراً ! مستحيل
أن نتفاهم ! لماذا ، لماذا جئت ؟ لن أغفر هذا لنفسى فى يوم من الأيام !

صاحت صونيا تقول :

- بل انك قد أحسنت اذ جئت ! الأفضل أن أعرف ! ذلك أفضل
كثيراً •

نظر اليها راسكولنيكوف بألم • ثم قال كمن يتابع فكرة :

- نعم ، هكذا جرت الأمور ، هكذا جرت حقاً • اسمعى كيف
جرت : لقد أردت أن أصبح نابوليون ، ومن أجل ذلك انما قتلت • فهل
فهمت الآن ؟ ••••

دمدمت صونيا تقول بصوت خجول وسداجة واضحة :

- ل ••• لا ••• ولكن تكلم ، تكلم ، فسوف أفهم ، سوف أفهم
كل شيء ، « في أعماق نفسى » •••

بذلك طالبته صونيا ضارعة متوسلة •

قال راسكولنيكوف :

- سوف تفهمين ؟ طيب ••• سنرى •

وصمت ، وفكّر ملياً • ثم قال :

- اليك الأمر ! لقد ألقيت على نفسى فى ذات يوم هذا السؤال :
ما عسى كان يحدث لو أن نابوليون مثلاً قد وُجد فى مكائى ، ولم يكن
أمامه فى بداية حياة المجد الذى حققه لا تولون ولا مصر ولا ممر
مونبلان ، وانما كان أمامه ، بدلاً من جميع هذه الأشياء العظيمة الفخمة
الضخمة عجوزٌ حقيرة شريرة تافهة مرابية يجب أن يقتلها ليستولى على
المال الذى تخبئه فى صندوقها (فى سبيل تحقيق رسالته طبعاً ، هل
تفهمين ؟) ؟ نعم ، أكان يعزم أمره على أن يفعل ذلك اذا لم يعرض له
أى مخرج آخر ؟ أما كان سيشعر بشيء من الحياء والحجل لأن فعلاً
كهذا الفعل خالٍ حقاً من الفخامة والضحامة ••• ناهيك عن الخطيئة ؟

أؤكد لك أن هذا « السؤال » قد أفضّ مضجعي مدة طويلة ، الى أن أدركت أخيراً على حين فجأة (وقد أشعرتني هذا الادراك بالحزى) أن نابوليون ما كان له أن يحس بأيسر خجلٍ من هذا الفعل ، بل وما كان ليخطر ببالي في أية لحظة من اللحظات أن هذا الفعل قد تعوزه العظمة والرفعة ، بل وما كان له أن يرى ما نوع العار الذي يمكن أن يشتمل عليه هذا الفعل ولا شك في أنه ، اذا لم يعرض له أى حلٍ آخر ، كان سيقتل العجوز دون تردد ودون تفكير . هكذا خرجتُ أنا من التردد بين الاقدام والاحجام ، فقتلت مقتدياً بذلك الرجل الذي هو «حجة» + نعم ، على ذلك النحو انما جرت الأمور . أبدو لك هذا سخيفاً مضحكاً ؟ نعم يا صونيا ، لعل أسخف ما في القضية أن الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً !

ولكن صونيا لم تر في هذا كله شيئاً سخيفاً مضحكاً . وها هي ذى تسأله بصوت فيه مزيد من الحنجل والوجل ، بصوت لا يكاد يُسمع :

— بل حدثني رأساً مباشرة دون أن تضرب أمثلة !

فالتفت راسكولنيكوف نحوها ، ونظر اليها بحزن ، وتناول يديها ،

ثم قال لها :

— أنت على حق يا صونيا . ما ذلك كله الا غباء ! ما ذلك كله الا ثرثرة ! فاسمعي : أنت تعرفين أن أمي كانت قد أصبحت بلا مورد تقريباً . وأختي التي نالت قسطاً حسناً من التعليم بالمصادفة اضطرت أن تعيش حياة خاملة كمربية . وكنت أنا أتمم دراستي ، لكنني وقد أصبحت لا أستطيع سدَّ حاجاتي اضطرت ان أترك الجامعة . وهينى كنت سأستطيع متابعتها بعد عشر سنين أو بعد اثنتي عشرة سنة (في أحسن الظنون) فكل ما كان يجبوز لي أن آمله هو أن أصبح أستاذاً أو موظفاً من الموظفين

يتقاضى راتباً سنوياً قدره ألف روبل (كان راسكولنيكوف كمن يلقي درساً محفوظاً) • وفي أثناء ذلك تكون أمي قد أذابتها الهموم والأحزان، ولا أكون قد ظفرت حتى بتأمين الطمأنينة لها. أما أختي فيكون قد جرى لها ما هو أسوأ من ذلك أيضاً • ولماذا أخفق في حياتي هذا الاخفاق ، وأمرٌ بكل شيء مروراً عابراً ، وأنسى أمي ، واحتمل الاهانات التي تنزل بأختي ؟ لماذا ؟ في سبيل ماذا ؟ في سبيل أن أبنى أسرة جديدة بعد أن أدفن أمي وأختي ، فتكون لي زوجة ويكون لي أولاد ، ثم أتركهم هم أيضاً بلا مال ، بلا لقمة خبز ؟ لذلك قررت أن أقف المال الذي ساستولى عليه من العجوز ، قررت أن أقفه على دراستي ، وعلى خطواتي الأولى في الحياة عند التخرج من الجامعة (دون أن أعذب أمي) • وكنت أريد أن أفعل كل شيء بمقياس ضخم ، أن أفعل كل شيء بطريقة جذرية ، فأدخل حياة جديدة ، وأضمن لنفسي وضعاً مستقلاً كل الاستقلال ••• هذا كل شيء !••• ولقد أسأت صنعاً اذ قتلت العجوز طبعاً • ولكن هيأ ، كفى هذا !

أتمَّ راسكولنيكوف شروحه هذه بمشقة كبيرة وعناء شديد • كان يبدو مرهقاً ، وكان خافضاً رأسه •

صاحت صونيا تقول حزينة :

– لا ، ليس هذا هو الأمر ، ليس هذا هو الأمر ، لا ، ليس هذا ، ليس هذا •••

– أرايت ؟ تقولين بنفسك ان الأمر ليس هو هذا • ومع ذلك فقد قلت لك كل شيء ، وحدثتك صادقاً مخلصاً • تلك هي الحقيقة !

– ولكن أية حقيقة هنا ؟

- اننى لم أقتل الا قملة يا صونيا ، قملة قدرة ، لا فائدة منها ،
ضارّة ، سيئة !

- أتقول قملة وهى مخلوقة انسانية ؟

أجاب راسكولنيكوف وهو يلقي على صونيا نظرة غريبة :

- ولكننى أعرف أنها ليست قملة !

ثم أضاف :

- ثم اننى أكذب يا صونيا ، اننى أكذب منذ زمن طويل • أيضاً
ليس هذا هو الأمر ! أنت على حق ! لقد كان لفعلى بواعث غير هذه
البواعث ، غيرها تماماً • اننى لم أكلم أحداً منذ عهد بعيد يا صونيا •••
أنا أشعر الآن بصداع شديد فى رأسى •

كانت عينا راسكولنيكوف تحترقان بحرارة محمومة • كان كمن
يهنى • وكانت تطوف بشفتيه ابتسامة قلقة • ومن خلال اهتياجه ، كان
يلوح اعياء رهيب • أدركت صونيا مدى ما كان يقاسى من عذاب • وأخذ
الدوار يستولى عليها هى أيضاً • ثم انه كان يتكلم بطريقة غريبة جداً •
صحيح أن المرء يستطيع أن يستخرج من كلامه بعض الأشياء ، ولكن :
« كيف ؟ كيف ؟ يا رب ! » ولوت صونيا يديها حزناً ويأساً •

واستأنف راسكولنيكوف كلامه وهو يرفع رأسه فجأة كأن أفكاره
قد جرت فى مجرى آخر على حين بغتة فصدته وأيقظت نشاطه • فقال :

- لا يا صونيا ، ليس هذا هو الأمر • ليس هو هذا ••• وانما عليك
أن تفترضى (نعم افترضى هذا ، فهو أصح) اننى انسان شديد التأذى ،
حسود ، منحط ، شرير ، حقود ، يحب الانتقام ، مهياً ••• للجنون (أقول

كل شيء دفعةً واحدة ما دمت قد بدأت ؛ وفيما يتعلق بالجنون فقد سبق أن لاحظت (+ + +) لقد ذكرت لك منذ هنيهة أن مواردى كانت لا تتيح لى البقاء بالجامعة • ولكن هل تعلمين أننى ربما كان يمكنى مع ذلك أن أتابع دراستى ؟ كان يمكن أن ترسل الى أمى ما أنا فى حاجة اليه ، وكان يمكنى أيضاً أن أجنى بالعمل ما يكفينى طعاماً وكساءً وحذاءً • لا شك فى أننى كنت أستطيع ذلك • كان يمكنى أن أعطى دروساً ، فأتقاضى خمسين كوبكاً أجراً عن كل درس • وهذا رازوميخين ! لقد كان يحنى من العمل رزقاً طيباً ! ولكننى شعرت بسخط ورفضت أن اععمل • نعم شعرت بسخط (هذه هى الكلمة الصحيحة) • فلبدت فى ركنى كما يلبد عنكبوت • لقد جئت الى مسكنى الحقير فرأيتيه • ولكن هل تعلمين يا صونيا أن السقوف الواطئة والغرف المتلاصقة تخنق النفس والفكر ؟ آه ••• لشدت ما كنت أكره ذلك المسكن الحقير ! ومع ذلك كنت لا أريد أن أتركه • عن عمد انما كنت لا أريد أن أتركه • كنت أقضى فيه أياماً بكاملها ، لا أريد أن أعمل ، بل ولا أريد أن آكل • كنت أظل راقداً طوال الوقت • فان جاءتى ناستاسيا بطعام أكلته ، وان لم تعجبنى بشيء بقيت صائماً لا أطلب بطعام ، غضباً وحنقاً ! حتى اذا هبط الليل بقيت فى ظلام دامس لأننى لا أملك ما استضىء به • كنت أوتر أن أبقى فى ذلك الظلام الحالك على أن أعمل فى سبيل أن أتمكن من شراء شموع • وبعث كنى بدلاً من أن أدرس • ودفاترى على المائدة غطتها طبقة من الغبار سُمكها سُمك اصبع • وما يزال هذا الغبار موجوداً الى الآن • كنت أوتر أن أبقى راقداً أفكر وأتأمل • كنت لا أزيد على أن أفكر وأن استرسل فى الأحلام • لا داعى الى القول ان تلك الأحلام كانت غريبة عجيبة ، وكانت متغيرةً متقلبة متحولة ! ولكن بدأ يبدو لى عندئذ أن ••• لا ، لا ، لا ، ليس هذا هو الأمر ! اننى لا أحكى الأشياء كما

حدثت • الواقع أنني كنت لا أنفك أتساءل حينذاك ، لعلمي بأن الناس أغبياء ، لماذا انا غبي مثلهم لا أحاول أن أكون أذكى منهم ؟ وادركت بعد ذلك ، يا صونيا ، أنه اذا وجب انتظار اللحظة التي يصبح فيها الناس أذكى ، فلا بد من اضاءة وقت طويل • ثم رأيت أن هذا لن يكون أبداً ، فالناس لن يتغيروا فى يوم من الأيام ، وما من أحد يملك أن يغيرهم ، فلا داعى الى اضاءة الوقت فى محاولة ذلك • نعم ، تلك هى حالهم ، وذلك هو قانونهم ••• نعم ••• القانون يا صونيا ، القانون ••• وانى لأعلم الآن يا صونيا أن من كان قوى النفس والعقل ، فذلك هو سيدهم ، ذلك هو مولاهم ! من كان يملك جرأة كبيرة ، فذلك هو الذى له الغلبة عليهم ! من كان يبصق على الأشياء أكثر من غيره ، فذلك هو عندهم المشرع ! من كان يتمتع بأكبر جسارة ، فذلك هو الذى يهبون له جميع الحقوق ! هذا ما كان من قديم الزمان ، وهذا ما سيبقى الى آخر الدهر ! الأعمى وحده لا يبصر هذه الحقيقة !

لم يهتم راسكولنيكوف بأن يعرف أكانت صونيا تفهمه أم لا ، رغم أنه كان لا ينفك ينظر اليها أثناء كلامه • لقد استولت عليه الحمى • وكان يحتاجه نوع من اهتمام مظلّم قائم (حقاً ، انه لم يتحدث الى اى انسان منذ مدة طويلة) • وأدركت صونيا أن هذه التعاليم الكالحة كانت ايمانه وكانت قانونه •

وتابع راسكولنيكوف يقول بحماسة :

— لقد أحسست يا صونيا أن السلطة لا توهب الا لمن يجرو أن يطاطىء ليتناولها • تكفى الجرأة : الجرأة كل شيء ! ووافقتى عندئذ ، لأول مرة فى حياتى ، فكرة لا شك أنها لم تخطر ببال أحد حتى الآن فى يوم من الأيام ! لقد بدا لى واضحاً وضوح النهار ، على حين فجأة ، أنه ما من أحد قد تجرأ ، حين رأى بطلان العالم ، أن يمسك الشيطان

من ذيله ببساطة ، فيرسله الى جهنم ! أما أنا ، أما أنا ، أما أنا ، فقد أردت أن
أجرؤ ، فقتلت ! اننى حين قتلت لم أرد يا صونيا الا أن أجرؤ ! ذلك هو
السبب الذى جعلنى أقتل !

صاحت صونيا تقول له متوسلةً وهى تضم يديها احدهما الى
الأخرى :

— اسكت ، اسكت ! لقد ابتعدت عن الله ، فضربك الله ، وأسلمك
لابليس ***

— قولى لى يا صونيا : حين كنت أبقي راقداً فى ظلام غرفتى اجترت
أنواع الحواطر والأفكار ، فهل كان ابليس هو الذى يغوينى حينذاك !
قولى !

— اسكت ! لا تضحك أيها المجدّف ! انك لا تفهم شيئاً ، لا تفهم
شيئاً ! رباه ! انه لا يفهم شيئاً !
— اسكتى يا صونيا ، أنا لا أضحك البتة * أنا نفسى اعلم ان ابليس
هو الذى كان يجترنى ***

كذلك قال راسكولنيكوف ثم عاد يردّد بالحاح حزين :

— اسكتى يا صونيا ، اسكتى ! أنا أعلم كل شيء ! لقد همست
لنفسى بهذا كله أثناء اضطجاعى فى الظلام *** لقد ناقشت هذا كله فى
قرارة نفسى قبل الآن بأدق التفاصيل ! أنا أعلم كل شيء ، كل شيء !
وهذه الثرثرة قد بلغت من اتراخ نفسى بالسأم والضجر أننى أردت أن
أنسى ، وأن استأنف حياة جديدة يا صونيا ، وأن أكف عن الثرثرة *
هل تظنين حقاً أننى قد اندفعت الى ذلك الأمر منكس الرأس كإنسان
أبله ؟ ان العقل هو الذى كان يقودنى ، وذلك بعينه هو ما ضيّعنى ! هل
يمكن حقاً أن تظنى أننى كنت أجهل مثلاً أن مجرد القسائى هذا

السؤال : « هل لي حق في السلطة أم لا ؟ » كان يبرهن على أنني لا أملك ذلك الحق ؟ أو هل تظنين أنني كنت أجهل أن القائي هذا السؤال : « هل الانسان قملة ؟ » انما يعنى فى الواقع أن الانسان ليس قملة فى نظرى ، وأنه ليس قملة الا فى نظر من لم يخطر بباله يوماً أن يلقى على نفسه ذلك السؤال ، وانما هو يمضى الى هدفه قدماً لا يلوى على شيء ؟ لئن ظلمت أعدب نفسي طوال تلك الأيام كلها بالتساؤل عن نابوليون أكان يقتل العجوز أم لا ، فان معنى ذلك اننى كنت أشعر شعوراً واضحاً بأننى لست نابوليون . ذلك هو العذاب الذى عانيته يا صونيا ، والذى أردت أن أتخلص منه دفعةً واحدة . لقد أردت يا صونيا أن أقتل بدون مناقشة منطقية سفسطائية ، أردت أن أقتل لنفسي ، لنفسي أنا وحدي ! اننى حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتى أن أكذب على نفسي : اننى لم أقتل فى سبيل أن أساعد أمة ! لا ! لا ولا فى سبيل أن أصبح محسناً الى الانسانية بعد أن أملك وسائل الاحسان اليها . لا ، وانما أنا قتلت لنفسي ، لنفسي وحدي ! وفى تلك اللحظة لم يكن يعينى كثيراً أن أعرف هل سأصبح واحداً من المحسنين الى الانسانية ، أم اننى سوف أفضى حياتى كالعنكبوت أصطاد غيرى فى نسيج خيوطى وامتنص قواه الحية ! لا ولا كان المال هو ما أحتاج اليه ذلك الاحتياج كله وانما كان احتياجى الى شيء آخر أنا أعرف هذا الآن ! افهمى عنى يا صونيا : لو كان على أن أعيد السير فى هذا الطريق نفسه ، فقد لا أقتل . غير أن هناك شيئاً كان يغرينى بمعرفته . كان هناك شيء يرفع ذراعى . كان على أن أعرف عندئذ ، بأقصى سرعة ممكنة ، أأنا قملة كسائر الناس ، أم أنا رجل ؟ أأنا أستطيع أتخطى الحاجز ، أم أنا لن أستطيع ذلك ؟ أأنا أجرؤ أن أطاطىء فأتناول هذه القدرة ، أم أنا لن أجرؤ ؟ أأنا مخلوق مرتعش أم أنا أملك « الحق »

– الحق في القتل ؟ تملك الحق في القتل ؟

كذلك قالت صونيا وهي تضم يديها احدهما الى الأخرى •
صاح راسكولنيكوف مهتاجاً يريد أن يجيب :

– هيه ! صونيا •••

ولكنه عدل عن ذلك ، ولزم صمتاً فيه احتقار • ثم أردف يقول :

– لا تقاطعيني يا صونيا ! لقد أردت أن أبرهن لك على شيء واحد : هو أن ابليس قد جرّني في أول الأمر ، ثم لم يفهمني الا بعد ذلك أنني لم يكن من حقي أن اقترف الفعل الذي اقترفته ، لأنني أنا نفسي قملة كسائر الناس • لقد سخر مني واستهزأ بي ، ولهذا السبب انما جئت اليك الآن ، فأحسني وفادة ضيفك يا صونيا ! أكنت أجيء اليك لولا أنني قملة ؟ اسمعي : انني حين ذهبت الى العجوز لم أكن أريد الا أن « أحاول تجربة » ••• فاعلمي هذا !

– وقتلت !

– لكن كيف قتلت ؟ أهكذا يتدبر المرء الأمور من أجل أن يقتل ؟ سأروى لك في ذات يوم كيف ذهبت الى هناك • هل العجوز قتلت ؟ لا بل أنا قتلت نفسي ! لقد أجهزت على نفسي ، دفعة واحدة ، والى الأبد ! أما العجوز فان ابليس هو الذي قتلها لا أنا !

كذلك قال راسكولنيكوف ثم صاح فجأةً وقد أصبح فريسة قلق

لا يغالب :

– كفى كفى يا صونيا ، دعيني ! دعيني !

ووضع كوعيه على ركبتيه ، وشدّ رأسه بين يديه ككماشة •

بلغت صونيا ذروة الاضطراب والألم ، فأفلت من لسانها قولها :

- ما أشدَّ ألمك وعذابك !

فسألها فجأة وهو يرفع رأسه منقلب الهيئة من شدة الكرب واليأس :

- وما العمل الآن ؟ قولى ...

صاحت وهى تندفع من مكانها وقد سطعت عيناها فجأة بعد أن كانتا حتى ذلك الحين ممثلتين بالدموع :

- ما العمل ؟

ثم أضافت وهى تمسكة من كتفه ، فينهض هو من مكانه وينظر إليها بما يشبه الدهول دهشة :

- اذهب فوراً ، فى هذه اللحظة نفسها ، اذهب الى مفرق طرق ، فاسجد على الأرض من جديد ، واتجه الى جهات العالم الأربع جهة بعد جهة ، ثم ارفع صوتك عالياً قوياً أمام جميع الناس بقولك : « لقد قتلت ! » • عندئذ سيردُ اليك الاله الحياة • أتذهب ؟ أتذهب ؟

كذلك سأله مرتعشةً من رأسها الى قدميها ، كأن نوبة عصية قد ألَّت بها • وأمسكت يديه ، فضغطت يديها ضغطاً قوياً ، وتأملته بنظرة حارة •

ذُهل راسكولنيكوف ذهولاً شديداً حتى كاد يصعق من هذه الحماسة المفاجئة • وسألها مكفهر الوجه :

- أتريدى اذن أن أذهب الى المعتقل يا صونيا ؟ يجب أن أشفى بنفسى ، أليس كذلك ؟

– الشيء الذى يجب أن تفعله هو أن تقبل الألم فتكفر عن خطيئتك
وتفدى نفسك + ذلك هو ما يجب !
– لا ، لن اذهب اليهم يا صونيا !
صاحت صونيا تسأله :

– فكيف يكون فى وسعك أن تحيا اذن ؟ كيف يكون فى وسعك
أن تحيا ؟ أما يزال هذا ممكناً ؟ عجيب ! كيف يكون فى امكانك أن تظل
تكلم أمك ؟ آه ... ما عسى تصيران اليه ؟ ما عسى تصيران اليه كلتاهما ؟
ولكن ماذا أقول ؟ لقد تركت أمك وأختك وانتهى الأمر ! لقد تركتهما ،
تركتهما ! آه ... يا رب ! اذن أنت تدرك هذا كله بنفسك ! كيف ،
نعم ، كيف يمكن أن تعيش بعيداً عن البشر ؟ ما عسى تصير اليه الآن ؟
قال راسكولنيكوف بهدوء ورفق :

– لا تكونى طفلةً يا صونيا ! ما ذنبى فى حقهم ؟ لماذا أشى بنفسى
اليهم ؟ ما عسانى قائلاً لهم ؟ ليس هذا كله الا سراباً ... هم أنفسهم
يقتلون ملايين البشر ، ثم يستمدون من ذلك مجدداً ! هم أوغاد وجبناء
يا صونيا ! لا ، لن اذهب ! ثم لماذا أقول لهم ؟ أقول لهم اننى قتلت
لكننى لم أجرؤ أن آخذ المال وانما خبأته تحت صخرة ؟ (كذلك أضاف
يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة) * ولكنهم سيضحكون عندئذ على ،
وسعدوننى رجلاً أبله ، لأننى لم أجن من فعلتى نفعاً ... ساعدوننى
أبله وجباناً ! لن يفهموا شيئاً يا صونيا ، لن يفهموا شيئاً ، انهم غير
جديرين بأن يفهموا شيئاً ... فلماذا اذهب اليهم فأسلمهم نفسى ؟ لا ،
لن اذهب ! لا تكونى طفلةً يا صونيا !

قالت صونيا مرددةً متوسلةً مادةً نحوه يديها :

– لن تكون حياتك بعد الآن الا عذاباً متصلاً طويلاً ، عذاباً متصلاً طويلاً !

قال راسكولنيكوف قائم الوجه شارد الذهن :

– لعلى اتهمت نفسي بما ليس فيها • لعلى ما زلت رجلاً لا قملة •
لعلى تسرعت في اتهام نفسي •• سوف أكافح « مزيداً » من الكفاح •••
وظهرت على شفثيه ابتسامة فيها تعالٍ وكبرياء •
قالت صونيا :

– أتحمل ثقلاً كهذا الثقل ؟ طوال حياتك ، طوال حياتك ؟
فأجابها راسكولنيكوف كالبحر الهيثم شارد اللب :

– سوف أعتاد ذلك !

ثم أضاف يقول بعد دقيقة :

– اسمعى ! كفى بكاءً ! أن لى أن أصل من هذا كله الى أن أذكر
لك الواقع • لقد جئت أقول لك الواقع • لقد جئت لأقول لك اننى
ملاحق ، اننى مطارَد !

صرخت صونيا مروّعة :

– آه •••

فقال لها راسكولنيكوف :

– لماذا تصرخين ؟ ألم تريدى أنت نفسك أن أذهب الى المعتقل ؟
فما بالك تخافين الآن ؟ على أننى لن استسلم لهم ، لن أدع لهم أن يقبضوا
على ! سأظل أقارعهم ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا بى شيئاً ! انهم



صونيا

بريشة الفنانة السوفياتية الكسنديرا كورساقوفا

لا يملكون قرائن واقعية • لقد تعرضت أمس لخطر كبير ، فحسبت أنني هلكت • ولكن يبدو أن الأمور قد سوّيت اليوم • ان كل دليل من أدلتهم ذو حدّين • أعنى أن في وسعي أن أقلب كل دليل من تلك الأدلة فأجعله لي لا على ، هل تفهمين ؟ وسأفعل ذلك ••• لأنني أصبحت الآن خبيراً بمهنتهم ! لكنهم سيسجنونني حتماً ! ولولا أن حادثاً قد وقع بمصادفة فلربما كانوا أودعوني في السجن منذ اليوم ؛ وما يزال من الجائز جداً أن أسجن بسرعة • ولكن لا ضير يا صونيا ! سأقضى في السجن بعض الوقت ثم يُطلق سراحي ••• لأنهم لا يملكون ولن يملكوا دليلاً حقيقياً واحداً ، أوكد لك ذلك ! ان الأدلة التي يملكونها لا تكفي لأن « تلتطخ » انساناً ! ولكن كفى كلاماً الآن ! انا انما قلت لك هذا كله لا لشيء الا أن تعلمي ••• أما أمي وأختي فسأحاول بطريقة أو بأخرى أن أهديء روعيهما وأن أطمئئهما • ان اختي تبدو الآن في منجى من الفاقة والعوز ، وكذلك أمي اذن ••• هذا كل ما كنت أريد أن أقوله لك • ثم عليك بالحدز ! هل تزورينني حين أودع في السجن ؟

– سوف أزورك ، سوف أزورك !

كانا جالسين احدهما الى جانب الآخر، حزنين مهدّمين ، كغريقين وجد كل منهما صاحبه على شاطئء مقفر بعد عاصفة • كان راسكولنيكوف ينظر الى صونيا وهو يشعر شعوراً واضحاً بالحب الذي تغمره به • ومن الغريب أنه شقّ على نفسه بل آلم نفسه فجأةً أن يحس بأنه محبوب الى هذا الحد •

حين ذهب الى صونيا كان قد شعر بأنها أمله الوحيد ، وبانها ملاذء الوحيد • وكان يأمل أن يتخفف عندها من جزء من حمله على الأقل • ولكن ها هو ذا الآن يحس أنه أشقى مما كان من قبل • قال :

– صونيا ، الأفضل أن لا تجيئي الىّ في السجن •

لم تجب صونيا ، وكانت تبكي • وانتفضت بضع دقائق • فاذا هي تسأله على غير توقع ، كأنها تذكرت شيئاً ما على حين بغتة :

– هل معك صليب ؟

فلم يفهم السؤال في أول الأمر •

قالت :

– لا ، ليس معك صليب ، أليس كذلك ؟ خذ ، اليك هذا الصليب ، انه من خشب السرو • معي صليب آخر ، صليب من نحاس ، بقي لي من اليزابت • لقد قمنا بمبادلة ، أنا واليزابت : أعطتني صليها ، وأعطيها أنا مداليتي الصغيرة • سأحمل الآن صليب اليزابت ، وستحمل أنت هذا الصليب • خذه •• انه صليبي أنا ! صليبي أنا ! سنتألم معاً ، فلنحمل اذن صلينا معاً !

قال راسكولنيكوف :

– هاتي !

ولكنه لم يلبث أن سحب يده •

ثم أضاف يقول ليهدئها :

– لا الآن يا صونيا ! فيما بعد ! ذلك أفضل !

فقالت صونيا تردد بحماسة :

– نعم ، نعم ، ذلك أفضل ، ذلك أفضل ! سوف تحمل الصليب حين تسافر للتكفير • تجيء الىّ ، فأضع الصليب في عنقك ، ونصلي معاً ، ونسافر معاً •••

ففي تلك اللحظة نقر الباب ثلاث نقرات * ونادى صوت مهذب
مألوف يسأل :

— هل أستطيع أن أدخل يا صوفيا سيميونوفنا؟

فاندفعت صونيا نحو الباب مذعورة * وظهر في فرجة الباب وجه
ليزياتيكوف المضحك *

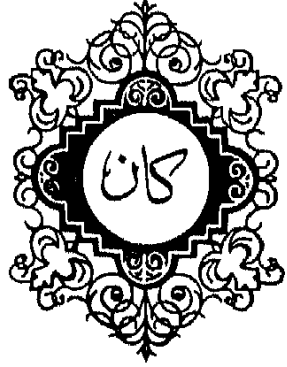
الفصل الخامس

ليزياتنيكوف مضطرب الهيئة منقلب السحنة ♦

قال يكلم صونيا :

- جئت لأراك يا صوفيا سيميونوفنا ♦

ثم قال يخاطب راسكولنيكوف فجأة :



- معذرةً ♦ كنتُ أتوقع أن أجدك هنا ♦ أقصد لم يخطر ببالي شيء

♦♦♦ مما قد تظن ، وإنما أنا قدّرت أن ♦♦♦

وعاد يكلم صونيا فقال دفعة واحدة :

- جئتُ كاترين ايغانوفنا !

اطلقت صونيا صرخة ♦ وتابع ليزياتنيكوف كلامه :

- أو على الأقل ذلك ما يبدو ♦ أصبحنا هناك لا ندرى ماذا يجب أن نعمل ♦ أغلب الظن أنهم طردوها من المكان الذي ذهبت إليه ، ولعلمهم ضربوها أيضاً ♦♦♦ أو على الأقل ذلك ما يبدو ♦♦♦ لقد ركضت تسعى الى رئيس سيميون زاخارتش * ، فلم تجده في بيته : كان يتغدى عند جنرال آخر ما ♦ فذهبت الى هناك ، الى حيث كان يتغدى ♦♦ تصوروا ♦♦ ذهبت الى بيت ذلك الجنرال الآخر ♦♦ هل تصدقون هذا ؟ واستطاعت أن تستدعي رئيس سيميون زاخارتش ♦ نعم ، اضطرته أن ينهض عن

المائدة ، أو على الأقل ذلك ما يبدو * وفي وسعكم أن تتخلوا التهمة !
لقد طُردت طبعاً ، لكنها تروى أنها شتمته وأنها رشقته بشيء على
رأسه * ذلك جائز جداً * حتى اننى استغرب أنهم لم يقتلوا * وهى
الآن تروى هذه القصة لكل من يريدون أن يسمعوها ، ومنهم أماليا
ايفانوفنا * غير أن من الصعب أن يفهم المرء عنها ، من فرط صراخها
وتخبطها ! * * آه * * نعم * * هى تقول * * هى تصيح قائلةً انها ما دامت
قد هجرها جميع الناس ، فستأخذ أولادها ، وستمضى فى الشارع تعزف
على أرغن بارباريا ، وان أولادها سيغنون ويرقصون ، وانها ستغنى
وترقص هى أيضاً ، وانهم سيستعطون الصدقات من المارة ، وانها ستقود
الأولاد كل يوم الى منزل الجنرال فتقف بهم تحت نوافذ غرفته ، وهكذا
« سيرف الجنرال ، على حد تعبيرها ، كيف أن أولاداً نبلاء أبوهم موظف
محترم يستجدون أكف الناس فى الشوارع » * وهى تضرب جميع
أولادها ، والأولاد يكون * انها تعلم لينا أغنية « القرية الصغيرة » ،
وتعلم الصبي الصغير الرقص ، وكذلك تعلم الرقص باولين ميخائيلوفنا *
ولقد مزقت جميع ملابسهم ، وأخذت تخطط لهم طاقات من طاقات
المهرجّين * انها تريد أن تحمل طشتاً تنقر عليه كما تنقر على آلة
موسيقية * وهى ترفض أن تسمع شيئاً * * * تصوروا ! هل يمكن أن
تركها تفعل هذا !

كان يمكن أن يستمر ليزياتيكوف فى الكلام ، ولكن صونيا التى
أصغت اليه وهى تتنفس بمشقة كبيرة قد تناولت خمارها وقبعتها فجأة ،
واندفعت الى خارج الغرفة تنهى ارتداء ثيابها فى الطريق * وخرج
راسكولنيكوف ورائها ، وخرج ليزياتيكوف وراء راسكولنيكوف *
قال ليزياتيكوف لراسكولنيكوف منذ أصبحا فى الشارع :

- لا شك في أنها فقدت عقلها • لم أشأ أن أروِّع صوفياً سيميونوفنا ، لذلك قلت : « ذلك ما يبدو » ، ولكن الواقع أنه لا يمكن أن يساورنا أى شك في أنها فقدت عقلها • يقال ان هناك درنات تنشأ في أدمغة المصابين بمرض السل ، فتورثهم هذا الجنون ! خسارة أنني لا أعرف الطب • على أنني حاولت اقناعها ، لكنها لا تريد أن تسمع شيئاً !

- كلمتها عن الدرنات ؟

- لا عن الدرنات تماماً ، خصوصاً وأنها ما كان لها أن تفهم شيئاً عن الدرنات لو كلمتها فيها • لكننى أقول اننا اذا استطعنا بواسطة المنطق أن نقنع شخصاً بأنه لا داعى الى البكاء ، فان هذا الشخص سيكف عن البكاء فوراً • هذا واضح • ماذا ؟ أليس من رأيك أنه سيكف عن البكاء ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- ما أسهل الحياة اذا صدق قولك !

- اسمح لى ، اسمح لى ! صحيح أن كاترين ايفانوفنا يصعب عليها أن تفهم هذا • ولكن هل تعلم أن هناك تجارب جديدة قد أجريت فى باريس عن امكان شفاء المجانين بواسطة الاقناع المنطقى وحده ؟ ان أستاذاً من الأساتذة هناك ، وقد مات منذ مدة قصيرة ، وهو عالم من اكبر العلماء * ، قد رأى ان فى الامكان شفاء المجانين بهذه الطريقة • والفكرة الأساسية التى جاء بها هى أن المجانين ليس فيهم أية آفة عضوية ، فانما الجنون ضلال منطقى ان صح التعبير ، أى خطأ فى الحكم أو فساد فى الرأى • لذلك أخذ العالم يدحض أقوال المريض بالتدريج ، فاذا هو ينجح فى شفائه شيئاً بعد شيء • ولكن لا بد لنا أن نعترف بأن نتائج المعالجة

يمكن أن تكون موضع أخذ ورد ، ما دام الطبيب قد استعمل في الوقت نفسه حمامات « دوش » ، أو ذلك ما يبدو على الأقل ***

كان راسكولنيكوف قد انقطع عن الاصغاء منذ مدة + فلما وصل أمام المنزل الذي فيه بيته ، حياً ليزياتنيكوف بإشارة من رأسه ، وانعطف يدخل بوابة المنزل + فتحير ليزياتنيكوف ، ونظر حواليه ، ثم تابع طريقه *

دخل راسكولنيكوف مسكنه الحجير ، وهناك وقف يتساءل : « لماذا جئت ؟ » + وألقى نظرة على الورق الأصفر الباهت الذي يغطي الجدران ، وعلى الغبار الذي يغطي كل مكان ، وعلى سريره + وكان يصل من فناء المنزل صوت جاف متصل ، كأن أحداً كان يغرس مسامير *

مضى راسكولنيكوف الى النافذة ، وارتفع على رءوس أصابع قدميه ، وظل يفتش فناء المنزل بانتباه شديد مدة طويلة + ولكن الفناء كان خالياً مقفراً ، وليس يرى المرء أحداً يغرس مسامير + وعلى اليسار ، في جناح آخر ، كان ثمة نوافذ مفتوحة ، ترى على أفاريزها أصص أزهار ، ويرى من خلالها غسيل منشور في الداخل على حبال *** لقد كان راسكولنيكوف يعرف هذا كله حفظاً على ظهر القلب + فأشاح عنه ، وعاد يجلس على سريره *

انه لم يشعر في يوم من الأيام ، في يوم من الأيام ، بأنه وحيد الى هذا الحد من الوحدة + نعم ، لقد أحس من جديد أنه قد يعود يكره صونيا ، لا لشيء الا لأنه قد أشقاها الآن مزيداً من الشقاء + تساءل : « لماذا ذهبت أستجديها صدقةً من دموعها ؟ ما كانت حاجتي الى تسميم حياتها ؟ يا للجبين ! يا للحقارة ! » *

وقال فجأةً بلهجة جازمة : « سأبقى وحيداً + ولن تأتي لتراني في السجن ! » *

وبعد خمس دقائق عاد يرفع رأسه ، وابتسم ابتسامة غريبة • لقد وافته فكرة لم تكن في الحسبان • قال يسأل نفسه : « أليس من الجائز أن تكون حالي في المعتقل أفضل حقاً ؟ » •

لم يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف المدة التي قضاها في مسكنه يدير في رأسه هذا الطوفان من الأفكار المبهمة والحواطر الغامضة • ولكنه يعرف أن الباب فُتح فجأة ، فدخلت آفدوتيا رومانوفنا •

توقفت آفدوتيا رومانوفنا في أول الأمر وتأملته واقفة في العتبة ، كما تأمل هو صونيا منذ قليل • ثم تقدمت وجلست على كرسي أمامه في مكان الأمس نفسه ؟ وأخذ يتأملها صامتاً بنظرة شرهة تلتهمها التهاماً • قالت دونيا :

– لا تزعل يا أخى ، أنا ما جئت الا لدقيقة !

كان في وجهها وقار وورصانة ، ولكن بغير تجهم أو قسوة • وكانت نظرتها رائقة صافية ، وادعة هادئة • فأدرك راسكولنيكوف أنها قد جاءت اليه هي أيضاً بحب •

وتابعت الأخت كلامها فقالت :

– روديا ، أنا أعلم الآن كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ! لقد روى لي دمترى بروكوفتش كل شيء ، وشرح لي كل شيء ! انهم يضطهدونك ويعذبونك بسبب شبهة غبية كريهة • لقد قال لي دمترى بروكوفتش انك غير معرّض لأي خطر ، وقال انك تخطيء اذ تضخم الأمور وتأخذها مأخذ الفاجعة • ولست أشاطره رأيه ، فأنا أفهم حق الفهم أن يشير هذا تمردك ، وأن يخلّف هذا التمرد آثاراً في حياتك

كلها • وذلك ما أخشاه حقاً • ولست أحكم على أنك تركتنا ، ولا أجرؤ
 أن أحكم ، فأرجوك أن تغفر لى ما وجهته اليك من لوم • أنا أشعر بأننى
 لو أصابنى حزن كحزنك لابتعدت عن جميع الناس كما تبعد عنهم
 أنت • لن أقصَّ « هذا الأمر » على أمنا ، لكننى لن أنفك أحدثها عنك ،
 وسأقول لها على لسانك انك لن تتأخر عن العودة إلينا • لا تقلق عليها ،
 سوف أتولى أنا تهديتها وطمأنتها • ولكن عليك من جهتك أن لا تعذبها :
 زرها ولو مرة واحدة ، تذكر أنها أمك • ولقد جئت الآن لأقول لك
 (هنا نهضت دونيا) : اذا احتجت الىّ فى أى أمر من الأمور ، فتصرف
 فى حياتى ••• نادى فأجىء ! استودعك الله !

قالت دونيا ذلك ، ثم استدارت واتجهت نحو الباب •

قال راسكولنيكوف وقد نهض واتجه نحوها :

– دونيا ! ان رازوميخين هذا ، ان دمترى بروكوفتشس رازوميخين

شاب ممتاز !

احمر وجه دونيا قليلاً • وسألته بعد دقيقة :

– وبعد ؟

– وبعد ، هو فتى نشيط مجتهد شريف ، قادر على أن يحب حباً

قويّاً ، حباً صادقاً ••• استودعك الله يا دونيا !

احمر وجه دونيا احمراراً شديداً ، ثم قالت وقد تنبعت الى

الخطر فجأة :

– ولكن لماذا توصى به هذه التوصيات كلها ؟ أترانا نفترق الى

الابد ؟

– لا قيمة لهذا ••• استودعك الله !•••

قال ذلك ، وابتعد عنها ، ومضى الى النافذة • فانتظرت لحظة ، ونظرت اليه قلقاً ، ثم خرجت وقد استولى عليها همٌ وخوفٌ •

لا ، انه لم يشعر نحوها ببرودة في العاطفة ، حتى انه في لحظة من اللحظات (هي اللحظة الأخيرة) قد استبدت به رغبة قوية في أن يحتضنها بذراعيه وأن يقول لها « كل شيء » ، مودعاً اياها ، لكنه لم يستطع أن يعزم أمره على أن يمدّ اليها يده ، وأضاف يحدث نفسه قائلاً : « في المستقبل ، قد ترتعش حين تتذكر اننى احتضنتها بذراعى ، وقد تقول لنفسها اننى سرقت منها قبلتها » وأضاف يتساءل بعد بضع لحظات : « ثم هل يمكنها أن تحتمل اعترافاً كهذا الاعتراف ؟ لا ، لن تستطيع أن تحتمله • هي من أولئك اللواتى لا يمكنهن أن يحتملن مثل هذه الأشياء » •

وفكّر في صونيا •

وكان هواء طرى يهب من النافذة • وفي الخارج كان الضياء قد خبا سطوعه • فتناول راسكولنيكوف قبعته فجأة وخرج •

كان لا يستطيع أن يعبأ بحالته الصحية ، لا ولا يريد أن يعبأ بها • ولكن جميع تلك الانذارات المتصلة وجميع تلك الأهوال النفسية ، كان لا بد أن يكون لها آثار • ولئن لم تصرعه الحمى حتى الآن ، فلعل مردّ ذلك أن القلق المستمر كان يجعله في حالة تنبه وتيقظ ، ولو على نحو مصطنع مؤقت جداً •

لبت يضرب في الأرض على غير هدى • أخذت الشمس تغرب • انه يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص جداً • لم يكن في ذلك الحزن شيء من حدة ، وانما كان فيه نوع من ثبات وبقاء أبدى ، نوع من تنبؤ بجميع السنين التى سوف يقضيها في غمٍ بارد كالصقيع ، غمٍ قاتل هو

شيء كالأبدية على مساحة من الأرض ليست اكبر من « موطىء قدم » *
 كان راسكولنيكوف يشعر بهذا الاحساس أقوى ما يكون عند هبوط
 الليل خاصة *

دمدم يقول متذمراً : « هيباً امتنع عن ارتكاب حماقة من الحماقات
 ان استنطعت وأنت تعانى من هذه الاضطرابات الجسمية السخيفة لدى
 غروب شمس ! ان فى الامكان أن تقودك هذه الحالة لا الى الاعتراف
 لصونيا فقط ، بل الاعتراف لدونيا أيضاً ! » *

وسمع أحداً يناديه ، فالتفت ، فاذا ليزياتنيكوف يهرع اليه *
 قال ليزياتنيكوف :

- اننى آتٍ من عندك ! لقد كنت أبحث عنك ! تخيّل أنها وضعت
 مشروعها موضع التنفيذ مقتادةً أولادها ! وقد لقينا أنا وصوفيا سيميونوفنا
 كثيراً من العناء والمشقة حتى وجدناهم ! انها تنقر على مقلاة ، وتجبر
 الأولاد أن يغنوا ويرقصوا * والأولاد يبكون * انهم يتوقفون عند مفارق
 الطرق وأمام الدكاكين ، ووراءهم يجرى جمهور كبير غبى * تعال !

سأله راسكولنيكوف قلقاً وهو يجرى وراءه :

- وصونيا ؟

- فقدت عقلها * لا أقصد أن صوفيا سيميونوفنا هي التي فقدت
 عقلها بل كاترين ايفانوفنا * وصوفيا سيميونوفنا أيضاً على كل حال *
 ولكن كاترين ايفانوفنا فقدت عقلها تماماً * نعم ، لقد جئت جنوناً
 كاملاً نهائياً * ستقادم مع الأولاد الى الشرطة * هانت ذا ترى الأثر
 الذى سوف يحدثه هذا * هم الآن على رصيف النهر ، قرب جسر
 س * * * غير بعيد عن مسكن صوفيا سيميونوفنا ، على مسافة خطوتين
 من هنا *

على الرصيف ، غير بعيد عن الجسر ، قبل منزل صونيا بعمارتين ، كانت تحتشد جمهرة من الناس فعلاً ، يرى المرء بينها على وجه الخصوص صبياناً وبناتٍ يقفزون ويشبون •

ان صوت كاترين ايفانوفنا الأبحَّ يُسمع حتى من الجسر • مشهد غريب فعلاً ، لا بد أن يشوق المستطلعين المتسكعين الذين يحبون أن يروا كل شيء وأن يسمعوا كل شيء !

كانت كاترين ايفانوفنا ترتدى ثوبها العتيق وشالها المصنوع من الجوخ ، وتضع على رأسها قبعة من قش تسطحت وتشوهت • وكانت في حالة جنون مطلق حقاً ، وكانت تلهث منهوكة مهدودة القوى • وكان وجهها ، الشاحب الهزيل من مرض السل ، يعبر عن ألم أقوى من الألم الذى يعبر عنه هذا الوجه عادةً (ان المصدورين يبدون فى ضوء الشارع أشد مرضاً مما يبدون مرضى فى منازلهم) • وكان احتياجها لا يهدأ ، بل يقوى ويستعر مزيداً من الاستعار لحظة بعد لحظة • فهى تندفع نحو أولادها ، فتصفعهم وتقرعهم وتعلمهم على مرأى من جميع الناس كيف ينبغى لهم أن يرقصوا وأن يغنوا وتشرح لهم ضرورة ذلك ، حتى اذا لاحظت أنهم لا يفهمون أخذت تضربهم ؛ ثم هى تهرع الى الجمهور لتكلمه قبل أن تفرغ مما تكون قد شرعت فيه • فاذا لمحت بين أفراد الجمهور شخصاً يرتدى ثياباً لائقة بعض الشيء ، أسرعت تشرح له الحالة التى آل اليها « أولاد أسرة نبيلة ، بل أسرة ارسنقراطية » • واذا سمعت انطلاق ضحكة أو مجرد كلمة ساخرة هجمت على الوقحين فوراً وأخذت تشاجرهم • وكان بعض الناس يضحكون وكان بعضهم الآخر يهزون رؤوسهم ، ولكنهم كانوا جميعاً ينظرون بكثير من الاستطلاع والفضول الى المرأة المجنونة وأولادها المروعين • والمقلاة التى تكلم عنها ليزيانتيكوف لم تكن موجودة ، أو ان راسكولنيكوف لم يرها على الأقل ،

لكن كاترين ايفانوفنا كانت ترافق الغناء والرقص بضبط الوزن صنفًا بيديها الياستين ، مجبرةً كوليا ولينيا على الرقص بينما تغنى باولين + وكانت تحاول في الوقت نفسه أن تغنى هي أيضاً ، ولكن نوبة رهيبية من السعال ما تلبث أن تقطع غناءها ، فتحزن عندئذ حزناً شديداً ، وتأخذ تشتم المرض وتلعنه ، حتى لتبكي حسرة ولوعة + والشئ الذي كان يثيرحنقها خاصةً انما هو بكاء كوليا ولينيا وذعرهما + وكانت كاترين ايفانوفنا قد حاولت حقاً أن تلبس أولادها على طريقة مغنى الشوارع + فأما الصبي الصغير فقد وضعت على رأسه لفة بيضاء مخيطةً مع قطعة من قماش أحمر فكأنها طربوش وعمامة مما يضعه على رؤوسهم الأتراك + وأما لينيا فان كاترين ايفانوفنا لأنها لم تجد قماشاً تصنع لها به ثوباً حقيقياً من ثياب مغنى الشوارع ، قد اقتصرت على أن ألبست رأسها قلنسوةً منسوجة بالابرة من صوف أحمر (بل قل طاقة المرحوم سيميون زاخارتش نفسها) ، وغرست في القلنسوة بقية ريشة من ريش النعام الأبيض كانت تملكها في الماضي جده كاترين ايفانوفنا ، وكانت كاترين ايفانوفنا قد حفظتها حتى ذلك الحين في صندوقٍ أثرأ من تراث الأسرة + وأما بوليا فهي ترتدى ثوبها الذي كانت ترتديه كل يوم ، وتدرک أن أمها قد جنّت فتتظر اليها نظرة فيها خجل وخوف وحزن ، ولا تبعد عنها شبراً واحداً ، مخفيةً دموعها ، ملقيةً على ما حولها نظرات قلقة + كان الشارع والجمهور يبثان في نفسها رعباً هائلاً +

كانت صونيا تسير وراء كاترين ايفانوفنا باكية ، وما تنفك تضرع اليها في كل دقيقة أن ترجع الى البيت + ولكن كاترين ايفانوفنا لا تنشى عن عزمها ، ولا تلين قناتها ، فهي تقول لصونيا صارخةً بصوت متعجل وهي تسعل وتلهث :

- اتركينى يا صونيا ، اتركينى ! أنت نفسك لا تدرين ماذا تطليين

منى ! أنت طفلة ، أنت طفلة ! قلت لك اننى لن أرجع الى تلك الألمانية
السكيرة ! ألا فليعلم جميع الناس ببطرسبرج كيف صار الى استجداء
الأكف أولادُ أبٍ نبيل ظل طوال حياته يخدم الدولة باستقامة وشرف ،
حتى يمكن أن يقال انه مات أثناء أداء واجب وظيفته (لقد أفلحت
كاترين ايفانوفنا فى أن تخلق لنفسها هذا الوهم وأن تؤمن به ايماناً
أعمى) ! ألا فليرَ ذلك الجنرال التافه كلَّ هذا ، ألا فليرَ ! أنت حمقاء
يا صونيا ! ما عسانا نفعل الآن من أجل أن نأكل ؟ لقد استغللناك
واستثمرناك بما فيه الكفاية ! لا أريد هذا بعد الآن !+++ روديون
رومانوفتش ؟ أهذا أنت ؟ (كذلك هتفت وقد لمحت راسكولنيكوف ،
فهرعت اليه) أرجوك أن تفهم هذه الحمقاء الصغيرة أننا لم يبق لنا أن
نفعل شيئاً غير هذا ! ان العازفين على أرغن بارباريا يتوصلون الى جنى
رزقهم ، ونحن سوف نتعرفنا جميع الناس ، وسوف يرى جميع الناس
أننا أسرة نبيلة مهجورة بأسة ، وسوف يفقد ذلك الجنرال التافه منصبه ،
لترينَّ هذا ! سنذهب كل يوم الى تحت نوافذه ، حتى اذا مر
الامبراطور جثوت عند قدميه ، ودفعت هؤلاء الى أمام ليراهم ، وهتفت
أقول له : « احمهم يا أبانا ! » + انه أبو اليتامى ، انه رحيم +++ سوف
يحميهم ، لترينَّ أنه سوف يحميهم ! أما ذلك الجنرال التافه فسوف +++
« لينا ، انصبى قامتك » * ! وأنت يا كوليا ! ارقص من جديد ! ما لك
تبكى ! انه ما يزال يبكى ! عجيب ! ممَّ أنت خائف أيها الأحمق الصغير ؟
ماذا يجب أن أصنع بهم يا روديون رومانوفتش ؟ لبتك تعلم مدى غباوتهم
وبلاهتهم ! ما عسانى صانعةً بأولاد كهؤلاء الأولاد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك لراسكولنيكوف وأوشكت أن تبكى
هى نفسها (دون أن يوقف هذا سيلَ كلامها المتدفق الذى لا ينضب)
وهى تريه الأولاد الذين كانوا يكونون *

حاول راسكولنيكوف أن يقنعا بأن عليها أن ترجع الى البيت ،
وقدّر أنه يستطيع بكلامه أن يوقظ حبّها لذاتها وشعورها بكرامتها فقال
لها انها لا يليق بها أن تتجول في الشوارع تجول العازفين على أرغن
بارباريا على حين أنها تتوق الى انشاء مدرسة داخلية للفتيات النييلات !

فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول ضاحكة مقهقهة :

— مدرسة داخلية ! ها ها ها ! ••• اسمعوا هذا الكلام !•••

وأعقبت ضحكاتها نوبة سعال • ثم تابعت كلامها فقالت :

— لا يا روديون رومانوفتش ! هذا الحلم قد تبدد ! لقد هجرنا
جميع الناس ! وهذا الجنرال التافه ••• هل تعلم يا روديون رومانوفتش
أننى رميته بمحبرة على وجهه ، هي المحبرة التي كانت توجد في حجرة
المدخل على المنضدة قرب الورقة التي يسجّل فيها الزوار أسماءهم ؟ لقد
سجلت اسمي انا أيضاً ، ثم رميته بالمحبرة ووليت هاربة ! آه ! يا للجناء!
يا للحقراء ! ولكنني أصبحت الآن لا أهتم ••• فسوف أجنى لهم رزقهم
بنفسي ، سوف أجنى للأولاد رزقهم بنفسي • لن أطاطيء رأسي لأحد !
لقد عذبتها بما فيه الكفاية (كانت كاترين ايفانوفنا تقصد صونيا) •
يا بوليتشكا ، كم جمعنا الى الآن ؟ أريني ! كيف ؟ ألم نجمع الا كوبكين
فقط ؟ آه ••• يا للأوغاد ! انهم لا يعطوننا شيئاً ! انهم لا يزيدون على أن
يركضوا وراءنا مادّين لنا ألسنتهم استهزاءً ! انظر الى هذا المعتوه مثلاً :
ممّ تراه يضحك ؟ (وأومات الى واحد في الجمهور) ذلك كله سببه
كوليا ! فلأن كوليا غبي هذا الغباء كله انما يسخر منا الناس جميعاً ! مالك
يا بوليتشكا ؟ كلميني بالفرنسية ! « كلميني بالفرنسية ! » عجب !
ألم أعلّمك الفرنسية ؟ ••• انك تعرفين بضع جمل ••• أننى لهم أن
يعرفوا أنكم تنتمون الى أسرة نبيلة وأنكم قد نسّتم تنشئة طيبة فلا شأن

لكم بغيركم من العازفين على أرغن بارباريا ، أنى لهم أن يعرفوا ذلك اذا لم تكلميني باللغة الفرنسية يا بوليتشكا ؟ نحن لا نشد فى الشوارع أغاني مبتذلة ، وانما نحن نغنى أغنيات راقية ! ها ... نعم ... ما الذى سوف نغنيه الآن ؟ أنت لا تزيد على أن تقاطعنا ، ونحن ... اسمع يا روديون رومانوفتش ، لقد توقفنا هنا قليلاً لنقرر ما الذى سنغنيه : يجب أن نغنى شيئاً يكون فى وسع كوليا أن يرافقه برقصة ، ذلك أننا ، كما تستطيع أن تقدّر ، قد أخذنا على غير تهيؤ أو استعداد . ولا بد لنا من توزيع أعمالنا والتوفيق بين أعبائنا حتى نرتب الأمور . وبعد ذلك سوف نذهب الى شارع نفسكى ، حيث يكثّر الناس الذين ينتمون الى المجتمع الراقى فسرعان ما يلاحظوننا . ان لينا لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » ، لا تعرف الا أغنية « القرية الصغيرة » وحدها ! وجميع الناس يغنون هذه الأغنية حتى أصبحت كالمنشمار ! يجب علينا أن نختار شيئاً أرقى . فماذا يا بوليا ؟ هل عندك فكرة ؟ ليتك تستطيعين ، أنت على الأقل ، أن تساعدى أمك ! آه من الذاكرة ! ان الذاكرة هى التى تعوزنى ، ولولا ذلك لجزت الأمور من تلقاء ذاتها ، لولا ذلك لتذكرت ! لن نغنى مع ذلك أغنية « الفارس المتكىء على سيفه » ! * الأولى أن نغنى بالفرنسية أغنية « خمسة قروش » . لقد علمتكم اياها ، تلك الأغنية ! ثم ان الناس سرعان ما يدركون ، لأننا سوف نغنى بالفرنسية ، أنكم أولاد أسرة كريمة الأصل ، فيؤثر ذلك فى نفوسهم تأثيراً أكبر ! حتى ان فى وسعنا أن نغنى أغنية « مالبرو مسافر الى الحرب » ، لا سيما وأنها أغنية صغيرة للأطفال وحدهم ، نعم للأطفال وحدهم ، تستعمل فى جميع البيوت الارستقراطية لنوم الأطفال .

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وأخذت تغنى :

مالبرو مسافر للحرب

لا يدري متى يعود ***

ثم استدركت تقول : بل الأفضل أن نغني « خمسة قروش » *
يا كوليا ، ضع يديك على خصرتك ! أسرع ! وأنت يا لينيا ، استديري
في اتجاه معاكس ! وسوف أرافقكما أنا وبوليا يصفق الأيدي :

خمسة قروش ، خمسة قروش

لانشاء أسرتنا ***

واجتاحتها نوبة سعال أخذت تهزها هزاً : كح كح كح ! **
وقالت تخاطب بوليا من خلال السعال :

- اعدلى ثوبك يا بوليتشكا ! انه ينزلق عن كتفك ! علينا الآن أن
نحافظ على أحسن مظهر ، حتى يرى جميع الناس أنكم أولاد أسرة
نبيلة ! آه *** ما أكثر ما قلت ان صدر هذا الفستان ينبغي أن يكون
أطول *** ولكن نصائحك أنت يا صونيا هي التي أفسدت كل شيء :
« قصّروا ! قصّروا ! » فانظري الآن ماذا كانت النتيجة : لقد تشوهت
هذه الطفلة ! ماذا ؟ هأنتم أولاء تستأنفون البكاء ؟ ما بالكم تعودون الى
البكاء أيها الأغبياء ؟ هيّا يا كوليا ! غنّ ! بسرعة أكبر ! أكبر ! أكبر !
أوه ! يا لك من ولد لا يطاق !

خمسة قروش ، خمسة قروش

- ماذا ؟ أجنديّ أيضاً ؟ ماذا تريد أيها الجنديّ ؟

كان شرطى من شرطة المدينة يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور
بالفعل ! ولكن سيداً يرتدى بزة رسمية ومعطف ضابط ، سيداً هو موظف
كبير في نحو الخمسين من عمره ، وقور المظهر مهيب الطلعة ، يحمل

عدا ذلك وساماً في عنقه (وهذا الامر التفصيلي الأخير قد أبهج كاترين ايفانوفنا كثيرا وحدث في شرطى المدينة تاثيرا كبيرا) ، قد ظهر في تلك اللحظة نفسها فاقترب من كاترين ايفانوفنا ماداً اليها ورقة نقدية قيمتها ثلاثة روبلات . وكان وجهه يعبر عن شفقة صادقة + فتناولت كاترين ايفانوفنا الورقة ، وانحنت أمام الرجل بشيء من الأدب ، بل وبشيء من الاحتفال . وبدأت تتكلم فقالت متعالية :

- أشكرك يا سيدى . ان الأسباب التى أهابت بنا الى ... خذى المال يا بوليتشكا . هأت ذى ترين أن هناك أناساً كراماً عظاماً مستعدين لمساعدة سيدة نبيلة بأسة أناخ عليها الدهر ... ان أمامك يا سيدى يتامى نبلاء ، بل يتامى يمكن أن تقول ان لهم قربي بأعلى الأسر الارستقراطية . ولكن ذلك الجنرال التافه الذى كان بسبيل التهام دراريج ... آه ... لقد ضرب الأرض بقدمه لأننى أزعجته ! قلت له : « يا صاحب السعادة ، كن حامياً لأيتام المرحوم سيميون زاخارتش ، أنت يا من عرفته حق معرفته ، فان انساناً حقيراً بين الحفراء قد افترى على بنته فى يوم موته نفسه + » . أما يزال هذا الجندى هنا ؟ كن حامياً لنا يا سيدى (كذلك صاحت كاترين ايفانوفنا مخاطبةً الموظف الذى اعطاها الروبلات الثلاثة) . لماذا يلاحقنى هذا الجندى ؟ ما باله يطاردنى دائماً ؟ لقد سبق أن هربنا من جندى غيره فى شارع مشتيانسكايا ... ماذا تريد أيها الغبى ؟

- لا يجوز لكم أن تفعلوا هذا فى الشوارع ! يجب عليكم أن تلتزموا حدود اللياقة !

- أنت الذى لا تلتزم حدود اللياقة ! أنا أفعل ما يفعله العازفون على أرغن بارباريا ! فما شأنك أنت ؟
- من أجل العزف على الأرغن ، لا بد من ترخيص ... أما أنت

فقد قررت أن تفعل ما تفعلينه دون الحصول على ترخيص ••• فأنت
تزعجين الناس وتعكرين صفوهم ! أين تسكنين ؟
أعولت كاترين ايفانوفنا تقول :

- ماذا ؟ ترخيص ؟ لقد دفنت زوجي في هذا اليوم نفسه ! أى
ترخيص تريد ؟
تدخل الموظف فقال :

- سيدتى ، سيدتى ، هدئي نفسك • تعالى • سأوصلك الى بيتك !
ليس هذا لائقاً هنا ، أمام الناس ! أنت مريضة !
فصاحت كاترين ايفانوفنا تقول :

- يا سيد ، يا سيد ، أنت لا تعرف شيئاً ! سوف نذهب الى شارع
تفسكى ! يا صونيا ، يا صونيا ! ولكن أين ذهبت صونيا ؟ انها تبكى هى
أيضاً ! ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟
وصرخت فجأة تسأل :

- كوليا ، لينيا ، الى أين تذهبان ؟ الى أين أنتما ذاهبان ؟

كان كوليا ولينيا ، وقد رأيا الجندى الذى يريد أن يقبض عليهما
وأن يقتادهما الى مكان ما ، وروعتهما هذه الجمهرة المحتشدة من الناس
وهذه الحالات الجنونية فى أمهما ، كانا قد تماسكت يداها وأخذتا
يركضان كأنما على سابق اتفاق وتواطؤ • فلما رأتهما المسكينة كاترين
ايفانوفنا على هذه الحال أخذت تئن وتنسج ، واندفعت تطاردهما • انه
منظر عجيب محزن أن يراها المرء تركض هذا الركض غارقة بدموعها
منقطعة أنفاسها • وأسرعت صونيا وبوليا تركضان وراءهما •

- أرجعيهما يا صونيا ، أرجعيهما ! آه !••• يا للأولاد الأغبياء !

يا للأولاد العاقين !... يا بوليا ! أدركيها ! اقبضي عليهما ! من اجلك
انما أنا ...

وترنحت كاترين ايفانوفنا في ركضها وسقطت *

صاحت صونيا قائلةً وهي تميل عليها :

- انها مغطاة بالدم ! رباة !... *

هُرع الجميع ، وتحلقوا حول كاترين ايفانوفنا * وكان
راسكولنيكوف وليزياتيكوف أول المسرعين * وقد أسرع الموظف
أيضاً * ووراءه وصل شرطى المدينة قائلاً في تدمر : « أقصة جديدة ؟ »
ثم حرك يده بإشارة انزعاج ، شاعراً أن هذه القضية ستحدث كثيراً من
المتاعب *

قال الشرطى وهو يصرف المستطعين الذين تجمعوا ينظرون :

- انصرفوا ! انصرفوا !

قال أحدهم :

- انها تموت *

وقال آخر :

- لقد فقدت عقلها *

وقالت امرأة وهي ترسم على نفسها اشارة الصليب :

- رأف الله بها * هل أعيد الأولاد على الأقل ؟ ها هم أولاد *

يرجعون ! ان الكبرى هي التي أدركتهم * يا للعفاريت !... *

ولكن حين أنعم النظر في كاترين ايفانوفنا عُرِف أنها لم تُجرح

لاصطدامها بحجر كما قدّرت صونيا ، فان الدم الذى صبغ بالحمررة أرض

الشارع انما تدفق من حلقها *

دمدم الموظف يقول لراسكولنيكوف وليبيزياتنيكوف :

- أنا أعرف ، أنا أعرف ، هذا مرض السل ! هكذا ينجس الدم من فم المريض ثم يخنقه • شهدت هذه الحادثة نفسها منذ مدة غير طويلة : احدى قريباتي سكبت من صدرها على هذا النحو كأساً من دم على حين فجأة • ما العمل ؟ سوف تموت ***

تضرعت صونيا قائلة :

- هنا ! هنا ! الى بيتي ! أنا أسكن هنا ، هنا ، في هذا المنزل ، العمارة الثانية *** فلتُنقل الى بيتي ، بسرعة ، بسرعة ! *** استقدموا طيباً *** آه *** يا رب ! ***

كذلك كانت تقول صونيا متجهة بكلامها الى الحضور واحداً بعد

• واحد •

ودُبِّرت الأمور بفضل جهود الموظف • حتى لقد ساعد الشرطي نفسه في نقل كاترين ايفانوفنا • صعدوا بها الى مسكن صونيا وهي شبه ميتة ، واضجعوها على السرير • كان الدم ما يزال ينزف ، ولكن كان يبدو على المريضة أنها تثوب الى شعورها شيئاً بعد شيء • ولقد دخل الى الغرفة ، عدا راسكولنيكوف وليبيزياتنيكوف ، دخل الموظف والشرطي • وكان الشرطي قد صرف الجمهور فلم يفلت منه الا بضعة فضولين صاحبوا كاترين ايفانوفنا وموكبها ودخلوا الغرفة هم أيضاً • ووصلت بوليا ممسكةً كوليا ولينيا اللذين كانا يرتجفان ويبيكان • وهُرِع من بيت كابرناؤموف أيضاً عدة أشخاص : كابرناؤموف نفسه ، وهو رجل أعرج أعور يضىف عليه شعر رأسه ولحيته المجعدّ تجعدّ شعر الخنزير مظهرأ غريباً جداً ؛ وامراته التي يعبّر وجهها عن ذعر مستمر متصل ؛ وعددٌ من أولادهما ففرت أفواههم وجمدتهم الدهشة ؛ وظهر

بين المشاهدين أخيراً سفدرىجايلوف + فنظر اليه راسكولنيكوف فى أول الأمر مذهولاً لا يفهم من أين عساه طلع ، فهو لا يتذكر أنه رآه بين الجمهور المحتشد فى الشارع •

وتكلم الحضور عن استقدام طيب وكاهن • وهذا هو الموظف يصدر أمره باستقدام طيب ، رغم أنه كان قد همس يقول لراسكولنيكوف ان مساعدات الطيب أصبحت غير مجدية • وتمهّد كابرناؤموف أن يسعى الى الطيب لاحضاره •

وتحسنت حالة كاترين ايفانوفنا قليلاً أثناء ذلك ، فالنزيف قد انقطع مؤقتاً • وألقت كاترين ايفانوفنا نظرة موجهة ، وان تكن ثابتة نافذة ، على صونيا التى كانت تجفف قطرات العرق عن جبينها شاحبة الوجه مرتعشة اليدين • وطلبت كاترين أخيراً انهاضها ، فأجلست على السرير مسنودةً من الجهتين •

دمدمت تقول بصوت ضعيف :

— أين الأولاد ؟ هل أرجعتهم يا صونيا ؟ آه ••• يا لهم من بلهاء ! لماذا هربتم ؟ آه •••

وغطى الدم شفيتها المصوّحتين من جديد • فأجالت عينيها على ما حولها • وقالت :

— آه ••• أهكذا تعشين اذن يا صونيا ! لم يتح لى أن آتى اليك قبل الآن مرةً واحدة !

ونظرت اليها بألم •

— ماذا ؟ كاهن ؟ لا أريد !••• هل معكم روبل تضيعونه ؟ أنا لا ذنوب لى ! لا بد أن يغفر الله لى • ان الله يعلم كم تأملت ! فاذا لم يغفر لى ، فلا يغفر !

واستولى على كاترين ايفانوفنا هذيان ما فتىء يزداد اضطراباً •
 كانت في بعض اللحظات ترتعش ، وتنظر حواليتها ، فتتعرف جميع
 الأشخاص الذين يحيطون بها ، تتعرفهم خلال دقيقة واحدة ، ثم
 ما تلبث أن تفقد صحوها وترتد الى هذيانها من جديد • وكان تنفسها
 أبحّ أجشّ ، وكان شاقاً أليماً ، وكان يُسمع نوع من القرقرة يخرج
 من حلقها •

وهتفت تقول وهى تختنق لدى كل كلمة تنطق بها :

– قلت له : « يا صاحب السعادة ••• آه ••• سحقاً لآماليا
 لودفيجوفنا هذه !••• لينيا ، كوليا ، ضعا يديكما على الحصرين ، واجعلا
 رقصكما أسرع ، أسرع ••• انزلقا ••• انزلقا !••• عليكما بخطوة
 « البسك » ••• اقرع كعبيك ! كن ولدأ رشيقاً !

* لك ماس ولآلى •

– ماذا بعد ؟ ها ••• نعم ••• يجب الغناء كما يلى :

لك أجمل عينين

فماذا تريدن أكثر من ذلك يا فتاة !

– نعم ، ماذا تريدن أكثر من ذلك ؟ يا للغبى ما أسخف قوله !
 ها ••• نعم ••• وهذا شعر آخر :

* تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان *

– آه ••• لشد ما أحببت هذه الأغنية ! أحببتها حتى العبادة ، هذه
 الأغنية ! هل تعلمين يا بوليتشكا ؟ كان أبوك يغنيها أيام كنا خطيبين !•••
 ذلك ما يجب أن نغنيه اذا أردنا الغناء ! ولكن ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟
 لقد نسيت ! هلاًّ ذكرتمونى ! ذكرونى !



كاترين ايفانوفنا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسنديا كورساكوفا

كانت كاترين ايفانوفنا في حالة اضطراب شديد ، وكانت تحاول أن تنهض • وأخذت أخيراً تغنى بصوت رهيب أبحّ مكسّر ، صارخةً مختنقةً عند كل كلمة تنطق بها • وكان وجهها يعبر عن رعب ما ينفك يزداد :

نحت أشعة الشمس الحارة ، بوادي داغستان •••

وفي صدري رصاصة

وأعولت تقول فجأة بصياح ممزق وهي تجهش باكية :

– يا صاحب السعادة ، كن حامياً لليتامى ••• تكريماً لذكرى الاستقبال الذي استقبلك به سيميون زاخارتش ••• والذي يمكن أن يوصف بأنه ارستقراطي •••

وانتفضت كاترين ايفانوفنا فجأة وقد تاب إليها شعورها وأخذت تتفرد في الحضور مدعورة • لكنها لم تلبث أن تعرفت صونيا ، فنطقت تقول في رقة وحنان وكأنها تستغرب أن تراها أمامها :

– صونيا ! صونيا ! أنت أيضاً هنا ؟

أنهضت كاترين ايفانوفنا من جديد •
صرخت تقول في يأس وكره :

– كفى ! آن الأوان ! وداعاً ! لقد أجهزوا على الحصان القديم !
انه يفتس !

وتركت رأسها يتهاوى على الوسادة •

وعاد إليها شعورها مرةً ثانية ، لكن ذلك لم يدم الا مدة قصيرة •
انقلب وجهها المصفرُّ الى وراء ، وانفتح فيها ، وامتدت ساقاها في تشننج،
وزفرت زفرة عميقة وماتت •

أسرعت صونيا الى جثمانها ، فطوقتها بذراعيها متألمة ، وشددت رأسها الى صدرها الناحل • وجثت بوليا عند قدمي أمها فقبّلتها باكية ناشجة • ولم يدرك كوليا ولينيا ادراكاً واضحاً ما الذي حدث ، لكنهما أوجسا أن ثمة شيئاً رهيباً قد وقع ، فارتضى كل منهما بين ذراعي الآخر، وفغر فمهما وأخذوا يصرخان • كانا ما يزالان يرتديان ثياب المهرّجين ، فأحدهما على رأسه عمامة ، والأخرى على رأسها طاقة تزينها ريشة نعامة •

لا ندرى كيف وُجد « الدبلوم » موضوعاً على الوسادة قرب كاترين ايفانوفنا ، غير أن راسكولنيكوف قد رآه على كل حال •
ابتعد راسكولنيكوف نحو النافذة ، وأسرع ليزياتنيكوف يلحق به •
قال :

— ماتت !

قال سفدريجاييلوف وهو يتقدم نحو راسكولنيكوف :

— روديون رومانوفتش ، عندي كلمة أريد أن أقولها لك • أمر مستعجل !

فسرعان ما تنحى له ليزياتنيكوف عن مكانه وامحى مستخفياً ، غير أن سفدريجاييلوف ابتعد براسكولنيكوف مزيداً من الابتعاد يريد أن يخلو اليه وأن يكلمه على انفراد • كان راسكولنيكوف متحيراً • قال سفدريجاييلوف :

— سوف أتولى جميع هذه الأمور ، أقصد نفقات الدفن وكل ما عداه • هذا يقتضى مالاً مهيباً ••• هذان العصفوران الصغيران وهذه البنت بوليتشكا سوف أدخلهم مأوى للأيتام ، فتكون العناية بهم أحسن

ما تكون العناية ، وسأودع باسم كل منهم مبلغ ألف وخمسمائة روبل ، الى أن يبلغوا سن الرشد ، وذلك حتى يطمئن بال صوفيا سيميونوفنا كل الاطمئنان . وسوف أخرجها هي أيضاً من الحماة التي تعيش فيها ، لأنها فتاة طيبة ، أليس كذلك ؟ فتستطيع أن تقول لآدفتيا رومانوفنا في أى وجه من الوجوه استعملت العشرة آلاف روبل .

سأله راسكولنيكوف :

– لأى هدف من الأهداف تظهر هذا الكرم كله ؟

فأجابه سفدريجايلوف يقول ضاحكاً ضحكة صغيرة :

– هيه ! هيه ! يا لك من رجل قليل الثقة سىء الظن ! لقد قلت لك اننى فى غير حاجة الى هذا المال ! لماذا ترفض أن تصدق أننى لا أتصرف الا بدافع الأمانة ؟ وكيف دار الأمر فان هذه (قال ذلك وهو يشير باصبعه الى الركن الذى ترقد فيه المتوفاة) لم تكن قملة ، لم تكن عجوزاً مرابية ما . . . هياً قل لى : « هل الأفضل أن يبقى رجل مثل لوجين حياً يرتكب دناءاته وحقاراته ، أم الأفضل أن تموت هى ؟ » . . . وبدون مساعدتى ، فان بوليتشكا مثلاً « ستكون مضطرة أن تسير فى هذه الطريق نفسها » . . .

قال تلك الكلمات بلهجة فيها شىء من « المكر » ، دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف .

اصفرّ راسكولنيكوف وتجمّد رعباً حين سمع تلك العبارات نفسها التى قالها هو نفسه فى حديثه مع صونيا . وتقهقر فجأة وألقى على سفدريجايلوف نظرة ضارية .

ودمدم يسأل بصوت مختنق :

– كيف *** عرفت *** هذا؟

– أنا أقطن هنا ، فى الجهة الأخرى من هذا الحجز ، عند السيدة ريسليش + هنا شقة كابرناؤموف ، وهناك شقة السيدة ريسليش ، وهى صديقة لى منذ عهد طويل ، صديقة من أخلص الصديقات + أنا جار من الجيران + هذا هو الأمر !

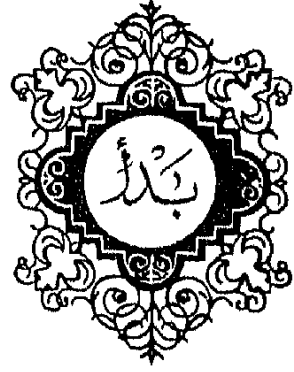
– أنت؟

فضحك سفدرىجايلوف وتابع كلامه فقال :

– أنا ، وأستطيع أن أؤكد لك صادقاً يا روديون رومانوفتش العزيز أن أمرك قد شاقنى كثيراً + ألم أقل لك اننا سنكون متفاهمين ! لقد تنبأت لك بذلك ! نعم ، لقد تفاهمنا ! لسوف ترى أننى رجل موادع مجارٍ مريح ! لسوف ترى أننى أمرؤ ما تزال الحياة معى ممكنة .

الجزء السادس

الفصل الأول



عندئذ عهدٌ جديدٌ غريبٌ في حياة راسكولنيكوف •
لكأن ضباباً قد سقط أمامه فجأةً ، فحبسه في عزلة
ثقيلة كثيفة • حين تذكر راسكولنيكوف هذه
الفترة ، بعد زمن ، بعد زمن طويل ، قدّر أن

أن صحو ذهنه كان يغور في الظلام أحياناً ، وأنه استمر على هذه الحال الى
أن نزلت النازلة النهائية ، الا في لحظات قليلة • وقد اقتنع اقتناعاً تاماً بأنه
قد ضلّ حينذاك في أمور كثيرة ، ولا سيما في مواقيت بعض الأحداث
وفي مدتها ، على أنه حين استحضّر هذه الذكريات وحاول أن يجمع شتاتها
وأن يوضحها ، استعان بشهادة أشخاص آخرين ، فعلم بذلك أموراً كثيرة
عن نفسه • علم مثلاً أنه كان يخلط بين حادث وآخر ، أو كان يظن
هذا الحادث نتيجةً لحادث ثالث لا وجود له في الواقع ، وانما أنشأه له
خياله • وكان يتتابه في بعض الأحيان قلق أو خوف سرعان ما يستحيل
الى رعب هائل • ولكن راسكولنيكوف تذكر أيضاً أنه كانت تمر به دقائق
بل ساعات وربما أيام يعيش خلالها حالات نفسية تناقض مخاوفه السابقة،
فهو غارق في خدر يشبه عدم الاكتراث الذي يعاينه بعض المحتضرين •
ويمكن أن نقول على وجه العموم انه يكون في مثل تلك الأيام كمن
يتحاشى هو نفسه أن يشعر بوضعه وأن يدرك موقفه وأن يعي حالته •
وهناك وقائع أساسية معينة كانت تثقل على نفسه خاصة مع أنها تتطلب

توضيحاً مباشراً • ولكن ما كان أعظم سعادته بأن ينسى بعض الظروف ، رغم أن هذا النسيان قد استطاع أن يؤدي في حاتته الى نازلة رهية لم يمكن تحاشيها •

وكان يقلقه سفدريجاييلوف خاصة ، حتى ليتمكن القول ان انتباهه كله قد تركز على سفدريجاييلوف • فمنذ اليوم الذي نطق فيه سفدريجاييلوف بتلك الكلمات الصريحة الرهية التي لا بد أن ترعب راسكولنيكوف ، وذلك في غرفة صونيا ، لحظة وفاة كاترين ايفانوفنا ، منذ ذلك اليوم انقطع الجريان الطبيعي لأفكار راسكولنيكوف • ولكن راسكولنيكوف لم يسارع الى توضيح الأمور لنفسه ، رغم القلق الشديد الذي أخذ يعاينه • كان يتفق له في بعض الأحيان ، اذ يجد نفسه فجأة في حى ناءٍ مقفرٍ من أحياء المدينة ، جالساً وحده الى مائدة منعزلة في أعماق حانةٍ حقيرة ، غارقاً في أفكاره ، لا يكاد يتذكر ما الذي قاد خطاه الى هذا المكان ، كان يتفق له على حين بغتة أن يخطر بباله سفدريجاييلوف ، فاذا هو تتجلى له حقيقة واضحة صارخة ، هي أن عليه أن يجرى حديثاً مع هذا الرجل بأقصى سرعة ممكنة ، وأن يفرغ من هذا الأمر مرةً واحدة • حتى لقد خيّل اليه ذات يوم ، في مكان وراء الأسوار ، أنه ينتظر سفدريجاييلوف ، وأنه قد ضرب له موعداً للقاء في هذا المكان • وفي يوم آخر ، استيقظ عند الفجر فرأى نفسه راقداً على الأرض لا يدرى أين ، فلم يفهم ما الذي جاء به الى هنا ، ولا عرف كيف وصل الى هذا الموضع • ثم انه خلال اليومين أو الأيام الثلاثة التي أعقبت وفاة كاترين ايفانوفنا قد أتبع له أن يلتقى سفدريجاييلوف مرتين ، وذلك في غرفة صونيا التي ذهب اليها لا لهدف الا أن يراها لحظة • وقد تبادل الرجلان بضع كلمات مقتضبة جداً ، ولكن تجنبا أن يمساً النقطة الأساسية ، فكان بينهما اتفاقاً مضمراً على أن يلزما الصمت

فى هذا الموضوع الى حين • كان تابوت كاترين ايفانوفنا عندئذ ما يزال فى غرفة صونيا • وكان سفدرىجايلوف ينشط فى سبيل اتمام الدفن • وفى اللقاء الأخير الذى تمّ بين الرجلين شرح سفدرىجايلوف لراسكولنيكوف أن المساعى التى شرع فى القيام بها من أجل أولاد المتوفاة قد أثمرت ، فبفضل بعض العلاقات التى له ، استطاع أن يدخل الأيتام الثلاثة فى مؤسسات مناسبة ، وكان للمال الذى أودعه لهم فضل كبير فى ذلك ، لأن الأولاد الذين يملكون مالاً يسهل قبولهم فى هذه المؤسسات أكثر مما يسهل قبول الأولاد الذين لا يملكون شيئاً • وتكلم سفدرىجايلوف قليلاً عن صونيا كذلك ، ووعده بأن يزور راسكولنيكوف فى بيته قريباً ، وأسمعه أنه يتمنى لو يطلب منه النصيح « فهو فى حاجة ملحة الى أن يكلمه فى بعض الأمور ... » ؛ وقد جرى هذا الحديث بين الرجلين فى حجرة المدخل ، فكان سفدرىجايلوف يحددّق الى راسكولنيكوف بنظرة ثابتة ثم خفض صوته بعد فترة من صمت يسأله :
 - ولكن مالك يا روديون رومانوفش ؟ يبدو لى أنك لست فى حالة طبيعية • صحيح أنك تصغى وتنظر ، ولكن لا يلوح عليك أنك تفهم !
 هيئاً ، ينبغى أن تتحدث معاً بعض الشيء ! يؤسفنى أننى مشغول بشئون غيرى وشئونى أنا الى هذا الحد !
 ثم أضاف يقول فجأة :

- هيه ! جميع البشر محتاجون الى هواء ، الى هواء ، الى هواء قبل كل شىء !

وتنحى بفتة حتى يفسح مجال المرور للكاهن والقندلفت اللذين كانا يصعدان السلم • انهما آتيان لاقامة صلاة الميت • لقد اتخذ سفدرىجايلوف الاستعدادات اللازمة لاقامة صلاة الميت هذه مرتين فى اليوم بغير انقطاع •

تردد راسكولنيكوف لحظةً ثم تبع الكاهن الى عند صونيا • وكان
سفدر ريجيلوف قد غاب •

وقف راسكولنيكوف على العتبة • وابتدأ القداس هادئاً مهيباً
حزيناً • كان الفتى يشعر بالموت منذ نعومة أظفاره • وكان احساسه
بحضور الموت يصطبغ عنده دائماً بنوع من رعب صوفى • وهو منذ مدة
طويلة لم يشهد قداس جنازة • والى هذا كله يُضاف الآن احساسٌ
بالاضطراب والرعب أشد ايلاماً •

نظر الى الأولاد • كانوا جميعاً راكعين قرب التابوت • وكانت
بوليتشكا تبكى • ووراءهم كانت صونيا تصلى وتبكي برفق • قال
راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انها لم تنظر الى مرةً واحدة في هذه
الأيام الأخيرة • انها لم تخاطبني بكلمة واحدة » • كانت الشمس تغمر
الغرفة بضياء قوى ، ودخان البخور يتصاعد الى السقف ، والكاهن يرتل
أدعيته • بقى راسكولنيكوف الى آخر الاحتفال فلما بارك الكاهن وودّع
منصرفاً ، ألقى على ما حوله نظرة غريبة • واقترب راسكولنيكوف من
صونيا بعد انتهاء القداس • فاذا هى تتناول يديه فجأةً وتميل برأسها على
كتفه • دُهِش راسكولنيكوف من بادرة الصداقة والمودة هذه • بدت له
هذه البادرة غريبة • تساءل : كيف لا تنفر منه صونيا أقل نفور ، كيف
لا تشمئز منه أى اشمئزاز ؟ وكانت يدها لا ترتعش فى يده ! يا للتضحية !
هكذا فهم راسكولنيكوف الأمر على الأقل • لم تقل صونيا كلمة
واحدة • صافحها راسكولنيكوف وخرج • كان يشعر بارهاق فظيع
يجتاحه • فلو كان يستطيع فى تلك اللحظة أن يذهب الى مكانٍ ما ، الى
أى مكان يشعر فيه بوحدة مطلقة ، بعزلة مطلقة ، ولو دامت مدى الحياة ،
اذن لعدّ نفسه سعيداً • ولكن راسكولنيكوف كان فى هذه الآونة الأخيرة ،
رغم بقاءه وحيداً فى جميع الأحيان تقريباً ، لا يفلح فى الوصول الى

الشعور بالوحدة • كان يتفق له أن يخرج من المدينة ، وأن يسير في الطريق الكبير • حتى لقد توغّل ذات مرة في غابة • ولكن كلما كانت الأماكن أشد عزلة وأكثر خلواً شعر راسكولنيكوف بحضور عميق مستتر مقلق يربعه ، ويضايقه خاصة • فكان يسرع عندئذ عائداً الى المدينة ، فيختلط بالجمهور ، ويذهب الى « سوق العلف » ، فيشعر هناك بشيء من الارتياح •

وكان ذات مساء في مطعم حقير فيه غناء ، فبقى يصغى الى الغناء ساعة كاملة ، وقال لنفسه انه مبهيج به ، ولكن قلقه عاد يجتاحه اخر الأمر ، فان شيئاً يشبه عذاب الضمير قد أخذ ينهش قلبه ، وقال لنفسه فجأة : « هأنذا جالس أستمتع لغناء ، فهل هذا هو ما يليق بي أن أفعله ؟ » • على أنه لم يلبث أن أدرك أن مدار قلقه ليس على هذا ، وأن هناك مسألة يجب حلّها بغير ابطاء ، لكنه لا يستطيع أن يعبر عن هذه المسألة بكلام ، أو أن يترجمها بأقوال • كان كل شيء تشابكاً خيوطه كبة غزل : « لا • الصراع أوّل ! بورفير ••• أو سفدريجايلوف ••• لأن أقوم بتحدٍ آخر وهجوم جديد فذلك خير من هذا ••• نعم ، نعم ! » • قال راسكولنيكوف ذلك لنفسه ثم خرج من المطعم وهو يكاد يركض ركضاً • وخطرت بباله دونيا وأمه ، فاذا هو يشعر برعب هائل ، لا تدري لماذا ! وفي تلك الليلة استيقظ قبل الفجر في غابة بجزيرة كرسستوفسكى* مرتعداً من الحمى • فعاد الى بيته قبل طلوع الشمس • وزايلته الحمى بعد نوم بضع ساعات ، ولكنه استيقظ متأخراً • كانت الساعة حين استيقظ ، هي الثانية والنصف بعد الظهر •

فتذكر عندئذ أن دفن كاترين ايفانوفنا كان موعده ذلك اليوم ، فسرّه أنه لم يشهد الدفن • وجاءته ناستاسيا بغدائه ، فأكل وشرب بشهوة كبيرة توشك أن تكون شراهة • وكان ذهنه أنصر ، وكان يحس

أنه أهدأ مما كان فى الأيام السابقة ، وأدهشه أنه عانى ما عانى من رعب شديد مستمر •

وفُتح الباب فى تلك اللحظة ، ودخل رازوميخين •

قال رازوميخين وهو يتناول كرسيًا ويجلس عليه قبالة راسكولنيكوف :

– هه ! انه يأكل • ما هو اذن بالمريض !

كان رازوميخين فى حالة احتياج شديد لا يحاول أن يخفيه • كان يتكلم بلهجة فيها غيظ واضح ، ولكنه لا يتعجل ولا يرفع صوته • لكأنه يبيّن نية لها صفة استثنائية جداً • وبدأ يتكلم بلهجة جازمة فقال :

– اسمع ! لقد أسأتمونى فاذهبوا جميعاً الى جهنم ! ذلك اننى أرى الآن رؤية واضحة وضوح النهار أننى لا أفهم من الأمر شيئاً البتة! ولا يذهبن بك الخيال الى أننى سأحاصرك بالأسئلة • فلقد أصبحت لا أعبا بهذه الأمور كلها! ••• ولست أريد قط أن ••• قد تكشف لى بنفسك عن جميع أسرارك ، فاذا أنا لا أصغى اليها • نعم ، لسوف أبصق استخفافاً ثم أمضى لشأنى ! وانما جئت الآن لهدف واحد هو أن اعرف أولاً بنفسى ، معرفة حاسمة ، أنت مجنون أم لا • ذلك أن هناك أناساً – ليس أمراً هاماً أن نسميهم – مقتنعون بأنك مجنون أو على الأقل بأنك مؤهب لأن تصبح مجنوناً • وانى لأعترف لك بأننى كنت أنا نفسى مستعداً أتم الاستعداد لأن أرى هذا الرأى ، أولاً بسبب أفعالك السيخيفة بل الحسيسية (لا سيما وأنها لا تعليل لها) ، وثانياً بسبب سلوكك الأخير مع أمك وأختك ، فهو سلوك لا يمكن أن يسلكه الا انسان شاذ أو دنىء أو مجنون • فأنت اذن مجنون •

– هل رأيتهما منذ مدة طويلة ؟

- منذ لحظة • وأنت ؟ أنت لم ترهما مرةً أخرى منذ ذلك اليوم ،
 أليس كذلك ؟ فأين كنت تتسكع طوال هذا الوقت ؟ هلاً قلت لي ،
 أرجوك ! لقد جئت الى بيتك ثلاث مرات • وأمك مريضة منذ أمس
 مرضاً شديداً • قررت أن تجيء اليك ، فحاولت آفدوتيا رومانوفنا أن
 تمنعها من ذلك ، لكنها لم تفعلح • قالت : « اذا كان مريضاً ، اذا كان قد
 أصاب عقله اختلال ، فمن ذا ينجده اذا لم تنجده أمه ؟ » • عندئذ جئنا
 معاً ، لأننا لم نشأ أن نتركها وحدها • وفي الطريق ، فعلنا كل شيء في
 سبيل أن نهدئها • ولكننا دخلنا فلم نجدك ! جلست هناك ، ولبثت
 جالسةً عشر دقائق ، وكنا نحن أثناء ذلك الوقت نقف الى جانبها
 لا ننطق بكلمة واحدة • بعدئذ نهضت وقالت : « ما دام يخرج فمعنى
 ذلك أن صحته حسنة ، وأنه نسي أمه • يترتب على هذا أنه لا يلبق بأمه
 بل عاراً عليها أن تقف في عتبة بابه تستجدي ملاطفاته استجداء
 الصدقات ، • وعادت الى بيتها ، ثم لم تلبث أن اضطرت الى ملازمة
 الفراش • وهي الآن تعاني من الحمى ، وتقول : « فهمت ! ان وقته
 لا يتسع لغير حبيبته ••• » • انها تعتقد أن صوفيا سيميونوفنا حبيبتك أو
 خطيبتك أو خليلتك ، لا أدري ! فسرعان ما ذهبت الى بيت صوفيا
 سيميونوفنا ، لأنني كنت أريد أن أقف على حقيقة الحال يا صديقي •
 دخلت على صوفيا سيميونوفنا ، فماذا رأيت ؟ تابوتاً وأولاداً يكون ،
 وصوفيا تجرّب على الأولاد ملابس الحداد • أما روديا فلا وجود له !
 عندئذ نظرت ، واعتذرت ، وخرجت ، ومضيت الى آفدوتيا رومانوفنا
 أروي لها ما شاهدت ! القصة اذن باطلة : لا حبيبة هنالك ولا شيء من
 ذلك ، ولعل كل ما في الأمر أنك مجنون ! ولكن هأنا ذا أراك تلتهم لحم
 بقر مسلوقاً فكأنك لم تذق طعاماً منذ يومين ! صحيح أن المجانين ياكلون
 هم أيضاً ••• ولكن لا ••• ما أنت بمجنون ••• رغم أنك لم تقل لي

كلمة واحدة ! ما أنت بمجنون قط ! اذن ... شيطان يأخذكم جميعاً ..
 فلا بد أن فى الأمر سرّاً ، لا بد أن فى الأمر سرّاً ... وأنا لا أريد أن
 اصدّع رأسى بأسراركم ! اننى لم أجيء الا لأزعجك تخفيفاً عن نفسى ..
 وأنا أعلم ماذا بقى علىّ أن أفعل !

• بهذا ختم رازوميخين كلامه وهو ينهض •

سأله راسكولنيكوف :

– ماذا تنوى أن تفعل ؟

– أأصبح يهكم الآن أن تعرف ما الذى سأفعله ؟

– حذار ! انك تريد أن تقبل على شرب الخمر !

– كيف ... كيف حذرت هذا ؟

– لا يحتاج الأمر الى كبير ذكاء !

بقى رازوميخين صامتاً بعض الوقت ، ثم قال فجأة بحماسة :

– لقد كنت فتى ذكياً حصيف العقل على الدوام • لم تكن مجنوناً

فى يوم من الأيام ! نعم ، كلامك صحيح • سأقبل على شرب الخمر !
 استودعك الله !

قال رازوميخين ذلك واتجه نحو الباب • فقال له راسكولنيكوف :

– كلمت اختى عنك يا رازوميخين ، أمس الأول ، فيما أذكر •

فتوقف رازوميخين فجأة ، حتى لقد اصفر وجهه قليلاً وهو

يسأله :

– عنى أنا ؟ ... ولكن أين عسالك رأيتها ، أمس الأول ؟

• يستطيع المرء أن يدرك أن قلبه قد أخذ يخفق خفقاناً قوياً •

قال راسكولنيكوف :

– جاءت الى هنا ! وجلست في هذا المكان ! وتكلمنا !

– هي ؟

– نعم ، هي !

– ماذا قلت لها ؟ أقصد ماذا قلت لها عنى ؟

– قلت لها انك شاب ممتاز ، شريف ، مجتهد . لم أذكر لها انك

تحبها ، فذلك أمر تعرفه هي .

– تعرفه . . . هي ؟

– طبعاً . . . عليك أن تكون لهما سنداً وحامياً ونصيراً ، أينما

حطت رحالى وكيفما كان حالى ! أقول لك هذا لأننى أعرف مدى

ما تحمله لها من حب ، ولأننى مقتنع بطهارة عواطفك ونقاء مشاعرك .

وانى لأعلم أيضاً أنها ، من جهتها ، يمكن أن تحبك ، هذا اذا لم تكن

قد أحبتك وانتهى الأمر ! والآن قرّر : هل عليك أن تقبل على شرب

الخمير !

– روديا . . . اسمع . . . طيب . . . آه . . . وأنت ، الى أين تريد

أن تذهب ؟ اذا كان ذلك سراً ، فآكتمه ان شئت . ولكننى سأطلع على

السّر آخر الأمر ! آ . . . انى لعلى يقين من أن المسألة لا تعدو أن تكون

سخافةً من السخافات لا تُصدّق ! وأنت قد اخترعت هذا كله ! مهما

يكن من أمر ، فأنت فتى رائع ، أنت أروع الفتيان !

قال راسكولنيكوف :

– ولقد أردت أن أقول لك أيضاً – لولا أنك قاطعتنى – انك كنت

على حق تماماً حين ذهبت الى أنه لا داعى الى محاولة اكتشاف تلك

الأسرار . دع هذا الأمر الآن . بالأمس قال لى أحدهم : ان المرء فى

حاجة الى هواء ، الى هواء ! وأريد الآن أن أذهب الى ذلك الرجل
لأعرف ما الذى كان يعنيه بذلك الكلام !

كان رازوميخين واقفاً يفكر ، وقد عاد يستولى عليه القلق • ثم
قال يحدث نفسه فجأة : « هو متأمر سياسى • لا شك فى ذلك وهو
يوشك أن يقوم بعمل حاسم • نعم ، هذا هو الأمر • لا يمكن أن يكون
الأمر غير هذا • ودونيا تعلم ذلك • » •

وقال وهو يقطع كلماته :

– اذن تجيء اليك آفدوتيا رومانوفنا ، وأنت تريد أن ترى ذلك
الرجل الذى قال لك ان المرء فى حاجة الى هواء ، الى مزيد من الهواء
دائماً ••• معنى ذلك أن لتلك الرسالة علاقة بهذا الأمر •••

بهذه الحملة الأخيرة ختم رازوميخين كلامه على حدة •

سأله راسكولنيكوف :

– أية رسالة ؟

– لقد تلقت اليوم رسالةً أفلقتها كثيراً ، كثيراً جداً • أخذت أتكلم
عك ، فرجتنى أن أسكت • ثم ••• ثم قالت ان من الجائز أن نفترق
قريباً جداً ••• ثم شكرتنى بكثير من الحرارة على أننى ••• لا أدري
ماذا ، وأخيراً مضت الى غرفتها فحبست نفسها فيها •

سأله راسكولنيكوف شارداً الذهن :

– تلقت رسالة ؟

– نعم ، رسالة • ألم تكن تعرف ذلك ؟

وصمت الشابان كلاهما •

– أمستودعك الله يا روديون • أنا يا صاحبي ••• فى وقت من

الأوقات ... ثم ... استودعك الله ! نعم ، في وقت من الأوقات ...
 دعنا من هذا ... استودعك الله ! آن لى أنا أيضاً أن ... لن أشرب .
 ما الداعى الآن ؟

كان متعجلاً ، لكنه ما كاد يترك الغرفة ويغلق وراءه الباب حتى
 فتحه فجأة من جديد ، وقال وهو يلقي نظرة متهرّبةً الى جانب :

— بالمناسبة ... فيما يتعلق بتلك الجريمة ... أنت تعلم حكاية
 بورفير ... ومقتل المرأة العجوز ... ألا تتذكر ؟ ... لقد اكتشفوا
 القاتل ... اعترف القاتل وقدم جميع الأدلة . تصور أنه واحد من
 أولئك الدهانين الذين انبريت أنا من تلقاء نفسى أدافع عنهم ... هل
 تتذكر ؟ وهناك شيء تفصيلي آخر : ان مشهد المشاجرة مع الرفيق ،
 والقهقهات على السلم بينما كان الآخرون يصعدون ، ان ذلك كله انما
 ابتكره القاتل ابتكاراً ليدفع عنه الشبهة ! يا للمكر ! يا للبيهة الحاضرة
 والحيلة البارة ! لا يكاد المرء يصدق ، ولكن الرجل أوضح هو نفسه
 كل شيء ! لقد خدعنى فى أول الأمر عن نفسى ! انه يملك عبقرية المكر
 والحيلة . على كل حال ، هذه أشياء موجودة ، فلا داعى الى الاسراف
 فى الدهشة ! هل مستحيل أن يوجد أفراد من هذا النوع ؟ وأما أنه لم
 يطلق صبراً فاعترف أخيراً ، فذلك أمر أصدقه مزيداً من التصديق . لقد
 خدعنى على كل حال ! تصور كم تحمست لهم ودافعت عنهم !

سأله راسكولنيكوف وقد ظهر عليه اضطراب واضح :

— كيف علمت بذلك ؟ ولماذا يهمك هذا الأمر الى هذا الحد ؟

— لماذا يهمنى هذا الأمر ؟ يا له من سؤال ! ... ان بورفير هو
 الذى أمدنى بهذه المعلومات ! ثم انه هو الذى أطلعنى على كل شيء
 تقريباً .

– بورفير ؟

– نعم ، بورفير *

سأله راسكولنيكوف مرتاعاً :

– ماذا *** ماذا قال لك ؟

– شرح لي الأمر شرحاً رائعاً ، شرحاً « سيكولوجياً » ، على نهجه

في الشرح *

– هو نفسه *** شرح لك ؟

– نعم *** هو نفسه * استودعك الله ! سأقصُّ عليك شيئاً فيما

بعد ، أما الآن فثمة عمل يجب أن أقوم به ، هناك * جاء وقت تصورت

فيه أن *** ولكن ما الداعي الى هذا الكلام ؟ سأقول لك فيما بعد ! ***

ما حاجتي الى السكر الآن ؟ لقد أسكرتني أنت بغير خمر ! نعم ، أنا

سكران يا روديا ، سكران من غير أن أشرب خمرأ * هيأ ، استودعك

الله * سأعود اليك بعد مدة قصيرة *

قال رازوميخين ذلك وخرج * وفيما كان يهبط السلم بخطى بطيئة

كان يحدث نفسه بقوله : « هو متأمر سياسي ، حتماً ، حتماً * ولقد أقحم

أخته في الأمر * ذلك جائز ، بل جائز جداً ، اذا نحن نظرنا بعين الاعتبار

الى طبع آفدوتيا رومانوفنا * هما الآن يلتقيان في مواعيد يضربانها ! ألم

تفهمنى هي نفسها شيئاً من ذلك تلميحاً بكثير من الكلمات الصغيرة

والاشارات والملاحظات * نعم هذا كله يدل على أن تقديري صحيح *

والا فكيف نعلل هذا التعقيد كله ؟ هه *** وأنا ظننت أن *** آه ***

يا رب ! ما أكثر ما تخيلت أيضاً ! نعم ، كان ذلك ضلالاً ، ولقد آثمت

في حقه ! غير أن ذلك خطؤه هو أيضاً * لماذا شوش فكرى ، ذلك

المساء ، فى الدهليز ، تحت المصباح ؟ ها *** يا لها من فكرة دنيئة ،

خبيسة ، تلك الفكرة التي راودتني ! وما أعظم شهامة ذلك الفتى يقول
حين اعترف بكل شيء ! هكذا يتضح الماضي كله دفعةً واحدة : مرض
روديا ، وأطواره الغريبة ، وحتى ما سبق هذه الفترة ، حين كان روديا
ما يزال في الجامعة فكان مظلم النفس ، مكتئب المزاج • ولكن ماذا تعنى
الآن هذه الرسالة ؟ لا بد أن وراءها شيئاً ! من هو مرسلها ؟ أظن أنها
••• هم ••• سأخرج هذا كله الى النور ! » •

ثم تذكر كل ما يتعلق بدونيا ، فأصبح قلبه كالجليد حين تذكر
ذلك • وتخلص من جموده ، وأخذ يمشى مشياً سريعاً يوشك أن يكون
ركضاً •

ما ان خرج رازوميخين حتى نهض راسكولنيكوف ، فاقرب من
النافذة ، ومشى في الغرفة منتقلاً من ركن الى ركن ، كأنما هو قد نسي
أبعادها ••• ثم عاد يجلس على السرير • وكأنه قد تبدل بدلاً تاماً :
عاد الصراع ••• ما يزال هناك اذن مخرج • « نعم ، هذا مخرج يظهر
أخيراً ! » • حقاً لقد كان راسكولنيكوف حتى ذلك الحين محصوراً ،
مخنوقاً ، كأن قدراً قد جثم عليه منذ المشهد الأخير مع نيقولا عند بورفير ،
حتى ان مشهداً آخر قد وقع غداة ذلك المشهد الأول نفسه ، وقع عند
صونيا ولم ينته البتة ، كما لعله تخيّل • ولقد ظهر ضعف
راسكولنيكوف فانهار انهياراً تاماً ، دفعةً واحدة • ألم يعترف عندئذ ،
مع صونيا ، من أعماق قلبه ، أنه أصبح لا يستطيع أن يحيا حاملاً وحده ،
عبثاً كهذا العبء ؟ ••• وسفدريجاييلوف ؟ ان سفدريجاييلوف لغز • ان
سفدريجاييلوف يقلقه أيضاً ، رغم أنه يقلقه من وجهة نظر أخرى
تماماً • لعل هناك صراعاً لا بد من خوضه مع سفدريجاييلوف يمكن أن
يكون مخرجاً كذلك ؟ ولكن بورفير ؟ ذلك شيء آخر ! •••

« ها ••• هكذا اذن ••• بورفير نفسه هو الذي شرح لرازوميخين

اذن كل شيء ! شرح له كل شيء شرحاً « سيكولوجياً » • انه لا يتخلى عن هذه السيكولوجيا اللعينة التي يتسلح بها ! ••• ولكن كيف أمكنه ، هو بورفير ، أن يصدق ، ولو دقيقةً واحدة ، أن يقولوا هو الجاني ، بعد المشهد الذي قام بيننا قبل وصول يقولوا هذا نفسه ، وهو مشهد لا يمكن أن يكون له الا تفسير واحد ؟ » •

كانت ذكرى هذا المشهد الذي وقع بينه وبين بورفير قد عاودته مراراً كثيرة في هذه الأيام الأخيرة ، ولكنها كانت تعاودته تتفاً صغيرة ، فلو رآها كاملةً في جملتها لما استطاع أن يحتملها •

« ان ما قام بيننا من أحاديث ، وما جرى من حركات وإشارات ، وما تبادلناه من نظرات ، وما قلناه من أشياء بلهجة معينة ، ان ذلك كله قد تمَّ على نحو لا يمكن معه أن يكون يقولوا (الذي كشف بورفير عن حقيقته منذ تصريحاته الأولى على كل حال) هو الذي استطاع أن يردّه عن اقتناعه • أضف الى ذلك أن رازوميخين قد أخذت تراوده الشكوك والشبهات ••• معنى ذلك أن مشهد الدهليز تحت المصباح لم يفته تماماً ! وها هو ذا يهرع عندئذ الى منزل بورفير ! ولكن لماذا ضلَّه بورفير على ذلك النحو ؟ ماذا كانت غايته من ذلك ؟ ماذا كان هدفه ؟ لا شك في أنه كان له هدف ، ولكن ماذا كان ذلك الهدف ؟ أية مصلحة له في أن يحوّل شبهات رازوميخين نحو يقولوا ؟ لا شك في أنه كانت له مصلحة ، ولكن ماذا كانت تلك المصلحة ؟ ان زماناً طويلاً قد انقضى بعد ذلك الصباح ، زماناً طويلاً مسرفاً في الطول ، لم نعرف خلاله أيّ أنباء عن بورفير • ان ذلك لا ينبىء بخير ••• » •

تناول راسكولنيكوف قبعته ، وخرج من غرفته غارقاً في أفكاره •
هذه أول مرة يشعر فيها بأنه في حالة طبيعية ، طوال ذلك الزمان •

وقال يحدث نفسه : « يجب الانتهاء من سفدريجايلوف ، مهما كلف الأمر ، وبأقصى سرعة ممكنة . أظن أنه ، هو أيضاً ، يتوقع أن أذهب اليه بنفسى » . وفى تلك اللحظة ، انبجس فى قلبه المعضب كره بلغ من القوة أن راسكولنيكوف كان يمكن فى تلك اللحظة أن يقتل أحد اثنين : سفدريجايلوف أو بورفير . ولقد شعر على كل حال بأنه قادر على أن يفعل ذلك ، ان لم يكن فوراً فبعد حين . فكان يردد قائلاً لنفسه : « سوف نرى ، سوف نرى » .

ولكن ما ان اجتاز الباب المفضى الى فسحة السلم حتى اصطدم ببورفير نفسه . كان بورفير بهم أن يدخل عليه . دُهش دهشة شديدة ، ولكن دهشته لم تدم الا لحظة قصيرة . أمر غريب : انه سرعان ما رأى أن مجيء بورفير اليه أمر طبيعى لا غرابة فيه ، فلم تثر فيه رؤيته أى خوف تقريباً . ارتعش فى البداية رعشة خفيفة ، لكنه لم يلبث أن عاد يسيطر على نفسه . « لعل هذه هى الحاتمة ؟ ولكن لماذا كان يسير بخطى محاذرة كهرة ، ولماذا لم أسمع وقع أقدامه ؟ هل يمكن أن يكون قد تنصت على الباب ؟

صاح بورفير يقول له ضاحكاً :

– لم تكن تتوقع زيارتى يا روديون رومانوفتشس ! لقد كنت انوى أن أجيء اليك منذ مدة طويلة . فلما مررت الآن عرضاً قلت لنفسى : « لماذا لا أصعد اليه ، فأزوره زيارة قصيرة ، مدة خمس دقائق ؟ هل كنت خارجاً ، لا أريد أن أؤخرك عن الخروج . هل لك بسيجارة ؟

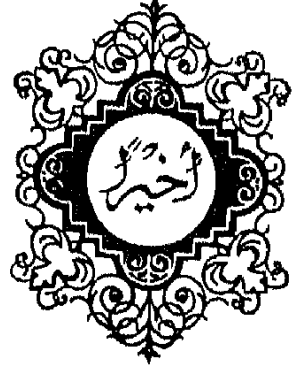
قال راسكولنيكوف وهو يقدم لزائره كرسيّاً ويظهر له من المودة والبشاشة والارتياح ما لو رآه هو نفسه لاستغربه حقاً :

– اجلس يا بورفير بتروفتش !

امّحت مشاعره السابقة دون أن تخلف وراءها أى ظل • انه ليحدث أن يظل أحد الناس فريسة ذعر رهيب ورعب قاتل أمام مجرم من المجرمين قطاع الطرق ، خلال نصف ساعة ، حتى اذا وضع المجرم سكينه على عنقه تبدد خوفه كله دفعةً واحدة •

جلس راسكولنيكوف قبالة بورفير تماماً ، ونظر اليه مجدقاً •
 فطرفت عين بورفير ، وأشعل سيجارة •
 ودّ راسكولنيكوف من أعماق قلبه لو يصرخ قائلاً : « هيا ، تكلم ، تكلم ! ما بالك لا تتكلم ؟ » •

الفصل الثاني



بدأ بورفير كلامه بعد أن أشعل سيجارة ونفخ
من دخانها نفساً ، فقال :

– تبا للسجائر ، انها سم ، سم حقيقي ،
ولكنني لا أستطيع تركها • انني أسعل ،
وأشعر بحكاك في حلقي ، وألهث ، واختنق • واذ أنتى جبان فقد ذهبت
منذ أيام وستشير الدكتور ب ••* الذى يظل يفحص المريض مدة نصف
ساعة على الأقل • فماذا قال الطبيب ؟ سخر منى فى أول الأمر ثم اخذ
يمعن فى جسا وتسمعا وتنصتا ، ثم قال : « أنت يؤذيك التدخين • رثان
متوسعتان » • كلام جميل ! ولكن كيف يمكننى أن أستغنى عن التدخين؟
وبماذا استعويض عنه ؟ اننى لا أشرب خمرآ ، وذلك مصدر البلاء كله •
ان مصدر البلاء كله هو أنتى لا أشرب خمرآ • كل شىء نسبى كما ترى
يا روديون رومانوفتش •

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه مشمئزآ : « أتراه يريد أن
يستأنف شطارته ؟ » • وعادت الى خياله ذكرى لقاتهما الأخير فجأة ،
فازدحمت فى قلبه العواطف التى كان قد شعر بها أثناء ذلك اللقاء •

وتابع بورفير بتروفتش حديثه وهو ما يزال يفتش بنظراته الغرفة:

– ثم اننى قد سبق أن جئت اليك مساء أمس الأول • كيف ؟ أكنت
لا تعرف ذلك ؟ نعم ، جئت الى غرفتك ، الى هنا • فكما حدث لى اليوم ،

كنت ماراً أمام المنزل ، فقلت لنفسي : « ماذا لو زرتة زيارة قصيرة ؟ »
ثم صعدت ، فرأيت الباب مفتوحاً على سعته كلها • ونظرت ، وانتظرت
برهة ، ثم انصرفت دون أن أترك للخادمة اسمي • ألتست تغلق بابك
بالمفتاح أبدأ ؟

اكفهر وجهه راسكولنيكوف مزيداً من الاكفهرار • وبدأ على
بورفير أنه حزر ما يجول في فكره • وتابع كلامه فقال :

— أنا انما جئت لأبرر لك سلوكي يا عزيزي روديون رومانوفتش ،
لأبرر لك سلوكي ! نعم ، ينبغي لي أن أبرر لك سلوكي وأن أعذر عنه!
وتابع يقول وهو يتسم ابتسامة خفيفة :
— ذلك واجب يقع على عاتقي ، ولا بد لي من الوفاء به •

قال ذلك وهو يضرب ركة راسكولنيكوف بيده ضربة تعبر عن
الألفة والمودة • ولكنه اتخذ هيئة الجد والهم في تلك اللحظة نفسها
تقريباً ، وخالط نظرتة شيء من الحزن ، وذلك أمر استغربه
راسكولنيكوف كثيراً ، فانه لم يسبق له في يوم من الأيام أن لاحظ أو
تصور أن يكون لبورفير بتروفتش وجه كهذا الوجه •
وتابع بورفير كلامه :

— لقد وقع بيننا في المرة الأخيرة مشهد غريب يا روديون
رومانوفتش ! صحيح أن مشهداً غريباً قد وقع بيننا في المرة الأولى أيضاً ،
ولكن في ذلك الوقت ••• على كل حال ، لا ضير ! المهم أنك تعدني
في أغلب الظن آثماً جانباً في حقلك • هل تتذكر كيف افترقنا ؟ كانت
أعصابك نائرة جداً وكانت ساقاك تصطكان ••• وأنا أيضاً كانت أعصابي
نائرة جداً وكانت ساقاى تصطكان • الخلاصة أن الأمور جرت بيننا على
نحو يكاد يوصف بقله الأدب ، وكانت تعوزه اللباقة والكياسة على الأقل •

ونحن مع ذلك من الناس المهذبين (الجنّلمان) ، حتى ليتمكن أن أقول
انسا من هؤلاء الناس قبل كل شيء ، وذلك أمر ما ينبغي أن ننساه !
نذكر المدى الذي بلغته الأمور *** لقد كان ذلك أمراً غير لائق البتة ***
يجب أن نعترف بهذه الحقيقة *

تساءل راسكولنيكوف مدهوشاً وهو يرفع رأسه وينظر الى بورفير
محملاً : « ماذا يريد منى ؟ ماذا يظننى ؟ » *

وتابع بورفير كلامه فقال وهو يحوّل رأسه وينفض بصره ، كأنه
لا يريد أن يدخل الاضطراب الى نفس ضحيته القديمة ، وكأنه يكره أن
يستعمل أساليبه العتيقة وشبائه المألوفة :

- أرى أن الأصلح لنا بعد الآن أن نعود الى الصراحة + نعم ، ان
امثال تلك الشبهات وتلك المشاهد لن يمكن أن تتكرر + لقد جاء نيقولا
منذ أيام فوقّق بيننا ، ولولا ذلك لمضت الأمور الى حدود لا أدري مداها !
وما قولك في ذلك البائع الصغير اللعين الذي قبع وراء الحاجز يتنصت ؟
هل تتصور ذلك ؟ لا شك أنك تعرف هذا الأمر التفصيلي ، فأنا أعلم أن
الرجل قد جاء بعدئذ اليك أيضاً + غير أن الشبهات والشكوك التي قامت
في نفسك كانت خطأ في الواقع + فأنا لم استدع أحداً ، ولا اتخذت أى
اجراء + تسألنى لماذا لم أتخذ أى اجراء؟ فماذا أقول لك ؟ ان الأمر كله
كان قد قلب عقلى رأساً على عقب + كل مافعلته هو أنني استدعيت البوابين
(لا شك أنك رأيتهم عابراً) + ان فكرة سريعة كالبرق كانت قد ومضت
في ذهني + ذلك أن اقتناعى يا روديون رومانوفتش كان قد تمّ + وكنت
أقول لى نفسى : « اذا فاتنى أمر فمن الممكن فى مقابل ذلك أن أقبض على
أمر آخر قبضاً كاملاً » + أنت، يا روديون رومانوفتش شديد الاهتياج ،
بل أنت مفرط فى شدة الاهتياج + تلك سمة من سمات خلقك وقلبك
أعتر بأننى أعرفها بعض المعرفة على الأقل + ولقد كنت أدرك طبعاً أن

المرء لا يرى في كل يوم شخصاً يأتي فيفيض اليه بما نفسه دفعة واحدة •
صحيح أن هذا يحدث ، ولا سيما حين يكون ذلك الشخص مرهقاً مهدود
القوى ، ولكن هذه الحالة نادرة • لا ، لم تقننى هذه الحقيقة • لكننى
كنت أقول لنفسى : « لسوف يكفينى مع ذلك أن أعرف واقعة صغيرة ،
صغيرة الى أبعد حدود الصغر ، صغيرة كل الصغر ، على شرط أن تكون
واقعة محسوسة ملموسة تختلف عن تلك الاستنتاجات السيكلوجية !
ذلك أنه اذا كان هذا الرجل جانباً فلا شك أن فى امكاننا أن نتظر منه
شيئاً محسوساً ملموساً • فمن حقنا اذن أن نأمل فى الحصول على نتائج
هى أبعد ما تكون عن التنبؤ ! » • كنت أعود على طبعك يا روديون
رومانوفتش ، على طبعك خاصة • وكنت أعقد عليك آمالاً كباراً !
تمتم راسكولنيكوف أخيراً يسأله حتى دون أن يدرك أنه يلقى
سؤالاً :

– فلماذا تقول لى هذا الكلام كله الآن ؟

ثم تساءل تائهاً فى ظنون وتخمينات : « عمّ يتكلم ؟ هل يمكن أن
يقع فى اعتقاده حقاً أننى برىء ؟ » •
قال بورفير يجيبه عن سؤاله :

– لماذا أقول لك هذا الكلام ؟ انا انما جئت لأبرر لك سلوكى ،
لأقوم بواجب مقدس • سوف أبسط لك جميع تفاصيل ما حدث ، أى
كل قصة الخلاف بيننا جملة • انك قد قاسيت بسببى أشياء كثيرة
يا روديون رومانوفتش • ولكننى لست شيطاناً رجيماً ، وانى لأدرك حق
الادراك مدى الألم الذى لا بد أن يكون قد أحدثه هذا كله فى نفس
انسان مثلك ، انسان ترهقه الحياة ولكنه شديد الكبرياء ، محب للسيطرة ،
نافذ الصبر ••• نعم ••• لا سيما نافذ الصبر ! مهما يكن من أمر ، فأنا

أعدك أعظم انسان ، رغم أنني لا أساطرك جميع ارائك ، وهذا ما أحرص على أن أقوله لك بصراحة تامة ، دون لف أو دوران ، لأننى يهمنى كثيراً أن لا أخدعك وأن لا أغشك . اننى ما ان عرفتك حتى شغفت بك . لعلك ستضحك مما أقوله لك ، ومن حقت أن تضحك . أنا أعلم أنك كرهتني منذ أول نظرة ألقيتها عليّ ، بدون حق فى الواقع . مهما يكن من أمر ، فانى أريد الآن بجميع الوسائل أن أمحو الأثر الأول الذى تركته فى نفسك ، وأن أبرهن لك على أنني ، أنا أيضاً ، انسان يفيض وجداناً وعاطفة . أقول لك هذا بصراحة تامة .

توقف بورفير عن الكلام برهة فى وقار . وشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الخوف تجتاح نفسه . فهو حين يتصور أن بورفير يظنه الآن بريئاً ، يحس فجأة برعب .

وتابع بورفير كلامه فقال :

- ربما لم يكن ثمة داعٍ الى أن أحكى لك كل ما جرى ، بالترتيب ؛ حتى اننى أعتقد أن هذا غير مفيد ، وأنا أعتقد على الأقل أنني لن أفصح فى ذلك . فكيف أشرح لك الأمور شرحاً يبرز ظروف المسألة ؟ فى الأصل سرت شائعات . من أين جاءت تلك الشائعات ؟ ماذا كانت تلك الشائعات ؟ من أى ناحية كانت تعنيك ؟ اننى أعتقد أنه لا داعى أيضاً الى أن أذكر لك ذلك . أما أنا شخصياً فان صدفة هى التى نبهتني ، صدفة طارئة عارضة كان يمكن أن لا تحدث . ما هى تلك الصدفة ؟ أظن أن الأفضل ، هنا أيضاً ، أن ألزم الصمت . ان ذلك كله (أعنى تلك الشائعات ، وتلك المصادفات) قد ساهمت فى تكوين فكرة فى رأسى . أتعرف لك صراحةً - وعلى الانسان أن يكون صريحاً كل الصراحة متى كان يعترف ، أليس كذلك ؟ - أتعرف لك صراحةً بأننى كنت أنا أول

من وضعك موضع الاتهام • ان كتابات العجوز على الأشياء المرهونة وسائر تلك الأمور التي من هذا النوع ، لا قيمة لها البتة وليست تدل على شيء !

وقد أتيت لي أيضاً أن أسمع تفاصيل المشهد الذي وقع في قسم الشرطة ، وكان هذا أيضاً بفضل مصادفة من المصادفات • والشخص الذي روى لي ذلك المشهد لم يكن أي شخص ، وانما كان شاهداً رئيسياً فهم المشهد كله فهماً ممتازاً ، من جهة أخرى • وكان ذلك كله يشبه بعضه بعضاً ويؤيد بعضه بعضاً يا عزيزي روديون رومانوفتش • فكيف لا تقوم في ذهني فكرة ما ، وكيف لا أسير في اتجاه ما ؟ يقول مثل انجليزي :
مائة أرنب لا تصنع حصاناً ، ومائة شبهة لا تصنع برهاناً • هذه هي الحكمة بعينها طبعاً ! ولكن أنى للمرء أن يقاوم الأهواء ! ذلك أن قاضي التحقيق ليس الا انساناً ! ••• وقد تذكرت أيضاً مقالتك الصغيرة تلك التي كنت قد نشرتها في مجلة ، والتي حدثتني عنها تفصيلاً حين زرتني أول مرة • لقد سخرت منك عندئذ ، لكنني فعلت ذلك لأحثك على الادلاء بمزيد من الاعترافات • أعود فأقول انك قليل الصبر شديد الاحتياج يا روديون رومانوفتش • وأنت عدا ذلك كبير الجرأة جانح الاندفاع كثير الجذ • لقد شعرت أنت بأشياء كثيرة ، نعم شعرت بأشياء كثيرة ••• وكنت أنا أقدر ذلك منذ مدة طويلة • انني أعرف جيداً أمثال هذه الاحساسات ، فحين قرأت مقالتك خيل لي أنني سبق لي أن قرأتها • لا شك عندي في أنك في ليالي أرقٍ وحمى ، في ليالٍ كان قلبك فيها يخفق خفقاناً قوياً عنيفاً ويزخر بحماسة كان ينبغي لك مع ذلك أن تلجمها ، انما تصورت تلك المقالة ، أليس كذلك ؟ ولكن من الصعب على المرء أن يلجم حماسة الشباب في نفسه ••• ولئن سخرت من مقالتك عندئذ ، فأنني أستطيع أن أقول لك الآن انني أحببت كثيراً ، (حب هوية والحق يقال) تلك المقالة الأولى النضرة المتأججة التي جرى بها قلمك •

صحيح انها كانت ملائ بدخان ، بضباب ، غير ان وترا كان يهتز في ذلك الضباب وفي ذلك الدخان • وصحيح أنها كانت ملائ بنزوات خيال وتناقضات منطق ، ولكن المرء يحس فيها نبرة الصدق ! صحيح ان فيها نوعا من صلف لا مسوغ له ، ومن تهور يأس مستميت ، وصحيح انها قائمة ، قائمة جداً ، ولكن ذلك كله حسن ••• كنت قد قرأت اذن مقالاتك ، ثم وضعتها جانباً ؛ لكنني حين وضعتها جانباً قلت لنفسى : « ان رجلاً كهذا الرجل لن يكتفى بهذا » • فقل لي من فضلك : كيف كان يمكنني بعد تلك المقدمات أن لا أندفع الى تلك النتائج ؟ أتراني في هذه اللحظة أقول شيئاً يمكن أن ••• ؟ ••• أتراني أؤكد شيئاً ••• انني لم أزد حينذاك على أن سجلت ملاحظات • ما الذي كان يضمه ذلك كله ؟ لا شيء ، لا شيء البتة ، ربما لا شيء قطعاً ! معنى هذا أنني لا أستطيع أن أتباهى بان دفاعاتي وحماساتي تلك ! وهذا يقولوا على ذراعي ، وهذه وقائع ملموسة تناوله ••• انها وقائع رغم كل شيء ، هي وقائع شئت أم أبيت ! وعندئذ كان لا بد لي من العودة الى السيكلوجيا • ذلك انني لا بد لي من الاهتمام به • ان القضية بالنسبة اليه قضية حياة أو موت ، أليس كذلك ؟ ربما سألتني لماذا أشرح لك هذا كله ؟ فاعلم اذن انني انما أشرحه لك من أجل أن تعرف حقيقة الأمر ، ومن أجل أن تبرئني في قرارة نفسك وضميرك فما تحكم عليّ أو تدينني اذ تتذكر ما بدر مني في ذلك اليوم من خبث وشر • هذا عدا أن ما بدر مني لم يكن خبثاً أو شراً ، أوكد لك ذلك • هيء هيء هيء !••• وأنت تقول لنفسك . « لماذا لم ينجيء الى مسكني يفتشه حينذاك ؟ » ، فاعلم أنني جئت ! هيء هيء !••• جئت بينما كنت أنت مريضاً راقداً • ولم أجيء بصفة رسمية ، ولكنني جئت • وفتش بيتك تفتيشاً دقيقاً لم تتج منه أخفى زواياه وأركانها • حدث هذا منذ أولى الشبهات ••• ولكن « دون

* عندئذ قلت لنفسي : « الآن ، سيجيء هذا الرجل ، سيجيء من تلقاء نفسه ، وسيجيء في وقت قريب جداً . اذا كان هو الجاني فلا يمكن أن يجيء . لو كان الجاني شخصاً آخر غيره ، فان ذلك الشخص الآخر قد لا يجيء ، أما هو فلا بد أن يجيء اذا كان جانياً . » هل تتذكر كيف أخذ السيد رازوميخين يطلعك على الأمر ؟ نحن الذين دبّرنا هذا لنبت في نفسك الاضطراب ، ونحن الذين رتبنا الأمور ترتيباً يجعل رازوميخين عاجزاً عن كظم غضبه وكبت استيائه . ذلك أن السيد رازوميخين واحد من أولئك الناس الذين لا يستطيعون أن يكتفوا بغضبهم . أما زامبوتوف فان الشيء الذي فجأة خاصة انما هو غضبك وتهورك . عجب أمرك : كيف يستطيع انسان أن يعول قائلاً في حانة على حين فجأة : « لقد قتلت ! » ؟ حقاً ان في ذلك لاسرافاً . هذا تهور غريب !... وعندئذ قلت لنفسي : « اذا كان مثل هذا الرجل جانياً فلا بد أن يكون خصماً صعب المراس على كل حال » . نعم ، ذلك ما قلته لنفسي حينذاك . وانتظرت . وانتظرتك بكل ما أملك من قوى ، بينما أنت قد جندلت ذلك المسكين زامبوتوف ... والمصيبة كلها انما هي السيكولوجيا اللعينة ذات الحدين . كنت اذن أنتظرك ، فأرسلت الله الى ذات يوم ! لقد جئت ! لشد ما خفق قلبي في ذلك اليوم ؟ ما كانت حاجتك الى المجيء ؟ وذلك الضحك المجلجل الذي كنت تطلقه حين دخلت ، هل تتذكره ؟

ذلك كله كان في نظري واضحاً وضوح الماء النابع من الصخر . لقد حزرت كل شيء ! ولكن لولا أنني انتظرتك وأنا في حالة نفسية خاصة ، لما كان لضحكك في نظري عندئذ أي دلالة . فانظر الى قيمة أن يتوقع المرء شيئاً ! والسيد رازوميخين ، في ذلك اليوم ... آ ... والصخرة التي خُبِئت تحتها الأشياء ! يخيل الى أنني أرى تلك الصخرة ، أراها في مكان ما ، في بستان من البساتين ... أليس عن

بستان انما تحدثت الى زامبيوتوف أولاً ، وعندى بعد ذلك ؟ وحين اخذنا
 نحلل مقالتك ، حين قسمت انت بعرض ما تضمنته تلك المقالة من اراء ،
 فان كل قول من أقوالك كان له معنى مزدوج : فورا كل قول من تلك
 الأقوال كان يختبئ في نظري معنى مضمرا . نعم ، ياروديون رومانوفتش ،
 بهذه الطريقة انما وصلت الى تلك النقطة القصوى ، ولكنني حين وصلت
 الى تلك النقطة القصوى فاصطدم بها رأسى ، كان لا بد أن أثوب الى
 رشدى . قلت لنفسي : « الى أين أنا ذاهب ؟ » . ذلك أننا نستطيع ، اذا
 نحن شئنا ، أن نفسر جميع تلك الأشياء تفسيراً مخالفاً لهذا التفسير كل
 المخالفة ، بل مناقضاً له تمام المناقضة ، ولعل التفسير الجديد أن يكون
 أقرب الى الاحتمال . نعم ، قد يكون أقرب الى الاحتمال ، اننى أعترف
 بذلك . لشد ما تعذبت ! قلت لنفسي : « لا ، لا ، ان أية واقعة تفصيلية
 صغيرة تنفعنى أكثر مما تنفعنى هذه الاستنتاجات كلها ! » . لذلك حين
 سمعت عن تلك القصة ، قصة جرس الباب ، رأيتنى أوشك أن أسقط ،
 وسرت في جسمى رعشة . آ . . . هأنذا أقع أخيراً على الواقعة التفصيلية
 المنشودة ! لم يبق الآن شك في أنه هو الجانى . ولم أحاول عندئذ أن
 أعمل عقلى وأن أفكر . كنت لا أرغب في ذلك أية رغبة . وكنت
 مستعداً لأن أدفع في تلك اللحظة ألف روبل في سبيل أن أراك «بعينى»
 تسير مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، مع ذلك البائع الصغير الذى قذف
 وجهك بذلك اللقب ، لقب القاتل ، فلم تجرؤ طوال تلك الخطوات المائة
 أن تسأله عن أى شئ ! وتلك الرعدات التى كانت تسرى في ظهرك ،
 وذلك الجرس الذى كنت تتكلم عنه أثناء هذيانك ؟ فلماذا تستغرب منى
 بعد هذا ، يا روديون رومانوفتش ، أننى لجأت الى تلك الطريقة التى
 تعرفها ؟ ثم اذا جئت الى ذلك الأوان نفسه ؟ يميناً ان هناك شيئاً
 كان يدفعك المحبب الى دفعاً . . . ولولا أن نيقولا قد قطع حديثنا . . .

هل تتذكر وصول نيقولا؟ آه... كان ذلك أشبه برعد مفاجيء! نعم،
 كان الصاعقة قد نزلت عند قدمي * ولكن كيف استقبلت أنا ذلك؟ لم
 يهزني الرعد... لم تهزني الصاعقة... لا بد أنك لاحظت ذلك *
 وبعد انصرافك، حين أخذ يجيب عن أسئلتى حول عدد من النقاط
 اجابات محكمة متوافقة تبلغ من الاحكام والتوافق أنها أدهشتني حقاً،
 لم أشأ أن أصدق أقواله حينذاك * انظر الى مدى تأثير الفكرة التي تقوم
 في الذهن وتستقر فيه راسخة! قلت لنفسى: «لا، لا، الى صباح غد! *
 ان نيقولا لا شأن له في هذا الأمر كله!» *

قال راسكولنيكوف:

— قال لي رازوميخين منذ قليل ان اتهاكم ينصب الآن على نيقولا،
 وانك اقنعت رازوميخين بأن... *

ولكن راسكولنيكوف لم يستطع أن يتم كلامه، فان انفاسه قد
 اختنقت * كان يشعر بانفعال شديد واضطراب لا يغالب، أثناء اصغائه
 الى حديث هذا الرجل الذي ينفذ الى سريره * وكان يخاف أن يصدق
 ما كان يقوله له هذا الرجل، بل كان يرفض أن يصدقه، ويحاول
 بشراهة قوية ونهم شديد أن يدرك في كلماته معاني محدّدة دقيقة *
 وكأنما أفرح بورفير بتروفتش أن يرى راسكولنيكوف يلقي عليه
 سؤالاً بعد أن ظل صامتاً طوال ذلك الوقت، فصاح يقول:

— السيد رازوميخين! هيء هيء!... ذلك أن المسألة كانت هي
 التخلص من رازوميخين: حيثما يتسع المكان لاثنين، يكن الثالث زائداً!
 رازوميخين شيء آخر، هو غريب عن هذا كله! ثم انه قد جاء الى
 صاحب الوجه شحوباً... ولكن دع السيد رازوميخين جانباً الآن، كان
 الله معه! أما عن نيقولا فهل يهيك أن تعرف أي نوع من الناس هو،

أو كيف أتصوره أنا على الأقل؟ هو قبل كل شيء طفل + انه لما يبلغ سن الرشد + ولست أدعى أنه خوآف جبان على وجه الدقة ، ولكن في وسعى أن أشبهه + + + بفنان ! هو ساذج + أى شيء يؤثر فيه + له قلب رقيق ، وله خيال أيضاً + ولقد تعلم في المدرسة + وهو يحسن الغناء والرقص + ويظهر أنه يجيد رواية قصص يسعى الناس اليه من بعيد ليسمعوها + وهو يضحك في كل مناسبة ، ويظل يشرب حتى يسقط كالميت من فرط السكر + ولكنه لا يشرب لأنه ميال الى السكر ، وانما هو يشرب ليفعل كما يفعل الآخرون الذين يفررون به كما يفررون بطفل، فهم لا يبرحون يصبون له خمراً ! لقد سرق منذ مدة ، ولكنه لم يدرك أنه سرق + قال في تفسير فعله : « تناولت ما كان ملقى على الأرض » فأنا اذن لم أسرق « + هل تعرف معنى « راسكولنيك » ؟ ان نقولاً فتى من هذا القبيل + على كل حال ، كان عدد من أفراد أسرته قد انتسوا الى ملة « الجوّالين » ؛ وهو نفسه كان منذ زمن قصير خاضعاً لسلطان شيخ من المشايخ النسّاك في الأقاليم مدة سنتين + ذلك كله قد عرفته من نقولاً نفسه ومن أهل بلدته زارايسك + أكثر من ذلك أنه كان يريد أن يفرّ الى الصحراء مصرّاً اصراراً شديداً + لقد كان متحمساً للتقى حماساً لا تصدّق ، فكان يقضى ليلته مصلياً متهجداً ، ويقرأ الكتب المقدسة ويعيد قراءتها + + + الكتب القديمة + + + الكتب الحقيقية ! + + + ثم أحدث فيه بطرسبرج تأثيراً رهيباً + أصبح يحب الجنس الضعيف ، بل وأصبح يحب الحمرة بعض الحب أيضاً + واذ أنه شديد التأثر بالبيئة التي تحيط به ، فسرعان ما نسى شيخه + وأنا أعلم أن فناناً رسّاماً قد أخذ يهتم به ، ويعطيه دروساً + ولكن في تلك الآونة ، وقع ذلك الحادث المؤسف + استولى الخوف على الفتى في أول الأمر ، فأراد أن يشنق نفسه أو أن يهرب + ما حيلتنا اذا كان الشعب قد كوّن لنفسه مثل هذه الأفكار عن

قضائنا ؟ ان كلمه « المحكمة » وحدها ترهب وتلقى الذعر فى النفوس •
 ذنب من هذا ؟ أمل أن تستطيع المحاكم الجديدة رد الامور الى نصابها •
 نعم ، أسأل الله أن ••• على كل حال ، فقد وضع نيقولا فى السجن •
 ولا شك أن ذكرى شيخه المحترم المقدس قد عادت الى خياله هناك ،
 ولا شك أن التوراة رجعت تفعل فعلها فى نفسه ! هل تعرف يا روديون
 رومانوفتش مدى ما لفكرة « الألم » من تأثير فى بعض الناس ؟ ان هناك
 أناساً يحبون أن يتألموا لا فى سبيل شخص من الأشخاص فحسب ، وانما
 هم يحبون أن يتألموا وكفى ، لأن على المرء أن يتألم ، وأن يقبل الألم
 ويرتضيه ، لا سيما حين تفرض هذا الألم سلطات • لقد عرفت فى الماضى
 سجيناً موادعاً مسلماً الى أبعد الحدود ، لبث فى السجن سنةً بكاملها يتربع
 فوق المدفأة ليقراً التوراة فى كل ليلة من الليالى ، حتى بلغ من ذلك أنه
 فى ذات يوم من الأيام خلع آجرة على حين فجأة بغير سبب فرمى بها مدير
 السجن دون أن يكون مدير السجن قد استفزّه أى استفزاز • ولكن
 كيف رمى السجين آجرته ؟ لقد رماها بحيث تسقط بعيدة عن هدفها
 مسافة متر على الأقل ، فلا تستطيع أن تجرح الشخص الذى كان يجب
 أن تتجه اليه • وأنت تتخيل ما يحدث لسجين يستعمل العنف مع مدير
 السجن ! لقد ارتضى الرجل أن « يتحمل الألم » ! لذلك أرانى أميل الى
 الاعتقاد بأن نيقولا يستهدف شيئاً من هذا النوع ! بل اننى من ذلك لعلى
 يقين • يكفى أن ندقق فى الوقائع ! ولكن نيقولا لا يعرف أننى أعرف •
 ماذا ؟ أتراك لا تصدق أن من الممكن أن يخرج من شعب كسعبنا أفراد
 خارقون الى هذه الدرجة ؟ أوكد لك مع ذلك أن أمثال هؤلاء الأفراد
 كثيرون • ان تأثير الشيخ فى نيقولا قد عاد يظهر الآن من جديد ،
 لا سيما فى اللحظات التى يتذكر فيها أنه أراد أن يشنق نفسه • على كل
 حال ، سيجب فى قصص على كل شىء هو نفسه ! هل تظن أنه سيصر على

أقواله ؟ لترين أنه متراجع عنها ! نعم ، اننى انتظر ، من لحظة الى أخرى ، أن يتراجع عن اعترافاته الأولى • لقد أخذتني بنيقولا هدا عاطفة ، فعكفت على التعمق فى دراسته • لقد استطاع فى بعض النقاط أن يضيف على أقواله مظهر المعقولة • واضح أنه كان قد فكر فى الأمر • ولكنه فى نقاط أخرى كان يتناقض • انه لا يعرف شيئاً البتة ، بل ولا يدرك أنه لا يعرف ! ••• لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجانى ! نحن ازاء قضية غامضة عجيبة كالحيال • ان هذه الجريمة تحمل طابع الزمان الذى نعيش فيه ، انها تحمل طابع عصر اضطرب فيه القلب الانسانى ، عصر يقول فيه بعضهم ، مستشهداً بأقوال كتاب ومؤلفين ، ان الدم « يطهر » ، عصر لا شأن فيه ولا وزن فيه لغير البحث عن الدعة والسعى الى الرخاء • نحن ازاء حلم يطوف برأس شاب أسكرته الأوهام والأخيلة ، وسمّمته الآراء والنظريات ! ان الجانى قد استجمع للقيام بتجربته قدراً كبيراً من الجسارة ، ولكن جسارته هذه ذات طابع خاص ، حتى لكأنه جاء يرتكب الجريمة لا سائراً على ساقيه • لقد نسى أن يغلق الباب ورائه ، ولكنه قتل ، قتل شخصين ، انقياداً لنظريته • وقد قتل ، لكنه لم يعرف كيف يستولى على المال ؟ وما استطاع أن يحمّله معه ، انما مضى بعد ذلك يدفنه تحت صخرة • ولم يكتف بأشكال القلق والخوف التى كان قد عاناها فى حجرة المدخل بينما كان يسمع قرعاً قوياً على الباب ، وبينما كان الجرس يرن بل تذكر ذلك الجرس بعد ذلك وهو فى حالة تشبه الهذيان ، فرجع الى البيت الحالى ليشعر مرة أخرى بتلك الرعدة الباردة نفسها التى سرت بين كتفيه أول مرة ••• لنسلم بان ذلك نتيجة من نتائج المرض ، غير أن هناك شيئاً آخر : لقد قتل ، ولكنه يعتقد أنه انسان شريف ، وهو يحترق الناس ، ويصطنع دور ملاك من الملائكة!

لا يا روديون رومانوفتش ، ليس نيقولا هو الجاني ، لا يا عزيزي ، ليس هو نيقولا أبداً !

تمتم راسكولنيكوف يسأل بصوت مخنق وقد نفذت قدرته على الاحتمال :

— من *** الذى *** قتل *** اذن ؟ ***

فارتد بطرس بتروفتش الى وراء مستنداً على ظهر كرسيه كأن هذا السؤال قد أذهله ، وقال متظاهراً بأنه لا يصدق أذنيه :

— من قتل ؟ سؤال عجيب *** الذى قتل هو « أنت » يا روديون رومانوفتش ***

ثم كرر يقول بما يشبه الهمس ، ولكن لهجته لهجة المقتنع كل الاقتناع :

— أنت الذى قتلت !

نهض راسكولنيكوف عن الديوان واثباً ، ولبث واقفاً بضع ثوان ، ثم عاد يجلس دون أن يقول كلمة واحدة * وطافت بوجهه حركات تشنجية *

دمدم بورفير بتروفتش يقول بنوع من العطف :

— ها هي ذى شفتك ترتجف كما ارتجفت فى المرة السابقة *

ثم أضاف بعد صمت قصير :

— أحسب أنك لم تفهمنى جيداً يا روديون رومانوفتش ، وذلك هو السبب فى أنك مدهوش الى هذه الدرجة من الدهشة * أنا انما جئت اليك لأقول لك كل شيء ، ولأوضح الأمور توضيحاً كاملاً *

ثأناً راسكولنيكوف يقول كطفل ضُبط متلبساً بالجريم :

ـ ما أنا الذى قتل !

فأجابه بورفير بلهجة رصينة فيها اقتناع :

ـ بل أنت الذى قتلت !

وسكت الاثنان • وأعقب ذلك صمت ، صمت غريب طويل ، دام عشر دقائق على الأقل • كان راسكولنيكوف قد وضع كوعيه على المائدة ، وأخذ يبعثر شعره بأصابعه • وقد ظل بورفير بتروفتش جالساً ، هادئاً ، ينتظر • وفجأة نظر اليه راسكولنيكوف باحتقار •

قال راسكولنيكوف :

ـ تستأنف أساليبك يا بورفير بتروفتش ؟ أتظل تستعمل أساليبك الأبدية هذه ؟ ألا تشعر بملل وسأم من هذا آخر الأمر ؟

أجابه بورفير :

ـ أوه ! لست الآن فى حاجة كبيرة الى أساليب ! لو كان ههنا شهود ، ، لاختلف الأمر طبعاً ، ولكننا نتحدث على انفراد فى خلوة ! أنت نفسك ترى أننى لم أجيء اليك لأنصب لك شباكاً واصطادك كأرنب ! انه ليستوى عندى الآن أن تعترف وأن لا تعترف ! فاقتناعى قائم على كل حال !

سأله راسكولنيكوف غاضباً :

ـ فلماذا جئت اذا كان الأمر كذلك ؟ اننى أطرح عليك هذا السؤال من جديد : اذا كنت ترى أننى أنا الجانى ، فلماذا لا تسجنتى ؟

– هذا سؤال معقول فعلاً ، وسوف أجيبك عنه نقطةً نقطةً ، فأقول
أولاً : انه ليس من مصلحتي أن أعتقلك منذ الآن ***
– كيف لا يكون هذا في مصلحتك ؟ اذا كنت مقتنعاً فيجب عليك
أن ***

– ما قيمة اقتناعي ؟ انه لا يقوم حتى الآن الا على افتراضاتي * ثم فيم
أضعك هنالك « فترتاح » ؟ لو سجتك لأرحتك * انك تعرف الجواب
ما دمت قد ألقيت السؤال * ولنفرض مثلاً أنني واجهتك بالبائع الصغير
فقلت له : « أتراك ما تزال سكران ؟ من ذا الذي رأيته معك ؟ أنا لم
أزد على أن عددتك سكريراً لأنك كنت سكران ! » ، فبماذا يمكنني عندئذ
أن أعترض ؟ لا سيما وأن روايتك ستكون أقرب الى العقل من روايته
هو ، لأن أقواله لن تكون قائمة الا على السيكولوجيا وستكون أنت قد
ضربت على وتر حساس لأن هذا الأبله سكرير مدمن حقاً ، فما من أحد
يجهل ذلك * ومن جهة أخرى ، ألم أعترف لك أنا نفسي ، مراراً ، بأن
هذه السيكولوجيا ذات حدين ، وبأن الحد الثاني أهم من الحد الأول شأناً
وأبلغ خطراً * هذا عدا أنني لا أملك حتى الآن أى دليل وضعى عليك *
طبعاً ، سأمر باعتقالك ؛ ورغم انى ، على خلاف السنن والأصول ،
أعلن لك ذلك ، فأننى على خلاف السنن والأصول أيضاً ، أصرح لك
بأن اعتقالك ليس في مصلحتي * ذلك أولاً ، وأما ثانياً ، فأننى قد جئت
من أجل أن ***

– من أجل ماذا ، ثانياً ؟

كان راسكولنيكوف يلهث * فأجابه بورفير :

– سبق أن قلت لك ! لقد جئت اليك من أجل أن أبرر سلوكي
وأعتذر عنه ! ذلك حق لك على * لا أريد أن تعدني شيطاناً رجيماً ،

لا سيما وأنتى أضمر لك عاطفة طيبة صادقة ، صدقتَ أم لم تصدق !
 ينتج عن ذلك - وهذه هي النقطة الثالثة - اننى جئت اليك لأقترح عليك
 اقتراحاً صريحاً بدون أية فكرة مبيتة : اننى أشجعك على أن تفتقاً هذه
 الدمى ، فتمضى تعترف بأنك أنت الجانى * ذلك أنفع لك ، واجدى
 عليك ، وهو أنفع لى أنا أيضاً ، لأنه يخلصنى من هذا العبء ! ما قولك ؟
 أليس هذا الاقتراح صراحةً منى ؟

فكر راسكولنيكوف دقيقة ، ثم قال :

- اسمع يا بورفير بتروفتش * لقد قلت أنت نفسك ان كل ما تملكه
 من قرائن ضدّى لا يعدو أن يكون استنتاجاً سيكولوجياً ، وأنت مع ذلك
 تتوق الى دليل رياضى * فما الذى يضمن لك أنك لست على خطأ ؟

- لا يا روديون رومانوفتش ، لست على خطأ * أنا أملك الآن
 دليلاً ، دليلاً اهتديت اليه منذ مدة * ان الله هو الذى أرسل الى هذا
 الدليل *

- أى دليل ؟

- لن أقوله لك يا روديون رومانوفتش * ثم اننى أصبحت لا أملك
 حق التأجيل ، فسوف أعتقلك ، ولكن احكم على الأمر بنفسك : أنا الآن
 لا يهمنى القرار الذى قد تتخذه ، ومعنى هذا اننى انما أكلمك فى سبيل
 مصلحتك وحدها * شهد الله يا روديون رومانوفتش أن ذهابك الى
 السلطات للاعتراف بفعاليتك خير لك *

ضحك راسكولنيكوف ساخراً ، ثم قال :

- كلامك ليس مضحكاً فحسب ، بل هو أحمق أيضاً * هبنى أنا

الجانبي (وذلك ما لا أعلنه قط) ففيم أمضى أشى بنفسى لكم وقد قلت لى أنت نفسك ان الإقامة هناك فى السجن هى « الراحة » ؟

- يا روديون رومانوفتش ، لا تسرف فى فهم ما أقوله لك فهماً حرفياً • من الجائز جداً أن لا تكون هى « الراحة » تماماً ! وما هذا الا نظرية خاصة بى ، وهل أنا فى نظرك حجة ؟ • • • ولعلنى أنا نفسى أخفى عنك فى هذه اللحظة شيئاً ما • انك لا تستطيع أن تطمع فى أن تتلقى منى جميع مساراتى وأن تستعملها على هواك ! أما النقطة الثانية ، أعنى الفوائد التى ستجنيها من الاعتراف ، فهى واضحة وضوحاً تاماً فيما أظن • فكّر فى تخفيف العقوبة التى يمكن أن تناله ، فكّر فى هذا التخفيف وحده ! « مع أن شخصاً آخر قد نسب الى نفسه جريمة القتل ، وبلبل القضية كلها • • • » • على كل حال ، فان لك على عهداً أمام الله أننى سوف أعرف كيف ألفت وأدور وأحتال على الأمر بحيث تخرج منه على خير وجه ، حتى دون أن يخطر ببالك ذلك • سوف نخرب كل ذلك الصرح السيكولوجى ، سوف أبدأ جميع الشبهات التى قامت ضدك بحيث تبدو جريمتك نوعاً من الانقياد والغواية ، وهى فى الحق كذلك • أنا رجل شريف يا روديون رومانوفتش ، وسأحقق وعدى وأفى بعهدى •

خفض راسكولنيكوف رأسه • وبعد صمت طويل ، ابتسم من جديد ، ولكن ابتسامته كانت فى هذه المرة رقيقة أسيانة •

قال كمن أصبح لا يحاول أن يخفى شيئاً أمام بورفير :
- لست فى حاجة الى تسامحك !

فهتف بورفير يقول مندفعاً كأنما على غير علم منه :
- ذلك بعينه هو ما كنت أخشاه ! نعم ، أنا انما كنت أخشى أن لا تكون فى حاجة الى تسامحنا !

فألقي عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة نافذة مؤثرة ؟ وتابع بورفير كلامه فقال :

- لا تحتقر الحياة هذا الاحتقار ! ان الحياة ما تزال طويلة أمامك .
كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ كيف لا تحتاج الى التسامح ؟ الا انك
لصعب المراس حقاً !

- ما عسى يكون أمامي بعد الآن ؟

- أمامك الحياة ! أنت نبي ؟ ما أدراك ؟ ابحت تجد ! لعل الله
يتظنك هناك . ولن يكون السجن أبدياً !

قل راسكولنيكوف وهو يتسهم ابتسامة ساخرة :

- سوف يخففون عقوبتي !

- لعل خجلاً بورجوازيماً هو الذى يمنعك ، على غير علم منك ،
من أن تعترف بأنك أنت الفاعل ؟ ولكن عليك أن ترتفع فوق هذا .

دمدم الفتى يقول بلهجة احتقار :

- لست أبالي بهذا كله !

ثم بدا عليه أنه يبههم أن ينهض ، ولكنه عاد يجلس ، وهو ينوء
تحت عبء ألم كبير لا يستطيع اخفائه ! قال بورفير :

- لست تبالي ؟ انك انسان كثير الشك والارتياب ، فأنت تظن أنتى
أحاول أن أتملكك تملقاً فقط ؟ ولكن هل أنت خبرت الحياة هذه الخبرة
الواسعة العميقة كلها ؟ أنت تفهم هذا القدر كله من شؤون الحياة ؟ لقد
تخيّل نظرية وهو يستحى أن يراها تخفق وتسقط ، أو أن يلاحظ على
الأقل أن ما خرج منها وترتب عليها ليس فيه كثير من جودة وأصالة ؟

ألا ان ما خرج من نظريتك لهو أقرب الى السوء فعلاً ! ولكنك لست امرءاً سافلاً ضاع الى الأبد ! انت لست ذلك السافل ، لا ! ولكنك تطرفت فمضيت الى الحد الأقصى على كل حال ! هل تعرف ماذا أعدتلك؟ أنا أعدتلك واحداً من أولئك الناس الذين يؤثرون أن تشخهم الجراح على أن يتحملوا الهوان ، والذين يمكن أن ينظروا الى جلالديهم مبتسمين اذا كانوا قد اهتموا الى ايمان أو اله ! فاهتد الى ايمان واله فتحميا ! انت أولاً فى حاجة الى تبديل الهواء منذ زمن طويل • ان الألم شىء حسن هو أيضاً • فعليك بالألم ! تألم ! من يدرينا أن نيقولا ليس على حق اذ هو ينشد الألم ويبحث عنه ويسعى اليه ؟ انك ربيى - أنا أعرف ذلك - ولكن لا تحاول أن تسرف فى التحليل ، بل استسلم لتيار الحياة دون تفكير ، ودع عنك القلق ، فاذا بتيار الحياة يضعك على الشاطئ ، فتقف على قدميك • لا أدري ما هو الشاطئ الذى سيوصلك اليه التيار ، ولكننى مقتنع بأن أمامك حياة طويلة ستحيها • أنا أعرف أنك تعد أقوالى هذه خطبةً محفوظة على ظهر القلب ، ولكن لعل هذه الأقوال ستنتفعك حين ستذكرها فى المستقبل ، وذلك أيضاً سبب من الأسباب التى تهضنى على مخاطبتك • من حسن الحظ على كل حال أنك لم تقتل الا عجوزاً شماء شريرة • فلو أنك وضعت نظرية أخرى لكان يمكن أن ترتكب عملاً أسوأ من هذا مائة مليون مرة • لذلك ربما كان عليك أن تحمد الله وأن تشكره ! وربما كان الله ، على كل حال ، يدخر لك لشيء ما ، من يدريك ! فارتفع بقلبك ، وارتق بعواطفك ، ولا تكن صغيراً جباناً ! هل العمل العظيم الذى يجب القيام به هو الذى يخيفك حقاً ! لا ، لا ! عارٌ أن تخاف من هذا ! لقد خطوت ، فحذار أن تتراجع ! لا تعدو المسألة هنا أن تكون مسألة عدل • فافعل ما يوجبه العدل • أنا أعلم أنك لا تصدقنى ، ولكن شهد الله أن الحياة هى التى

ستتصر ، وأنت سوف تعود تحب الحياة أنت نفسك بعد ذلك • اما الآن
فأنت لست فى حاجة الا الى هواء ، الا الى هواء !•••

سرت فى جسم راسكولنيكوف رعدة • وهتف يقول :

- ولكن من أنت ، من أنت حتى تتخذ هذه الأوضاع التى هى
أوضاع نبى ! من علياء أية ذرى هادئة تلقى الى بهذه المواعظ والحكم
والعبر المزعومة ؟

- من أنا ؟ أنا انسان محدود ، لا أكثر من ذلك • انسان لعله
حساس ولعله قادر على أن يتعاطف مع الآخرين ، ولعله يعرف بعض
الأشياء ، ولكن ذلك كله لا يمنع أنه محدود • أما أنت فشأنك شأن
آخر : ان الله قد هياك حياة حقة (ولكن من يدري ؟ لعل ذلك أن
لا يكون الا ناراً كئنا الهشيم ما تلبث أن تنطفىء !) فما خوفك من التغير
الذى سيطراً على حياتك ؟ هل يأسف على حياة الدعة والرخاء انسان
له قلب كقلبك ؟ ماذا ؟ هل يضجرك كثيراً أن تظل مدة طويلة لا يراك
أحد ؟ ان الأمر ليس مرهوناً بالزمان ، بل هو مرهون بك • كن شمساً
فيراك جميع الناس • ليس على الشمس الا أن توجد ، الا أن تكون عين
ذاتها ! ما الذى يجعلك تبسّم ؟ هل الذى يحملك على الابتسام أنك
تجدنى شاعراً ؟ يميناً أنك لتظن أننى أمكر وأراوغ وأننى أريد استدراج
ثقتك ! وربما كنت على حق ، هىء هىء ! أنا لا أسألك أن تصدق كلامى
يا روديون رومانوفتش ! ولعلك تحسن صنعا إذا أنت لم تصدق كلامى
تصديقاً كاملاً فى يوم من الأيام • ان من عادتى أن لا أكون صادقاً صدقاً
تاماً ، أعترف بهذا ! ومع ذلك ، اليك ما أريد أن أضيفه : سوف
تُريك الأحداث أنّا انسان شرير أم أنا انسان مستقيم شريف •
- فى نيتك أن تعتقلنى متى ؟

– أستطيع أن أدعك طليقاً مدة يوم آخر أو يومين آخرين •
ففكّر يا صديقي ، وادع الله • هذا من مصلحتك • أقسم لك على انه من
مصلحتك •••

سأله راسكولنيكوف وهو يتسم ابتسامة غريبة :

– فماذا لو هربت ؟

– ، لن تهرب ! قد يهرب فلاح ، وقد يهرب واحد من اشياح
النظريات الرائجة في هذا الزمان ، لأنه امرؤ يمكن أن يغرّسوا فيه
عقيدتهم الى الأبد ؛ أما أنت فلا ، لأنك أصبحت لا تؤمن بنظريتك •
فعلام عساك تهرب ؟ ما هي الفائدة التي يمكن أن تجنيها من الهرب ؟
ما أظن وما آلم الحياة التي يحيها هارب ! فلرء اذا أراد أن يحيا ، لا بد
له من وضع مستقر ، ومركز محدد ، ولا بد له من هواء يستطيع أن
يستشقه ! لتعودنّ ثانية اذا أنت هربت ! « انك لا تستطيع أن تستغنى
عنا » • اذا أودعتك في السجن مدة شهر أو شهرين مثلاً ، فلسوف
تجىء في ذات يوم فجأة فتعترف • لسوف تندفع الى هذا على غير علم منك
تقريباً • تذكر هذا الكلام الذي أقوله لك • بل اننى لعلى يقين من أنك
سوف تعزم أمرك على التكفير • أنت لا تصدقنى الآن • ولكنك سوف
تجىء ، لأن الألم شيء عظيم يا روديون رومانوفتش • لا يُدهشك
أن تسمعنى أتكلم هذه اللغة أنا الرجل الذى أسمنته دعة العيش • اننى
أقول الحق فلا تسخر ! هذه فكرة عميقة أقولها الآن ! ان يقولوا على حق •
لا ، لن تهرب يا روديون رومانوفتش !

نهض راسكولنيكوف وتناول قبعته • ففعل بورفير بتروفتش مثل

ذلك •

– هل تريد أن تقوم بجولة ؟ ان المساء يبشر بليلة جميلة ، اذا لم

تهب عاصفة *** على كل حال ربما كان ذلك أفضل ، فان الهواء سيزداد
بهذا طراوة ***

قال راسكولنيكوف بلهجة جافة متعجلة :

– لا يذهبن بك الظن الى أننى أدليت لك اليوم باعترافات • انت
انسان غريب ، وأنا لم أصنع اليك الا من باب الفضول ، لكننى لم اعترف
لك بشيء • تذكر هذا !

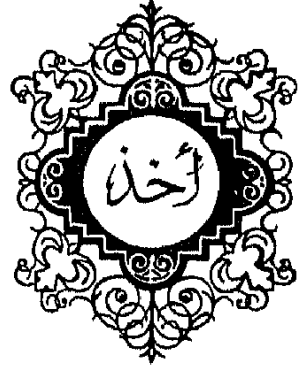
– طيب طيب *** دعك من هذا الكلام *** هذه أمور معروفة ***
لا ، لن أنسى ! انظروا كم يرتعش ! لا تقلق يا عزيزى • سنلتزم
رغبتك • تنزه قليلاً ، ولكن دون أن تتخطى بعض الحدود •

قال بورفير ذلك ثم أضاف خافضاً صوته :

– بالمناسبة : هناك رجاء أخير أود أن أتوجه به اليك • هو رجاء
حرج بعض الشيء ، ولكن لا بأس : اذا اتفق (وهذا احتمال ضعيف ،
لأننى لا أصدّق أنك قد تعمد الى ذلك المخرج) ، أقول اذا اتفق فى
غضون الساعات الثمانى والأربعين أو الخمسين أن تختم الأمر على نحو
آخر ، أقصد على نحو خارق ، أقصد أن تحاول الانتحار (لا تؤاخذنى
على هذا الافتراض السخيف) فأرجوك أن تترك لنا كلمة موجزة ، لكنها
واضحة : سطرين ، لا أكثر من سطرين ، لا أكثر من سطرين ، تقول
لنا فيهما أين توجد الصخرة • ذلك أنبل ••• هيا ••• الى اللقاء •••
أسأل الله أن يلهمك الصواب !

قال بورفير ذلك وانسحب حائياً رأسه ، متحاشياً أن ينظر الى
الفتى • فاقترب راسكولنيكوف من النافذة وانتظر ، بصبر نافذ ، اللحظة
التي يقدر أن قاضى التحقيق يكون قد ابتعد فيها عن المنزل ابتعاداً كافياً •
ثم غادر الغرفة مسرعاً •

الفصل الثالث



يبحث عن سفدريجاييلوف متعجلاً * انه يجهل
هو نفسه ماذا كان ينتظر من هذا الرجل * غير
أن هذا الرجل كان له عليه نوع من سلطان *
ومنذ أدرك راسكولنيكوف ذلك أصبح لا يجد

الى الهدوء سيلاً ، وقد آن له أن يخرج كل شيء الى الضوء !
وفيما كان يسير ، كان يعدّبه خاصة هذا السؤال : هل ذهب
سفدريجاييلوف الى بورفير ؟

ولكن راسكولنيكوف كان يجيب عن هذا السؤال بقوله : اذا صدق
ظني ، فان سفدريجاييلوف لم يذهب الى بورفير بل اننى لمستعد أن أقطع
يدى اذا كان سفدريجاييلوف قد ذهب الى بورفير * وفكّر راسكولنيكوف
مزيداً من التفكير ، واستعرض بخيال زيارة بورفير من جديد ، فأنتهى
الى هذه النتيجة : لا ، لم يذهب اليه ، لم يذهب اليه قطعاً !

ولكن اذا كان سفدريجاييلوف لم يذهب الى بورفير حتى الآن ،
فهل سينذهب اليه ، أم هو لن يذهب ؟

وبدا لراسكولنيكوف أن سفدريجاييلوف لن يقوم بهذه الزيارة ،
فى هذه الفترة على الأقل * لماذا ؟ ما كان لراسكولنيكوف أن يستطيع
معرفة الأسباب التى تحمله على هذا الظن ، وهبه استطاع معرفتها ، هبه

فادراً على تفسير كل شيء ، فما كان له أن يصدّع رأسه منقباً عنها •
 صحيح أن ذلك كان يعذبه ، ولكن ذلك كان فى الوقت نفسه ايسر
 همومه • شيء غريب ، لا يكاد يصدّق : ان مصيره الراهن ، المباشر ،
 كان لا يهمله الا قليلاً ، وكان هو لا يفكر فيه الا ذاهلاً • أمّا ما كان يعذّبه
 حقاً فهو شيء آخر ، شيء أخطر شأنًا ، شيء خارق ، يخصه هو ولا
 يخص أحداً سواه • وكان الى ذلك يحس بتعب روحى لا نهاية له ،
 رغم أن دماغه كان فى ذلك الصباح يعمل خيراً مما كان يعمل فى الأيام
 السابقة •

ثم هل يستحق الأمر ، بعد كل ما حدث ، عناء السعى الى التغلب
 على المصاعب السخيفة وتذليل العقبات الكثيرة التى لن تلبث أن تظهر فى
 طريقه من جديد ؟ هل من اللازم مثلاً أن يحتال فى سبيل أن لا يذهب
 سفدرىجايلوف الى بورفير ؟ هل من الضرورى أخيراً أن يضيع وقته فى
 دراسة رجل اسمه سفدرىجايلوف والمداورة والمخاطلة معه ؟

آه ••• ما كان أشد سأمه وضجره وملله من هذا كله !•••

ومع ذلك كان يبحث الخطى سعياً الى سفدرىجايلوف • أليس معنى
 هذا أنه كان ينتظر منه شيئاً جديداً ، أنه كان ينتظر منه توجيهات ، أنه
 كان ينتظر منه مخرجاً ؟ ان الغريق يتشبث أحياناً بقشة ! ألم يكن القدر
 هو الذى يجمع بينهما ؟ أم أن غريزة خفية هى التى تقرّب أحدهما من
 الآخر ؟ أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون اعياءً وسأمًا ويأساً ؟ أم لعله
 كان فى حاجة لا الى سفدرىجايلوف ، بل الى شخص آخر ؟ الى صونيا ؟
 ولكن لماذا عساه يذهب فى هذه اللحظة الى صونيا ؟ ليستدر دموعها ؟ ثم
 ان صونيا ترعبه : ان صونيا تمثل الحكم المبرم الذى لا رادّ له ، والقرار
 الحاسم الذى لا رجعة عنه • لقد كان على راسكولنيكوف أن يختار : فاما

أن يتبع طريقه هو واما أن يتبع الطريق الذي دلته عليه صونيا • لا ، لا ، لا ، انه في هذه اللحظة خاصة لا يحس انه قادر على أن يرى صونيا • أفليس الأفضل أن يجربّ حظه مع سفدريجاييلوف ؟ ولم لا ؟ ثم انه لا يستطيع أن يمتنع عن الاعتراف ، في قرارة نفسه ، أن سفدريجاييلوف قد أصبح ، منذ مدة طويلة ، ضرورة له ، بمعنى من المعاني •

ولكن الأمر غريب حقاً : ماذا يجمع بين الرجلين ؟ ماذا فيهما من شبه ؟ حتى دناءتهما ليست من طبيعة واحدة • ثم ان في ذلك الرجل شيئاً كريهاً منفراً الى أبعد الحدود : لا شك أبدأ في أنه فاجر عاهر فاسق ، ولا شك أبدأ في أنه مراوغ مخاتل ماكر ، بل ربما كان كذلك شريراً الى أبعد حدود الشر ! ••• صحيح أنه يعتنى الآن اعتناءً شيطانياً بأولاد كاترين ايفانوفنا ، ولكن من ذا الذي يعرف الأغراض التي يهدف اليها من وراء ذلك ؟ ان لهذا الرجل دائماً نيات خفية !

هناك فكرة أخرى كانت ما تنفك تعذب راسكولنيكوف وتحاصره منذ بضعة أيام ، رغم أنه حاول أن يطردها من شدة ما كانت تؤلمه • كان يقول لنفسه : « ان سفدريجاييلوف لا يبرح يدور حولي ، وهو يدور حولي حتى في هذه اللحظة • لقد اكتشف سفدريجاييلوف سرى • وانه يبيّت نيات لدونيا • ألا يزال يبيّت لها هذه النيات ؟ ان المرء ليكاد يجب عن هذا السؤال بكلمة « نعم » على وجه اليقين • فماذا لو أراد سفدريجاييلوف ، بعد أن عرف سرّي وأصبح له سلطان علىّ ، ماذا لو أراد أن يستعمل هذا سلاحاً ضد دونيا ؟

كانت هذه الفكرة تعذبه حتى في نومه ، ولكنها لم تعرض له بهذا الوضوح الصارخ في يوم من الأيام مثلما تعرض له الآن أثناء ذهابه الى

سفدرىجاييلوف ، فتثير فيه غضباً شديداً قائماً • هى أولاً تغير وضعه :
ان عليه الآن أن يكشف عن سرّه لدونيا ؛ وربما كان عليه أن يبادر الى
تسليم نفسه ليمنع دونيا من القيام بأى خطوة ليس فيها تعقل ! الرسالة !
ان دونيا قد تلقت رسالةً فى هذا الصباح نفسه • فمن ذا الذى يمكن ان
يكتب اليها من بطرسبرج ؟ (أهو لوجين حقاً ؟) • صحيح أن رازوميخين
يحرسها ، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئاً • فهل يجب عليه
أن يفضى بالحقيقة الى رازوميخين أيضاً ؟ ربما كان يجب عليه أن يفعل !
وشعر راسكولنيكوف باشمئزاز حين خطرت بباله هذه الفكرة • وقال
يحدث نفسه جازماً : « على كل حال ، يجب أن أرى سفدرىجاييلوف
بأقصى سرعة ممكنة • الحمد لله على أن التفاصيل هنا أقل شأنًا وأهون
خطرًا من جوهر القضية • ولكن ماذا لو كان فى وسع سفدرىجاييلوف
أن يفعل شيئاً ، أن يتأمر على دونيا ؟ فى هذه الحالة • • • » •

كان راسكولنيكوف قد بلغ من التعب فى أعقاب ذلك الشهر الطويل
من المعارك والانفعالات أنه أصبح لا يشعر بالقدرة على حل مثل هذه
المشكلات ، والاجابة عن مثل هذه الاسئلة ، اللهم الا بكلمات باردة
يأتسده كهذه : « فى هذه الحالة ، سأقتله ! » •

ان شعوراً ثقيلاً كان يبحم على صدره ويرهقه من أمره • وقف
فى وسط الشارع ، وأجال بصره فيما حوله • أىّ طريق سلك ؟ أين
هو الآن ؟ كان فى شارع س • • • على مسافة ثلاثين أو أربعين خطوة من
« سوق العلف » التى تجاوزها منذ قليل • ان الطابق الأول من مبنى
يقع على يساره ، هو حانة كله • جميع النوافذ مفتوحة على مصاريبها •
ومن كثرة الوجوه التى ترى عند النوافذ ، يقدّر المرء أن الحانة مملأى
بالناس • وهذه أصوات أغانٍ تصل من القاعة ، وأصوات زمارة وكمان
وطبل ، وصرخاتٌ حادة تنطلق من حناجر نساء •

همّ راسكولنيكوف أن يعود أدراجه وهو يتساءل ما اندى جاء به الى هذا المكان ، ما الذى اوصله الى شارع س . . . ! ولكنه ما ان همّ أن يقفل راجعا حتى لمح سفدريجاييلوف عند احدى نوافذ الحانة ، جالسا الى مائدة صغيرة وجليونه بين اسنانه . ان الدهشة التى احسها راسكولنيكوف عندئذ لا تخلو من نوع من الرعب . كان سفدريجاييلوف يراقبه ويتفحصه صامتا ، وكان يبدو عليه انه يريد أن ينهض ، كانه يحاول أن يتوازي قبل أن يرى ، وذلك أمر فجا راسكولنيكوف ايضا . وسرعان ما تظاهر راسكولنيكوف بأنه لا يراه ، وأخذ ينظر الى الجهة الأخرى واجما مفكرا ، مع استمراره فى النظر اليه ، بطرف عينه طبعاً . كان قلبه يخفق قلقاً واضطراباً . الأمر كذلك حقاً : واضح أن سفدريجاييلوف لا يريد أن يرى . لقد نزع غليونه من فمه ، وحاول أن يختبئ ، ولكنه حين أبعد كرسيه لينهض قد أدرك ولا شك أن راسكولنيكوف رآه ، وانه يراقبه ويرصده . عندئذ جرى بين الرجلين مشهد يشبه كثيراً المشهد الذى جرى بينهما عند أول لقاء لهما فى بيت راسكولنيكوف ، حين تظاهر راسكولنيكوف بأنه نائم . هذه ابتسامة ماكرة تظهر على شفתי سفدريجاييلوف وما تنفك تتضح . ان كلاهما يعرف أن الآخر يتجسس عليه . وانطلق سفدريجاييلوف يضحك ضحكة صاخبة آخر الأمر ، ثم يقول له من على نافذته :

— هيا ادخل ، ادخل اذا شئت ! أنا هنا !

صعد راسكولنيكوف الى الحانة . فوجد سفدريجاييلوف فى حجرة ضيقة جداً ، عند احدى النوافذ ، قرب قاعة كبرى يتحلق فيها حول ما يقرب من عشرين مائدة ، باعة وموظفون وأناس من كل نوع يحتسون الشاي وسط صخب رهيب يحدثه المغنون الزاعقون بصوت واحد . وعلى مائدة سفدريجاييلوف كانت توجد زجاجة شمبانيا وكأس نصف

ملأى * وكان في هذه الحجرة الصغيرة صبي يحمل آلة موسيقية هي أرغن بارباريا ، وفتاة سمينة في نحو الثانية عشرة من عمرها حمراء الحدين ربلة الوجنتين ترتدى تنورة مخططة مشمورة ، وتضع على رأسها قبعة تيرولية (نسبةً الى جبال التيرول) مزدانةً بأشرطة ، ويصدح صوتها الأبح بأغنية عامية مبتذلة ، رغم صخب غناء الجوقة في القاعة المجاورة * وكان الصبي يرافق غناءها بالعزف على أرغن بارباريا * * * *

قال سفدريجاييلوف يقاطع العزف والغناء منذ دخل واسكولنيكوف:

– هيا * * * كفى! * * *

فتوقفت الفتاة عن الغناء فوراً ، واتخذت وضع الاحترام ؛ وكان وجهها ، منذ قليل ، حين كانت تغنى سخافات المسجوعة ، يعبر عن هذا الاحترام نفسه على كل حال *

نادى سفدريجاييلوف :

– هيه ! فيليب ! هات كأساً !

فقال واسكولنيكوف :

– لن أشرب خمرأ *

– كما تشاء * ولست أنادى فيليب من أجلك أنت * اشربى

يا كاتيا * لم أعد في حاجة اليك اليوم * تستطيعين أن تنصرفي *

قال لها ذلك وقد صبَّ لها كأساً من خمر ووضع على المائدة ورقة نقدية بروبيل * فأفرغت كاتيا الكأس بعشرين جرعة صغيرة متتالية دون أن تفصل شفيتها عن الكأس ، كما تشرب النساء * ثم تناولت الورقة النقدية ، وقبّلت يد سفدريجاييلوف الذي سمح لها أن تقبّل يده

وهو يُظهر أكبر الجدد ، وخرجت يتبعها الصبي جاراً أرغنه . كان الصبي والفتاة قد جىء بهما كليهما من الشارع . ان سفدرياجيلوف ما كاد يقضى فى بطرسبرج هذه الأيام الثمانية حتى كان قد أحاط نفسه بهذا الجو من الصحة والألفة والسيطرة . ان فيلب خادم القاعة هو أيضاً « صديق » حميم ، يُظهر لصاحبه أكبر الطاعة وأعظم المذلة . وباب الحجرة يُقفل بالمفتاح ، فاذا كان سفدرياجيلوف فيها فكأنه فى بيته . ولعله كان يقضى فى هذه الحجرة أياماً بكاملها . أما الحانة القذرة الرثة فلا يمكن أن توصف حتى بأنها حانة من الدرجة الثانية .

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

– كنت ذاهباً اليك ، كنت أبحث عنك . ولكنى لا أدرى ما الذى جعلنى أدور فجأة الى شارع س قادمًا من « سوق العلف » . اننى لا أمر أبداً من هنا . وانما أنا انعطفت دائماً الى يمين « السوق » . فما ان دوت الى هذه الجهة حتى لمحتك ! شىء غريب !

– لماذا لا تقول انها معجزة ؟

– لأن من الجائز أن لا تكون الا مصادفة !

قال سفدرياجيلوف وهو ينفجر ضاحكاً:

– غريب تفكير هؤلاء الناس ! مهما يكونوا مقتنعين بوجود المعجزات فانهم لا يعترفون بذلك ! أنت نفسك تقول ان « من الجائز » أن لا تكون الا مصادفة ! آه ما أجبنهم جميعاً ازاء اعتقاداتهم نفسها ! لا تستطيع أن تتخيل يا روديون رومانوفتش لست أقصدك أنت فأنت لك آراؤك الشخصية ، وأنت لا تهاب أن يكون لك آراء شخصية . حتى انك بهذا نفسه انما أثرت اهتمامى وأيقظت فضولى .

- بهذا وحده ؟

- هو كافٍ جداً !

كان واضحاً ان سفدريجايلوف مهتاج بعض الاهتياج ، ولكن
اهتياجه لم يكن شديداً جداً : انه لم يشرب الا نصف كأس من خمر .

قال راسكولنيكوف :

- يخيل اليّ أنك جئت تزورني حتى قبل أن تعرف هل يمكن أن
يكون لي ما تسميه رأياً شخصياً .

- آ . . . نعم . . . حينذاك كان الأمر غير هذا تماماً ! لكل امرئ
طريقته في التصرف . أما عن المعجزة فأقول لك : لا بد أنك كنت نائماً
في هذين اليومين أو في هذه الأيام الثلاثة ! لقد حدثت لك أنا نفسي
هذه الحادثة ، فاذا جئت اليها الآن رأساً فليس في الأمر اذن أية معجزة .
لقد وصفت لك الطريق الذي يجب أن تسلكه ، وذكرت لك الساعات
التي تستطيع أن تجدني فيها . ألا تتذكر ؟

أجاب راسكولنيكوف مدهوشاً :

- نسيت !

- أصدّقك . ولكنني ذكرت لك ذلك مرتين . فلا بد أن العنوان
قد انطبع في ذاكرتك على نحو آلي ، فاذا أنت تدور سالكاً هذا الطريق
على نحو آلي أيضاً ، دون علم منك . مهما يكن من أمر ، فاني حين
كنت أكلمك في ذلك اليوم ، لم أعتقد أبداً أنك كنت تفهم عني . انك
لا تراقب نفسك مراقبة كافية يا روديون رومانوفتش . على انني أعرف
أن كثيراً من الناس يكلمون أنفسهم بصوت عالٍ أثناء سيرهم . هذه
مدينة سكانها أنصاف مجانين . لو كان عندنا معارف علمية لاستطاع

الأطباء ورجال القضاء والفلاسفة أن يجمعوا عن بطرسبرج ملاحظات
 ثمينة ، كل في ميدان اختصاصه • يصعب أن يجد المرء مدينة أخرى
 تضاهيها فيما نلاحظ فيها من تأثير النفس الانسانية بمؤثرات غامضة مظلمة
 حادة غريبة الى هذا الحد • أيكون مرد هذا الى مناخها ؟ ولكن لما كانت
 هي المركز الادارى فلا بد أن ينعكس طابعها على مجموع البلاد • على أن
 هذا ليس ما يهمنى الآن • وانما أردت أن أقول لك اننى قد سبق أن
 راقبتك أكثر من مرة • فأنت حين تخرج من بيتك تخرج على الرأس
 فما ان تسر عشرين خطوة حتى تخفض رأسك وتعد ذراعيك وراء
 ظهرك ؟ وأنت حينئذ تنظر ، لكنك لا ترى ما أمامك ولا ما حولك ، ثم
 تأخذ تحرك شفتيك وتكلم نفسك ؟ بل يتفق لك أحياناً أن تحرك
 يديك بإشارات شتى أثناء حديثك مع نفسك ؟ ثم اذا أنت تقف فجأة في
 وسط الشارع ، وتلبث هنالك مدة طويلة • هذا غير مستحسن أبداً •
 فربما كان هنالك أناس غيرى يلاحظونك ويراقبونك ، وأنت بهذا تسيء
 الى نفسك وتعرض للخطر • أقول لك ذلك بصراحة • صحيح أن الأمر
 لا يهمنى ، واننى لست من سيشفيك ، ولكن لعلك تفهم عنى ••

سأله راسكولنيكوف وهو ينظر اليه مستطلعاً :

- أتعرف أنهم يلاحقوننى ؟

قال راسكولنيكوف مدهوشاً :

- لا ، لم أكن أعرف ذلك !

دمدم راسكولنيكوف مقطباً حاجبيه :

- فلا نتحدثن° بعد الآن عنى !

- طيب ! لا نتحدثن° بعد الآن عنك !

- قل لي : اذا كنت تجيء الى هنا لتشرب ، واذا كنت قد حددت لي هذا المكان مرتين لأوافيك فيه ، فلماذا اختبأت عني منذ قليل حين نظرتُ اليك من الشارع حتى لقد أردتَ أن تنصرف ؟ لقد لاحظتُ أنا ذلك واضحاً كل الوضوح •

- هيء هي ! بل قل لي أنت : لماذا ، في ذلك اليوم ، بينما كنت أنا واقفاً على عتبة الباب ، ظلمت أنت راقداً على سريرك ، مغمضاً عينيك ، متظاهراً بالنوم ، مع أنك لم تكن نائماً البتة ؟ لقد لاحظتُ أنا ذلك واضحاً كل الوضوح !

- لعل هناك أسباباً ••• تدعوني الى ذلك ، وأنت نفسك تعرف هذا •

- ولعل هناك أسباباً تدعوني أنا أيضاً ، رغم أنك لا تعرف ما هي تلك الأسباب •

وضع راسكولنيكوف كوعه الأيمن على المائدة ، وأسند ذقنه الى يده اليمنى ، وحدّق الى سفدريجاييلوف ، وظل دقيقةً طويلةً يتأمل هذا الوجه الذي ما انفك يبحّره • انه وجه غريب يشبه أن يكون قناعاً : هو وجه أبيض ، أحمر ، له شفتان قرمزيتان ولحية حمراء وشعر أشقر غزير ؛ والعينان زرقاوان جداً ، والنظرة ثقيلة مسرفة في الثقل ، ثابتة مسرفة في الثبات • ان في هذا الوجه الوسيم الذي ظل شاباً نضراً رغم السنين ، شيئاً منفرّاً الى أبعد الحدود • وكان سفدريجاييلوف يرتدى بدلة صيفية أنيقة من نسيج خفيف ، ويتميز خاصةً بقميصه الناصع البياض • وكانت إحدى اصابعه يتلألأ فيها خاتم كبير مرصّع بحجر ثمين •

قال راسكولنيكوف فجأة يمضي الى هدفه رأساً وقد نفذ صبره :

- هل عليّ حقاً أن أتحمّلك أنت أيضاً ؟ لعلك أنت أخطر البشر

حين تقرر أن تلحق بأحد ضرراً أو أذى ، ولكنني مع ذلك لا أريد أن أحاول الاحتماء منك • سوف أظهر لك على الفور أنني لا أقيم وزناً لشخصي الى الحد الذي تتصوره • اعلم أولاً أنني انما جئت لأقول لك بوضوح كامل وصراحة قاطعة انك اذا كنت ما تزال تضرر لأختي تلك النيات نفسها ، وكنت تعوّل على استخدام السر الذي اكتشفته مؤخراً ، فسوف أقتلك قبل أن يتسع وقتك لأن تودعني في السجن • اني اذا قلت ، فعلت • هذا واذا كان هنالك شيء تريد أن تفضي به اليّ - انني لأحس منذ مدة أنك تريد أن تقول لي شيئاً ما - فأسرع اذ قد يفوت الأوان بعد قليل !

سأله سفدريجايلوف وهو يتفرس فيه مستطعاً مستغرباً :

- ولكن ما الذي يحملك على هذا الاسراع كله ؟

فأجاب راسكولنيكوف نافذ الصبر مظلم الوجه :

- كل امرئ يعمل بطريقته الخاصة •

قال سفدريجايلوف مبتسماً :

- أنت نفسك تدعوني الى الصراحة ، ثم اذا بك ترفض أن تبييني منذ أول سؤال ألقيه عليك • انك ما تزال تتصور أنني أبيت مشاريع ، وأضمر نيات ، وهذا هو السبب في أنك تنظر اليّ نظرة ريبة واشتباه • على أن هذا أمر يفهمه المرء فهماً تاماً فيمن كانت حالته كحالتك • ولكن مهما تكن رغبتى في أن أحيا على تفاهم ووافق معك ، فأنني لن أكلف نفسي عناء ازالة الغشاوة عن بصرك وتبديد أوهامك • ذلك أن هذه اللعبة لا تستحق هذا العناء وأيم الحق • ثم انني لا أنتوى البتة أن أتحدث معك في أمور خاصة جداً •

- فلماذا تحتاج الىّ هذا الاحتياج كله اذا كان الأمر كما تقول ؟
ذلك أنك ما تنفك تحوم حولي ***

- لا لشيء الا لأنك امرؤ تشوق ملاحظته ، وتحلو مراقبته • لقد
فتنتني بوضعك الغريب وحالتك الشاذة وأمرك العجيب • هذا كل شيء !
ثم انك أخو إنسانة شاقنتني كثيراً ؛ وطالما حدثتني عنك تلك الانسانية ،
فاستنتجت من ذلك أن لك عليها نفوذاً كبيراً وسلطاناً عظيماً ، فهل هذا
قليل ؟ هيء هيء هيء ! على أنني أعترف لك بأن سؤالك يبدو لي معقداً
تعقيداً شديداً ، فيصعب عليّ أن أجيب عنه • اليك هذا المثال : ألم تأت
أنت الى هنا من أجل أن تعلم شيئاً جديداً لا من أجل أن تتكلم في أعمال؟
أليس هذا صحيحاً ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

كذلك ألحّ سفدريجايلوف وهو يتسهم ابتسامة ماكرة خبيثة • ثم
تابع كلامه :

- ألا فاعلم اذن أنني ، أنا أيضاً ، منذ كنت في القطار الذي أقفني
الى بطرسبرج ، كنت أحوّل عليك أنت نفسك ، وآمل أن تقول لي شيئاً
« جديداً » ••• الخلاصة : كنت آمل أن أقترض منك شيئاً • نعم !
انظر الى أي حد نحن أثرياء !

- أن تقترض مني ماذا ؟

- ماذا أقول لك ؟ أنا أعلم ؟ انك لتري في أية حانة حقيرة موبوءة
أقضي وقتي • انني أجد في هذا لذة • لذة ؟ لا ••• هذه مبالغة • ولكن
لا بد للمرء من أن يقضى وقته في مكان ما ••• حتى تلك المسكينة كاتيا
••• هل رأيتها ؟ ويا ليتني كنت على الأقل رجلاً شديداً النهم والشرامة
أو رجلاً محباً لأطياب الطعام ! ولكن انظر قليلاً ••• هذا كل ما أستطيع
أن ألتهمه •••

قال ذلك وهو يشير باصبعه الى ركن المائدة التي تستلقى عليها ، فى طبق من معدن ، بقايا شريحة كريمة من لحم البقر مع البطاطس • وتابع كلامه يسأل :

— بالمناسبة ، هل تغديت ؟ أما أنا فانتى ما كدت آكل قطعة حتى اكتفيت • وأنا لا أشرب الخمر أيضاً • لست أشرب الا شمبانيا ، ولست أشرب من الشمبانيا الا كأساً واحداً تكفينى السهرة كلها ، عدا أن هذه الكأس الواحدة تصدّع رأسى • ولئن طلبت اليوم شمبانيا ، فلكى أنتعش قليلاً ، لأن علىّ أن أذهب الى مكان ما بعد برهة ؛ وهذا هو السبب فى أنك تجدنى على حالة نفسية خاصة جداً • منذ لحظة ، اختبأت كتلميذ صغير ، لأننى تخيلت أنك سوف تزعجنى ، ولكن أعتقد أن فى وسعى (هنا أخرج ساعته) أن أبقى معك قرابة ساعة • الساعة الآن هى الرابعة والنصف • هل يمكنك أن تصدّق ؟ يا ليتنى كنت شيئاً ما على الأقل •• ليتنى كنت مالك أرض مثلاً أو ربّ أسرة أو حتى جندياً ، أو مصوراً ، أو صحفياً ، ولكن لا ••• لست شيئاً ••• لست شيئاً البتة ••• ليس لى أى اختصاص ! حتى اننى أضجر بعض الأحيان • حقاً لقد كنت أتصور أنك ستقول لى شيئاً جديداً •

— ولكن من أنت ، ولماذا جئت ؟

— من أنا ؟ انك تعلم من أنا : أنا رجل من وجوه القوم ، قضيت سنتين فى سلاح الفرسان ، ثم تسكعت هنا ببطرسبرج ، ثم تزوجت مارثا بتروفنا وعشت فى الريف • تلك سيرة حياتى !

— أنت ، فيما أظن ، مقامر • أليس كذلك ؟

— مقامر ؟ لا ••• أنا غشاش لا مقامر •

— كيف ؟ هل غششت ؟

- نعم ، فعلت هذا أيضاً •
- فلا بد أنهم ضربوك عندئذ ضرباً مبرحاً ، أليس كذلك ؟
- حدث هذا • وبعد ؟
- كان في إمكانك على الأقل أن تقتل في مبارزة ••• ذلك أمر يفور له الدم •
- لن أعارضك ، لا سيما وأن الفلسفة ليست ما أتميز به وأجلى فيه • أعترف لك بأننى انما جئت الى هنا من أجل النساء خاصة •
- أبعد دفن مارتا بتروفنا فوراً ؟
- نعم • ثم ماذا ؟ أى ضمير تراه فى أن أتكلم عن النساء هكذا ؟
- بذلك أجاب سفدرىجايلوف وهو يتسهم ابتسامة صراحةٍ مفتحة •
- فقال راسكولنيكوف :
- تسألنى أى ضمير أراه فى أن يعيش المرء حياة دعارة ؟
- حياة دعارة ! آ ••• ذلك هو ما يحقنك • ولكن فلنمض فى مناقشة الأمر على منهج سليم : سأجيبك أولاً عن موضوع النساء عامة • انى امرؤ أحب الثرثرة كما ترى • قل لى : لماذا يجب على أن أجم اندفاعاتى وأكبت رغباتى ؟ لماذا أعدل عن النساء وأنا أهواهن ؟ انهن شاغل على الأقل •••
- فليست آمالك كلها اذن الا آمالاً قائمة على الدعارة أو الفسق ؟
- لنسلم بأنها الدعارة أو الفسق ، ما دمت حريصاً على ذلك •
- اننى أحب الأسئلة المباشرة على كل حال • ان للفسق شيئاً ثابتاً يقوم على الطبيعة الانسانية ولا يخضع لنزوات الخيال ، شيئاً باقياً مستمراً فى الدم ، كجدوة متوهجة ، مستعدة فى كل لحظة لأن تلتهب ، لا تنطفىء فى وقت مبكّر ، بل لا تقضى عليها السنون • ثم ان عليك أن تعترف أن الفسق شاغل من الشواغل •••

– ليس في هذا ما يستحق أن تغبط نفسك عليه أو أن تهنيء نفسك به . هذا مرض ، بل هو مرض خطر .

– آ . . . هذا ما تريد أن تنتهي إليه ! اننى أوافقك على أنه مرض ، كسائر الأشياء التى تتجاوز حدود الاعتدال . وحدود الاعتدال يتجاوزها الناس ، فبعضهم يتجاوزها بطريقة ، وبعضهم يتجاوزها بطريقة أخرى . وينبغى للمرء طبعاً أن يعتدل ، رغم أن هذا حساب دنيء . ولكن ما العمل ؟ ما الحيلة ؟ ذلك أن الانسان اذا لم يتهيأ له هذا الشاغل فقد يكون عليه أن ينتحر . اننى أعرف أن الرجل الشريف لا بد أن يشعر بالسأم والضجر حتماً ، هذا عدا أن . . .

– هل أنت قادر على أن تنتحر ؟

أجاب سفدريجاييلوف متأففاً :

– يا له من سؤال !

ثم أضاف يقول متعجبلاً ، دون أن يصطنع مظهر التفاخر والادعاء ذاك الذى كان قد اصطنعه الى ذلك الحين ، حتى أن وجهه قد تغير :

– أرجوك لا تكلمنى فى هذا الموضوع ! . . . اننى أعترف بأن هذا ضعف لا يغتفر ، ولكن ما حيلتى ؟ اننى أخاف من الموت ، ولا أحب أن يتكلم عن الموت أحد . هل تعلم اننى أو من قليلاً بالغميبات ؟

– آه . . . هو شبح مارتا بتروفنا ! أما يزال يظهر لك اذن ؟

قال سفدريجاييلوف :

– لندع هذا الأمر ! فى بطرسبرج ، لم يحدث هذا حتى الآن !

ثم هتف يقول حائفاً :

– على كل حال ، شيطان يأخذه . . . لا ، لا ، فلندع هذا الأمر ،

ولنتكلم فى *** هم *** نعم *** لم يبق لى الا قليل من الوقت ***
لا أستطيع أن أمكث معك مدة أطول من ذلك كثيراً * خسارة ! ذلك أن
هناك أموراً كثيرة كان يمكننى أن أنقلها اليك *

- أهى أمور تتعلق بامرأة أيضاً ؟

- نعم ، بامرأة ! *** حالة لا يتوقعها المرء أبداً *** حالة ليست
ما تظن ***

- أنت لا تشعر اذن بثقل هذا الجلو الذى تعيش فيه ؟ أليس يؤثر
فيك ؟ هل فقدت القوة على *** على أن تتوقف ؟

- ماذا ؟ أنت تكلمنى عن القوة ؟ هه *** انك تذهلنى دهشة
يا روديون رومانس ، رغم اننى كنت أعرف سلفاً أن الأمر سيكون
هكذا ! أنت من يكلمنى عن الفسق وعن جمال الفضيلة ؟ أنت انسان
من نوع شيلر ، انسان مثالى ؟ صحيح أن هذا كله طبيعى ، حتى أن
نقيضه هو ما يمكن أن يثير الدهشة *** ولكنه مع ذلك يبعث على
الاستغراب * * آه * * خسارة أننى لا أملك الا وقتاً قصيراً ! ذلك أنك من
أكثر الناس ايقاظاً للاهتمام ، واثارة لحب الاطلاع * بالمناسبة : أنت تحب
شيلر ، أليس كذلك ؟ أما أنا فأحبه حباً عظيماً *

قال راسكولنيكوف بشيء من الاشمئزاز :

- يا لك من مدع متفاخر !

فأجاب سفدريجايلوف وهو يضحك مقهقهاً :

- لا ، أقسم لك ! *** على أننى لا أنفى أقوالك * صحيح ***
أنا مدع متفاخر ! *** لماذا لا أدعى وأتفاخر ما دام هذا لا يؤذى أحداً ؟
لقد قضيت سبع سنين فى الريف ، عند مارتا بتروفنا * لذلك فانتى ما ان

التق برجل ذكى مثلك حتى أرتدى عليه * نعم * * برجل ذكى ، بل برجل يثير الاهتمام كثيراً كذلك * نعم ، اننى أسعد أكبر السعادة بالتحدث معك قليلاً ، زاهيك عن أن نصف الكأس الذى شربته من الخمر قد صعد الى رأسى ، غير أن هناك أمراً كان له كثير من * * * ولكننى أوشر أن أسكت عن ذلك الأمر فلا أتحدث عنه * الى أين أنت ذاهب ؟

كذلك قال سفدرىجايلوف يسأل راسكولنيكوف على حين فجأة مرتاعاً *

كان راسكولنيكوف قد نهض * لقد أزعجه أنه جاء الى هذا المكان ، وأحس باختناق فى صدره * انه مقتنع الآن أنهم الاقتناع بأنه أمام أحقر وأدناً وغد حملته الأرض على ظهرها فى يوم من الأيام *

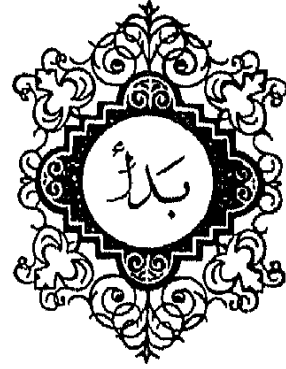
قال سفدرىجايلوف ملحاً :

– ابق قليلاً ! لا تنصرف هكذا ! انتظر ! اطلب لنفسك ولو فنجان شاي ! هياً اجلس ! أعدك بأن لا أكلمك فى ترهات ، أقصد فى ترهات عنى أنا ! اسمع ، هل تريد أن أروى لك كيف انقذتنى امرأة ، كما تقولون أنتم بلغتكم ؟ وسوف يكون هذا جواباً عن سؤالك الأول ، ذلك لأن تلك المرأة هى أختك * هل أستطيع أن أروى لك * * * ثم ان هذا سيتيح لنا أن نرجى الوقت * * *

– قل ما تشاء ، ولكن آمل أن * * *

– لا تقلق * * * اطمئن * * * ثم أن آفدوتيا رومانوفنا لا يمكن أن توحى الا بأعمق الاحترام حتى لرجل يبلغ ما أبلغه أنا من الحطة والدناءة والتفاهة !

الفصل الرابع



سفدريجايلوف كلامه فقال :

— لعلك تعلم (ولقد ذكرتُ لك ذلك أنا نفسي
على كل حال) اننى قد أودعت فى السجن
لديون كانت علىَّ + وكان المبلغ ضخماً لم يكن

فى وسعى أن أحاول سداه اطلاقاً + لا داعى الى الافاضة الآن فى الكلام
على الطريقة التى اشترت بها مارتا بتروفنا حريتي + هل تعرف مدى السحر
الذى يمكن أن تستسلم له امرأة تحب ؟ + + + لقد كانت مارتا بتروفنا
امرأة شريفة مستقيمة ، ولم تكن بالغبية الحمقاء ، رغم أنها محرومة من
أية ثقافة + فتصور أن هذه المرأة ، الشريفة الغيور ، قد ارتضت أخيراً ،
بعد مشاجرات وملامات كثيرة كريهة ، أن تعقد معى نوعاً من ميثاق ظلت
متقيدة به طوال مدة حياتنا المشتركة + يحسن أن أذكر أنها كانت أكبر
سناً منى بكثير + وقد بلغت أنا من قلة الذوق ومن الصدق فى الوقت نفسه
اننى أعلنت لها بوضوح قاطع أنه سيستحيل علىَّ أن أظل وفياتها وفاءً
مطلقاً + فأغضبها هذا الاعتراف وأخرجها عن طورها ، رغم أن صراحتى
قد أعجبتها بمعنى من المعانى فيما أعتقد + لقد قالت لنفسها : « معنى هذا
أنه لا ينوى أن يخوننى ما دام يندرني سلفاً » ، وذلك هو الأمر الأساسى
فى نظر امرأة غيور + وبعد دموع كثيرة قام بيننا ما يشبه التعاقد الشفهى :
أولاً على أننى لن أترك مارتا بتروفنا قط ، بل أظل زوجها ؛ وثانياً على
اننى لن أنغيب أبداً الا باذنها ؛ وثالثاً على اننى لن أتخذ خلية ثابتة لها

صفه الخليفة ؛ ورابعاً على أن تسمح مارتا بتروفنا ، مكافأةً لى على ذلك ، بأن أغازل الحسامات ، ولكن بشرط الحصول على موافقتها المضمرة ، وخامساً أن اتحاشى ، بمعونة الله ، أن أتعلق بحب امرأة من مستوانا ؛ وسادساً أن أكشف مارتا بتروفنا بالحقيقة اذا حدث ، لا سمح الله ، أن استولى على حب قوى . على أن مارتا بتروفنا سرعان ما اطمأنت فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة . انها امرأة ذكية ، فلم تستطع أن ترى فى الا رجلاً فاسقاً ماجناً ، عاجزاً عن أى حب صادق وهوى قوى . لكن الذكاء والغيرة شيان اثنان لا يتعارضان ، ومن هنا يأتى البلاء . ثم انك من أجل أن تتحكم على أحد الناس حكماً حياًدياً ، يحسن بك أن تتخلص من بعض الآراء السابقة والعادات اليومية ازاء البشر والأشياء التى تحيط بك . اننى أعتمد على حسنك السليم أكثر مما اعتمد على أية ملكة أخرى . لعلك سمعت عن مارتا بتروفنا سخافات كثيرة . والحق أنها كانت تتصف بكنير من العيوب الصغيرة المضحكة جداً . ومع ذلك لا أهاب أن أعترف لك باننى اسف أسفاً صادقاً على الأحزان الكثيرة التى سببتها لها . ولكن يكفى هذا ، فيما أعتقد ، « تأبيناً » للزوجة الرقيقة جداً من زوج هو أرق الأزواج طراً . لقد كنت أثناء مشاجراتنا أصمت فى أغلب الأحيان وأكظم كل غضب ، وكان هذا الوضع المهدب يبلغ هدفه ويحقق الغاية منه فى جميع الأحيان تقريباً . كان هذا الوضع يفرض مهابته على مارتا بتروفنا ، بل لقد كان يحظى برضاها واعجابها ، حتى أنها شعرت أحياناً باعتزاز بى . لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحتمل تلك القصة التى جرت لى مع أختك . كيف رضيت أن تجازف فتدخل الى منزلها فتساءً جميلة هذا الجمال الرائع لتكون معلمة ؟ اننى لا أفسر هذا لنفسى الا بأن مارتا بتروفنا امرأة سريعة التأثر والانفعال ، وأنها افتننت بأختك . نعم ، لقد افتننت بها حقاً . ولقد أدركت أنا منذ النظرة الأولى أن الأمور ستجرى مجرى سيئاً بالنسبة

الى ، حتى اننى قررت - هل تصدّق ذلك ؟ - أن لا أرفع عيني نحو
 أختك • ولكن أختك ، آفدوتيا رومانوفنا ، قامت هى نفسها بالخطوة
 الأولى ، هل تصدّق هذا ؟ وهل تصدقنى أيضاً اذا قلت لك ان مارتا
 بتروفنا قد مضت الى حدّ الغضب حين لاحظت أننى لا أكلمها عن أختك
 أبداً ، وأننى استقبل بغير اكتراث أو اهتمام الأحاديث المشبوبة التى كانت
 تسوقها لى عنها بغير انقطاع • لم أستطع أن أفهم حتى الآن ما الذى كانت
 تريد أن تصل اليه • وقد قصّت على أختك ، طبعاً ، كل ما أمكنها أن
 تعرفه عني • لقد كانت لها هذه العادة السيئة ، وهى أن تروى أسرارنا
 العائلية لجميع الناس وأن تشكونى للملاّ كافة ، فكيف يمكن أن لا تفعل
 ذلك مع صديقة جديدة فتانة كأختك ؟ أغلب ظنى أنهما كانتا لا تتحدثان
 الا عنى ؛ ولا شك فى أن آفدوتيا رومانوفنا قد اطلعت على جميع الحكايات
 القذرة السرية التى كان الناس يتناقلونها عنى ••• بل اننى لأراهن على
 أن شيئاً من هذا قد بلغ مسامعك أنت !

- فعلاً ! حتى ان لوجين اتهمك بأنك كنت السبب فى موت طفل •
 هل هذا صحيح ؟

أسرع سفدرىجايلوف يجيب ممتعضاً :

- لا تحرك هذا الوحل كله ، أرجوك !••• اذا كنت حريصاً
 حرصاً شديداً على أن تعرف كل هذه الحقائق ، فسأقص عليك خبرها
 يوماً فى الوقت المناسب ، أما الآن •••

- وقد حدثونى أيضاً عن خادم لا أدري ما هو ، كان عندك فى
 الريف ، وقالوا انك كنت أنت السبب أيضاً •••

قاطع سفدرىجايلوف وقد فقد صبره فقداناً واضحاً :

- أرجوك !

وتابع راسكولنيكوف كلامه يقول بحق متزايد :

- أترأه. هو بعينه ذلك الخادم الذي كان بعد موته يعود يمسأ غليونك ؟ لقد قصصت على أنت نفسك ***

نظر اليه سفدريجاييلوف باتتياه ، وخیل الى راسكولنيكوف أنه يرى ابسامة خبيثة تلم بتلك النظرة سريعة كالبرق . ولكن سفدريجاييلوف سيطر على نفسه وأجاب بلهجة فيها أكبر التهذيب :

- نعم ، هو بعينه . أرى أنت أيضاً تهتم أشد الاهتمام بهذا كله ؛ فلك على ، عند أول فرصة ، أن أرضى فضولك وأشبع حب الاطلاع لديك في جميع النقاط . شيطان يأخذني ! أرى أنني سأنتهى الى أن يعدني جميع الناس شخصاً رومانسياً خيالياً . فاحكم ، بعد هذا ، مدى ما أدين به لمارتا بتروفنا من شكر وامتنان لأنها قصت على أختك جميع هذه الأشياء السرية الشائقة ! لا أستطيع أن أتنبأ قطعاً بالأثر الذي شعرت به آفدوتيا رومانوفنا نحوى ، وكل ما أعلمه هو أنني سأستفيد . فرغم الكره الذي أحسست آفدوتيا رومانوفنا ازائي ، وهو كره طبيعي جداً على كل حال ، ورغم هيئتي المظلمة المتجهمة الكالحة عامة ، فقد أشفقت على أخيراً كما تشفق المرأة على انسان ضائع ! وحين يمتلىء قلب فتاة « بالشفقة » ، انما تتعرض لأكبر خطر . فهي تريد حتماً أن « تنقذ » ، أن ترد الى الصواب ، أن تحيي ، أن تبعث *** أن تفعل كل ما يمكن تخيله على هذا النمط من المعاني . وسرعان ما أدركت أنا أن الطائر الصغير قد يطير الى الشبكة من تلقاء نفسه ، وسرعان ما بادرت من جهتي الى اتخاذ احتياطاتي . يخیل اليك أنك تقطب حاجبيك يا روديون رومانتش . أنت مخطيء : ان القصة كما تعلم ، قد اقتصرت على سفساسف (أوه ! اننى أسرف في شرب الحمره !) هل تعلم ؟ لقد أسفت دائماً على أن الأقدار لم تجعل ميلاد أختك في القرن الثاني أو القرن الثالث ، بمكان من الأمكنة يمكن أن

تكون فيه بنت أمير أو حاكم أو والٍ في آسيا الصغرى فلو قد حدث ذلك،
 اذن لكنت واحدة من أولئك النساء شهيدات التعذيب اللواتي كن يتسمن
 حين كانت قضبان الحديد المحمي بالنار تمزق أئداءهن ، ولكانت مضت
 تواجه التعذيب مواجهة من تلقاء نفسها • ولو قد وُلدت في القرن الرابع
 أو في القرن الخامس لاعتزلت الناس ومضت الى صحارى مصر ثلاثين
 عاماً لا تتغذى الا بجذور النبات والرؤى ونشوة الوجد • انها لا تنتظر الا
 اللحظة التي ستمكن فيها أخيراً من التضحية بنفسها في سبيل شخص
 ما ؛ بل انها لقادرة على أن تلقى بنفسها من النافذة اذا منعت من تلك
 التضحية بنفسها • لقد سمعت عن شخص اسمه السيد رازوميخين • انه
 فيما يبدو ، وكما يدل على ذلك اسمه * ، فتى ذكى عاقل لعله ابن أسرة
 من رجال الدين • فليسهر على أختك ، ليحطها برعايته ! الخلاصة :
 أحسب أنني فهمت آفدوتيا رومانوفنا ، وانى بذلك لفخور • ولكن المرء ،
 عند تعرفه الى شخص من الأشخاص ، يكون طائشاً بعض الطيش ،
 غيباً بعض الغباوة ، كما تعلم ••• فهو يرى الأشياء في ضوء •• شخصي ،
 ولا يراها كما هي • ولكن ، اذا هي جميلة ذلك الجمال كله ؟ ليس الذنب
 في هذا ذنبي ! الخلاصة ••• اننى سرعان ما افتتنت بها افتتاناً شهوانياً لم
 يكن لي حيلة في دفعه • ان آفدوتيا رومانوفنا ذات خفر رهيب ، خفر
 لا عهد للمرء بمثله ، خفر لا يكاد يصدّق العقل وجوده (لئن كنت أقول
 لك هذا عن أختك فلأنه « واقع » • نعم ، انها رغم ذكائها ، ورغم فكرها
 المنفتح جداً ، فتاة ذات خفر شديد ••• وهذا أمر قد يسيء اليها ويلحق
 بها أذى) • كان عندنا حينذاك خادمة فتاة اسمها باراشا * ، هي باراشا
 السمراء ذات العينين السوداوين الجميلتين التي جىء بها من قرية أخرى
 منذ برهة قصيرة ، والتي لم يسبق لي أن رأيتها في يوم من الأيام قبل
 ذلك • كانت حلوة جذابة حقاً ، ولكنها كانت على جانب من الغباء

لا يصدق • فما أقبلتُ عليها حتى أجهشت باكية وملأت فناء المنزل
بصرخات حادة فسرعان ما كان ذلك فضيحة وجرسة • وفي ذات مساء ،
بعد العشاء ، دبّرت أفدوتيا رومانوفنا الأمور بحيث تلقاني وحيدةً في ممر
بين الأشجار بالحديقة فاذا هي « تطالبني جازمةً » بأن أدع الفتاة المسكينة
مرتاحة وأن لا أضايقها • ولعل ذلك كان أول حديث يجرى بيني وبينها
في خلوة • وقد أسرعت أقطع على نفسي عهد الشرف بأن ألبى رغبتها
وأنفذ ارادتها ، وحاولت أن أظهر بمظهر المضطرب المستحى الحجل ،
أى عرفت كيف أمثل الدور فأحسن التمثيل • ومنذ تلك اللحظة تمت
بيننا لقاءات كثيرة في السر ، وحدثت مشاهد متكررة كانت في أثنائها
تمطرني بالمواعظ والنصائح والملاحظات ، وتضرع اليّ أن أُغَيِّر حياتي ،
باكيةً ، نعم باكيةً ••• تصور ! هل تصدق هذا ؟ انظر الى أي مدى
يمكن أن يمضى حب الوعظ والنصح ! وطبيعي أنني حملت القدر تبعه
جميع أخطائي ، وصوّرت نفسي في صورة رجل ظامئ الى الضياء ، ثم
لجأت أخيراً الى الوسيلة القصوى التي لا تخطيء هدفها من قلب المرأة
قط ، ولا تخيب الظن فيها أبداً ، بل تحقق غايتها وتؤثر في جميع النساء ،
أعنى التملق بالمديح • لئن لم يكن في العالم شيء أصعب من الصدق ،
فلا شيء في العالم أسهل من التملق • فالصدق اذا اندس فيه عشر معشار
من كذب ، سرعان ما يخالطه نشار فتقع فضيحة • أما التملق فانه اذا كان
كذباً من أوله الى آخره ، يظل ساراً وممتعاً ، فالشخص يصغى اليه
شاعراً بلذّة ان لم تكن لذّة سامية فهي لذّة على كل حال • ومهما يكن
التملق مفضوحاً فان نصف المديح على الأقل ينطلي على الممدوح • يصدق
هذا على جميع طبقات الناس في المجتمع • ان في وسعك أن تنغوى بالمديح
أطهر فتاة فما بالك بغيرها ! لا أستطيع أن أتذكر - الا ويغلبني الضحك
- كيف أغويت في ذات يوم من الأيام امرأة مخلصّة كل الاخلاص

لزوجها وأولادها وفضائلها *** لكم كان ذلك مسلياً ، ولكم كان سهلاً ! ومع ذلك كانت المرأة من أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة على طريقتهما . وكان كل الأسلوب الذي اتبعته معها هو أنني أظهرت لها دائماً انبهارى بفضائلها وعبادتى لعفتها ! كنت أتملقها بالمديح دون تحفظ ، وكنت اذا اتفق لى أن أحصل منها على مصافحة باليد أو نظرة من العين ، ألوم نفسى أمامها على اننى انتزعت ذلك منها انتزاعاً بالقوة ، حتى لأتظاهر بأننى أعتقد أنها عارضت فى ذلك ، واننى ما كنت لأحصل منها على شيء اطلاقاً لولا أننى فاسد الأخلاق ، ولولا أنها فى براءتها وعفتها لم تستطع أن تكتشف فساد خلقى فاتقادت ببساطة وسذاجة دون أن تشبته أو ترتاب ، الخ الخ . الخلاصة اننى وصلت الى تحقيق غاياتى وتنفيذ مآربى ، وظلت السيدة مقتنعة بأنها عفة طاهرة ، وأنها تقوم بجميع واجباتها والتزاماتها وأنها لم تخطيء الا عرضاً : لذلك غضبت غضباً شديداً حين أعلنت لها بعد ذلك - وكنت على اقتناع تام بما أقول - أنها كانت تنشد المدة مثلما كنت أنشدها أنا سواء بسواء . ولقد كانت المسكينة مارتا بتروفنا شديدة التأثير بالمديح ، عاجزة عن مقاومة سلطانه عليها ، ولو قد شئت لجعلتها تورثنى جميع أموالها وأملاكها ، حتى أثناء حياتها (اننى أشرب كما تشرب بالوعة وأتبه فى ثمرات) . آمل أن لا تؤاخذنى أو أن تحقد علىّ اذا قلت لك الآن ان تلك الآثار نفسها قد بدأت تظهر على آفدوتيا رومانوفنا . ولكننى أفسدت الأمر كله بحماقتى وقلة صبرى . لقد اتفق عدة مرات ، أثناء أحاديثى مع آفدوتيا رومانوفنا (واتفق هذا فى إحدى المرات خاصة) أن نفرت نفوراً رهيباً من تعبير عينيّ ، واشمأزت اشمئزاً شديداً . الخلاصة أن لهيب الشهوة الذى كان يتوقد فى عينيّ بمزيد من القوة يوماً بعد يوم ، مع مزيد من الوقاحة فى الوقت ذاته ، قد أصبح كريهاً فى نفسها آخر الأمر . لا داعى الى أن أقصّ عليك

الأمر تفصيلاً • فالمهم أننا كففنا عن اللقاء • وارتكبت عندئذ غلطة جديدة • فقد طفقت أسخر أغلظ السخر من جميع تصرفاتها ومواعظها ، وعادت باراشا تنال الحظوة ، ولم تكن باراشا في هذه المرة وحيدة • الخلاصة أن المنزل أصبح أشبه بمدينة سدوم • آ ••• لو أنك رايت ، مرة واحدة ، يا روديون رومانثس ، كيف كانت تسطع عينا أختك حينذاك لعرفت مدى قدرتهما على الاشتعال والالتهاب ! صحيح أنني الآن سكران ، وأننى قد أفرغت منذ لحظة كأساً أخرى من الخمر ، ولكن ما أقوله لك إنما هو الحقيقة • أوكد لك أن تلك النظرات كانت تلاحننى فى نومى • وأخيراً أصبحت لا أطيق حتى سماع حفيف ثوبها ، وصرت أتوقع حقاً أن توافينى نوبة صرع من لحظة الى أخرى • ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام ، نعم ما كان لى أن أصدق فى يوم من الأيام قط أن من الممكن أن أصير الى مثل تلك الحالة من الخروج عن طورى • وأصبحت المصالحة أمراً لا بد منه • فهل تتصور ماذا فعلت حينذاك ؟ هل تتخيل مدى السخف الذى يمكن أن يقود اليه الحق ! اياك أن تتسرع فى عمل شيء حين تكون حائقاً يا روديون رومانوفتش ! اننى وقد لاحظت أن آفدوتيا رومانوفنا فتاة فقيرة معدمة (لا تؤاخذنى اذا أنا استعملت هذا التعبير •••) ، وأنها تعيش من عرق جبينها وكذب يمينها ، وأنها تقوم باعالة أمها واعالتك أنت (ما بالك تقطب حاجبيك من جديد ؟) ، قررت أن أقدم اليها كل ما أملك من مال ، وكان فى وسعى عندئذ أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، على شرط أن تقبل الهروب معى ، ولو الى هنا ، الى بطرسبرج • فلو قد رضيت أن تهرب لعاهدتها على أن أحبها ما حييت ، متى وصلنا ، ولوعدها بالسعادة والهناء وهلم جرا أبد الدهر ، فلقد بلغت من التحمس - صدقنى ان شئت ! - اننى لو أمرتنى أن أذبح أو أن أسمم مارتا بتروفنا من أجل أن، أصبح زوجها هى ، لفعلت ذلك على الفور •

ولكن الأمر كله قد انتهى بالكارثة التي تعرف • ففي وسعك أن تفهم الغضب الشديد الذي شعرتُ به حين علمت أن مارتا بتروفنا قد جاءت بذلك الدعيّ الحقيّر لوجين تريد أن تزوجه أختك ، وذلك مشروع لا يختلف كثيراً عن مشروعى أنا فى الواقع • أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ أنت توافقتى على هذا الرأى ؟ أليس كذلك ؟ اننى ألاحظ على كل حال أنك أصغيت الىّ بانتباه شديد ••• أيها الشاب الشائق •••

قال سفدريجاييلوف هذا ثم ضرب المائدة بقبضة يده وقد نفذ صبره • فأدرك راسكولنيكوف أن كأس الشمبانيا (أو الكأس ونصف الكأس) التي شربها جرعاتٍ صغيرة قد أحدثت فيه أثراً سيئاً ، لذلك قرر أن ينتهز هذه الفرصة وأن يستفيد من هذا الطرف • لقد كان شديد الريب فى سفدريجاييلوف كثير الحذر منه •

قال فجأة ليحنقة مزيداً من الاحناق :

– فأستطيع أن استتج مما أفضيت به الىّ أنك بمحيّتك الى بطرسبرج انما كنت تطمع فى أختى وتبيّت لها شيئاً •
أجابه سفدريجاييلوف قائلاً :

– دعنا من هذا ، أرجوك ••• قلت لك ••• ثم ان أختك لا تستطيع أن تطيقنى ، فهى تكرهنى كرهاً شديداً •
– أما أنها تكرهك فأنا واثق بهذا • ولكن من الممكن أن لا تكون هذه هى المسألة •

– أنت واثق بهذا ؟

قال سفدريجاييلوف ذلك وهو يغمز بعينه ويتسم ابتسامة سخرية ثم تابع كلامه :

- انك على حق • انها لا تحبني ، ولكنك لا تستطيع أن تضمن ما يجري بين رجل وامرأته ، أو بين خليل و خليلته • هناك دائماً ركن صغير يغيب عن جميع الناس ولا يعرفه أحد غير الشخصين المعنيين • هل في وسعك أن تحلف أن آفدوتيا رومانوفنا كانت تنظر الى "باشمئزاز" ؟
- استنتج من بعض كلمات حديثك وتلميحاته أنك ما زلت تظنهم ، اذاء دونيا ، أهدافاً لست أصفها الا بأنها دنيئة !

- كيف ؟ أنا أفلتت مني كلمات وتلميحات من هذا النوع ؟
كذلك سأله سفدريجاييلوف وقد ارتاع ارتياحاً ساذجاً جداً ، ولكن دون أن يهتم أقل اهتمام بالنعته الذي نعت به راسكولنيكوف أهدافه •
قال راسكولنيكوف :

- بل انها ماتزال تفلت منك ! فلماذا ارتعت هذا الارتياح كله مثلاً ؟
نعم ، ما الذي يخيفك الى هذا الحد ؟

- أنا مرتاع ؟ أنا خائف ؟ خائف منك أنت ؟ ألا ان الأ ولى أن تخاف أنت مني « أيها الصديق العزيز » ؟ ما هذا الكلام الصياني ؟ على انني سكران ••• أنا أدرك ذلك • انني أسرف في الكلام ، أسرف في الكلام كثيراً ••• لعن الله الحمره ! هيه ! أنت ! اعطني ماء !

قال سفدريجاييلوف هذا ، وتناول الزجاجه فرماها من النافذة بغير تخرج • وجاءه فيليب بابر يق ماء •

واستأنف سفدريجاييلوف كلامه فقال وهو يبل منشفة ويضعها على رأسه :

- وهذه سخافات على كل حال •• انني أستطيع أن أسقط شكوكك كلها بكلمة واحدة • هل تعلم مثلاً أنني سأزوج ؟

– سبق أن قلت لى هذا ؟

– سبق أن قلت لك هذا ؟ حقاً ؟ لست أتذكر • على كل حال ، لا شك أننى لم أقله جازماً ، لأننى لم أكن قد رأيت خطيبتى • وما كان الأمر حتى ذلك الحين الا فكرة أو مشروعاً • أما الآن فان لى خطيبة وقد أصبح الأمر واقعاً • ولولا شئون مستعجلة لدعوتك أن تصحبنى إليها ، لأننى أريد أن أطلب منك بعض النصائح • آ ••• لم يبق لى الا عشر دقائق ! خذ ••• انظر فى ساعتى • ولكن يجب أن أحكى لك •• ذلك أن زواجى حادثة شائقة فريدة فى نوعها • الى أين تمضى ؟ أما تزال تريد الانصراف ؟

– لا ••• الآن لن أنصرف •

– لن تنصرف ؟ سوف نرى ! نعم ، سأصطحبك الى هناك لأعرفك بخطيبتى ، ولكن لا الآن ، فالآن لا بد أن نفترق ، تمضى أنت يمناً وأمضى أنا يسرة • ان تلك المرأة التى تسمى ريسليش والتى أقيم عندها فى هذه الفترة ، لا شك أنك سمعت عنها ، أليس كذلك ؟ عجيب ••• ألم تسمع عنها ؟ تلك المرأة التى يقال انها هى السبب فى أن فتاة صغيرة انتحرت غرقاً فى وسط الشتاء • آ ••• ان تلك المرأة هى التى دبّرت الأمر كله • قالت لى : « لا شك أنك تضجر وتسام وأنت وحيد على هذه الحال ، فيجب أن تسرّى عن نفسك قليلاً » • والحق أننى امرؤ قاتم المزاج مكتئب الطبع حزين النفس • هل تظننى مرحاً ؟ أبداً ••• أنا سوداوى • لست أؤذى أحداً ، وأظل قابلاً فى ركنى ، ولكن يتفق لى أن أبقى ثلاثة أشهر صامتاً لا أفتح فمى بكلمة • ولقد كانت تلك القوادة ريسليش تخفى خطة وتبيت فكرة : كانت تقول لنفسها ان امرأتى القادمة سوف تضجرنى آخر الأمر ، واننى سوف أهجرها ، فتقع عندئذ بين يديها هى ريسليش ، فتجول بها هنا وهناك فى بيتنا أو فى بيئته أرفع • قالت لى

ان للفتاة أبا عجوزاً خرفاً هو موظف محال على التقاعد أصبح لا يبارح مقعده منذ ثلاث سنين لأنه لا يستطيع أن يحرّك ساقيه • وأضافت الى ذلك أن أمها امرأة راجحة العقل متسامحة ، وأن أخاها يشغل وظيفة من الوظائف فى الاقليم ولكنه لا يساعد ذويه ؛ وأن لها أختاً متزوجة لا توافيهم بشيء من أخبارها ، وكأن الأسرة ليس عندها عدد كافٍ من الأفواه تطعمه ، فكفلت طفلين صغيرين من أقربائها ؛ وعلى أثر ذلك أخرجت الفتاة من الكوليج قبل أن تتمّ دراستها • وستبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد شهر ، فيمكن عندئذ تزويجها ، أى يمكن أن أتزوجها أنا • وقد ذهبنا أنا وريسليش الى أهل الفتاة • مشهد مضحك • عرفتهم بنفسى : ملائكة ، أرمل ، أسرة نبيلة ، علاقات عالية ، ثروة طائلة • فما قيمة أن يكون عمري خمسين عاماً ، وأن يكون عمر الفتاة ست عشرة سنة ؟ من ذا الذى يمكن أن يتوقف عند أمر تفصيلي هو هذا الفرق فى السن ؟ أأست زوجاً مناسباً ؟ بل أأست زوجاً ممتازاً ؟ ها ها ها ! ••• ليتك رأيتنى وأنا أتحدث مع أبيها وأمها ! ان المرء ليدفع مالاً كثيراً لمن رؤيته لهذا المشهد ! وظهرت الطفلة فجأة ، فأنحنت تحيى الضيوف كما يفعل الأطفال ••• تصور أنها ما تزال ترتدى الثوب القصير ! انها برعم ورد حقاً ، يصطبغ خذاها بحمرة قانية كلون الشفق عند الفجر (كانت قد أُطلعت على الأمر طبعاً) • لا أدرى ما رأيك فى الفتيات الصغيرات • أما أنا فرأيتى أن هذه السنين الست عشرة ، وتلك العيون الصغيرة التى ما تزال عيون أطفال ، وذلك الحُجل ، وهذه الدموع التى تنسكب حياء وخفراً ، أن هذا كله أجمل جمالاً من كل جمال • ناهيك عن أن الفتاة كانت جميلة كجمال صورة • شعر أشقر خفيف متموج ، شفتان مكتنرتان قرمزيّتان ، قدمان صغيرتان • عجيبة من العجائب ! ••• ولقد تعارفنا • ثم أعلنت أننى فى عجلة من أمرى ، لأسباب عائلية • لذلك تمت الخطبة

فى غداة ذلك اليوم ، اى امس الاول * ومنذئذ أصبحت أجلسها على
 ركبتي متى وصلت اليهم ، ثم لا اتركها *** فيحمر خذاها من جديد
 حتى لنصبح بلون الشفق عند الفجر ، واخذ ألتهمها بالقبل التهاما ! وأمها
 تقنعها طبعاً بان الامور يجب أن تجرى على هذا النحو ، لاننى ساصبح
 زوجها * الخلاصة : لذة ما بعدها لذة ! ربما كانت حالة الخطيب هذه احدى
 وأمتع من الحالة التى ستتلوها ، أعنى حالة الزوج * فها هنا نجد « الطبيعة
 والحقيقة » * كما يقال ! هاها ! * لقد تحدثت معها مرة أو مرتين * ان
 الصبية ليست بالغبية البتة ، وانها فى بعض الأحيان لتتظر الى نظرة تشعل
 حريقاً فى كيانى كله * هل تعلم ؟ ان لها وجهاً من نوع وجه « المادونا »
 التى صورها رافائيل * ان « مادونا سكستين » لها وجه عجيب تماماً ،
 وجه يعبر عن حزن يلمُّ به جنون غيبى ، ألم يخطف هذا بصرى ؟ فاعلم
 اذن أن وجه خطيبتى فيه شئ من هذا النوع * وما ان تمت خطبتنا حتى
 حملت اليها هدايا بألف وخمسمائة روبل : حلية من الماس ، وحلية
 أخرى من لؤلؤ ، ومجموعة فضية من أدوات الزينة ، كبيرة بهذا الحجم ،
 مع جميع لوازمها *** فاذا بوجه « المادونا » الصغير يشرق ويزدهر *
 ثم أجلستها على ركبتي ، ولعلنى بلغت فى ذلك من قلة التحرج أنها
 احمرت احمراراً شديداً وطفرت الدموع من عينيها * ولكنها لم تشأ أن
 تفضح نفسها رغم أن نفسها كانت مشتعلة كل الاشتعال * وخرج الجميع
 لحظةً ، فاصبحنا وحيدين ، أنا وهى ، فاذا هى تبادر فجأة فتحيط عنقى
 بذراعيها الصغيرتين وتقبّلنى (من تلقاء نفسها هذه المرة) ، وتحلف
 لتكونن لى زوجة مطيعة طيبة وفية ، ولتسعدننى ، ولتقفن على هذا حياتها
 كلها ، كل لحظة من حياتها ؛ ولن تطالبنى فى مقابل ذلك الا بشئ
 واحد : « هو أن أحترمها ، أن احترمها فقط ، فهى لا تريد الا هذا ،
 ولا تريد هدايا ! » * لا شك فى أنك توافقنى على أن سماع اعتراف كهذا

الاعتراف ، فى خلوة ، من ملاك صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ،
ترتدى ثوباً رقيقاً من قماش شفاف ، لها شعر مضمفور متدل على جبينها ،
وقد احمرت وجنتاها من حياء العذارى وخفرهن ، وأخذت دموع الحماسة
تتألاً فى عينيها ، أقول لا شك فى أنك توافقنى على أن ذلك كله جذاب
مغري ! جذاب مغري ، هذا هو الوصف الصحيح ، أليس كذلك ؟ شئ
يستحق أن يدفع المرء ثمنه ، هه ؟ ... اسمع ... سنذهب الى خطيبتى ،
ولكن لا الآن !

— الخلاصة أن هذا الفرق الرهيب فى السن وفى الثقافة يثير رغبتك
الشهوانية مزيداً من الاثارة ! هل من الممكن أن تفكر فعلاً فى الاقدام على
زواج كهذا الزواج ؟

— لم لا ؟ طبعاً أفكر فى ذلك ! لكل امرئ أن يفكر لنفسه ، وأقدر
الناس على خداع نفسه أنجحهم فى قضاء أيام سعيدة ! هاها ! ولكن مابالك
قد أصبحت رجلاً فاضلاً على حين فجأة ؟ رافة بى يا عزيزى ، لأننى
امرؤ خاطيء مذنب ! هىء هىء هىء ! ...

— ولكنك عنيت بأولاد كاترين ايفانوفنا على كل حال ... كانت
هناك بواعث تدفعك الى ذلك ... الآن فهمت كل شئ !

قال سفدرىجايلوف وهو ينفجر ضاحكاً :

— أنا أحب الأطفال كثيراً ويمكننى بالمناسبة أن أروى لك حادثة
غريبة ما تزال تجرى حتى هذه الساعة . لقد طفت بمختلف الملاهى
المبوءة فى العاصمة منذ وصولى أول يوم ... أسرع أطوف بها بعد
فراق سبع سنين ! لعلك لاحظت قلة حرصى على إعادة الصلة بينى وبين
أصحابى وأصدقائى القدماء . حتى يمكننى أن أقول اننى أفر منهم

فرارى من الطاعون • يجب أن أقول لك اننى حين كنت أعيش فى الريف عند مارتا بتروفنا كان يتتابنى ضيق شديد كلما تذكرت هذه الأماكن السرية التى يستطيع الانسان الخبير أن يجد فيها أشياء كثيرة ! تبا لى ! الشعب ههنا يسترسل فى السكر ، والشيبية المثقفة تذوب وتضيع فى احلام خيالية ونظريات عجيبة ، واليهود يهرعون من كل مكان ينهبون كل ما تصل اليه أيديهم من مال ، وسائر الناس يستسلمون فى أثناء ذلك للفسق والمجون • اذن لقد أرسلت الى هذه المدينة منذ الساعات الأولى رائحة مألوفة جداً • وسرعان ما وقعت فيما يسمى سهرة راقصة : هو ملهى موبوء فظيع ، ولكننى أحب هذه الأماكن حين تكون باعثة على الاشمئزاز • كان الراقصون مندفعين فى رقص « الكانكان » اندفاعاً محموماً مسعوراً قلما يرى المرء مثله فى هذه الأيام ، ولم تكن نرى مثله فى أيامنا أبداً • لقد تحقق تقدم فى هذا المجال أيضاً • وفجأة لمحت صبية لعلها فى الثالثة عشرة من عمرها ، ترتدى ثياباً لطيفة وتراقص سيداً جميلاً ، وأمامهما شاب آخر • وكانت أمها جالسة قرب الحائط تنظر اليها • هل تتخيل كيف كان الرقص ؟ لقد كانت الفتاة تشعر بخجل شديد • وهامى ذى تحمر ، ثم يزداد حرجها وانزعاجها أخيراً فتأخذ تبكى • فيمسكها الراقص الجميل ، ويأخذ يدور بها ، ويقوم بألف حركة وحركة بنديئة ، والناس من حوله تضحج بضحك صاخب • اننى فى مثل هذه اللحظات انما أحب جمهورنا خاصة ، حتى جمهور هذا النوع من ملاهى الليل • كان الحضور يضحكون ويصيحون قائلين : « مرحى ! مرحى ! لم يكن عليها الا أن ترفض المجيء الى هنا ! ليس هذا مكاناً للأطفال ! » • أما أنا فلم اكثر طبعاً • وسرعان ما حدثت المكان الذى يناسبنى ، ومضيت أجلس قرب الأم • وبدأت أكلمها فقلت لها اننى انا أيضاً مارٌ ببطرسبورج مروراً • وأضفت الى ذلك أن هؤلاء الناس جفاة غلاظ ليس لهم

فراصة تعرفهم بمن يستحقون الرعاية والمدارة • وبعد أن أسمعتها أنني
أملك مالاً كثيراً عرضت عليها أن أوصلهما هي وابنتها بعربة ، فقبلت
وأوصلتهما ، فرأيت مسكنهما (انه غرفة مؤثثة حقيرة كانتا قد نزلتاها منذ
وقت قصير حين وفدتا من الأقاليم) • وقالتا لي انهما تعدان زيارتي لهما
شرفاً عظيماً • وعلمت بعد ذلك انهما لا تملكان قرشاً ، وانهما جاءتا الى
بطرسبرج للقيام بمساعٍ لدى ادارة من الادارات • فعرضت عليهما
خدماتي ، وقدمت اليهما مالاً • وعلمت عدا ذلك انهما بالمصادفة انما
وقعتا في ذلك المهوى تلك الليلة ، فقد ظنتا أنه مكان لتعليم الرقص •
وعرضت أن أساهم في اتمام ثقافة الفتاة بتعليمها اللغة الفرنسية ، وتعليمها
الرقص خاصة • فسرعان ما قبل هذا العرض بفرح شديد ، وسرعان
ما قيل لي ان هذا شرف كبير ••• وما تزال علاقتنا قائمة ، وما تزال
زياراتي متتالية ••• سنذهب اليها معاً لتراها ان شئت ••• ولكن
لا الآن !

— كفاك ! كفاك حكايات حقيرة دنيئة تبعث على الاشمئزاز ، ايها
الانسان الفاسق ، المنحل ، المنحط !

— يا لك من شاعر ! يا لك من شيللر ! انظروا أين تختبئ
الفضيلة ! هل تعلم أن صرخاتك هذه تغريني بأن أقصَّ عليك المزيد من
أمثال هذه الحكايات لأسمعك تطلق المزيد من هذه الصرخات ؟ هذه لذة
حقيقية !

دمدم راسكولنيكوف يقول مبغضاً حاقدآ :

— نعم ، لا شك أنني أبدو سخيفاً مضحكاً ، فأنا كذلك في نظر
نفسى !

ضحك سفدريجاييلوف ملء حلقه ، ثم نادى فيليب ، فدفع الحساب ،
ونهض لينصرف وهو يقول :

– نعم *** أنا سكران *** كفى حديثاً! *** انها لذة حقيقية! ***
صاح راسكولنيكوف يقول وهو ينهض أيضاً :

– كيف لا تشعر بلذة *** كيف لا تكون لذةً لرجل فاسق داعر
من طبيئتك أن يقصّ مغامرات كهذه المغامرات وهو يحلم بمشاريع
شيطانية أخرى من هذا النوع ، وأن يقصّ ذلك على انسان مثلى ؟ ***
هذا يؤجج رغبتك ، ويهيج نفسك ، أليس كذلك ؟

قال سفدريجاييلوف بشيء من الدهشة وهو يتفرس في راسكولنيكوف:

– اذا كنت ترى هذا الرأي ، فانك اذن لمستهر عظيم *** أو ان
فيك لاستعداداً لهذا * انك تستطيع أن تدرك كثيراً من الأشياء *** وأن
تصنع بها كذلك كثيراً من *** ولكن كفى ! يؤسفنى حقاً أن حديثنا كان
قصيراً هذا القصر كله ، ولكنك لن تفلت منى هكذا *** اصبر قليلاً ***

خرج سفدريجاييلوف من الحانة ، وتبعه راسكولنيكوف •

الحق أن سفدريجاييلوف لم ينل منه السكر كثيراً • ان الشراب لم
لم يصعد الى رأسه الا لحظة قصيرة ، وكان ثمله يتبدد مزيداً من التبدد
شيئاً بعد شيء • كان هناك أمر هام جداً يشغل باله ، يشغل باله كثيراً ،
فكان يقطب حاجبيه ، وكان انتظار هذا الشيء يقلقه اقلاقاً واضحاً ، وينير
أعصابه • ولم يفت راسكولنيكوف أن يلاحظ أن سفدريجاييلوف قد غيّر

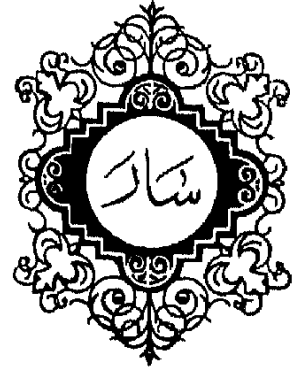
لهجته فى مخاطبته منذ لحظات ، وأنه أصبح يكلمه بمزيد من اللفظة
والسخرية •

واشته راسكولنيكوف فى أمر سفدريجايلوف ، فقرر أن يتبعه •
وصلا الى الرصيف •

– أنت تذهب يمنا وأنا أذهب يسرة ، اللهم الا أن يكون العكس !
المهم أن نفترق • الى اللقاء ، الى اللقاء ، سيسرنى أن أراك مرة أخرى •
قال سفدريجايلوف ذلك وسار يمنا فى اتجاه « سوق العلف » •

الفصل الخامس

راسكولنيكوف وراءه ، فصاح سفدر يجايلوف يقول
ملتفتاً اليه :



— ما معنى هذا ؟ أظن اننى قلت لك ***

— معنى هذا اننى لن أتركك قيد أنملة ***

— ماذا ؟ ماذا ؟

وتوقف الاثنان ، وأخذ كل منهما يروز صاحبه بنظرة خلال

• دقيقة

وقال راسكولنيكوف بلهجة قاطعة :

— بعد جميع الحكايات التى رويتها لى وأنت فى شبه سكر ، يحق
لى أن أتصور أنك لم تهجر مشاريعك الدنيئة فيما يتعلق بأختى ، بل وأن
هذه المشاريع تشغلك الآن أكثر مما كانت تشغلك فى أى وقت مضى •
أنا أعلم أن أختى تلقت فى هذا الصباح رسالة • ولقد كنت أنت قلقاً
لا تستقر على حال • ومن الجائز جداً أن تكون قد عثرت على خطيبة
جديدة ، ولكن هذا لا يبرهن على شىء ، فأنا أريد أن أتحقق من الأمر
بنفسى •

لو سئل راسكولنيكوف أن يقول ما هو الأمر الذى يريد أن يتحقق

• منه بنفسه لارتبك أشد الارتباك •

قال سفدريجاييلوف :

- ها ... هكذا ؟ أتريد أن أنادى الشرطة ؟

- نادها !

وتوقفا من جديد ، ومن جديد أخذ كل منهما يتفرس في الآخر .
وأخيراً تغير تعبير وجه سفدريجاييلوف ، فانه حين رأى أن راسكولنيكوف
لم يخفف تهديده ، أسرع يصطنع هيئة تتم عن مرح ومودة وصدافة ،
وقال :

- ما أغرب أمرك ! لقد تعمدت أن لا أكلمك في قضيتك ، رغم أن
الفضول ينهش قلبي نهشاً ... انها لقضية هائلة ! لقد آثرت أن أرجىء
الكلام فيها الى مرة أخرى ... ولكنك قادر على أن تجعل الميت نفسه
يفقد صبره وتثور أعصابه . تعال معي ان شئت ، ولكنني أنبّهك : ان
على أن أرجع الى البيت لحظةً لأخذ شيئاً من المال ، ثم أغلق الباب
بالمفتاح ، ثم أقفز راكباً عربة من العربات لأمضى الى قضاء السهرة في
«الجزر» . فكيف تستطيع أن تبغنى والحالة هذه ؟

- ان على أن أذهب الى عمارتك أنا أيضاً ، لا الى بيتك أنت ، بل
الى بيت صوفيا سيميونوفنا ، لأعتذر لها عن تخلفي عن حضور الجنازة .

- لك ما تشاء . ولكن صوفيا سيميونوفنا ليست في بيتها . فقد
ذهبت بالأولاد الى بيت سيدة هي صديقة قديمة لي تدير ملجأً للأيتام .
لقد فتنت تلك السيدة بأن دفعت لها مبلغاً من المال لصغار كاترين ايفانوفنا
الثلاثة ، كما وهبت مبلغاً آخر للملجأ الذي تديره . وقد قصصت عليها
كذلك قصة صوفيا سيميونوفنا بنصها الكامل دون أن أخفي شيئاً . فكان
الأثر الذي أحدثته في نفسها هذه القصة أثراً عميقاً لا يوصف . وذلك
هو السبب في أن صوفيا سيميونوفنا قد دُعيت الى أن تذهب في هذا اليوم

نفسه الى البيت الذى نزلته تلك السيدة مؤقتاً حين عادت من اجازتها منذ
برهة ♦

- سأذهب مع ذلك الى صوفيا سيميونوفنا ♦

- افعل ما تشاء ، لكننى لن أصحبك ♦ ما ذهابى الى هناك ؟ ثم
ها نحن قد أوشكنا أن نصل ♦ قل لى : يخيّل الى أنك انما تنظر الى
نظرة الريبة هذه لأننى كنت مؤدباً مهذباً فلم أزعجك بأسئلة كان يمكن
أن ♦♦♦ أنت تفهم عنى ! لقد بدا لك ذلك أمراً خارقاً ، أليس كذلك ؟
فهلا أظهرت أنت أيضاً شيئاً من الأدب والتهذيب !

- وهل كان أدباً وتهذيباً أن تتنصت على الأبواب ؟

قال سفدريجايلوف وهو يضحك :

- ها ♦♦♦ اذن ما زلت تتذكر هذا وتفكر فيه ! على كل حال ، كان
سيدهشنى أن لا تثير هذا الموضوع ! ها ها ها ! ولكن الواقع أننى لم
أسمع الا بضع شذرات من جميع تلك المهازل التى كنت تقصها على صوفيا
سيميونوفنا ♦♦♦ وقد فاتتني خاتمة ذلك كله ♦ قد أكون شخصاً متخلف
الذكاء محدود العقل عاجزاً عن فهم أى شىء ♦ ولهذا نفسه انما أناشدك
الله يا صديقى أن تشرح لى ♦♦♦ أرجوك أن تثير عقلى على هدى مبادئ
العصر ♦♦♦

- أنت تكذب ! لا يمكن أن تكون قد سمعت شيئاً !

- عجيب ! أنا لا أتكلم عن هذا (رغم أننى سمعت بعض الأشياء) ♦
لا ، ان كل ما أريد أن أقوله هو أنك لا تنفك تئن وتتوجع ♦ ان شيللر
الذى يثوى فى نفسك يسبب لك اضطراباً فى كل لحظة ♦ ثم أنت تريد
الآن أن لا يتنصت أحد على الأبواب ! فاذا كنت قاسياً الى هذا الحد ،
فهلم اعترف للسلطات وقل لها : « لقد ألمت بى مصيبة ، لقد وقع خطأ

صغير فى نظريأتى الفلسفية « • أما اذا كنت مقتنعاً بأنه لا يجوز للمرء أن أن يتنصت على الأبواب، وأنه يجوز له أن يهشم رؤوس العجائز الصغيرات اللواتى تقع عليهن يده ، فما عليك فى هذه الحالة الا أن تبادر فتهاجر الى مكان ما ، الى أمريكا مثلاً ••• لا أدري ••• وانما يجب أن تفعل ذلك بأكبر سرعة • اهرب أيها الفتى ! لعله لم يفت الأوان بعد • اننى أكلّمك صادقاً وأخلص لك النصيح • ماذا ؟ هل يعوزك المال اللازم للسفر ؟ سأعطيك ما أنت فى حاجة اليه •

قاطعهُ راسكولنيكوف قائلاً باشمئزاز :

– لا يخطر هذا ببالى على الاطلاق •

– أفهم ذلك • ولا تكلف نفسك عناء الكلام ، فان لك أن لا تقول شيئاً البتة • اننى أفهم المسائل التى تدور فى رأسك ••• هى مسائل ••• من نوع أخلاقى ، أليس كذلك ؟ أنت تتساءل هل تصرفت التصرف الذى يليق بانسان ، بمواطن ؟ ولكن دع هذه المسائل ، انبذها ! فيم يمكن أن تفيدك الآن ؟ هىء هىء هىء ! والا ، ما كان عليك أن تزج نفسك فى هذا الأمر وأن تشرع فى عمل لست قادراً على المضى فيه الى النهاية • هيّا هشمّ دماغك ! لا تحب ذلك ؟

– لكأنك تحاول احناقى عامداً لأنصرف •

– غريب أمرك ! لقد وصلنا ، فما عليك الا أن تكلف نفسك عناء صعود السلم ! ها هو ذا باب صوفيا سيميونوفنا • انظر • ليس فى بيتها أحد • ألا تصدقنى ؟ اسأل اذن آل كابرناؤموف • انها تترك لهم المفتاح دائماً • وهذه هى « السيدة » كابرناؤموف بنفسها على كل حال • ماذا ؟ (انها صماء قليلاً) • هل خرجت صوفيا سيميونوفنا ؟ فالى أين ذهبت ؟ ها قد سمعت أنها ليست فى بيتها وأنها لن ترجع الا فى ساعة متأخرة من

الليل • تعال اذن معى ، الى بيتى • كنت تريد أن تجىء الى فعلاً ،
 أليس كذلك ؟ فيها نحن فى بيتى ! ليست السيدة ريسليش هنا • انها
 لا تنقطع عن الحركة ، لكنها امرأة طيبة ، أوكد لك ؛ وفى وسعها أن
 تقيدك كثيراً اذا أنت أظهرت شيئاً من التعقل • انظر : هأنا ذا آخذ من
 مكتبى سنداً مالياً (وأنت ترى أننى أملك سندات كثيرة أخرى) ، غير أن
 السند سيبدل منذ هذا المساء نقوداً رنانة • هل رأيت ؟ لم يبق لدى وقت
 أضيعه • هأنا ذا أغلق مكتبى ، وأغلق باب الشقة ، وها نحن نهبط
 السلم • هل تريد أن نركب عربة ؟ اننى ذاهب الى « الجزر » كما تعلم •
 هل يسرك أن تقوم بجولة صغيرة بالعربة • انظر : هأناذا آخذ هذه
 العربة ، وأطلب من الحوذى أن يقودنى الى جزيرة ايلاجين • ماذا ؟
 أترفض ؟ أنت منهوك القوى ؟ هيّا ••• لنقم بجولة صغيرة معاً ! أحسب
 أن المطر سيهطل ، ولكن لا ضير ، سترفع غطاء العربة •

كان سفدرىجايلوف قد استقر فى العربة • واعتقد راسكولنيكوف ،
 فى تلك اللحظة على الأقل ، أن شبهاته ليس لها ما يسوئونها • فاستدار
 دون أن يجيب بشىء ، وسار فى اتجاه « سوق العلف » • ولو قد التفت
 الى وراء لرأى سفدرىجايلوف ينقد الحوذى أجره بعد مائة خطوة ، ويعود
 يمشى على الرصيف • ولكن راسكولنيكوف لم يكن قادراً على أن يرى
 شيئاً ، وكان قد انعطف يقطع ناصية الشارع • ان اشمئزأاً كان يدفعه
 بعيداً عن سفدرىجايلوف • هتف يتساءل رغم ارادته : « كيف أمكننى ،
 ولو خلال لحظة قصيرة ، أن انتظر شيئاً من هذا الانسان الدنىء الحقير !
 من هذا الوغد السافل المنحط ! » • ولكن الحقيقة هى أن حكم
 راسكولنيكوف على سفدرىجايلوف كان فيه شىء من تسرع وتعجل • ومهما
 يكن من أمر فان الجو الذى خلقه سفدرىجايلوف كان يضىفى على
 سفدرىجايلوف شيئاً من شذوذ ، بل ويحيطه بشىء من السر • وظل

راسكولنيوف مقتنعاً بأن سفدريجاييلوف لن يدع أخته في سلام • ولكن التفكير واعدة التفكير في هذا الأمر كانا قد أصبحا يشقان كثيراً على نفس راسكولنيكوف •

فلما أصبح وحيداً لم يلبث بعد عشرين خطوة أن استرسل في أحلام عميقة على عادته • حتى اذا وصل الى الجسر توقف قرب الافريز وأخذ يتأمل الماء ، بينما كانت آفدوتيا رومانوفنا تتأمله هو • كان قد قاطعها عند أول الجسر تماماً ، ولكن دون أن يلاحظها • وهذه أول مرة تلتقى فيها دونيا بأخيها في الشارع على هذا النحو ، وقد انقبض صدرها رعباً وذعراً حين رآته ، وتوقفت لا تدري أتسأله أم لا • ثم لم تلبث أن لمحت سفدريجاييلوف على حين فجأة ، متجهاً نحو « سوق العلف » بخطى سريعة ، وكأنه يسير محاذراً متخفياً ؛ ولم يدخل الجسر ، بل توقف على الرصيف ، متنحياً بعض التنحي ، حتى لا يراه راسكولنيكوف • كان قد لاحظ دونيا منذ برهة طويلة ، وهو يحرك لها يديه بإشارات فهمت دونيا منها أنه يحضها على أن لا تنادى أباها ، وأن تتركه وشأنه ، وأن تلحق به هو •

وذلك ما فعلته دونيا : فما هي ذا تتجاوز أباها ، دون أن تقول كلمة ، وما هي ذى تقترب من سفدريجاييلوف •

دمدم سفدريجاييلوف قائلاً لها :

– تعالى بسرعة ! لا أريد أن يعلم روديون روماتشس بموعدنا • اعلمى اننى خارج من حانة قريبة وافانى فيها ثم لم أعرف كيف أتخلص منه الا بكثير من المشقة والعناء ! لا أدري كيف سمع بأمر الرسالة التى بعثت بها اليك ، وهو الآن يشتهبه فى أن هناك شيئاً ما • أرجو أن لا تكونى أنت التى بحت له ببعض الأسرار • ولكن اذا لم تكونى أنت ، فمن عسى يكون ؟•••

قاطعته دونيا تقول :

- لقد انعطفنا وقطعنا ناصية الشارع ، فأصبح أخى لا يستطيع أن يرانا • لن أتبعك الى أبعد من هذا المكان • فقل لى كل شىء هنا • اننا نستطيع أن نتكلم فى الشارع •

- أولاً : لا يمكن أن يقال هذا فى عرض الشارع • ثانياً : ينبغي أن تسمى أيضاً صوفيا سيميونوفنا • ثالثاً : هناك وثائق يجب أن أظهرك عليها • أخيراً : اذا كنت ترفضين أن تجيئى الى بيتى فسوف أمتنع عن كل شرح ، وسوف أنصرف فوراً • هذا وأرجوك أن لا تنسى أن سرّاً شائقاً جداً ، متعلقاً بأخيك الحبيب ، يوجد بين يدي •

توقفت دونيا مترددة ، ورشقت سفدريجاييلوف بنظرة نافذة ، فسألها سفدريجاييلوف هادئاً :

- ممّ تخافين ؟ ليست المدينة كالريف • ثم انك فى الريف قد أسأت الى أكثر مما أسأت اليك • لذلك •••

- هل أطلعت صوفيا سيميونوفنا ؟

- لا ، لم أقل لها كلمة واحدة ، حتى اننى لست واثقاً كل الثقة بأنها الآن فى بيتها • ولكن أغلب الظن أنها هناك • لقد دفنت اليوم قريبتها ، فما هذا يوم زيارات تقوم بها • على كل حال ، لن أحدث أحداً فى هذا الأمر الآن ، حتى ليؤسفنى أننى أطلعتك عليه ، فان أقل طيش يساوى هنا وشاية • انظرى : هذا هو المنزل الذى أقطن فيه ، أمامنا • والبواب يعرفنى جيداً • هذا هو يحيينى كما ترين • انه يلاحظ أن معى سيدة • وطبيعى أن صورة وجهك قد نقشت الآن فى ذاكرته • وينبغى لهذا أن يطمئنك اذا كنت تخافين منى وتشكين فى • اغفرى لك هذه

الفضاظة فى مخاطبتك • أنا هنا مستأجر عند مستأجرين ، وليس يفصلنى
 عن صوفيا سيميونوفنا الا حائط ، فهى أيضاً مستأجرة عند مستأجرين •
 الطابق كله مسكون ، فممّ خوفك ؟ ألا أن هذا الخوف لخوف طفلة
 صغيرة ! أنا مخيف الى هذه الدرجة ؟

قال سفدريجاييلوف ذلك وهو يصطنع ابتسامة أراد لها أن تعبّر عن
 الطيبة والسماحة ، ولكنه كان قد بلغ من الاضطراب حدّاً لا يستطيع معه
 أن يحسن التمثيل • كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت أنفاسه مختنقة •
 وكان يعتمد أن يتكلم بصوت قوى ليخفى اضطرابه المتزايد ، ولكن دونيا
 لم تلاحظ هذا الاضطراب • لقد ساءها كثيراً ما قاله عن خوفها الذى
 يشبه خوف الأطفال وعن هيئته المخيفة فى نظرها •

قالت بلهجة ظاهرها هادىء ، وكان وجهها شاحباً شحوباً شديداً :
 - رغم اننى أععدك رجلاً لا شرف له ••• فانى لا أخاف منك
 البتة • تقدمنى !

توقف سفدريجاييلوف أمام باب صونيا •

- اسمحى لى أن أسأل هل هى فى بيتها • لا ، ليست فى بيتها •
 يا لسوء الحظ ! لكننى أعلم أنها قد تعود بين لحظة ولحظة • لئن تغيبت ،
 فما ذلك الا لأنها ذهبت تزور سيدة لتبحث معها أمر الأيتام • فاذا لم
 ترجع خلال عشر دقائق فسوف أرسلها اليك فى هذا اليوم ان رغبت فى
 ذلك • هذا مسكنى ، وهاتان هما الحجرتان اللتان أحتلهما • وراء هذا
 الحاجز تسكن صاحبة البيت السيدة ريسليش • والآن أنظرى هنا ، سوف
 أظهرك على وثائقى الأساسية • من غرفة نومى يفضى هذا الباب الذى
 ترين الى غرفتين خاليتين كل الخلو ، معدّتين للتأجير • انظرى •• يجب
 أن تنتبهى اليهما أكبر الانتباه •

كان سفدريجاييلوف يشغل غرفتين مؤنثتين واسعتين • أجالت دونيا بصرها فيما حولها مرتابة ، لكنها لم تلاحظ شيئاً خاصاً يلفت النظر ، لا في أثاث الغرفتين ولا في ترتيبهما ، رغم أنها كان يمكن أن تنتبه الى أن شقة سفدريجاييلوف تقع بين بيتين غير مسكونين تقريباً ، يصل المرء اليهما لا من الممر رأساً ، بل باجتياز غرفتين خاليتين لصاحبة البيت • وفتح سفدريجاييلوف باباً مقفلاً بالمفتاح ، يقع في آخر غرفة نوميه ، فأرى دونيا المسكن الخالي المعد للتأجير •

وقفت دونيا عند العتبة لا تدري لماذا يدعوها سفدريجاييلوف الى أن تنظر ، ولكن سفدريجاييلوف أسرع يمدها بالشروح فقال لها :

– انظري هنا ، الى هذه الغرفة الثانية • لاحظي هذا الباب • انه مغلق بالمفتاح • وقرب هذا الباب يوجد كرسي • انه الكرسي الوحيد الذي يمكن العثور عليه في هاتين الغرفتين • أنا الذي جئت به الى هنا لأحسن التنصت بغير عناء ولا تعب • ووراء هذا الباب مباشرة ، توجد مائدة صوفيا سيميونوفنا • لقد كانت جالسة الى هذه المائدة تتحدث مع روديون رومانتش • فمن موضع جلوسى على هذا الكرسي ، فى هذا المكان نفسه ، ظللت أنا أتنصت الى حديثهما مساءين متتاليين ، خلال ساعتين فى كل مرة • فعرفت بعض الأمور طبعاً • ما رأيك ؟

– تنصت على الباب ؟

– نعم ، تنصت على الباب • والآن فلنذهب الى غرفتي • هنا لا نستطيع أن نجلس •

قال سفدريجاييلوف هذا وقاد آفدوتيا رومانوفنا الى الغرفة الأولى التى يتخذها صالوناً ، ودعاها الى الجلوس • وجلس هو الى الطرف الآخر من المائدة ، ولكن عينيه كانتا تسطمان بذلك اللهب نفسه الذى كان قد

روّع دونيا ترويعاً شديداً في ذات يوم • ارتعشت دونيا ؛ ومرةً أخرى نظرت فيما حولها مرتابة • كانت لا تريد أن تظهر ارتيابها ، غير أن حالة العزلة في شقة سفدريجايلوف أثارت دهشتها وقلقها أخيراً ، فأرادت أن تسأله هل صاحبة الدار موجودة في الدار على الأقل ، ولكن كبرياءها صدّتها عن هذا السؤال • وكان قلبها على كل حال يعاني ألماً أشد كثيراً من كل ألم يمكن أن تعانيه في سبيل نفسها • وكان هذا الألم يعذبها عذاباً شديداً •

بدأت تتكلم فقالت وهي تضع رسالته على المائدة :

— هذه رسالتك • هل ما أوردته فيها ممكن ؟ انك تلمع الى جريمة ارتكبتها أخى • لا تحاول أن تتهرب وأن تتملص الآن • ان الماعك أوضح من أن تنكره • واعلم أننى حتى قبل أن أتلقى رسالتك كنت سمعت عن هذه الحكاية الدنيئة التي لا أصدق منها حرفاً واحداً • ان افتراضاً كهذا الافتراض منحط وسخيف في آن واحد • اننى أعلم كيف لُفّقت هذه الحرافة • لا تستطيع أن تقدم أى برهان على ••• لقد وعدتني بأن تبرهن : فتكلم اذن ! ولكن عليك أن تعلم سلفاً اننى لن أصدقك • لا ، لن أصدقك ! لا ، لن أصدقك !

قالت دونيا هذه الكلمات متدفقة ، واحمر وجهها احمراراً شديداً من فرط الانفعال في لحظة •

قال سفدريجايلوف :

— ولكن اذا كنت لا تصدقيني فلماذا جئت الى بيتي وحيدة ؟ نعم ، لماذا جئت الى بيتي ؟ هل بدافع الفضول وحده ؟

— لا تعذبنى ! تكلم ! تكلم !

- لا شك فى أنك فتاة شجاعة • لقد ظننت أنك ستطلين من السيد رازوميخين أن يصحبك الى هنا • لكنه لم يظهر لا معك ، ولا حولك • لقد نظرت ملياً فلم أره • هذه شجاعة منك • أنت تريدان اذن أن تنقذى أخاك روديون روماتشس ! على كل حال ، فان كل ما فيك عظيم ، رائع !
••• أما أخوك ، فماذا أقول لك عنه ؟ لقد رأيته بنفسك ، فما رأيك فى حالته ؟

- أرجو أن لا تكون حالته هذه هى الأساس الذى بنيت عليك اتهمك اياه !

- لا ، لا ، لم أبني اتهامي على حالته فحسب ، بل على أقواله أيضاً • على كل حال ، لقد جاء الى صوفيا سيميونوفنا مساءين متتالين ، فجلسا فى المكان الذى أريتك اياه • وهناك اعترف لها بكل شيء ، اعترافاً تاماً • انه قاتل • قتل العجوز المرايية التى كان قد رهن عندها أشياء ، وقتل اختها المتاجرة التى تسمى اليزابت والتى دخلت مصادفةً بينما كان يقتل العجوز • قتلها كليهما بساطور جاء به لانفاذ جريمته • قتلها ليسرق ، وقد سرق • أخذ مالا ، وأخذ أشياء صغيرة ! ••• أنا انما أروى لك ما رواه هو نفسه ، كلمةً كلمةً ، لصوفيا سيميونوفنا التى تعرف وحدها السر والتى لم تشارك فى جريمة القتل أية مشاركة ، لا بالقول ولا بالفعل ، حتى لقد روعتها هذه القصة كما تروّعك أنت الآن • لا تتخافى ! لن تشي به !

تمتت دونيا تقول وقد ابيضت شفتاها ، واخنتق صدرها :

- هذا مستحيل ! مستحيل ! ليس هناك أى سبب يدفعه الى ذلك ! ليس هناك أى باعث يحضه على ذلك ! ••• هذا كذب ! كذب فطيع ! •••
- لقد سرق • هذا هو الدافع الوحيد • أخذ مالاً ومجوهرات •

صحيح أنه ، كما قال ، لم ينتفع بذلك المال ولا بتلك المجوهرات ، بل مضى يخبىء كل شيء تحت صخرة ما تزال تدفن تحتها المال والمجوهرات جميعاً ♦ ولكن السبب فى ذلك هو أنه لم يجرؤ ♦♦♦

صاحت دونيا تقول وهى تنهض عن مكانها واثبة :

– ولكن هل يُعقل أن يكون قد سرق ؟ هل يمكن أن يكون قد راودته هذه الفكرة حقاً ؟ انك تعرفه ، انك رأيتَه ، فهل يمكن أن يكون لصاً سارقاً ؟

لكنها كانت تتضرع الى سفدرىجايلوف ♦ كان يبدو أنها نسيت خوفها وذعرها ♦

– هناك يا آفدوتيا رومانوفنا أُلوف وملايين من أصناف السارقين : رب رجل يسرق وهو يدرك فى قرارة نفسه أنه يرتكب عملاً سيئاً ♦ وقد سمعت مرةً عن رجل نبيل المحتد كريم النفس أنه سلب عربة بريد ، فمن يدري ؟ لعله حين فعل ذلك كان يظن أنه يقوم بعمل محمود ؟ لو كنت فى مكانك لدُهشت دهشتك هذه نفسها ، ولو روى لى هذه القصة شخص آخر لما صدّقتَه ♦ ولكنى لا أستطيع أن أكذب أذنىّ ♦ ان أخاك قد بسط لصفوفيا سيمونوفنا كافة الدوافع الذى حضته على ارتكاب فعلته ، فأبت هى نفسها أول الأمر أن تصدّق ، ولكنها لم تملك أخيراً الا أن تصدّق ، حين رأت هيئته ♦♦♦ فهناك الآذان ، وهناك الأعين أيضاً ♦

– وما هى تلك الدوافع ؟

– تلك حكاية طويلة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا ♦ كيف أشرح لك ؟ لقد اعتمد على نظريته تلك المعروفة التى تجيز الجريمة على شرط أن تكون تلك الجريمة ذات هدف عادل نبيل ♦♦♦ فعلة شر واحدة فى مقابل مائة

فعل من أفعال الخير ! ثم ... أليس يشق على نفس فتى موهوب جداً ، زاخر بكبرياء لا حدود لها ، أن يحس أنه لو ملك ثلاثة آلاف روبل فقط لتغير مستقبله كله ، وأن لا يستطيع الحصول على ذلك المبلغ ؟ أضيفى الى ذلك حالة الخنق المرضى الناشئ عن جوعه المزمن ، وعن سكناه فى حجرة ضيقة مسرفة فى الضيق ، وعن ارتدائه اسمالاً بالية وخرقاً ممزقة ، وعن شعوره بكل ما فى وضعه الاجتماعى من بؤس وشقاء ، بالاضافة الى وضع أمه وأخته . وهناك ، فوق ذلك كله ، الطموح ، والأنفة ، والغرور ، وربما عواطف طيبة أيضاً ... الله أعلم ! صدقى أننى لا أتهمه . ثم ان اتهامه ليس شأنى أنا . وهناك أيضاً نظريته الصغيرة تلك - هى نظرية كآية نظرية أخرى - تلك التى تذهب الى أن الانسانية تنقسم الى فئتين ، فئة الأفراد المواد وفئة الأفراد الأفاضل الخارقين أى الأفراد الذين يجيز لهم مستواهم العقلى أن لا يصدّهم أى قانون من القوانين ، فهم الذين يفرضون القوانين على غيرهم ، أى على أولئك الذين تتألف منهم فئة الأفراد المواد ، الذين يتألف منهم القطيع ، الذين هم الغبار ! نظرية لطيفة كآية نظرية أخرى ، أليس كذلك ؟ لقد فتنه نابوليون كثيراً ، أو قولى انه انقاد لاغراء ذلك الرأى الذى يرى أن العباقرة لا يكثرنون لحالات الظلم الفردية ، بل يتخطونها فلا يرتبكون بأمور هينة يسيرة . ولقد تخيل ، فيما يبدو ، أنه هو نفسه عبقرى ؛ أو قولى على الأقل انه كان مقتنعاً بهذا خلال مدة من الزمن . وقد تعذب كثيراً كذلك ، وما يزال يتعذب ، فهو يدرك الآن أنه ان استطاع أن يضع نظرية ، فلقد عجز عن المضى قدماً بلا تردد ؛ أى لقد أدرك أنه ليس عبقرياً . وهذا الادراك أمر يشعر منه الفتى ، اذا كانت نفسه زاخرة بالكبرياء ، يشعر منه بمذلة كبيرة واهانة عظيمة ، ولا سيما فى عصرنا هذا ...

– وعذاب الضمير ؟ أنت تنكر عليه اذن أى حسٍ أخلاقى ؟ أهو
 ••• حقاً ••• كما تصف ؟

– آه يا آفدوتيا رومانوفنا ! ان كل شىء قد اضطرب الآن واختل •••
 ناهيك عن أن النظام الكامل لم يوجد فى هذا العالم يوماً • ثم ان الروس
 على وجه العموم أصحاب نفوس واسعة رحبية كأراضيهم ، وهم ميّالون
 كثيراً الى الخيال والنزوة والفوضى • ولكن النفس الواسعة الرحبية تكون
 خطرة اذا لم يوهب لها شىء من عبقرية • تذكرى مناقشاتنا القديمة فى
 هذا الموضوع هناك ، فى الشرفة المطلة على الحديقة ••• لقد كنت تعيين
 على سعة النظر هذه منذ ذلك الأوان • من يذرى مع هذا ؟ لعله ، حينما
 كنا نحن نتكلم ، كان هو مستلقياً على فراشه يجتر مشروعه • ان مجتمعنا
 المثقف لا يلمح بتقاليده يا آفدوتيا رومانوفنا • بعض الناس يصنعون
 لأنفسهم تقليداً من التقاليد كيفما اتفق ، من كتب قرأوها ، وبعضهم
 يستمدون أصباغ تقليد من بعض حكايات الماضى • ولكن هذا انما يصدق
 على العلماء ، وأكثرهم يبلغ من الحماسة أن رجلاً من رجال المجتمع
 الراقى يخجل من اقتفاء أثرهم واتخاذهم قدوة له • على أنك تعرفين
 آرائى : أنا لا ألوم أحداً • كل ما هنالك اننى أتحاشى أن أقحم نفسى
 فى شىء • لقد سبق أن تحدثنا فى هذا مراراً • حتى ان آرائى قد شرفها
 أن حظيت باهتمامك ••• انك شاحبة جداً يا آفدوتيا رومانوفنا •

– أنا أعرف نظرية أخى هذه • قرأت فى مجلة من المجلات مقالته
 عن الرجال الذين يباح لهم كل شىء • ان رازوميخين هو الذى جاءنى
 بتلك المجلة •

– السيد رازوميخين ؟ مقالة أخيك ؟ ولكننى كنت أجهل وجود
 مقالة كهذه المقالة • لا بد انها شائعة جداً !••• الى أين أنت ذاهبة
 يا آفدوتيا رومانوفنا ؟

– أريد أن أرى صوفيا سيميونوفنا • من أين يجب المرور للذهاب إليها ؟ لعلها عادت ! أريد أن أراها على الفور حتماً • يجب أن •••

لم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تتم كلامها ، فقد انقطع تنفسها فعلاً •

– لن تعود صوفيا سيميونوفنا قبل هبوط الليل • هذا ما افترضه على الأقل • كان يجب أن تعود اما في وقت مبكر جداً واما في وقت متأخر جداً •••

– آ ••• الآن أرى أنك تكذب ! الآن أرى أنك تكذب ! أنت لم تزد على أن كذبت ! اننى لا أصدّق كلمة واحدة مما ذكرت ••• لا أصدّق منه كلمة واحدة !

بهذا صاحت دونيا وقد خرجت عن طورها وفقدت صوابها •
ثم تهالكت على كرسى أسرع يقدمه اليها سفدريجايلوف وقد أوشكت أن تسقط مغشياً عليها •

– ماذا بك يا آفدوتيا رومانوفنا ؟ عودى الى نفسك ! اليك ماء !
اشربى جرعة ماء !

قال سفدريجايلوف لها ذلك ، ورشّ وجهها بالماء ، فارتعشت وأفاق •

فقدم يقول بينه وبين نفسه مقطّب الوجه :

– ما أبلغ تأثير هذا الأمر فى نفسها •

ثم قال لها :

– هدئي روعك يا آفدوتيا رومانوفنا ! أنت تعرفين أن له أصدقاء •
 سوف تنقذه ، سوف نخرجه من المأزق ! هل تريدان أن أساعده على أن
 يجتاز الحدود ؟ اننى أملك مالا • وبعد ثلاثة أيام سأكون قد استخرجت
 له جواز سفر • لقد قتل ، نعم ، ولكن هدئي نفسك • ما يزال فى وقته
 متسع لأن يقوم بأعمال خيرة كثيرة • ما يزال يستطيع أن يصبح رجلاً
 عظيماً • ما بك ؟ ألا تشعرين الآن بتحسّن ؟

– رجل شرير ••• ما يزال يستطيع أن يسخر ويستهزى !

••• دعنى

– الى أين أنت ذاهبة ؟ الى أين ؟

– اليه ! أين هو ؟ هل تعلم أين هو ؟ لماذا هذا الباب مغلق ؟ من
 هذا الباب دخلنا ، فمالى أراه الآن مقفلاً بالمفتاح ؟ متى أتيح لك أن
 نقفله ؟

– لم يكن فى الامكان أن نسمع جميع الغرف ما قلناه ! وأنا
 لا أسخر ولا استهزى البتة ، حتى اننى سئمت من الحديث فى هذا الأمر
 كله • غريب ! الى أين تريدان أن تذهبي ؟ أتركك تريدان أن ترجيه
 فى السجن ؟ لو ذهبت اليه لاشتعل غضباً وحنقاً ، ولمضى يشى بنفسه !
 اعلمى أنه مراقب منذ الآن ، وأنهم يتبعونه • لسوف تكشفين أمره مزيداً
 من الكشف ! انتظري ••• لقد رأيت منذ قليل وكلمته • ما يزال فى
 الامكان انقاذه • انتظري • اجلسى • سنفكر معاً • من أجل هذا انما
 دعوتك ، من أجل أن نتحدث فى خلوة وأن تعمق درس المشكلة • ولكن
 هلا جلست !

– بأية طريقة تستطيع أن تنقذه ؟ وهل يمكن انقاذه ؟

قالت دونيا ذلك وجلست ، فجلس سفدرىجايلوف الى جانبها ، وبدأ

يتكلم فقال وقد اشتعلت عيناه ، قال بما يشبه الدمدمة وهو لا يكاد يستطيع أن ينطق بالكلمات :

- كل شيء متوقف عليك ***

فتراجعت دونيا بضع خطوات ، مذعورةً مرتجفةً • وكان سفدريجاييلوف يرتجف هو أيضاً من قمة الرأس الى أخمص القدمين •

- أنت *** كلمة منك أنت وينقذ ! أنا *** أنا سوف أنقذه !
عندي مال ، ولى أصدقاء ! سأرحله فوراً ، وسأحصل أنا نفسى على جواز سفر • • سأحصل على جوازي سفر ، واحد له وواحد لى • لى أصدقاء • • رجال قانون • • هل تريدون ؟ وسأحصل أيضاً على جواز سفر لك أنت ، ولأمك • • ما حاجتك الى رازوميخين ؟ اننى أحبك مثلما يجبك • أحبك حباً لا نهاية له • دعيني أقبل حافة ثوبك ! دعيني أفعل هذا ، دعيني أفعل هذا ! أصبحت لا أطيق سماع حفيف ثوبك ! مرينى بما يجب أن أفعل فأفعل • سأفعل كل شيء ، سأفعل المستحيل ! أصدق كل ما تصدقينه وأومن بكل ما تؤمنين به ! أفعل كل شيء ، كل شيء ! لا تنظرى الى هكذا ، لا تنظرى الى هكذا ! هل تعلمين أنك تقتلينى • •

أخذ سفدريجاييلوف يهنى • ان شيئاً ما قد مسّه فجأة ، كأنه تلقى ضربة على رأسه • ونهضت دونيا بوثة • واندفعت نحو الباب ، وصاحت تقول وهى تهز الباب بكلتا يديها :

- افتحوا ! افتحوا ! ألا فتحم الباب ؟ هل يمكن أن لا يكون ثمة أحد ؟

كان سفدريجاييلوف قد جلس ، وها هو ذا ينهض الآن وقد ألت ابسامة خبيثة ساخرة بشفتيه اللتين كانتا ما تزالان ترتعشان •

قال بصوت خافت متقطع :

- ليس نمة أحد • صاحبة الدار خرجت • تضيّعين وقتك سُدَى
بهذا الصراخ • تثيرين أعصابك في غير طائل •

- أين المفتاح ؟ افتح الباب ! افتح الباب فوراً ! فوراً ! يا لك من
جبان حقير !

- أضعت المفتاح ، ولا أعثر عليه !

صاحت دونيا تقول وقد اصفر وجهها حتى لكأنها ميتة :

- آ... هذا اغتصاب اذن !

وهرعت الى ركن من الغرفة ، وأسرعت تتحصن فيه وراء منضدة
صغيرة كانت في متناولها •

أصبحت الآن لا تصيح ، لكنها كانت مثبتة بصرها في عدوها ترصد
بنظرة يقظة أيسر حركة من حركاته • وقد أصبح سفدرىجاييلوف
لا يتحرك هو أيضاً ، ولبث واقفاً أمامها في الطرف الآخر من الغرفة •
كان قد استطاع أن يسيطر على نفسه ، في الظاهر على الأقل • لكن وجهه
ظل أصفر كما كان قبل ذلك ، وما تزال ابتسامته الساخرة مرسمة على
شفتيه • وقال أخيراً :

- لقد نطقت أنت بكلمة « الاغتصاب » يا أفدوتيا رومانوفنا • ولكن
إذا كان في نيتي أن اغتصبك، فلا بد أنني اتخذت احتياطاتي كما تقدرين •
ان صوفيا سيميونوفنا ليست في بيتها • ولكي تصلى الى أسرة كابرنأوموف،
يجب أن تجتازى خمس غرف هي الآن جميعاً مقفلة بالمفتاح • ثم اننى
أقوى منك مرتين على الأقل ، هذا عدا اننى لست أخشى على شيء البتة ،
فلن يكون في وسعك أن تذهبي لتشتكيني • لن تريدى أن تفضحى

أخاك ، أليس هذا صحيحاً ؟ ثم ان أحداً لن يصدقك على كل حال ، فلماذا تذهب فتاة منفردة الى بيت رجل وحيد ؟ فحتى لو ارتضيت ان تضحى بأخيك ، فلن تستطيعى أن تبرهنى على شىء • نعم ، انه لمن الصعب جداً أن تثبتى أن « اغتصاباً » قد حدث يا آفدوتيا رومانوفنا •

دمدمت دونيا تقول حانقة :

– جبان !

– قولى ما تشائين ، ولكن لاحظى اننى لم أقدم الا افتراضات • وأنا شخصياً أوافقك فى رأيك كل الموافقة : ان الاغتصاب دناءة وحطة • لكننى أردت أن أفهمك أن ضميرك لن يعذبك أى تعذيب اذا ••• اذا أنت ارتضيت ، بمحض ارادتك ، أن تنقذى أخاك ، كما اقترح عليك • فانما أنت تخضعين عندئذ للظروف ، أو تخضعين للقوة اذا لم يكن بد من استعمال هذه الكلمة • فكرى : ان مصير أخيك ومصير أمك بين يديك • أما أنا فسأظل عبدك المطيع ••• ما حييت ••• وسأظل أنتظرك هنا •••

جلس سفدرىجاييلوف على الأريكة ، على مسافة ثمانى خطوات من دونيا • لكن دونيا أصبحت لا يساورها أى شك فى أن ما عقد العزم عليه ثابت لا يتزعزع • لقد كانت تعرفه حق المعرفة •

فها هى ذى تسل من جيبها مسدساً على حين فجأة ، فتحشوه بالرصاص بسرعة ، وتضع يدها على المنضدة دون أن ترخى المسدس ، فينتفض سفدرىجاييلوف وينهض عن مجلسه ، ويصيح مدهوشاً ، وهو يضحك مع ذلك ضحكاً ساخراً شريراً :

– آ ••• هكذا اذن ! لا ، لا ، ان هذا يغير الموقف تغييراً تاماً ، ويقبله رأساً على عقب • أنت بهذا تيسرين على الأمور كثيراً يا آفدوتيا

رومانوفنا ! ولكن أين وجدت هذا المسدس ؟ هل السيد رازوميخين هو الذى ؟؟؟ ولكن ؟؟؟ عجيب ؟؟؟ هذا مسدسى أنا ! لطالما بحثت عنه ! ان دروس الرماية التى تشرفت باعطائك اياها فى الريف لم تذهب اذن سدى !

– ليس هذا مسدسك أنت أيها الوغد ، بل مسدس مارتا بتروفنا التى قتلتها ! لا شيء فى ذلك المنزل كان ملكك أنت ! لقد أخذت المسدس حين أخذت أشبه فى نياتك وأدرك سفالتك • يميناً لو تجرأت فتقدمت خطوةً واحدة لقتلتك فوراً !

كانت دونيا خارجة عن طورها فاقدة صوابها ، وهى ممسكة بالمسدس متأهبة لاطلاق الرصاص •

قال سفدرىجايلوف وهو ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه :

– وأخوك ؟ على اننى انما ألقى عليك هذا السؤال من باب الفضول لا أكثر !

– أخى ؟ أبلغ عنه السلطات ان شئت ! لا تتحرك ، والا أطلقت الرصاص • لقد دسست لزوجتك السم فى الطعام ، أنا أعرف ذلك ، أنت نفسك قاتل !

– هل أنت على يقين من أننى دسست السم لمارتا بتروفنا ؟

– نعم ، أنت ! حتى لقد ألمعت الى هذا السم أمامى • وانى لأعلم أنك انما سافرت لتجىء به ••• هيات كل شيء ••• أنت القاتل ! ••• لا يمكن أن يكون القاتل أحداً غيرك أيها الشقى !

– حتى اذا صح هذا ، فانك تكونين أنت السبب •

– كاذب ! أنا أبغضتك دائماً ، دائماً !

– مهلاً مهلاً يا افدوتيا رومانوفنا *** أرى أنك نسيت كيف
كنت ، أثناء تمثيلك دور الواعظ ، تميلين علىّ متلهفة النظرات • لقد
قرأت الحب في عينيك *** ألا تتذكرين ذلك العنديل الذي كان يغني
في ضوء القمر ذات مساء ؟

– كاذب ! كاذب ! مقترٍ نمّام !

• كان الخنق يشتعل في عيني دونيا •

قال سفدريجاييلوف :

– كاذب *** لنسلّم باننى كاذب ! على كل حال ، ما ينبغي للمرء
أن يذكرّ النساء بمثل هذه التفاصيل الصغيرة ***

وابتسم ، ثم أردف قائلاً :

– أنا أعلم أنك ستطلقين النار أيتها المتوحشة الصغيرة *** فماذا
تنتظرين ؟ أطلقى !

شهرت دونيا مسدسها على سفدريجاييلوف وقد اصفر لون وجهها
حتى لكأنه وجه ميت ، وابتضت شفاتها وأخذتا تختلجان اختلاجاً قوياً •
كانت تنظر اليه بعينيها اللتين ترشقان شرراً ، وقد عزمّت أمرها فهي ترصد
أيسر حركات الرجل •

لم يرها جميلةً هذا الجمال كله في يوم من الأيام • ان اللهب الذي
كان ينبجس من عيني الفتاة حين شهرت عليه المسدس قد أحرقه احراقاً •
وتشنج قلبه ألماً •

وتقدم سفدريجاييلوف خطوة ، فانطلقت الرصاصة ، فلامست شعره
ومضت تضرب الحائط وراءه • فتوقف ، وأخذ يضحك في رفق وهدوء •

٥٥

— وخزنتى النحلة ! انها تسدد الى الرأس ••• ما هذا ؟ دم ؟

وأخرج منديله ليمسح خيطاً دقيقاً من دم كان يسيل على صدغه
الأيسر : لعل الرصاصة قد خدشت الجلد المغطى بالشعر •

خفضت دونيا المسدس ونظرت الى سفدرىجايلوف • ان نظرتها
لا تعبر عن الذعر بقدر ما تعبر عن الانشدهاء • لكأنها لم تدرك ماذا فعلت
ولا ماذا ما حدث !

قال سفدرىجايلوف بصوت خافت ، مع ابتسامة حزينة :

— طاشت الضربة • هلاًّ أطلقت مرةً أخرى ! انى أنتظر ! والا
كان فى وقتى متسع لأن أقبض عليك قبل أن تشدّى الزناد مرةً أخرى •
ارتعشت دونيا ، وأسرعت تحشو المسدس برصاصة ثانية ، وشهرته
على سفدرىجايلوف من جديد • وقالت يائسة :

— دعنى ! يمينا لأطلقن مرةً أخرى اذا لم تتركنى ! يمينا •••
لأقتلك •••

— وبعد ذلك ؟ صحيح أنه يستحيل أن تطيش الضربة من على بعد
ثلاث خطوات ••• ولكن ماذا لو أخطأتنى مرةً ثانية ، ما عساك فاعلة
حينذاك ؟•••

قال ذلك وسطعت عيناه ، وتقدم خطوتين أخريين ، فضغطت دونيا
على الزناد ، ولكن الطلقة لم تخرج •

— لم تحسبنى حشو المسدس ! لا بأس ! ما يزال عندك رصاصة •
آحكمى وضعها ! سوف أنتظر •

كان واقفاً أمامها على بعد خطوتين منها ينتظر ، وينظر اليها بعينين

يتوهج فيهما لهيب ثقيل شهواني ، وتعبران عن عزيمة وحشية وتصميم جنوني ♦

أدركت دونيا أنه يؤثر أن يموت على أن يدعها تنصرف ♦ « طيب ، طيب ، في هذه المرة ، وهو منها على بعد خطوتين فقط ، ستقتله فعلاً » ♦ بهذا حدثت دونيا نفسها ، ولكن ها هي ذى ترمى المسدس فجأة ♦

قال سفدرىجايلوف مدهوشاً وقد استرد أنفاسه :
- رميته ؟

وأحس كأن قلبه قد تخلص فجأة من حمل كبير ثقيل ، حمل ليس مردّه الى ما عاناه من قلق الشعور بخطر الموت فحسب ، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان قد زايله منذ برهة ، وانما هو أحس أنه تخلص من شيء آخر ، من شعور أشد ايلاماً وأحلك ظلاماً ، شعور لا يستطيع هو نفسه أن يحدّده ♦

واقرب من دونيا ، وضمّ اليه قامتها فى رفق وهدوء ، فلم تقاوم ، ولكنها نظرت اليه بعينين ضارعتين وهى ترتعش كورقة فى مهب الريح ♦ ودّ لو يقول شيئاً ولكن شفّيته تقلصتا ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ♦

قالت له متوسلة بصيغة المخاطب المفرد :

- اتركنى !

فاختلج سفدرىجايلوف ♦ ان استعمالها لصيغة المخاطب المفرد تختلف لهجتها الآن عن لهجة استعمالها لهذه الصيغة منذ قليل ♦
سألها بصوت خافت :

– أأنت لا تحيينى اذن ؟

فحركت دونيا رأسها بإشارة النفي • فهمس يسألها يائساً :

– ولن ••• تستطيعى ••• أن تحيينى فى يوم من الأيام ؟

فأجابته هامسة :

– لا ، لن أستطيع ذلك فى يوم من الأيام !

نشبت فى نفس سفدرىجايلوف ، خلال لحظة من الزمن ، معركة خرساء رهيبية • كان يتأمل دونيا بنظرة لا سبيل الى وصفها • وفجأة سحب يده ، واستدار ، وأسرع يتعد نحو النافذة ، ولبث هنالك جامداً لا يتحرك •

انقضت برهة أخرى •

وها هو ذا يخرج مفتاح الباب من جيب معطفه ، فيضعه على المنضدة وراءه دون أن يلتفت نحو دونيا ، بل ودون أن يلقي عليها نظرة واحدة ، قائلاً لها :

– اليك المفتاح ! خذيه وانصرفى بسرعة !

كان ينظر الى النافذة فى عناد ، لا يحول بصره عنها يمناً ولا يسرة • اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح • فقال سفدرىجايلوف مكرراً ، دون أن يتحرك أو أن يلتفت :

– بسرعة ، بسرعة •

ولكن كلمة « بسرعة » هذه كان لها جرس رهيب !

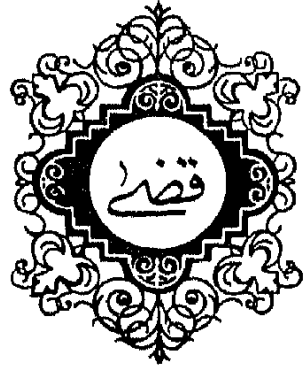
لاحظت دونيا ذلك • وتناولت المفتاح ، واندفعت نحو الباب ففتحته ،

وهرعت تخرج من الغرفة • فما هي الا دقيقة واحدة حتى كانت تجرى
كالمجنونة على طول القناة في اتجاه جسر س •••

لبث سفدريجاييلوف أمام النافذة ثلاث دقائق • ثم التفت ببطء ،
ونظر حواليه ، ومرّ بيده على جبينه في رفق • ان ابتسامة غريبة تعقف
الآن شفّيته ، ابتسامة أسيانة حزينة ضعيفة ، ابتسامة هي ابتسامة ألم كبير
ويأس شديد • وكان الدم قد جف على يده ، فنظر اليه نظرة تفيض
بغضاً ، ثم بلل خرقةً بالماء فمسح بها صدغه • ووقع بصره على المسدس
الذي كانت قد رمته دونياً فتدحرج على الأرض • انه مسدس صغير
للجيب ، من طراز قديم ذي ثلاث طلقات • ان فيه الآن طلقتين وكبسولة •
ما يزال يمكن استعماله مرة • فكّر سفدريجاييلوف لحظة ، ودس
المسدس في جيبيه ، ثم تناول قبعته وخرج •

الفصل السادس

السهرة حتى الساعة العاشرة في الحانات والمحلات
المشبوحة متنقلاً بينها • وعثر في مكان ما على
كاتيا • كانت كاتيا ما تزال تغنى أغنياتها المألوفة
التي تتحدث عن « الطاغية الحقير »



الذي أخذ يقبل كاتيا

فسقاها سفدريجاييلوف وسقى صاحبها الصغير ، العازف على أرغن
بارباريا ، وسقى الخدم والمغنين ، واثنين من صغار الموظفين جذبته اليهما
أن أنفهيهما معوجّجين ، فأحد الرجلين كان أنفه منحرفاً الى اليمين ،
وثانيهما كان أنفه منحرفاً الى الشمال ، فلفت هذا الأمر انتباه
سفدريجاييلوف وخطف بصره • وقاده الموظفان أخيراً الى حديقة ملاه ،
فدفع عنهما رسم الدخول وثمان الشراب •

كان في الحديقة شجرة نحيلة من أشجار الصنوبر لم يبق لها الا
ثلاثة أفرع ، وكان في الحديقة كذلك مبنى أُطلق عليه اسم «فوكسهول»*
من باب التفخيم وما هو في حقيقته الا خمارة صغيرة يُشرب فيها الشاي
أيضاً • ان في الخمارة عدة موائد صغيرة ، وكراسي خضراء ؛ وفيها
جوقة هزيلة من المغنين ، وألماني بلغ السكر منه كل مبلغ (هو نوع من
ممثل مهرّج أحمر الأنف ، لكن وجهه يظل كالحا الى أقصى حد ،

لا يدري المرء كثيراً لماذا) ، وكانت مهمة الجسوة والألماني تسليية
الزبائن •

تشاجر الموظفان الصغيران مع موظفين آخرين كانوا هناك ، حتى
أوشك التشاجر أن يصير الى تماسك بالأيدي • واحتكم المشاجرون الى
سفدريجاييلوف ، فلبث يحكم بينهم مدة ربع ساعة محاولاً أن يفهم
موضوع التشاجر ، ولكنه لم يفلح فى ذلك من شدة صراخ هؤلاء
وأولئك • أغلب الظن فيما أشارت اليه الدلائل أن واحداً منهم كان قد
سرق شيئاً من الأشياء واستطاع أن يجد يهودياً اشتراه منه فوراً ، ولكن
السارق بعد أن باع الشيء المسروق رفض أن يقاسم رفيقه ثمنه •
واتضح أخيراً أن الشيء المسروق كان ملعقة شاي من محل «فوكسهول» ،
وقد تمّ تعرفها ، وبدأت القضية تتخذ أبعاداً مقلقة • فما كان من
سفدريجاييلوف الا أن دفع ثمن الملعقة ، ونهض ، وغادر حديقة
الملاهي •

كانت الساعة تقترب من العاشرة • لم يشرب سفدريجاييلوف
خمرة طوال تلك السهرة ، وانما كان يكتفى بطلب كأس من الشاي ؛
وحتى هذا انما كان يفعله من باب التقييد بالشكل • وكان الحر أثناء ذلك
ثقيلاً وكانت السماء مكفهرة • وفى نحو الساعة العاشرة تقدمت غيوم
كبيرة من جميع أطراف الأفق ، وأرعدت السماء وأخذ المطر يهطل
غزيراً كأنه السيول • كان الماء لا يتساقط قطرات ، وانما هو شلالات
تضرب الأرض • وكان ومض البرق يتعاقب سريعاً ، فلا يكاد يستطيع
المرء أن يعد أكثر من خمسة بين كل ومضة ومضة • وابتل
سفدريجاييلوف بالماء حتى العظام ، ووصل أخيراً الى بيته ، فأغلق على
نفسه الباب ، ثم فتح درج مكتبه فأخرج منه أمواله وسندياته ، ومزق
بعض الأوراق ، حتى اذا فرغ من دس أمواله كلها فى جيبه ، بدا له

أن يبدل ملابسه ، لكنه بعد أن ألقى نظرة الى النافذة وأصاح بسمعه الى هزيم الرعد وتساقط المطر ، حرك يده بإشارة تتم على عدم الاكتراث ، وتناول قبعته ، وخرج دون أن يغلق الباب وراءه ، ومضى الى صونيا رأساً ، فوجدها فى غرفتها •

لم تكن صونيا وحدها ، وانما كان يحيط بها أولاد كابرناؤموف الأربعة • كانت صوفيا سيمونوفنا تسقيهم شايًا • واستقبلت سفدريجاييلوف بصمت واحترام ، ونظرت مدهوشة الى ثيابه المبتلة ، لكنها لم تقل كلمة واحدة • أما الأولاد فسرعان ما هربوا وقد استولى عليهم ذعر لا يغالب •

جلس سفدريجاييلوف الى المائدة ، ورجا صونيا أن تجلس قربه ففعلت ، وتهيات لأن تصغى اليه خجلة وجلة •

قال سفدريجاييلوف :

— صوفيا سيمونوفنا ، ربما سافرت الى أمريكا ، وربما كان هذا آخر لقاء بيننا ، لذلك جئت أتخذ بعض الاجراءات • لقد رأيت اليوم تلك السيدة ، أليس كذلك ؟ أنا أعرف ما قالته لك ، فلا حاجة الى أن ترويه لى (هنا حرّكت صونيا يدها بإشارة واحمر وجهها) • ان لهؤلاء الناس تفكيراً خاصاً معروفاً • على كل حال ، فيما يتعلق بأختيك الصغيرتين وأخيك الصغير ، فان مستقبلهما مؤمن ؛ لقد توليت بنفسى دفع المال الذى يجب أن يتول اليهم ، وأخذت به ايصالات • خذى ، اليك الايصالات • بهذا تُسوّى المسألة • واليك ثلاثة سندات قيمتها ثلاثة آلاف روبل • هذه لك أنت • أرجو أن يبقى هذا الأمر سرّاً بيننا لايعلم به أحد ، مهما تسمعى من كلام • سوف تحتاجين الى هذا المال يا صوفيا

سيميونوفنا ، فان الحياة التى عشتها حتى الآن سيئة ، فلن تضطرى اليها
بعد اليوم ♦

تمت صوتيا تقول :

- غمرتني بنعم وآلاء كثيرة ♦♦♦ أنا ♦♦♦ والأيتام ♦♦♦ والمرحومة
أيضاً ♦♦♦ وحتى الآن لم أشكر لك جميلك ♦ لا يذهبن بك الظن
خاصةً الى أن ♦♦♦

- رحماك ! رحماك !

وتابعت صوتيا كلامها فقالت :

- أما هذا المال يا أركادى ايفانوفتش ، فانى أشكره لك أجزل
الشكر ♦♦♦ لكننى لست فى حاجة اليه + اننى وقد أصبحت وحدى
أستطيع أن أجنى رزقى + لا تحسبن هذا عقوقاً + وما دمت انساناً محسناً
الى هذا الحد ، فان هذا المال يمكن دائماً أن ♦♦♦

- بل هذا المال لك أنت يا صوفيا سيميونوفنا ، وكفى كلاماً ،
أرجوك ! ليس فى وقتى متسع ♦ لك أنت ، سيكون هذا المال مفيداً +
لا يملك روديون روماتشش الا أن يختار أحد أمرين : فاما رصاصة
فى رأسه ، واما طريق فلاديمير * ♦

نظرت اليه صوتيا مروعةً وأخذت ترتجف ♦ وتابع هو كلامه

يقول :

- لا تقلقى ! لئن كنت أعرف كل شيء ، فلأنه هو الذى روى لى
كل شيء !♦♦♦ واذا كنت امرءاً قليل الثروة ، فلن أذكر لأحد شيئاً ♦
أنت أسديت له فى ذلك اليوم نصيحة طيبة جداً ، هى أن يشى بنفسه
ويعترف بجريمته ♦ وذلك هو خير ما يمكن أن يفعله + ومتى حانت
ساعة الرحيل الى سيبيريا ، فسيرحل اليها ، وستبعينه أنت ، أليس

كذلك ؟ فأنت اذن في حاجة الى مال • سوف تحتاجين الى هذا المال من أجله هو ، هل تفهمين ؟ وأنا حين أعطيك هذا المال فكأننى أعطيه هو اياه • ثم انك قد تعهدت لآماليا ايفانوفنا بأن تدفعى الديون التى لها على أسرتك • هذا سمعته بنفسى • ولكن لماذا يا صوفيا سيميونوفنا تقطعين على نفسك مثل هذه العهود بمثل هذا التسرع والطيش دون تأنٍ أو تروء ؟ ان كاترين ايفانوفنا هى المدينة للألمانية ، لا أنت • فكان ينبغى لك أن لا تحفلى بهذه الألمانية وأن لا تكثرى لها • ما هذا أسلوب سليم فى الحياة ! على كل حال ، اذا استجوبوك فى يوم من الأيام - غداً أو بعد غد مثلاً - اذا استجوبوك عني ، أقصد عن أمرى (وسيستجوبونك عن أمرى حتماً) ، فايالك أن تذكرى شيئاً عن زيارتى هذه خاصة ، واياك أن تتيحى لأحد أن يفترض أننى أعطيتك مالاً • والآن ، الى اللقاء !

قال سفدرىجايلوف ذلك ونهض وهو يتابع كلامه قائلاً :

- تحياتى لروديون رومانتش ••• بالمناسبة : اخزنى المال عند السيد رازوميخين الى حين الحاجة اليه • تعرفين السيد رازوميخين ، أليس كذلك ؟ تعرفينه حتماً ! انه فتى طيب شهم ! فاحملى اليه المال غداً ، أو ••• حين يأزف الوقت ! والى أن يأزف الوقت ، خيئه عن الأنتظار •

كانت صونيا قد نهضت هى أيضاً وشخصت بصرها اليه مذعورة • ودت لو تقول شيئاً ما ، ودت لو تطرح سؤالاً ، لكنها لم تجرؤ فى البداية ، وكانت عدا ذلك لا تعرف كيف تتدبر أمر اللقاء السؤال • وقالت أخيراً :

– لكن .. لكن ... هكذا .. هكذا .. تخرج ... تحت هذا

المطر ؟

– هه ! هل يخشى المرء المطر اذا كان يتهيأ للسفر الى أمريكا ؟
استودعك افي يا صوفيا سيميونوفنا العزيزة • أتمنى لك أن تعيشي
طويلاً ، فلسوف تكونين مفيدة نافعة للآخرين • بالمناسبة : أبلغني السيد
رازوميخين تقديري • قولى له بالنص : ان أركادى ايفانوفتش
سفدريجيلوف يبلغك تقديره • لا تنسى •

قال ذلك وخرج تاركاً صونيا فى جمود وذعر ، وقد استولى عليها
شعور غامض ثقيل بأن شيئاً سيحدث •

وقد عُرف فيما بعد أن سفدريجيلوف ، فى ذلك المساء نفسه ،
بعد الساعة الحادية عشرة ، قد قام بزيارة أخرى ، زيارة بعيدة جداً ،
غير متوقعة أبداً • كان المطر ما يزال يهطل غزيراً • وها هو ذا ، فى
فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين ، يدخل البيت الصغير الذى
يقطنه أهل خطيبته بالزقاق الثالث من فاسيلفسكى اوستروف عند ناصية شارع
نفسكى • كان مبتلاً بالماء ابتلالاً شديداً • لقد طرق الباب مدة طويلة ،
ففتحوا له آخر الأمر ، فأحدث ظهوره فى البداية اضطراباً كبيراً ؛ لكن
أركادى ايفانوفتش قد أوتى موهبة حسن الحيلة ولباقة السلوك وجمال
التصرف متى شاء ، لذلك فان الظن الأول الذى قام فى وهم أهل خطيبته
(وهو ظن لطيف ، فقد اعتقدوا أنه سكر فى مكان ما فأصبح لا يدرى ماذا
يفعل) ، لم يلبث أن سقط من تلقاء نفسه • وبادرت أم الخطيبة ، المرأة
الحنون الشفوق العاقلة ، فجزت مقعد الأب الهرم الخرف العاجز حتى
صار قرب أركادى ايفانوفتش ، وسرعان ما أخذت تتحدث على عاداتها
بالتاء أسئلة ملتوية غير مباشرة (ان هذه المرأة لا تلقى فى يوم من الأيام

أسئلة مباشرة : انها تبدأ بأن تبسم وتأخذ تفرك يديها ، فاذا رغبت مثلاً في أن تعرف ما ينتويه أركادى ايفانوفتش فيما يتعلق بالتاريخ الذى ينوى تحديده للاحتفال بزواجه ، طفقت تسأل الرجل بكثير من الشوق والشراهة عن باريس ، وعن حياة المجتمع الراقى هناك ، ثم لا تصل الى فاسيلفسكى أوستروف والى ما يجب أن يحدث فيها الا رويداً رويداً * ولقد كان يمكن ، فى ظروف غير هذه الظروف ، أن يصغى سفدرىجايلوف الى كلامها باحترام شديد واهتمام عظيم ، لكنه بدا فى هذه المرة نافذ الصبر جداً ، وأسرع يقاطعها بأن طلب رؤية خطيته فوراً (رغم أنه كان قد أعلم ، منذ أولى الكلمات التى جرى بها الحديث ، أنها قد نامت) * فقال لها أركادى ايفانوفتش بدون لف أو دوران ان عليه ، بسبب ظروف طارئة استثنائية ، أن يغادر بطرسبرج الى حين ، وانه اذ يغادر بطرسبرج قد جاءها بخمسة عشر ألف روبل ، أوراقاً مالية وسندات ، راجياً أن تقبلها هدية منه اليها ، وانه على كل حال كان ينوى منذ مدة طويلة أن يقدم اليها هذه الهدية التافهة قبل الزواج *

صحيح أن هذه الشروح لم تظهر الصلة المنطقية بين الهدية والسفر المباشر ، لا ولا أوضحت ضرورة المجيء فى منتصف الليل تحت وابل المطر * ومع ذلك لم يعترض أحد أى اعتراض * وحتى الأسئلة وصيحات التعجب المعهودة كانت فى هذه المرة معتدلة جداً ، على خلاف العادة * وتدفق الشكر فى مقابل ذلك حاراً عنيفاً ، حتى أن الأم العاقلة ذرفت فى سبيل الشكر دموعاً * ونهض أركادى ايفانوفتش ، وابتسم وقبل خطيته ، وربت على خدها فى رفق ولين ، وأكد مرة أخرى أن غيابه لن يطول : واذا لاحظ فى عيني الخطية الصغيرة استطلاعاً طفلياً جدياً فى آن واحد ، وتساؤلاً أبكم ، فكّر لحظة ، وقبلها مرة أخرى ، وشعر فى الوقت نفسه بحسرة حقيقية لأنه قدّر أن الأم العاقلة ستخبى الهدية مقلعة عليها

بالمفتاح • وخرج آخر الامر ، تاركاً جميع من بالبيت فى حالة احتياج شديد خارق • وسرعان ما أخذت الأم العاقلة الواسعة الأفق تقرر بوشوشات صغيرة وكلمات قليلة سريعة عدداً من الحقائق الخطيرة جداً ، مؤكدة على وجه التخصيص أن سفدرريجاييلوف رجل ذو سلطان ، رجل له أعمال وصلات ، وأنه على جانب عظيم من الشراء الطائل ، والله يعلم ما الذى خطر بباله لكنه قد عنّ له أن يسافر فسافر ، ثم عنّ له أن يهب مالاً فوهب ، فلا داعى الى التعجب والدهشة والحالة هذه • صحيح أن وصوله مبتلاً على هذه الحال أمر غريب ، ولكن أغلب الظن أن هذه خصلة من خصال الانجليز وعادة من عاداتهم • انها الشذوذ والتفرد ، أليس كذلك ؟ ثم ان أبناء المجتمع الراقى لا يحفلون كثيراً بما قد يقال عنهم ، فهم لذلك لا يتحرجون • حتى ان من الممكن أن يكون أركادى ايفانوفتشس قد تعمد المجيء تحت وابل المطر ليظهر أنه لا يخاف من أحد ولا يهاب أحداً • ولكن ينبغى خاصة أن لا تقال كلمة واحدة لأى انسان عن هذه « المغامرة » ، فالله وحده يعلم ما هو المجرى الذى قد تنقلب اليه هذه الأمور كلها • ويجب اخفاء المال والاقفال عليه بالمفتاح بأقصى سرعة ، والحمد لله على أن فيدوسيا قد بقيت فى المطبخ • نعم ، يجب خاصة أن لا يقال لأحد شيء • • • هست • • • هست ! • • • ما من كلمة اذن ، لا لتلك الذبابة الصغيرة ريسليش ، ولا للآخرين ، وهلمّ جراً ، وهلمّ جراً • • وظلوا يثرثرون ويتهامسون على هذا النحو حتى الساعة الثانية من الصباح • لكن الخطية مضت تنام قبل ذلك بكثير ، وهى تشعر بشيء من الدهشة وكثير من الحزن •

وفى أثناء ذلك ، عندما دقت الساعة منتصف الليل ، كان سفدرريجاييلوف يجتاز جسر « • • • كوف » فى اتجاه « حى بطرسبرج » • كان المطر قد انقطع عن الهطول ، لكن الريح ما تزال تزمجر • أخذ

سفدرياجيلوف يرتعد من البرد ، ونظر خلال دقيقة من الزمن ، بنوع من الاستطلاع الخاص ، بنوع من الاستطلاع السائل المستفهم ، نظر الى المياه السوداء ، مياه نهر « نيفا الصغير » . لكنه سرعان ما وجد أن البرد أشد من أن يستطيع المكث فوق الماء على هذا النحو . فاستدار ، واتجه نحو شارع « س . . . » .

ظل سفدرياجيلوف يسير مدة طويلة لعلها بلغت نصف ساعة ، في ذلك الشارع الذى لا نهاية له ، وتعثرت قدماه بالرصيف الخشبي مراراً في الظلام ، ولكنه ظل مصراً على أن يبحث عن شيء ما كان يجب أن يوجد في الجهة اليمنى من الشارع . انه حين مرّ هنا منذ مدة بالعربة قد لمح في مكان ما ، على اليمين ، فندقاً لا بد أن اسمه « فندق آندرينوبل » اذا صدقت ذاكرته . ان هذا الفندق هو في هذا الحى التائه علامة بارزة يستحيل أن يخطئها المرء حتى في الظلام الدامس . هو مبنى طويل من خشب ، اسودّ من كثرة السنين التى تعاقبت عليه ، كانت تسطع فيه أضواء رغم تقدم الليل ، وكانت تلاحظ فيه حركة وجلية .

دخل سفدرياجيلوف الفندق ، فالتقى في الدهليز بخادم بائس المظهر خلق الثياب ، فطلب منه غرفة . فبعد أن ألقى عليه الخادم نظرة ، هزّ جسمه ، وقاده فوراً الى حجرة صغيرة لا هواء فيها تقع في ركن تحت السلم عند آخر الممر . لم يكن بالفندق غرفة أخرى خالية ، فجميع الغرف مشغولة .

نظر الخادم الى سفدرياجيلوف بهيئة مستطلعة مستفهمة . فسأله سفدرياجيلوف :

- هل عندكم شاي ؟

- يمكن أن نهيب لك شايًا .

— ماذا عندكم أيضاً ؟

— لحم عجول ، فودكا ، مقبّلات •

— جئني بلحم عجول وشاي •

سأل الخادم متردداً بعض التردد :

— ولست في حاجة الى أى شيء آخر ؟

— لست في حاجة الى أى شيء آخر ؟

فانصرف الخادم وقد خاب قلبه •

حدث سفدريجاييلوف نفسه قائلاً : « لا بد أنه محل مريب • كيف لم يخطر هذا ببالي ؟ آ • • • لا شك أن هيئتي أنا أيضاً هيئة رجل عاد من قصف وحدثت له مغامرة في الطريق • ليتني أعرف نوع الناس الذين يتلبثون هنا لقضاء الليل ! » •

وأشعل سفدريجاييلوف شمعة وفتش الغرفة تفتيشاً دقيقاً • هي حجرة صغيرة تضيئها نافذة واحدة ، وتبلغ من الضيق أن رجلاً له قامة كقامة سفدريجاييلوف لا يكاد يستطيع أن يقف فيها ، وقد امتلأت مساحتها كلها بسرير قذر ومنضدة مدهونة وكرسی عتيق • أما الجدران فكانها من ألواح خشبية انفكت المسامير التي تربط بعضها ببعض ؛ وهي مغطاة بورق ملطخ مهترى • ممزق يملؤه الغبار فلا يكاد يستطيع البصر أن يميّز فيه أى رسم ، ولا يكاد يرى منه الا لون أرضيته (الصفراء) • وكان جزء من الجدار يؤلف مع السقف زاوية مقطوعة ، شأن جميع الحجرات التي تقع تحت الأسطح ، غير أن السلم يمرُّ هنا فوق الزاوية المقطوعة •

وضع سفدريجاييلوف الشمعة على السرير ، وغرق في أفكاره وخواطره • غير أن دمدمة غريبة متصلة كانت تعلو في الغرفة المجاورة

وتصل الى حد الصراخ أحياناً ، فما لبثت أن استرعت انتباهه • ان هذه الأصوات لم تنقطع فى الواقع منذ دخل • أصاح سفدرىجاييلوف بسمعه : كان هناك شخص يقرّع شخصاً آخر ويصب عليه أنواع اللوم ، ولكنه يفعل ذلك وهو يكاد يبكى • ليس يميّز المرء الا صوتاً واحداً •

نهض سفدرىجاييلوف ، ووضع يده حاجزاً أمام لهب الشمعة ، فسرعان ما أضاء شق صغير فى الجدار ، فاقرب سفدرىجاييلوف من الشق ونظر • الغرفة أوسع قليلاً من غرفته ، وفيها رجلان أحدهما أجمعد الشعر محمر الوجه قد وقف متخذاً وضع الخطيب ، مباعداً ساقيه للمحافظة على توازنه ، وأخذ يلطم صدره لاثماً صاحبه بلهجة عاطفية مؤثرة على أنه رجل شقى تافه ليس له أى رتبة ، وليس له أى كرامة اجتماعية ، مذكراً اياه بأنه هو الذى أخرجه من الماء ، ففى وسعه أن يعود فيغطسه فى الماء متى شاء ، وان عين الله وحدها ترى حقيقة الأمر كله • وكان الرجل الثانى الذى ينصب عليه هذا التقرير وهذا التأييب جالساً على كرسى ، وهيئته هيئة رجل يودُ لو يعطس لكنه لا يفلح فى ذلك على أى نحو من الأنحاء ، وهو يلقي على الخطيب من حين الى حين نظرة مضطربة بلهاء • كان واضحاً أنه لا يفهم من الأمر كله شيئاً على الاطلاق •

وعلى المائدة ، حيث كانت توجد شمعة ذائبة توشك أن تنطفىء ، كان يوجد أيضاً ابريق فودكا يكاد يكون فارغاً ، وأقداح كبيرة وأقداح صغيرة ، وخبز ، وخيار مخلل ؛ ورغم أن الشاى قد شُرب منذ مدة طويلة حتماً ، فان الفناجين والأطباق والملاعق ما تزال ملقاة كذلك على المائدة •

تأمل سفدرىجاييلوف هذه اللوحة بانتباه ، ثم ابتعد عن الجدار بدون اكتراث ، وعاد يجلس على السرير •

وحين عاد الخادم يحمل لحم العجل والشاى ، لم يستطع أن يمتنع

عن سؤال سفدريجاييلوف مرة أخرى أليس في حاجة الى شيء آخر ،
فلما سمع جواب النفي من جديد انصرف أخيراً الى غير رجعة • وأقبل
سفدريجاييلوف على الشاي التماساً للدفع ، فاحتسى منه كأساً ، لكنه لم
يستطيع أن يذوق اللحم ، فقد كان لا يشتهي أن يتناول أى طعام •

واضح أن الحمى كانت قد أملت به • وخلع معطفه وسترته ،
واضطجع على السرير ، ومدّ على نفسه الغطاء • كان مستاءً ممتعضاً •
« ان من الأفضل على كل حال أن أكون سليم العافية لهذا الظرف » ،
كذلك قال يحدث نفسه ، وضحك ساخرًا •

كان جو الغرفة خانقاً ، وكانت الشمعة ترسل ضياء مضطرباً ،
وكانت الريح فى الخارج تزمجر ، وكانت فأرة تخدش شيئاً من الأشياء
فى مكان بأحد أركان الغرفة ، وكانت الغرفة كلها تشيع فيها رائحة
فئران وجلد على كل حال •

لبث مضطجعاً غارقاً فى أحلامه • كانت الحواطر تتعاقب فى خياله ،
يطرد بعضها بعضاً • كان كمن يريد أن يتشبث بشيء ما فى الخيال بكل
ما أوتى من قوة • قال يحدث نفسه : « لا شك أن تحت النافذة حديقة
تهز الريح أشجارها فتهمهم ! آه ••• لشد ما أكره همهمة الأشجار أثناء
العاصفة فى الظلام ! يا له من احساس كريبه ! » • وفى هذه المناسبة تذكر
مروره بحديقة بتروفسكى ، مشمئزاً • وتذكر عندئذ مروره بجسر
« ••• كوف » على نهر « نيفا الصغير » أيضاً ، فأحس بتلك البرودة
نفسها التى أحسها منذ قليل حين توقف فوق النهر • « أنا لم أحب
الماء يوماً ، ولا فى مناظر الطبيعة » ، بهذا حدث نفسه ، ثم اذا بفكرة
غريبة توافيه فتجعله يضحك ضحك سخريه • قال يخاطب نفسه :
« يخيل الىّ مع ذلك أن قضايا الجمال والارتياح هذه كان ينبغى أن
لا تثير اهتمامى اليوم وأن تدعى غير مكترث بها أى اكتراث ، فما بالى

أعنى بها أشد العناية ؟ ألا اننى لأشبه الحيوان الذى يهمله اشد الاهتمام أن يختار لنفسه مكاناً مناسباً ••• فى حالة كهذه الحالة ! لقد كان الأفضل أن أستمر فى السير حتى أصل الى جزيرة بتروفسكى ! لكننى وجدت الليل حالك الظلمة والجو شديد البرودة ! هـى هـى هـى ! انى لأكاد أنشد الاحاسيس اللذيذة والمشاعر الممتعة ! بالمناسبة : لماذا لا أطفىء الشمعة ؟ »

قال لنفسه ذلك ونفخ على الشمعة فأطفأها ، واذ لم ير ضوءاً فى شق الجدار تابع حديثه لنفسه فقال : « نام جيرانى ! هلمنى يا مارتا بتروفنا ! الآن ، الآن انما ينبغى لك أن تجيئى شاكية ، فالظلام دامس ، والمكان مناسب ، واللحظة فريدة • ومع ذلك لا تجيئين اليوم ! » •

وتذكر فجأة ، دون سبب ظاهر ، أنه قبل وضع خططه المتعلقة بدونيا موضع التنفيذ ، تذكر أنه قبل ذلك بساعة قد نصح لراسكولنيكوف أن يجعل دونيا فى حماية رازوميخين • قال يحدث نفسه : « حقاً ••• لا بد أننى قلت ذلك من باب التبجح ، كما أدرك راسكولنيكوف ذلك فعلاً ! انه لماكر ، هذا الفتى راسكولنيكوف ! لكنه لعب لعبة كبيرة فوق طاقته • ولكى يصبح المرء ماكرآ كبيراً لا بد له من وقت ، لا بد له من أن ينتظر انقضاء عهد السخافات • وهو الآن « مسرف » فى حب الحياة • من هذه الناحية يتصف جميع هؤلاء الناس بأنهم جنباء • ولكن ما بالى أهتم بهم ! ليذهبوا الى الشيطان ! ألا فليفعلوا ما يشاءون ، فذلك لا يعينى ! » •

وظل سفدرريجاييلوف عاجزاً عن النوم • وشيئاً فشيئاً انبجست أمامه صورة دونيا كما رآها منذ قليل ، فسرت فى جسمه كله رعدة قوية على حين فجأة • قال يخاطب نفسه وقد ثاب الى صوابه : « لا ، يجب على الآن أن أتخلص من هذا كله • يجب أن أفكر فى شىء آخر • مضحك أمرى ••• مضحك : اننى لم أكره أحداً فى يوم من الأيام ، بل اننى لم تراودنى

رغبة قوية فى الانتقام قط • هذه علامة سيئة ! لا ولا أحببت يوماً أن أتساجر ، وأن أندفع وأتحمس ! هذه أيضاً علامة سيئة ••• ولكن ما أكثر الوعود التى بذلتها لها منذ قليل ! مع ذلك ، كان يمكنها أن تصنع منى رجلاً آخر » •

وصمت سفدرىجايلوف وكزَّ أسنانه • وعرضت له صورة دونيا من جديد ، تماماً كما رآها حين أطلقت طلقة أولى فاستولى عليها رعب رهيب فأرخت المسدس وهى تنظر اليه بعينها الواسعتين ••• حتى لكان يمكنه أن يمسكها مرتين لا مرة واحدة دون أن تستطيع اظهار أية مقاومة • لقد عنى هو نفسه بأن يردّها الى ادراك الواقع ! وتذكر أيضاً أنه شعر فى تلك اللحظة بنوع من الشفقة عليها والرافة بها ، وأن قلبه قد انقبض انقباضاً شديداً • « سحقتاً لهذه الخواطر !••• يجب التخلص من هذا كله ! يجب التخلص من هذا كله !••• » •

وأخذ النعاس يدب الى جفنيه ، وأخذت رعدة الحمى تهدأ وتراعى له فجأة أن تحت الغطاء شيئاً يركض على طول ذراعه وساقه • فارتعش ، وقال : « آ ••• لكانها فأرة ! طبعاً ••• لأننى تركت اللحم على المائدة ! » كره كرهاً فظيماً أن يكون عليه أن يكشف الغطاء عن جسمه ، وأن ينهض ، وأن يتعرض للبرد • لكن شيئاً لامس قدمه مرة أخرى ملامسة كريهة مزعجة ، فرمى عنه الغطاء وأشعل شمعة • ثم مال يتفحص السرير وهو يرتجف من الحمى ، فلم يجد شيئاً • حتى اذا نفّض الغطاء قفزت الى السرير فأرة على حين بغتة ، فأسرع يريد القبض عليها ، ولكن الفأرة أخذت ، دون أن تغادر السرير ، ترسم خطوطاً متعرجة فى كل اتجاه ، وتتلصص من بين أصابعه ، وتركض على ذراعه ، ثم اندست تحت المخدة • فرمى المخدة على الأرض ، ولكنه شعر فى تلك اللحظة نفسها بشيء يشب

عليه ، ويتنطط على طول قامته ، ويصبح فوق ظهره ، تحت قميصه •
 فارتعش سفدريجيلوف ارتعاشة عصبية واستيقظ من نومه •
 كان لا يزال راقداً على السرير ، متكوماً تحت الغطاء • وكانت
 الريح ما تزال تهمهم تحت النافذة •

قال لنفسه غاضباً : « يا له من حلم وسخ ! » •
 ونهض فجلس على حافة السرير مديراً ظهره الى النافذة « الأفضل
 أن لا أنام البتة » • على هذا حزين أمره • وكان يهب من النافذة هواء رطب
 بارد ، فشد سفدريجيلوف الغطاء وتدثر به دون أن يبارح مكانه • ولم
 يشعل الشمعة • كان لا يفكر فى شيء ، ولا يريد أن يفكر فى شيء على كل
 حال • لكن الصور كانت تلاحق الصور فى خياله ، وكانت شذرات أفكار
 تتتابع فى ذهنه فوضى لا تحكمها رابطة ولا ينظمها تسلسل • لقد أصبح
 فيما يشبه النوم • هل يرجع هذا الى البرد والظلمات والرطوبة والريح
 التى تزجر تحت النافذة وتهز الأشجار ؟ المهم أن أحلامه أخذت تتخذ
 أشكالاً غريبة ، وأخذت توظف فى نفسه رغبة ، وكانت أزهاراً تتراءى له
 بغير انقطاع • هذا منظر رائع يتفتح أمام بصره • نهار مضى ، دافئ ،
 يكاد يكون حاراً • هو يوم عيد العنصرة • منزل ريفى أنيق ثرى ،
 على الطراز الانجليزى ، ينتصب فى وسط مروج مزهرة ، وتحيط به
 أحواض موقوفة على زراعة الأزهار • نباتات متسلقة تتلفف فوق درجات
 مدخل المنزل غارقة تحت الورود • وعلى طول سلم كبير ، مضى ، نضير ،
 مغطى بسجادة فخمة ، تترتب أوانى خزف صينى تضم أزهاراً نادرة •
 ولاحظ سفدريجيلوف بوجه خاص ، على حواف النوافذ ، فى أوان
 ملىء بالماء ، باقات نرجسات بيض تميل على سيقانها الخضراء وتنشر عباقاً
 نافذاً • كان سفدريجيلوف يود أن لا يتعد عن هذه الأزهار ، ولكنه
 صعد السلم ودخل قاعة كبيرة عالية السقف • هناك أيضاً كانت الأزهار

منتشرة في كل مكان : على النوافذ ، قرب الباب الكبير الذي يطل على الشرفة ، وفي الشرفة نفسها • أرض القاعة مفروشة بعشب فوّاح أخضر نضر • مصاريع النوافذ مفتوحة تدخل منها الى القاعة أنسام لطيفة • العصفير تغرّد تحت النوافذ • ولكن في وسط الغرفة ، فوق منضدة فرشت بغطاء من قماش الساتان الأبيض الذي يُستعمل للموتى ، كان هناك تابوت • ان التابوت منجّد بنسيج من ساتان نابولي السميك ، ومحفوظ بإبزيم سميك ، أبيض اللون أيضاً • ان جبالاً من أزهار تطوّق التابوت من جميع الجهات • وبين الأزهار يرقد جثمان صبية ترتدى ثوباً من نسيج التول الأبيض ، قد عقدت ذراعيها على صدرها وشدت احدهما الى الأخرى حتى لكأنهما منحوتتان في المرمر • غير أن شعرها المبثر ، الأشقر ، رطب مخض • وعلى جبينها اكليل من الزهر يطوّقه • ان وجهها الذي يظهر من جانب ، ويعبّر عن قسوة ، ويبدو متجمداً منذ الآن يشبه أن يكون مقدوداً في مرمر أيضاً ، ولكن ابتسامة شفيتها الشاحبتين مصطبغة بحزن لا نهاية له ، حزن ليس من الطفولة ، حزن كبير • ان سفدريجاييلوف يعرف هذه البنية • لم يكن الى جانب التابوت لا صورة من صور العذراء ، ولا شموع مشتعلة ، وليست تُتلى عليها صلوات • ان هذه البنية قد انتحرت غرقاً • عمرها لا يتجاوز أربعة عشر عاماً ، لكن قلبها قد تحطم وهي في تلك السن : لقد سعت الى الموت ، لأنها وقعت ضحية اهانة روّعت ضميرها الى الأبد ، وملاّت نفسها بعار لا يستحقه وجدان الطفلة ، وانتزعت منها صرخة يأس هائلة اختنقت في الظلمات والبرد والجليد الذائب وزمجات الريح •••

استيقظ سفدريجاييلوف من نومه ، فترك سريره واتجه نحو النافذة ، واهتدى الى المزلاج ففتحها ، فاندفعت الى الحجرة الصغيرة هبة ربيع صفت خدّه وصدره الذي لا يغطيه الا القميص ، صفقهما بما يشبه رذاذ ثلج •

وكان تحت النافذة شيء يشبه أن يكون حديقة لعل رواد الفندق يقضون فيها أوقات بهجة ومسرة أحياناً ، فتغنى فيها الأغاني ويُقدّم فيها الشاي على موائد صغيرة نهاراً • أما الآن فان قطرات ماء تسيل على النافذة آتية من الشجيرات المحيطة ، وان الظلام يبلغ من الحلكة أن المرء لا يميّز الا بقعاً سوداء غامضة تدل على الأشياء دلالة مبهمه •

لبث سفدريجاييلوف خمس دقائق ، مائلاً الى أمام ، متكئاً بكوعيه على حافة النافذة ، محدقاً الى الظلام لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • وفجأة ، فى وسط الظلمات ، دوّت طلقة مدفع أولى فنائية •

قال سفدريجاييلوف يحدث نفسه : « هذا هو الانذار ! المياه تعلو ، فما ان يطلع الصبح حتى تندفق فى الشوارع فيضانات تغرق الأقيية • الفران ستطفو على سطح الماء ميتة • وتحت المطر والرياح سيأخذ الناس ينقلون متاعهم الى الطوابق العليا ، وقد تبللت أجسامهم وانهدت قواهم وأخذوا يشتمون ويلعنون ••• لكن كم الساعة الآن ؟ » •

وفيما كان سفدريجاييلوف يفكّر فى هذا ، اذا بساعة جدارٍ فى مكان بعيد تدق الثالثة بصوت عميق •

قال سفدريجاييلوف لنفسه : « آ •• بعد ساعة يطلع الصبح • فلماذا انتظر مزيداً من الانتظار ؟ سأصرف حالاً • سأمضى قدماً الى جزيرة بروفيسكى ، فأختار دغلاً يبلغ من التبلل بالماء أنه يكفيك أن تلمسه بكتفك حتى تهطل عليك ملايين القطرات ••• » وابتعد عن النافذة قليلاً ، فأغلقها ، ثم أشعل شمعة ، فارتدى صدرته ومعطفه ووضع على رأسه قبعته ، ومضى الى الممر حاملاً شمعته ، محاولاً أن يبحث عن الخادم الذى لا بد أنه نائم فى ركن من الأركان التى تودع فيها الأشياء البالية • كان سفدريجاييلوف يريد أن يدفع الحساب وأن يغادر الفندق • وقال يحدث نفسه : « هذه خير لحظة • لا يمكن اختيار لحظة أفضل » •

لبث يطوف في الدهليز الضيق الطويل مدة طويلة دون أن يلتقي بأحد . فلما همَّ أن ينادى اكتشف على حين فجأة ، في ركن مظلم ، بين خزانة قديمة وباب ، شيئاً غريباً ، شيئاً بدا له حياً . فمال على الشيء والشمعة بيده ، فرأى طفلة عمرها خمس سنين في أكثر تقدير ، ترتدى ثوباً خلقاً مبتلاً بالماء كابتلال خرقة من الحرق التي تغسل بها الصحون ، وهي ترتجف من البرد وتبكي . لم يظهر عليها ذعر حين رأت سفدريجايوف ، ولكنها حدقت إليه بعينها السوداوين الكبيرتين مبهوتة . وكانت تشهق من حين إلى حين ، كما يشهق طفل لبث يبكي مدة طويلة ثم انقطع عن البكاء ، لكنه ما يزال يشهق بين الفينة والفينة . كانت الطفلة شاحبة الوجه مشعثة الهيئة ، وكان واضحاً أن البرد قد بلغ منها العظام . ولكن كيف أمكن أن تقع في هذا المكان ؟ أغلب الظن أنها قد اختبأت في ركن ولم تتم طوال الليل !

أخذ سفدريجايوف يستجوبها . فانتعشت الطفلة فجأة ، وأسرعت تتدفق في الكلام فتروى بلغتها الطفولية قصةً فحواها أن أمها كانت ستضربها لأنها كسرت فنجاناً .

كانت الطفلة تتكلم بغير توقف ؛ وفي وسع المرء أن يحزر مما روته وقصته أنها ليست محبوبة ، وأن أمها (وهي طباحة تظل دائماً سكرى ، ولعلها طباحة هذا المحل) تروّعها وتضربها ، وأن البنت حين كسرت الفنجان قد بلغ خوفها من الشدة أنها هربت منذ الليلة البارحة ؛ وأنها اضطرت أن تختبئ مدة طويلة في مكان ما من الحوش ، تحت المطر ، ثم استطاعت أن تتسلل إلى هذا المكان خلصةً ، فاختبأت وراء الخزانة ، وقضت الليلة هنالك مرتعدةً من البرد مرتجفةً باكية .

تناول سفدريجايوف الطفلة بذراعيه ، وعاد إلى غرفته فوضعها على سريريه وأخذ يخلع لها ملابسها . كان حذاءها مقطّعين ، مبتلين بالماء

ابتلالاً شديداً لكأنهما قد نُقعا في غدِير ليلةٍ كاملةٍ • ولم يكن لهما جوربان •

فلما فرغ سفدريجاييلوف من خلع ملابسها عنها ، أرقدها ودثرها بالغطاء حتى العنق ، فما لبثت أن نامت فوراً • وما ان انتهى من هذا حتى عاد يفرق في أحلامه المظلمة وخوابره القائمة •

قال يحدث نفسه : « هذا ما كنت في حاجة إليه أيضاً ! أن أقحم نفسي في مثل هذه القصة ! يا للحماقة ! » • وتناول الشمعة متعاطلاً ليمضي باحثاً عن الخادم من أجل أن ينصرف بأقصى سرعة • فلما همَّ أن يفتح الباب أفلتت من لسانه شتيمة للطفلة الصغيرة ، ومع ذلك عاد يلقي عليها نظرة ليرى هل نامت وكيف كان نومها • رفع الغطاء محاذراً • كانت البنية تنام نوماً عميقاً هادئاً سعيداً • لقد دقَّأها الغطاء ، حتى ان خديها قد استردتا لونهما منذ الآن • ولكن الشيء الغريب أن هذا اللون كان أسطح انقاداً مما يلاحظ في الأطفال الآخرين • فقال سفدريجاييلوف لنفسه : « ان بها حمى » • لكأنها قد شربت ، لكأنها قد سُقيت كأساً من الخمر كبيرة مترعة • ان شفيتها الحمر اوين تبدوان كالمحترقين • « ماذا ؟ ما هذا ؟ » • لقد رأى سفدريجاييلوف فجأة أن أهداب الصبية ، الطويلة السوداء ، تختلج وترتعش كأنها تفتح ، ورأى من تحت الأهداب نظرةً ماكرة حادة ليست نظرة أطفال ، تتسلل إليه ، فكأن الطفلة غير نائمة لكنها تتظاهر بالنوم • نعم ، ذلك ما كان ••• وانفجرت شفتا الصبية عن ابتسامة ، وكانت أطراف الشفتين تختلج كأنها تحاولان كظم ضحكة • ولكن محاولة الكظم تنتهي ، فتتلق الضحكة • انها ضحكة صريحة ، وقحة ، فيها تحدٍ واستفزاز ، تتفجر في وجه لم يبق فيه الآن شيء من طفولة • هو الآن وجه العهر والانحلال ، وجه وقح زايله الحياء ، وجه امرأة مثل « كاميليا » * مثل « غادة الكاميليا » ، وجه مومس تتعاطى البغاء

فى سبيل المال ، مومس فرنسية • وها هى ذى البنت ، بعد أن لم يبق لها ما تخفيه ، ها هى ذى تفتح عينيها ، وتلفه بنظرة عنيفة محرقة ، فى غير تحفظ أو احتشام • ان عينيها تناديانه ، وتضحكان ••• وان هناك شيئاً دنساً مسيئاً مهيناً فى هذه الضحكة ، وفى هاتين العينين ، وفى كل هذا الوجه الذى أصبح لا يعبر الا عن الرجس والعار • « وكيف ؟ أفى هذه السن ؟ أفى الخامسة من العمر ؟ » ، بهذا تتم سفدريجايلوف مذعوراً • ولكن ها هى ذى تدير نحوه وجهها المتقد ، وتمد اليه ذراعيها ، فيقول مروءعاً : « آه ••• يا للمعونة ! » ، ويشهر عليها ذراعه ••• ولكنه استيقظ من نومه فى تلك اللحظة •

كان لا يزال راقداً على سريره متدثراً بالغطاء • ولم تكن الشمعة مشتعلة ، غير أن بياض الفجر كان يلوح من وراء النوافذ •

« كوايس طوال الليل ! » • كذلك قال سفدريجايلوف ، ثم نهض منتصباً على سريره فى غيظ وحنق • كان يحس بأنه محطّم • انه يشعر بوجع فى جميع عظامه • وفى الخارج كان ينتشر ضباب كثيف يحجب الرؤية • لا بد أن الساعة قريبة من الخامسة • لقد نام مدة طويلة جداً •

وقام سفدريجايلوف ، فارتدى سترته ومعطفه اللذين ما يزالان مبتلين ؛ وبعد أن تلمس مسدسه فى جيبه ، أخرجه فتبّت من الكبسولة ، ثم جلس ، وتناول دفترأ صغيراً فكتب على الورقة الأولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة • حتى اذا أعاد قراءة الأسطر التى كتبها ، رجع يسترسل فى أحلامه من جديد ، متكئاً بكوعيه على المائدة • المسدس والدفتر ما يزالان على المائدة قرب كوعه • وقد استيقظ الذباب فهو يتهافت على قطعة لحم العجل التى لم يمسهها • ظل سفدريجايلوف ينظر الى الذباب برهة طويلة ، وحاول أخيراً أن يلتقط ذبابة من الذبابات بيده اليمنى التى كانت طليقة • ولكن لم يفلح فى ذلك رغم الجهود الكثيرة التى بذلها •

وفاجأ نفسه آخر الأمر مستغرقاً في هذا العمل ، فثاب إليه صوابه ،
وارتجف ، ونهض فخرج من الغرفة بخطى حازمة ثابتة • فما هي الا
لحظة حتى كان في الشارع •

ان ضباباً بلون اللبن كان يغمر المدينة • وسار سفدريجاييلوف على
أرض الشارع الخشبية الموحلة الزلقة ، في اتجاه نهر « نيفا الصغير » •
كان لا يكف عن تخيل مياه النهر التي ارتفعت أثناء الليل ، وعن تخيل
جزيرة بتروفسكى ، والطرق المنقوعة والعشب الغارق والأشجار والأدغال
التي يتقاطر منها الماء ، ثم الدغل المقصود ! • • • • • واعتاز من ذلك فأخذ
يتفحص المنازل من حوله ليصرف تفكيره الى شيء آخر • لم يكن
في الشارع أحد من المارة ، ولم يكن فيه أية عربة • والمنازل الخشبية
الصغيرة ، الصفراء الفاقع لونها ، كانت بنوافذها المغلقة ومصاريعها الموصدة ،
قدرة المظهر كالحلة الهيئة •

أخذ سفدريجاييلوف يرتجف من البرد والرطوبة اللذين نفذوا فيه •
فاذا وقع بصره على لافتة دكانٍ من الدكاكين بين الحين والحين ، أخذ يقرأ
الكلمات مدققاً متفحصاً •

ها قد انتهى الشارع المبلّطة أرضه بالخشب • لقد وصل
سفدريجاييلوف الى مبنى كبير من حجر • وهذا كلب صغير بشع يمر
أمامه قاطعاً الشارع ، واضعاً ذيله بين قائميه • وهذا رجل سكران حتى
لكأنه ميت من فرط السكر ، قد رقد على الرصيف عرّضاً ، لابساً معطفاً
سميكاً ، واضعاً وجهه على الأرض •

نظر سفدريجاييلوف اليه ثم تابع طريقه • وظهر له برج كبير على
شماله فجأة • فهتف يقول لنفسه : « آ • • • • • وجدت المكان المناسب • علام
الذهاب الى جزيرة بتروفسكى ؟ في هذا المكان يمكن على الأقل أن يوجد

شاهد رسمى » • وكاد يتسهم حين خطرت بباله هذه الفكرة ، ثم انعطف
يدخل شارع « س • • • » • هناك كان ينتصب المبنى الذى يعلوه برج* •
وعلى باب الفناء من هذا المبنى كان يستند بظهره رجلٌ قصير القامة
متدثر بمعطف رمادى اللون من معاطف الجنود ، وعلى رأسه خوذة من
نحاس كخوذة آخيل • رشق الرجل سفدرىجايلوف بنظرة باردة تعبر
عن النعاس • ان فى وجهه تلك الكآبة الحاقدة الساخطة التى عمرها مئات
السنين ، تلك الكآبة التى تطبع فى كثير من المرارة قسماات وجوه جميع
الناس الذين ينتمون الى ملة اليهود • وتفحص كل من سفدرىجايلوف
وآخيل صاحبه مدة من الوقت فى صمت • ورأى آخيل أخيراً أن من غير
الطبيعى أن يقف رجل ليس بالسكران حتماً ، أن يقف على بعد ثلاث
خطوات منه ، ويأخذ يحدق اليه ويتفرس فيه دون أن ينطق بكلمة • فقال
يسأله ، وهو ما يزال جامداً لا يتحرك :

– هيه ! عمّ تبحث ؟

فأجابه سفدرىجايلوف :

– لا أبحث عن شيء أياها الأخ • صباح الخير •

– امض فى طريقك !

– هل تعرف أياها الأخ ؟ أنا مسافر الى الخارج ؟

– الى الخارج ؟

– الى أمريكا •

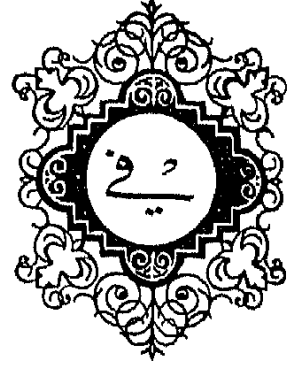
– الى أمريكا ؟

تناول سفدرىجايلوف مسدسه وحشاه • فرفع آخيل حاجبه •

وصاح يقول :

- ما هذا المزاح ؟ ليس هذا هو المكان ***
- ولماذا لا يكون هو المكان ***
- لأنه ليس هو المكان ***
- دعك يا صاحبي ، لا ضير ، *** هذا المكان مناسب مع ذلك ، فاذا سئلت فقل اني سافرت الى أمريكا *
- قال سفدريجاييلوف ذلك ووضع المسدس على صدغه الأيمن •
فانبرى أخيل يقول له مندفعاً محملاً مزيداً من الحقلقة :
- ممنوع هنا • ليس هذا هو المكان •
- وضغط سفدريجاييلوف على الزناد •

الفصل السابع



ذلك اليوم نفسه ، عند المساء ، بين الساعة السادسة والساعة السابعة ، ذهب راسكولنيكوف الى مسكن أمه وأخته ، ذلك المسكن الذي أسكنهما فيه رازوميخين في عمارة باكالاييف . ان مدخل السلم يطل على الشارع + كان راسكولنيكوف يتقدم متردداً ، متباطئاً الخطو . ولكن ما كان له أن يقفل راجعاً بحال من الأحوال ، فقد اتخذ قراره وعزم أمره + كان يقول لنفسه : « انهما ، على كل حال ، لا تعرفان شيئاً حتى الآن ، وقد ألفتا أن تعداني شاذاً + + + » . كانت ثيابه في حالة رهيبية ، فانه بعد ليلة كاملة من المطر قد تبللت ملابسه وتلطخت بالوحل + وكان منقلب الوجه من التعب والقلق والاجهاد الجسمي والصراع الروحي الذي ظل ناشباً في نفسه منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة . كان قد قضى الليل وحيداً ، لا يعلم الا الله أين ، ولكنه كان قد عقد العزم على انفاذ الأمر +

طرق الباب ، ففتحت له أمه + كانت دونيا قد خرجت + وكانت الخادمة نفسها غائبة في هذه الساعة + خرست بولشيريا الكسندروفنا من الدهشة والفرح في أول الأمر ، ثم أمسكت يده وقادته الى الغرفة + وبدأت تتكلم متلعثمة من فرط السعادة فقالت :

— آ + + هانت ذا أخيراً ! لا تزعل يا روديا اذا أنا استقبلتك هذا الاستقبال الأبله باكية + اننى أضحك + اننى لا أبكى + أتظن اننى

أبكي ؟ لا ، أنا سعيدة • ولكن هذه عادة سخيقة من عاداتي • دموعي
تنسكب لغير سبب ••• منذ مات أبوك أصبحت أبكي لأتفه أمر من
الأمور • اجلس يا حبيبي ، لا بد أنك متعب ، أنا أرى هذا واضحاً ! آه
••• ثيابك متسخة جداً !•••

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

— كنت أمس خارج البيت تحت المطر يا أماه !
فاندفعت بولشيريا ألكسندروفنا تقاطعه بقوة قائلة :

— لا ، لا ، لا يذهبن بك الظن الى أنني استجوبك ، على عاداتي
القديمة المتعبة • اهدأ بالآ ، فإني أفهم الآن كل شيء • لقد تعلمت عادات
الناس هنا ، وأدركت أنها خير من عاداتنا نحن هناك • وأيقنت أنه ليس
من حقي أن أحاول معرفة أفكارك ، وأن أحاسبك • الله يعلم ما هي الخطط
والشئون التي تملأ رأسك ، وما هي الخواطر التي ترهقك ، فهل يجوز
لي أن أشدك من ذراعك وأسألك : « هيّا ، هيّا قل لي ، قل لي فيم
تفكر ؟ » ما حاجتي الى هذه الثرثرة أخبط فيها خبط عشواء ! هل تعلم
يا روديا ؟ أنا الآن أقرأ ، للمرة الثالثة ، المقالة التي نشرتها في ••• في تلك
المجلة • لقد جاءني بها دمتری بروكوفتش • فما ان رأيتها هي صحت
أقول : آه ••• من فرط دهشتي ! قلت لنفسي : « ما كان أغباني وأشد
حماقتي • هذا هو اذن ما يشغل باله • هذا يفسر كل شيء • كذلك هو
شأن جميع العلماء • انه يدير في رأسه أفكاراً يتأملها وينضجها ، وأجىء
أنا فأزعجه وأعدّبه ••• » • انني أقرأ مقالاتك يا بني ؛ فيها أشياء
لا أفهمها طبعاً • ولكن لا غرابة في ذلك ، فما أنا الا امرأة بسيطة •

— أريني تلك المقالة يا أمي •

تناول راسكولنيكوف المجلة ، وألقى على مقالته نظرة عجلى •

فشعر ، رغم أن هذه الصفحات متعارضة أشد التعارض مع وضعه القائم وحالته النفسية الراهنة ، شعر بتلك العاطفة الغريبة ، بتلك العذوبة الحادة ، بتلك الجلاوة الكاوية التي يشعر بها الكتاب حين يرون انتاجهم مطبوعاً لأول مرة (ولا سيما حين لا يكون عمرهم قد تجاوز الثالثة والعشرين) • ولكن ذلك لم يدم الا لحظة قصيرة • فبعد أن قرأ الأسطر الأولى ، تقطب حاجباه ، وانقبض صدره ، واختنق قلبه بحزن رهيب • ان جميع أنواع الصراع والكفاح التي خاضها في هذه الأشهر الأخيرة قد عادت الآن الى ذاكرته دفعةً واحدة • فيها هو ذا يرمى المجلة على المائدة بحركة اشمزاز ولوعة •

– مهما أكن غيبة يا روديا فاني أستطيع أن أدرك أنك ستصبح في المستقبل القريب واحداً من أعظم رجال عالمنا المثقف ، ان لم تصبح أعظمهم جميعاً بغير استثناء! ••••• هه ••••• ومع ذلك تجاسروا فزعموا أنك مجنون! ها ها ها! ••••• لعلك لا تعرف هذا ، ولكنهم زعموه ، ودار في خلدهم! ما أحقرهم دوداً من دود الأرض! مساكين! أننى لهم أن يفهموا ما هو الذكاء! ولكن ما بال دونيا ، نعم ما بال دونيا قد أوشكت أن تصدق ذلك هي أيضاً؟ ••••• أهذا ممكن؟ ان المرحوم أباك قد أرسل ••••• انتاجه مرتين الى احدى المجلات ، مرة شعراً (ما زلت أحتفظ بالدفتري ، وسأريك اياه يوماً) ومرة قصة (وقد رجوته أن يسمح لي بنسخها) ، وما أكثر ما دعونا الله أن ينشروا له انتاجه ذاك • ولكنهم لم ينشروه! هل تعلم يا روديا؟ اننى منذ خمسة أيام أو ستة قد حزنت حين رأيت كيف تعيش وماذا تأكل وماذا تلبس وأين تسكن؟ ولكننى أدرك الآن أننى كنت غيبة في هذه المرة أيضاً ، فلو قد شئت لئلت كل شيء دفعةً واحدة بفضل ذكائك وموهبتك • ولكنك في أغلب الظن لا تشاء ذلك الآن ، لأنك مشغول عنه بأمر أهمّ شأنًا •

– أليست دونيا فى البيت يا أمى ؟

– لا يا روديا ، انها تخرج فى أكثر الأحيان وتدعنى وحدى • لقد تلتطف دمترى بروكوفتشس فجاء يزورنى ويقضى بعض الوقت فى صحبتى • انه يكلمنى دائماً عنك • انه يحبك ، ويقدرك حق قدرك يا بنى • لا أزعم بهذا أن أختك لا تحفل بأمرى وأنها مقصرة فى حقى ، فلست ألومها ، ولكن لها طبعها ولى طبعى • وهى تخفى أسراراً صغيرة لا حصر لها ، تخفيها عنى ولا تطلعنى عليها • أما أنا فلست أخفى عنكما أى سر • أنا أعرف طبعاً أن دونيا ذكية جداً ، وأنها كذلك تضمير لى ، وتضمير لك أنت أيضاً ، كثيراً من العاطفة والحنان • ولكنى لا أدرى كيف ستكون خاتمة هذه الأمور كلها • لقد أسعدتنى بمجيئك كثيراً يا روديا ، ولكن ها هى ذى قد خرجت فى الوقت الذى جئت أنت فيه ! سأقول لها حين تعود : « جاء أخوك فى غيابك ، فأين كنت خلال ذلك الوقت ؟ » • ولكن لا تدلنى كثيراً يا روديا : تعال الىّ ان استطعت ، فان لم تستطع أن تجىء فلا ضير ، وسأنتظرك على كل حال ، وسأعرف دائماً أنك تجبى ، وهذا يكفينى • سوف أقرأ مؤلفاتك ، وسوف أسمع الناس جميعاً يتحدثون عنك ، وسوف تجىء أنت الىّ من حين الى حين • ما عساي أتمنى أكثر من ذلك ؟ هانت ذا قد جئت اليوم لتواسى أمك ، اننى أرى هذا واضحاً ، فهل يمكن أن أطلب المزيد ؟

• هنا أخذت بولشيريا الكسندروفنا تبكى فجأة •

– آه ••• هأنا ذا أعود الى البكاء ! لا تنظر الىّ يا بنى ! ما أنا الا

حمقاء !

ثم هتفت تقول وهى تنهض واثبة :

– آ ••• ما بالى أظل جالسة هذا الجلوس ! عندنا قهوة ولا أقدم

لك منها ••• هذه أنانية المسنين ! حالاً ! حالاً ! •••

٥٥

— أماء ! دعى هذا ! أنا ذاهب بعد لحظة ! ما من أجل ذلك جئت •
أرجوك ، أصغى الىّ !

اقتربت منه بولشيريا الكسندروفنا وجلة • فقال يسألها طافح القلب،
دون أن يفكر ودون أن يزن كلامه :

— أتظلين تحيينى ، يا أماء ، كما تحيينى الآن ، مهما تسمعى عنى،
ومهما تعلمى من أمرى ؟
فأجابت الأم :

— روديا ، روديا ، ماذا بك ؟ كيف يمكنك أن تلقى سؤالاً كهذا
السؤال ؟ من ذا الذى يجرو أن يقول فيك سوءاً ؟ وهبّ أحداً قال فيك
سوءاً ، فانتى لن أصدقه ؛ لن أصدق أحداً يجرو أن ••• سوف أطرده
من يجرو ••• سوف أطرده •••

تابع راسكولنيكوف كلامه يقول :

— جئت لأؤكد لك أنى أحببتك دائماً ؛ وانه ليسرنى أن نكون
الآن وحيدين ، وأن لا تكون دونيا هنا • لقد جئت لأقول لك بصراحة ان
عليك ، مهما يصيبك من شقاء ، أن تعلمى أن ابنك يجبك أكثر مما يجب
نفسه ، وان كل ما يمكن أن يخطر ببالك من ظنون عن قسوتى وقلة
عاطفتى انما هو باطل • واننى لن أكفّ عن حبك يوماً ••• كفى هذا
الآن ، وانما أنا قدّرت أن علىّ أن أبدأ به •••

ضمّت بولشيريا الكسندروفنا ابنها صامتة ، وشدته الى صدرها ،
وبكت فى رفق • وقالت أخيراً :

— لا أدرى ماذا بك يا روديا • كنت أقدر حتى هذه اللحظة أن كل
ما فى الأمر هو أنك قد ضقت بنا • ولكننى أدرك الآن أدراكاً واضحاً أن

آلاماً كبيرة تنتظرك ، وأن هذا هو السبب في حزنك • لقد أحسست بشيء من هذا احساساً غامضاً منذ مدة يا روديا • سامحني اذا أنا حدثتك في ذلك ، ولكنني دائمة التفكير فيه ، حتى أنه يؤرقني ويحرمني من النوم • كانت أختك في هذه الليلة تهذي ، وتكلمت أثناء هذيانها عنك • ميّزت بعض الكلمات ، لكنني لم أفهم شيئاً • وظللت طوال الصباح كمن ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه ؟ نعم ، أصبحت أتوقع شيئاً ما سيحدث ، وها هو ذا الشيء الذي توقعته يحدث فعلاً ! روديا ! روديا ! الى أين أنت ذاهب ؟ ستسافر ، ستسافر ، أليس كذلك ؟

– نعم ، سأسافر •

– ذلك ما كنت أقدّره ! ولكن في وسعي أن أسافر معك ، اذا كان ذلك ينفعلك • ودونيا أيضاً تحبك ، تحبك كثيراً ؛ ولتأت معنا صوفيا سيميونوفنا أيضاً اذا وجب ذلك ! انني مستعدة لأن أقبلها بنتاً لي • وسيساعدنا دمتری بروكوفتش في الاستعداد للسفر • ولكن الى أين تريد أن تسافر ؟

– استودعك الله يا أماء !

هتفت الأم تقول وكأنها تفقد ابنها الى الأبد :

– كيف ؟ أفي هذا اليوم نفسه ؟

– لا أستطيع التأخر ••• آن الأوان ••• يجب حتماً أن •••

– وأنا ؟ ألا أستطيع أن ••• أذهب معك ؟

– لا • ولكن اركعي وصى لي ، فلعل الله يستجيب لصلاتك !

– دعني أرسم عليك اشارة الصليب ، دعني أباركك • نعم ، هكذا ،

هكذا ! رباه ••• ماذا نفعل ؟

نعم ، لقد كان راسكولنيكوف سعيداً بأن البيت خالٍ ليس فيه أحد ،
 كان سعيداً بأن يخلو الى أمه ، حتى لكأنه بعد جميع العذابات الرهيبة التي
 عاناها قد ذاب قلبه حناناً على حين فجأة دفعةً واحدة ؛ فيها هو يرتدى على
 قدمي أمه فيقبّلهما ، وها هما يبكيان كلاهما ويتعانقان . والأم في هذه
 المرة لا تشعر بدهشة ولا تلقى سؤالاً . لقد أدركت أن ابنها يعاني أموراً
 فظيعة ، وأن لحظة رهيبة سوف تأزف بعد قليل ، فتحدد مصيره تحديداً
 حاسماً .

قالت ناشجةً :

– روديا ، يا بنى الحبيب ، يا أول ولد لي ، هأنا ذى أراك الآن كما
 كنت في صغرك تماماً . كنت تتجىء الىّ على هذا النحو نفسه ، فتطوقني ،
 وتقبّلني ، بهذه الطريقة نفسها . وحين كان أبوك ما يزال معنا ، وحين
 كانت حياتنا قاسية قسوة شديدة ، كنت أنت تعزينا كلينا بوجودك . وبعد
 أن دفنت أباك ، كم من مرة بكينا على قبره ، أنا وأنت ، متعانقين كتعانقنا
 الآن ! لئن كنت أبكى منذ مدة ، فلأن قلبي – قلب الأم – قد أوجس أن
 شراً سيقع ، أن مصيبة ستزل . حين رأيتك أول مرة مساءً يوم وصولنا
 الى هنا حزرت كل شيء من رؤية نظرتك وحدها ، فسرعان ما ارتعش
 قلبي ؛ واليوم ، حين فتحت لك الباب ، نظرت اليك فلم ألبث أن قلت
 لنفسي : لا شك أن الساعة المشؤمة قد حانت . روديا ، روديا ، أنت
 مسافر فوراً ؟

– لا .

– هل ستعود ؟

– نعم . . . سأعود .

- روديا ، لا تزعل ، أنا لا أجرؤ أن أسألك ، أنا أعرف أنني لن أجرؤ ، ولكن قل لى كلمة واحدة فقط : هل المكان الذى ستسافر اليه بعيد ؟

- بعيد جداً •

- ما الذى يدعوك الى هناك ؟ وظيفة ، عمل ؟

- ما يرسله الى الله ••• ولكن صلّى من أجلى !

وانتجه راسكولنيكوف نحو الباب ، غير أن أمه تشبثت به ، ونظرت اليه محدقةً فى عينيه وقد عبّر وجهها عن يأس شديد ، وانقلبت سخنتها خوفاً وذعراً •

قال راسكولنيكوف نادماً أعمق الندم على أنه جاء :

- كفى يا أماء !

- لست تسافر الى الأبد ، ليس كذلك ؟ لست تسافر الى الأبد بعد ،

أليس كذلك ؟ وسترجع غداً ، ألن ترجع غداً ؟

- سأرجع ، سأرجع ، أستودعك الله !

وانتزع نفسه منها أخيراً •

كان المساء ناعماً طرياً صافياً • لقد صحح الجو منذ الصباح • وعاد راسكولنيكوف الى بيته • كان مسرعاً • كان يريد أن يفرغ من الأمر قبل غياب الشمس • وكان حتى هذه اللحظة يتمنى أن لا يصادف أحداً • فلما كان صاعداً الى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت سماورها وأخذت تتابعه بنظراتها • قال يسأل نفسه : « أياكون أحد عندى ؟ » • وتذكر بورفير مشمئزاً ممتعضاً • لكنه حين وصل الى غرفته وفتح الباب ، رأى دونيا • كانت جالسةً على الديوان ، غارقة فى تأمل عميق • وكان واضحاً

أنها قد انتظرتة مدة طويلة • وقف على العتبة • ان نظرتها المحدثّة اليه
الثابتة عليه تعبّر عن زعر هائل وحزن لا نهاية له • أدرك من هذه النظرة
وحدها أنها تعرف كل شيء •

سألها حائراً :

— أأدخل أم أنصرف ؟

فقلت :

— قضيت النهار كله عند صوفيا سيميونوفنا • كنا ننتظر ككتانا •
وكنا نظن أنك لا بد أن تأتي •

دخل راسكولنيكوف ، وتهاوى على كرسيه ، مهدود القوى ،
وقال :

— أشعر بضعف ووهن يا دونيا ، اننى متعب جداً ، وأنا فى هذه
اللحظة خاصةً انما احتاج الى قواى كلها •

ونظر اليها نظرة ارتياب •

— أين كنت طوال الليل ؟

— لا أتذكر جيداً • لقد أردت يا أختى أن اتخذ قراراً حاسماً ،
ومضيت عدة مرات الى قرب نهر نيفا • هذا أتذكره • أردت أن أنهى
الأمر هنالك •••

وأضاف راسكولنيكوف يقول متمتماً وهو يلقي على دونيا تلك النظرة
المرتابة نفسها :

— ولكننى ••• لم أعزم أمرى •••

– الحمد لله ! •• ليتك تعلم كم كنا خائفين ، أنا وصوفيا سيميونوفنا ،
من أن تفعل ذلك ! اذن ما زلت تؤمن بالحياة ! الحمد لله ! الحمد لله !

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مرة • وقال :

– كنت لا أؤمن بها ، ولكنني آمنت منذ قليل ، حين تعانقنا أنا وامي ،
وبكينا • أنا لست مؤمناً ، ومع ذلك طلبت من أُمِّي أن تصلى من اجلي
وأن تدعو الله لي • الله يعلم كيف يحدث هذا يا دونيتشكا ! على كل حال ،
لست أفهم من الأمر شيئاً !•••

هتفت دونيا تقول مدعورة :

– كنت عند أُمِّنا ؟ وقلت لها ؟•• هل جرؤت حقاً أن تقول لها ••
– لا ، لم أقل شيئاً ••• لكنها فهمت أشياء • لقد سمعتك تهدين
في الليل • واني لوائق أنها تعرف الحقيقة منذ الآن • لا أدري لماذا ذهبت
اليها • أنا انسان سيء يا دونيا !

– أنت انسان سيء ، أنت الذي ترضى أن تقبل الألم ؟ ذلك أنك
تقبل الألم ، أليس كذلك ؟

– نعم ، الآن أقبله • اننى من أجل أن اتحاشى هذا العار ، اردت
أن أغرق نفسي يا دونيا • ولكنى حين ملت فوق مياه النهر ، قلت : ما دمت
أعد نفسي رجلاً قوياً فما ينبغي أن أراجع أمام العار • هذه كبرياء
يا دونيا ، أليس كذلك ؟

– نعم ، هي كبرياء يا روديا !

لكن شعله قد عادت تتقد في عيني راسكولنيكوف المنطفئتين : كان
ما يزال يسره أن يكون ذا كبرياء !

وسأل أخته وهو يتسهم ابتسامة رهيبة ويحدّق الى عينيها بنظرة ثابتة :

- قولي يا أختي ، هل تعتقدين أن الخوف من الماء وحده هو الذي صدّني عن الانتحار غرقاً ؟

فهمت دونيا تقول بمرارة :

- كفى يا روديا !

وساد الصمت دقيقتين *

كان راسكولنيكوف جالساً خافض العينين * وكانت دونيا واقفة عند الركن الآخر من المائدة تتأمله وقد عبّر وجهها عن ألم شديد * ونهض راسكولنيكوف فجأة * وقال :

- تأخرت * حانت الساعة * سأمضى أشي بنفسي * ولكني لا ادري لماذا أشي بنفسي !

فانحدرت على خدى الفتاة دموع كبيرة *

قال راسكولنيكوف :

- تبكين يا أختي ؟ ولكن هل تقبلين أن تمدى الى يدك ؟

قالت :

- هل يساورك شك في هذا ؟

ثم ضمته بين ذراعيها ضمّاً قوياً * وهتفت تقول وهي ما تزال تعانقه وتقبّله :

- ألسنت تمحو نصف جريمتك حين تقبل الألم ؟

فصاح يسألها في سورة من غضب شديد :

- جريمة ؟ أية جريمة ؟ أيكون جريمة قتل قملة قدرة ضارة ، قتل مرابية عجوز لا يحتاج اليها أحد ، مرابية تمتص دماء الفقراء ؟ الا ان قتلها ليمحو أربعين خطيئة ! لا أظن أن هذا الفعل جريمة ، ولا اريد أن أنظهر منه وأكفر عنه . ما بالكم جميعاً تكررون على مسامعي : « جريمة ، جريمة » ؟ نعم ، اننى وقد قررت أن أتحمّل هذا العار الذى لا طائل تحته ، أدرك الآن مدى ما يشتمل عليه جنبى من سخف . ان الصغار والعجز وحدهما هما اللذان يدفعاى الى أن . . . وربما أضيف اليهما المنفعة . . . كما . . . كما كان يقترح على ذلك . . . بورفير !

صاحت دونيا تقول وقد استولى عليها كرب شديد :

- أخى ، أخى ، ما هذا الذى تقوله ؟

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه يقول خارجاً عن طوره :

- دم يسفحه جميع الناس ، يجرى وسيظل يجرى على الأرض أنهاراً . . . نعم . . . يسكبها جميع الناس كالشمبانيا ، ومن أجله يتوج بعضهم فى « الكابيتول » ، ويسمى بطلاً من الأبطال الذى أحسنوا الى الانسانية ! أنعمى النظر قليلاً واحكمى فى الأمر ! أنا قد أردت أن اصنع للبشر خيراً ، وكنت مستعداً لأن أقوم بمئات الحسنات بل بألوف الحسنات تعويضاً عن تلك حماقة البسيطة . . . بل قولى عن تلك الحرافة البسيطة ، لأن الفكرة فى ذاتها لم تكن حمقاء الى الحد الذى يبدو الآن ، بعد ان أخفقت (نعم ان كل من يخفق يبدو غيباً أحمرق) . الخلاصة اننى رجوت بهذه حماقة - ولنسلّم بأنها حماقة - أن أخلق لنفسى وضعاً مستقلاً ، أن أخطو خطوة أولى ، أن أحصل على موارد ، فاذا جميع الأمور تتدبر بعد ذلك على نحو مفيد ، عادل ، مرض . . . كل ما هنالك اننى منذ الخطوة الأولى قد ترنحت لأننى جبان . تلك هى الحقيقة ! وذلك هو السبب فى

أنى شقى : فلو قد نجحت لوضعوا على رأسى أكليل الغار ، أما الآن
فانهم يلقوننى الى الكلاب ***

– ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ! ما هذا الذى تقوله
يا أخى ؟

– صحيح أنى لم أراع الأشكال ، لم أراع الأشكال البديعة التى
توجيها قواعد الجمال . ولكن هل تعتقدن حقاً أن قذف القنابل على سكان
آمنين ، أثناء حصار ، أكثر مراعاة للأشكال البديعة وأكثر تقيداً بقواعد
الجمال ؟ ثم ان الاهتمام بقواعد الجمال أول علائم العجز *** انى لم
أحسّ هذه الحقيقة فى يوم من الأيام كما أحسها الآن ، ولا عجزت فى
يوم من الأيام عن أن أفهم ما هى جرئتى كما أعجز عن هذا الآن ! لم أكن
فى يوم من الأيام أشد اقتناعاً وأرسخ يقيناً منى فى هذه اللحظة !***

قال راسكولنيكوف هذا واحمر وجهه المخربّ الشاحب احمراراً
قانياً على حين فجأة . لكنه حين نطق بهذه الصيحة الأخيرة التقت عيناه
مصادفةً بنظرة دونيا ، فقرأ فى هذه النظرة المأً يبلغ من الشدة أن
راسكولنيكوف لم يلبث أن تاب الى رشده فجأة وسيطر على اندفاعه رغم
ارادته تقريباً . لقد شعر أنه على كل حال قد أشقى امرأتين مسكينتين .
انه هو السبب مهما يكن من أمر !*** قال :

– دونيا العزيزة ! اذا كنت مذنباً فاغفرى لى (رغم أن الغفران
مستحيل اذا كنت مذنباً) . أستودعك الله ! كفى مناقشة ! لقد آن الأوان
حتى لقد تأخرت ! لا تتبعينى ، أرجوك ! هناك زيارة أخرى يجب ان
أقوم بها *** وانصرفى حالاً وابقى الى جانب أمناء ، أرجوك ، اضرع
اليك ! هذا آخر وأكبر رجاء أتوجه به اليك . لا تتركها لحظة واحدة .
لقد ودعتها وهى على حال من القلق لا تستطيع أن تطيقها *** فاما أن

تموت واما أن تُجنّ • فابقى اذن بقربها ! وسيكون رازوميخين الى جانبكما ، لقد كلمته فى الأمر ••• لا تبكى على ••• سأحاول أن اكون طوال حياتى شريفاً وشجاعاً ، رغم أننى قاتل • وقد تسمعين باسمى فى يوم من الأيام • لن ألتخ شرفكم بالعار • سوف ترين • سوف أبرهن ••• وأسرع راسكولنيكوف يقول وقد لاحظ حين نطق هذه الكلمات الأخيرة وبذل تلك الوعود أن عينى دونيا قد التمع فيهما تعبير غريب :

- والآن ، الى اللقاء • لماذا تبكين هكذا ؟ لا تبكى ! لا تبكى ! اننا لا نفرق الى الأبد ! ها ••• نعم ••• انتظرى ••• نسيت !•••

واقترب من المائدة ، فتناول منها كتاباً ضخماً غشاه الغبار ، ففتحه ، فسحب منه صورة صغيرة لوجه مرسوم بالألوان المائية على عاج ، كانت موجودة بين أوراق الكتاب • انها صورة بنت صاحبة البيت ، الفتاة التى ماتت من الحمى وكانت فى الماضى خطيبته وكانت تريد أن تدخل الدير • تأمل راسكولنيكوف هذا الوجه الصغير المعبر المتألم ، ثم قبل الصورة ومدّها الى دونيا وهو يدمدم شارداً الذهن :

- كثيراً ما كلمتها هى أيضاً عن « ذلك الأمر » • لقد بحثت لقلبيها بكثير مما تحقق بعد ذلك تحقّقاً جهنمياً !

وأردف يقول لدونيا :

- لا تقلقى يا دونيا ! كانت لا تؤيد آرائى أو تحبّها أكثر مما تؤيدنيها أو تحبّديها أنت ! وانى لأحمد الله على أنها بارحت هذا العالم ! ثم هتف يقول فجأة وقد عاد اليه عذابه :

- المهم ، المهم أن كل شىء سيتغير ، وأن الانفصال عن الماضى سيكون تاماً • نعم ، كل شىء ، كل شىء سيتغير ! ولكن هل أعددت نفسى لهذا ؟

وهل أنا أريده حقاً؟ يقال ان هذه المحنة لازمة لى ، ولكن فيم هذه المحن
 السخيفة كلها؟ ما فائدتها؟ ما جدواها؟ هل سأكون أقدر على الفهم ،
 حين أصبح ، بعد عشرين سنة من الاعتقال ، شيخاً مرهقاً هدء الألم
 ودمرء العذاب وصار أبله معتوها؟ وما فائدة أن أبقى على قيد الحياة بعد
 ذلك؟ لماذا قبلت حياة كهذه الحياة؟ آء . . . لقد أدركت حقاً أننى جبان
 رعديد حين ملت على مياه نهر نيفا فى هذا الصباح عند الفجر !

وخرج الاثنان أخيراً . كانت دونيا تتألم كثيراً ، ولكنها كانت تحب
 أخاها . وابتعدت . غير انها ما ان سارت خمسين خطوة حتى التفت الى
 وراء لتتظر اليه . كان راسكولنيكوف ما يزال يُرى . وحين وصل الى
 ناصية الشارع التفت هو أيضاً ، فالتقت نظرتاهما آخر مرة . لكنه حين
 لمح أن أخته تنظر اليه حرك يده بإشارة تمللم بل بإشارة غضب ، ليومىء
 لها بأن عليها أن تتابع السير فى طريقها . وأسرع يغيب هو أيضاً عند
 منعطف الشارع .

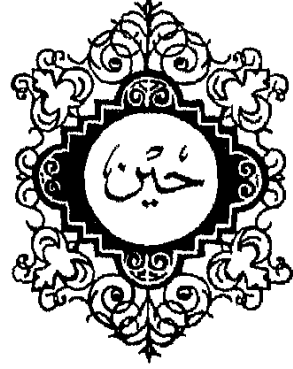
وحدث نفسه يقول آسفاً على حركة التمللم أو الغضب التى بدرت
 منه : « أنا شرير ! واضح أننى شرير ! . . . ولكن لماذا تحببى أختى كل
 هذا الحب ما دمت لا أستحقه؟ آء . . . لو كنت وحيداً ، لو لم يكن هناك
 أحد يحببى ، « اذن لما حدث شىء من ذلك كله » ! والآن أود لو اعرف
 هل سأصبح بعد خمس عشرة سنة أو عشرين سنة من الاعتقال فى السجن ،
 هل سأصبح ذليلاً مذعناً صاغراً الى الحد الكافى الذى يجعلنى أمضى الى
 جميع الناس أذرف أمامهم الدموع ، وأعلن لهم أننى وغد؟ طبعاً ، هذا
 هو السبب الذى يحضهم على ارسالى الى السجن ؛ ذلك هو ما يريدون . . .
 آء . . . اننى أراهم جميعاً يذهبون ويحيئون فى الشوارع . انهم جميعاً
 جبناء حقيرون أوغاد ، والأنكى من ذلك أنهم جميعاً بلهاء معتوهون ! ومع

ذلك يكفى أن أحاول تحاشي السجن حتى تثور مشاعرهم النبيلة فإذا هم مستاءون ساخطون ! آه ... اننى أكرههم ! أمقتهم ! ...

وغرق راسكولنيكوف فى خواطره وتأملاته ، فكان يتساءل : « كيف سأنتهى شيئاً فشيئاً الى الشعور بالمذلة أمامهم جميعاً على اقتناع منى بذلك؟ ولكن لم لا ؟ لا شك أن الأمر سيجرى هذا المجرى • ألا تستطيع عشرون سنة من العبودية المتصلة الى بلوغ هذا الهدف ؟ الماء يأكل الصخر • ولكن اذا صحَّ هذا ، فعلام أحيا ، علام أحيا ؟ نعم ، علام أذهب الى هناك مع اننى أعلم منذ الآن أن كل شيء سيجرى على نحو ما أتنبأ ، لا على أى نحو آخر ؟ » •

لعله حين ألقى هذا السؤال على نفسه الآن قد ألقاه للمرة المائة منذ البارحة • لكن ذلك لم يمنعه من الاستمرار فى السير •

الفصل الثامن



دخل راسكولنيكوف على صونيا كان الغسق قد أخذ يهبط • لقد انتظرتة صونيا طوال النهار وهي فى حالة قلق رهيب • انتظرتة مع دونيا • ان دونيا قد جاءت الى صونيا فى الصباح اذ تذكرت أن سفدرىجاييلوف قال لها ان صونيا « تعرف » • لن نروى تفاصيل ، الحديث الذى جرى بين دونيا وصونيا ، ولن نتحدث عن الدموع التى ذرفتها ، وعن التفاهم الذى نشأ بينهما • وحسبنا أن نقول ان دونيا قد خرجت من هذا اللقاء بعزاء كبير : ان أخاها لن يكون وحيداً • فلها ، لصونيا ، انما أفضى بسرّه ويأح بجريمته قبل أى شخص آخر ؛ وفيها ، فى صونيا ، انما التمس انساناً يركن اليه حين أحسّ أنه فى حاجة الى انسان يركن اليه • فهى التى ستبعه اذن أينما ترسله الأقدار • لم تلق دونيا أى سؤال عن هذا الأمر ، ولكنها كانت تعلم أن ذلك هو ما سيحدث • حتى لقد كانت تنظر الى صونيا بنوع من التقديس اضطربت له صونيا فى أول الأمر ، وخجلت منه ، وكاد يبكيها ، من فرط قوة اعتقادها بأنها أهون شأنًا وأحقر قيمة من أن ترفع عينيها الى دونيا • ان صورة دونيا الرائعة الفاتنة ، حين حيتها بكثير من الاهتمام والاحترام يوم لقاها فى بيت راسكولنيكوف ، قد انحفرت فى نفسها الى الأبد صورةً من أجل وأروع ما رأت فى حياتها من صور جميلة رائعة •

ونفذ صبر دونيا أخيراً فتركت صونيا لتتظر أخاها فى بيته • لقد بدا لها أنه سيذهب الى هناك أولاً • فلما خلت صونيا الى نفسها عاودها

الخوف الرهيب من أن يكون راسكولنيكوف قد ينتحر • وكانت دونيا ، هي أيضاً ، تخشى ذلك • ولكن كلاً منهما كانت قد ظلت تقنع الأخرى بأن هذا التصور ليس له مايسوغه وأن الأمر يستحيل أن يقع ، مستندتين في ذلك الى جميع الأدلة والحجج التي يمكن تخيلها • لهذا كانتا هادئتين بعض الهدوء طوال مدة اجتماعهما • ولكن ما ان افترقتا حتى أصبحتا كلتاهما لا تفكران الا في هذا • تذكّرت صونيا أن سفدريجاييلوف قال لها أمس ان أمام راسكولنيكوف مخرجين لا ثالث لهما : فاما سيبيريا واما ••• وكانت تعرف من جهة أخرى كهرياء الشاب واعتزازه بنفسه وقلة عاطفته الدينية ، فكانت تتساءل قلقةً أشد القلق : « هل يمكن أن يكون الخوف من الموت كافياً وحده لصدّه عن الانتحار وجعله يتشبث بالحياة ؟ »

وكانت الشمس تميل الى الغروب في أثناء ذلك • وكانت صونيا واقفة قرب النافذة تحدّق الى الخارج حزينةً ملتاعة • ولكن جداراً مسوداً من جدران منزل مجاور كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تراه العين من هناك • وأخيراً ، حين أصبحت على مثل اليقين بأن المسكين قد مات ، دخل عليها راسكولنيكوف •

فانطلقت من صدر صونيا صرخة فرح ، ولكنها حين تفرست في وجهه ملياً اصفر وجهها فجأة •

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة ساخرة :

– هيه صونيا ! لقد جئت آخذ صلبانك ! ألم تأمريني أنت نفسك بأن أمضى أعترف على رعوس الأَشهاد ؟ فما بالك تخافين الآن وقد قررت أن أضع ذلك موضع التنفيذ ؟

كانت صونيا تنظر اليه مذهولة مبهوتة • لقد بدت لها هذه اللهجة غريبة • وسرت في جسمها رعدة باردة ، لكنها أدركت بعد دقيقة واحدة

أن كل شيء - اللهجة والكلمات - لم يكن الا تظاهراً وتصنعاً • لقد كان يكلمها متهرباً من نظراتها • وأردف يقول :

- اسمعى يا صونيا ، لقد وجدت أن من مصلحتى أن أتصرف هذا التصرف ، فإن هناك ظرفاً خاصاً يجعلنى ••• ولكن الامر يطول شرحه ••• ثم لا قيمة لهذا ••• ولكن هل تعلمين ما الذى يغيظنى ويحقتنى ؟ اننى أجنُّ غضباً حين أتصور جميع أولئك الجفأة الاغبياء الوحوش يزدحمون حولى ويحيطون بى ويحملقون فىّ ، وحين أتصور جميع الأسئلة البلهاء التى سيلقونها علىّ والتى سيكون من واجبى أن اجيب عنها ؟ حين أتصور جميع هؤلاء الناس الذين سيثيرون الىّ بأصابعهم ••• هه !••• هل تعلمين ؟ لن أذهب الى بورفير • لقد أزعجنى كثيراً • وانما سأذهب الى صديقى « بارود » • وبذلك أدهشه أشد دهشة • لا شك اننى سأثير فى نفسه دهشة كبيرة ! ولكن ينبغى أن أكون أكثر هدوءاً ، وقد أصبحت فى الآونة الأخيرة نائر الأعصاب ! هل تصدقين ؟ لقد أوشكت منذ قليل أن ألوح لأختى بىدى مهدّداً متوعداً ، لا لشيء الا لأنها التفتت تلقى علىّ نظرة أخيرة ! آه ••• انه لعار أن أكون فى مثل هذه الحالة العصية ! اترانى هبطت الى مثل هذا الدرك الأسفل ؟ والآن ، اين الصلبان ؟

كان راسكولنيكوف لا يبدو فى حالة سوية • كان لا يستطيع ان يستقر فى مكانه دقيقة واحدة ، ولا أن يركز انتباهه على أى شيء • كانت أفكاره تختلط فى أحاديثه وتشابك وتضطرب • وكانت يدها ترتجفان قليلاً •

سلّت صونيا صليبيها من علبة صغيرة دون أن تقول شيئاً : الصليب الحشبي المصنوع من خشب السرو ، والصليب النحاسى • ورسمت على

نفسها اشارة الصليب ثم رسمت اشارة الصليب على راسكولنيكوف ، ثم
علقت صليب خشب السرو في عنقه •

- يرمز هذا اجمالاً الى اننى أحمل صليبي ••• ها ها ها !•••
كأننى ما تأملت ألباً كافياً حتى الان ! ان الصليب الخشبى هو صليب ابناء
الشعب ! أما الصليب النحاسى ، أى صليب اليزابت ، فانت تحتفظين به
لنفسك • أرينيه ! اذن كانت اليزابت تحمله فى ذلك الأوان ! ••• انا
أيضاً أعرف صليبين من هذا النوع ، بل صليباً من فضة ووساماً • رميتهما
فى ذلك اليوم على صدر العجوز • فانظري ماذا يجب على أن أضع فى
عنقى اليوم ! على كل حال ••• أنا أقول سخافات ، وأنسى الأمر الأساسى
••• اننى ذاهل ••• اسمعى يا صونيا : لقد جئت لأبلغك ••• نعم ،
يجب أن تعلمى ••• أنا لم أجيء الا لهذا (ولقد كنت مع ذلك أقدر ان
أقول أكثر مما سأقول) ••• اسمعى : أنت التى حضضتى على أن افعل
ما سأفعل ••• سوف أنفذ ارادتك فأدخل السجن • ولكن ما بالك تبكين
أنت أيضاً ؟ كفى كفى ! كفى بكاء ! آه ••• لشد ما يؤلمنى هذا كله !

تأثر راسكولنيكوف تأثراً شديداً ، وانقبض صدره حين رأى صونيا
تبكى • وتساءل : « وهذه ، لماذا تتألم هذه ؟ ماذا أنا عندها ؟ ما بالها تبكى ؟
ما الذى يجعلها تهتم بى كأنها أمى أو أختى ؟ ما الذى يحملها على ان
تصاحبنى الى نهاية الشوط ؟ آه ••• سوف تكون لى بمشابة المربية
للطفل » •

تضرعت اليه صونيا قائلة بصوت خائف مرتعش :

- ارسم اشارة الصليب ! صل مرة واحدة على الأقل !

- اذا كان ذلك يرضيك فسأفعله ما شئت من مرات ! سأفعله راضياً

كل الرضى يا صونيا !

والحق أن راسكولنيكوف كان يتمنى لو يقول شيئاً آخر تماماً •
 وها هو ذا يرسم إشارة الصليب عدة مرات • وتناولت صونيا شالها
 فغطت به رأس راسكولنيكوف • هو خمار أخضر من جونخ السيدات ،
 لعله « شال الأسرة » الذى تكلم عنه مارمیلادوف • ومضت هذه الفكرة
 فى ذهن راسكولنيكوف خلسةً ، ولكنه لم يلق أى سؤال • لقد بدا
 يلاحظ أنه أصبح ذاهلاً ذهولاً فطبعاً ، وأنه أصبح قلقاً قلقاً رهيباً •
 خاف • وسرعان ما أدهشه أشد الدهشة على حين فجأة أن يرى صونيا
 تنهياً لمصاحبتة •

صاح يقول لها غاضباً :

– ماذا تفعلين ؟ الى أين أنت ذاهبة ؟ ابقى ! ابقى ! سأذهب وحدى •

واتجه نحو الباب شبه زعلان ، وتمتم يقول وهو يخرج :

– أنا فى حاجة الى خفير ؟

بقيت صونيا فى وسط الغرفة • لقد أهمل حتى توديعها • نسيها منذ
 الآن • هنالك فكرة واحدة تثيره وترهقه • تساءل وهو يهبط
 السلم : « هل هذا ما يجب أن أفعله حقاً ؟ أليس من الممكن أن أتوقف ،
 أن أنكص على عقبي ، أن أدبر الأمور ••• أن لا أذهب الى هناك ؟ » •

ومع ذلك واصل سيره • لقد شعر شعوراً حاسماً بأنه لا جدوى من
 التساؤل وأن ساعة التردد قد مضت • حتى اذا صار فى الشارع تذكر انه
 لم يودّع صونيا ، وأنها بقيت فى وسط الغرفة مع شالها الأخضر لا تجرؤ
 أن تتحرك مخافة أن تغضبه • فتوقف لحظة • ولكن فكرة مباغتة وافته
 فى تلك اللحظة نفسها ، كأنها انتظرت هذه اللحظة نفسها لتوافيه •
 تساءل قائلاً : « لماذا ذهبت اليها ؟ لقد قلت لها اننى انما جئت لها تنفيذاً

لمهمة يجب على أن أقوم بها؟ ما هي تلك المهمة؟ ليس هناك أية مهمة تدفعني الى زيارتها! أبلغها أنني «ذاهب الى هناك»؟ أكان هذا ضروريا؟ أتراني أحبها؟ لا، لا، غير معقول!... ألم أدفعها عنى منذ لحظة كما يُدفع كلب؟ هل صليها اذن هو ما كنت في حاجة اليه؟ آه... لقد هبطت الى الدرك الأسفل! لا، لا، وانما أنا كنت في حاجة الى دموعها. كنت في حاجة الى أن أرى رعبها وذعرها، كنت في حاجة الى أن أرى قلبها يتلوى ويتمزق. كنت في حاجة الى أن أتشبث بشيء ما، الى أن أكسب وقتاً، الى ان أتأمل انساناً! هذا ما كنت في حاجة اليه، ومع ذلك تجرأت في يوم من الأيام فتخيلت أن مصيراً عظيماً يناديني اليه، واعتمدت على نفسي فأقدمت على أمور كنتك الأمور، أنا الذي لست الا انساناً حقيراً تافهاً جباناً، جباناً! « +

كان يسير على طول رصيف القناة. لم يبق بينه وبين الوصول الا مسافة قصيرة. لكنه حين وصل الى الجسر توقف لحظة، ثم لم يلبث ان مضى يعبر الجسر، فنأى بذلك عن طريقه، واتجه نحو «سوق العلف».

كان ينظر يميناً ويسرة بشراهة، ويحاول أن يتفحص كل شيء من الأشياء متمعناً، لكن اتباهه لم يستطع أن يتركز على أي شيء من هذه الأشياء. فكل شيء يتهرب منه ويغيب عنه. وخطرت بباله خاطرة: حدث نفسه قائلاً: «بعد شهر، بعد أسبوع، سيعبرون بي هذا الجسر ماضين بي الى مكان ما على عربة سجناء، فأية نظرة سألقى على هذه القناة نفسها يومذاك؟ هل سأذكر أنني رأيتها على نحو ما أراها الآن؟ وهذه اللافتة؟ كيف سأقرأ عندئذ أحرفها؟ هذه كلمة «شركة»؟ فهل سأذكر هذه «الشين»، هل سأذكر حرف «الشرين» هذا؟ واذا تلبت عيناى بعد شهر على هذا الحرف نفسه فهل سأنظر اليه كما أنظر اليه

الآن ؟ نعم ، ما عسى تكون احساساتى وأفكارى حينذاك ؟ أوه ... ما اتفه
وما أسخف هذه ... المشاغل ! ... لا شك أن هذا أمر غريب ...
(ها ها ها ... ماذا أيضاً ؟) اننى أرتد الى الطفولة ، فاصطنع أوضاعاً
أنظر اليها وأعتز بها . ولكن لا ، لماذا أخجل من نفسى ؟ أوه ... ما أكثر
التزاحم والتصادم فى هذا المكان ! هذا هو ، الرجل السمين ذاك ...
لا شك أنه ألمانى ... هو الذى صدمنى ودفننى . فهل يعلم أنه صدمنى ؟
وهذه المرأة العجوز التى تتجر طفلاً وتستجدينى صدقة ، هل تظن اننى
أسعد منها ؟ طيب ... على كل حال ... على أن أنفجها صدقة ، هكذا ،
من باب اللعب ، على سبيل العبث ... حسن ، بقى لى خمسة كوبيكات !
تُرى من أين هما آتيان ؟ »

وقال راسكولنيكوف يخاطب المتسوِّلة :

— خدى ، خدى ، أيتها الأم الطيبة !

فقالت المتسوِّلة بصوت فيه بكاء :

— الله يحميك !

ودخل راسكولنيكوف « سوق العلف » . كان يشعر من ملامسة
كوعيه لذلك العدد الكبير من الناس ، كان يشعر باحساس مزعج كريبه
أليم ، ولكن هذا لم يمنعه من الاتجاه الى حيث يحتشد الناس اكتف
احتشاد . كان مستعداً لأن يضحى بكل شئ فى سبيل أن يخلو الى نفسه ،
ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه لن يستطيع احتمال العزلة ولو
دقيقة واحدة . هذا رجل سكران يصخب ويعربد : انه يحاول أن يرقص ،
ولكنه كلما أجرى حركة سقط منبطحاً على بطنه . واجتمعت حوله جمهرة
من الناس . شقَّ راسكولنيكوف لنفسه طريقاً بين الحشد ، ونظر الى
السكران بضع لحظات ، فاذا هو ينطلق ضاحكاً ضحكة قصيرة متقطعة .

ثم ما ان مضت دقيقة حتى كان قد نسي الرجل ، وحتى أصبح لا يراه ، رغم أن عينيه كانتا ما تزالان مثبتتين عليه • وانصرف أخيراً عن المكان الذي كان فيه ، حتى دون أن يشعر بأنه ينصرف • ولكنه حين وصل الى وسط الميدان حدث في فكره شيء ، وسرت في جسمه رعدة •

لقد عاودته أقوال صونيا فجأة : « اذهب الى ميدان من الميادين ، فسلم على الشعب ، وقبّل الأرض لأنك أثمت في حقها أيضاً ، وقل بصوت عالٍ حتى يسمعك جميع الناس : اننى قاتل » •

فما ان دارت في ذهنه هذه العبارات حتى أخذ يرتجف من الراس الى القدمين • ان الآلام الرهيبة والتباريح الفظيعة التي عاناها في الايام السابقة ، ولا سيما في الساعات الأخيرة ، قد بلغت من إرهاقه أنه استسلم استسلاماً كاملاً لهذا الاحساس الجديد الشامل • اعتراه نوع من نوبة عصبية • ان شرارة قد انبعثت في نفسه فأشعلتها دفعة واحدة • ثم استولى عليه حنان واسع فسالت دموعه على خديه • وتهالك على الأرض حيث كان •••

ركع في وسط الميدان ، ثم سجد ، فقبّل الأرض الموحلة منتشياً ثملاً سعيداً • ونهض ثم سجد مرة أخرى •

قال فتى على مقربة منه :

– هيه ! على أى شيء يقبض هذا ؟

وضجّ الناس من حوله بضحك صاخب • وأضاف بائع صغير ثمل بعض الثمل :

– لا شك أنه مسافر الى القدس يا أصحابي ، فهو يودع أولاده ، ووطنه ، ويسلم على الناس جميعاً ، ويهب قبلةً أخيرة للعاصمة الكبرى سان بطرسبرج ، ولأرضها •

وقال ثالث :

– ما يزال فى ريعان الشباب !

وعقب رابع بصوت جازم :

– وهو من أسرة الكريمة •

وأضاف خامس :

– أصبح المرء لا يميّز بين أبناء الأسر الكريمة وبين من ليسوا أبناء
أسر كريمة !

هذه التعليقات المتفكّهة كلها أوقفت على شفتى راسكولنيكوف كلمتى:
« أنا قاتل » اللتين لعلهما كانتا توشكان أن تخرجا من فمه • ومع ذلك
تحمل هذا الصخب كله بكثير من الهدوء ، ومضى يسير فى شارع صغير
يؤدى الى قسم الشرطة ، دون أن يلتفت الى وراء • وفيما كان يمشى
عرضت لعينيه صورة ، ولكنه لم يُدهش ، فانه كان قد تنبأ بأن هذا هو
ما سيحدث • انه حين سجد فى « سوق العلف » سجدة ثانية ، قد التفت
يسرةً فلمح صونيا على مسافة خمسين خطوة • كانت لحرصها على ان
لا يراها قد اختبأت وراء كوخ خشبى كان قائماً فى الميدان ، ولكنها كانت
قد تبعته فى صعوده على « الرابية التى يعلوها صليبه » •

فى تلك اللحظة أحس راسكولنيكوف وأدرك أن صونيا سوف تكون
معه الى الأبد ، وأنها ستتبعه ولو الى آخر العالم ، ستتبعه الى أى مكان
يقوده اليه قدره • فاضطرب من ذلك قلبه ••• ولكن ها هو ذا يصل الى
المكان المحتوم •

دخل فناء المبنى بخطى جازمة ثابتة • كان عليه أن يصعد الى الطابق
الثانى • قال لنفسه : « من هنا الى أن أصير فوق ••• » • وبدأ له أن هناك

زمنًا طويلًا سينقضى قبل أن يصل الى فوق ، وأن أفكاراً كثيرة ما يزال
يمكن أن توافيه ، وأن اللحظة الحاسمة ما تزال بعيدة •

السلم مملوء بالأفذار نفسها والقشور ذاتها ؛ والأبواب مفتوحة على
مصاريعها كما كانت في المرة الماضية ؛ وما تزال المطابخ تفوح منها رائحة
العفونة والتفنن • ان راسكولنيكوف لم يرجع الى هذا المكان بعد زيارته
الأولى له •

كانت ساقاه متخدرتين وكاتتا تترنحان ، ولكنه ظل يتقدم • وتوقف
لحظة ليسترد أنفاسه ، وليسترجع رباطة جأشه ، من أجل أن يظهر بالمظهر
الذي يجب أن يظهر به « رجل » • ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يقوم به
من جهد فتساءل : « ولكن لماذا ؟ ما فائدة هذا ؟ ما دام يجب عليّ ان
أشرب الكأس حتى آخر قطرة منها فما قيمة أن أشربها بهذه الطريقة او
بتلك ؟ بالعكس ••• فكلما كنت منفراً باعثاً على الاشمئزاز كان ذلك
أفضل ! » • وفي تلك اللحظة تراءت لعينيه صورة ايليا بتروفشس ،
الليوتنان « بارود » • فتساءل : هل يجب حقاً أن أذهب اليه هو ؟ الا
يمكن أن أتجه الى شخص آخر ؟ ولماذا لا أتجه الى نيكوديم فومشس ؟
وماذا لو عدت أدراجي فذهبت الى مفوض الشرطة ألقاه في بيته ؟ ميزة
هذه الطريقة ، على الأقل ، أن الأمور تجري عندئذ في جو كأنه جو
أسرة ! ••• لا ، لا ، بل اتجه الى « بارود » الى الليوتنان « بارود » !
ما دام يجب عليّ أن أشرب الكأس فلأشربها دفعةً واحدة !

فتح باب المكتب متجمداً لا يكاد يعي ما يفعل • في هذه المرة لم يكن
هناك الا قليل جداً من الناس • لا أحد الا بواب ورجل من الشعب
ينتظران • شرطى الحرس وراء شباكه لم يحرك ساكناً بل لم يرفع عينيه •
مرّ راسكولنيكوف الى الغرفة المجاورة • وحدث نفسه قائلاً : « لعلى

ما زلت أستطيع أن لا أقول شيئاً * * هذا كاتب من القسم يرتدى
ردنجنوتاً قد مال على مكتبة يكتب شيئاً ما * وهذا كاتب آخر مستقر في
ركن * ليس زاميتوف هناك ، ولا نيكوديم فومتش طبعاً *

قال راسكولنيكوف يسأل الشخص المائل على مكتبه :
- ألا يوجد أحد ؟

- من تريد ؟

هنا انفجر صوت معروف يقول صائحاً :

- آ * * * آ * * * آ * * * لا حاجة الى أذنين ، ولا حاجة الى عيني
* * * غريزتي أبأتني بوجود رجل « روسي » * * * كما تقول الحكاية *
تحياتي واحترامي *

أخذ راسكولنيكوف يرتجف * ان الليوتنان « بارود » الذي انبجس
من غرفة ثالثة يقف الآن أمامه * حدث راسكولنيكوف نفسه قائلاً :
« هذه هي الأقدار * لماذا هو هنا ؟ » *

وعاد ايليا بتروفتش يصيح ، وكان واضحاً أنه مشرق المزاج بل
ومحتاج الأعصاب قليلاً :

- أنت عندنا ؟ اذا كنت آتياً لعمل ، فالوقت مبكر جداً * أنا نفسي
انما * * * بمصادفة محضة ! * * * على كل حال ، اذا كنت أستطيع * * *
أعترف لك * * * نعم * * * كيف * * * كيف أنت * * * معذرة * * *
- أنا راسكولنيكوف *

- طبعاً ، طبعاً راسكولنيكوف ! هل تخيلت ، ولو لحظة واحدة ،
أننى نسيت * * * أرجوك ، لا تصدقنى اذا * * * يا روديون رو * * * رو * * *
روديونتش ، أليس كذلك ؟

– روديون روماتش •

– نعم نعم نعم ، روديون روماتش ! روديون روماتش ! ذلك هو الاسم الذى كنت أحاول تذكره ! لقد سألت عن أخبارك مراراً ! اننى آسف حقاً – اعترف لك بذلك – للطريقة التى تصرفنا بها معك فى ذلك اليوم • وقد ذكروا لى فيما بعد ••• لقد علمت فيما بعد أنك شاب اديب، بل وعالم ••• وأنت تتخطو خطواتك الأولى ان صحَّ التعبير • أى اديب وأى عالم لا يقوم بأمور فيها شيء من الشذوذ والتفرد فى بداية حياته الأدبية أو العلمية ؟ اننا ، أنا وزوجتى ، نعشق الأدب ، حتى أن امرأتى تبلغ فى ذلك حد الوله والتدله !••• الأدب والفن ! قد يكون المرء نبيل المحتد كريم المنبت ، ولكن الشيء الهام هو ما يناله بالموهبة ، بالعلم ، بالعقل ، بالعقريه ! ما قيمة قبة مثلاً ؟ القبة قرص أستطيع أن اشتريه من محل تسيمرمان ، أما ما هو تحت القبة ، أما ما تغطيه القبة ، فذلك لا أستطيع أن اشتريه !••• أعترف لك بأننى قد تمنيت أن أذهب اليك ، لأعذر لك ، ولكنى قدّرت أنك قد ••• بالمناسبة : أنا لم أسألك ما هو الغرض من زيارتك الآن ! وصلت أسرتك ، أليس كذلك ؟

– نعم ، أمى وأختى •

– لقد شرفت وسعدت بلقاء أختك • انها فتاة مثقفة رائعة • اعترف لك بأننى آسف لاندفاعنا أنا وأنت ••• كانت قصة مؤسفة ! ولكن لئن نظرت اليك نظرة اشتباه عند اغمائك ، فان أسباب هذا الانغماء قد ظهرت بعد ذلك ظهوراً واضحاً ! لقد كان ذلك منى نزقاً وتعصباً لا أكثر ! اننى أفهم استيائك ! لعلك ستغير مسكنك بمناسبة وصول أهلك ، أليس كذلك؟

– ل ••• لا ••• وانما جئت ••• لأسألك ••• لقد كنت اتصور

أننى سأجد زامبوتوف •

- ها ••• نعم ••• أصبحتما صديقين ••• سمعتُ عن هذا ! ولكن زاميو توف تركنا ، فلن تجده بعد اليوم هنا ! نعم ، لقد فقدنا ألكسندر جريجورييفتش ••• منذ أمس ! قدّم استقالته ، حتى انه عند انصرافه قد بادلنا جميعاً كلمات خسنة • نعم ••• مضى فى قلة التهذيب الى ذلك الحد ••• انه صبى ، انه صبى ، انه طائش ! صحيح أن آمالاً كانت تعقد عليه ، ولكن كيف السبيل الى الاتكال على شبابنا اللامع هذا ؟ انه يريد ، فيما يبدو ، أن يتقدم الى امتحان مسابقة ، ولكنه لا يحاول أن يزيد على الثرثرة والمفاخرة ! ذلك هو امتحان المسابقة الذى يريد أن يدخله ! ليس هو مثلك ، أو مثل صديقك رازوميخين ••• فانك أنت قد اعتنقت رسالة العلم ، وما من اخفاق يمكن أن يحرفك عنها • جميع مباهج الحياة هى فى نظرك أنت باطل ••• « عدم » * ، أليس كذلك ؟ أنت ، أنت رجل زاهد متقشف ، أنت راهب ، أنت ناسك • المهم فى نظرك أنت انما هو القلم وراء الأذن ، وانما هو البحث العلمى • نعم ، ذلك هو فى نظرك الشئ ال ••• وأنا أيضاً ، الى حد ما ••• هل قرأت « مذكرات » ليفنجستون ؟ *

- لا !

- أما أنا فقد قرأتها • ثم ان عدد الذين يعتقدون المذهب العدمى قد ازداد فى هذه الايام ازدياداً كبيراً ، وذلك أمر يفهمه المرء حقاً • فى اى عصر نعيش نحن ؟ اننى ألقى عليك ذلك السؤال ! ولكن ما بالى أحدثك أنت ••• أنت لست من معتنقى المذهب العدمى ، أليس كذلك ؟ أجبنى بصراحة ، بصراحة •

- ل ••• لا •

- لا ؟ ولكن فى وسعك أن تعلن رأيك صريحاً كل الصراحة • نعم ، لا تتحرج ، كلمنى كما لو كنت تكلم نفسك • العمل شئ وال •••

شيء آخر • كنت تظن أنني سأقول : « الصداقة » ، أليس كذلك ؟ اذن
لقد أخطأ ظنك • ليست الصداقة هي ما أردت أن أشير اليه ، وإنما اردت
أن أشير الى عاطفة الانسان والمواطن ، الى العاطفة الانسانية ، وكذلك الى
الحب الذي يحمله المرء للعلی القدير • صحيح أنني موظف حكومة ،
صحيح أنني شخص رسمي ، ولكن هذا لا يمنعني من أن أشعر دائماً
بأنني مواطن ، بأنني انسان ، وأن أحسب حساب ذلك • اليك هذا المثال :
لقد تكلمت أنت عن زامبوتوف • ولكن زامبوتوف شخص يحدث صخباً
وجلبة وضوضاء على الطريقة الفرنسية في أسوأ المحال سمعة لا شيء الا
لأنه شرب كأس شمبانيا أو حتى كأساً من نبيذ الدون ••• نعم ، ذلك هو
صاحبك زامبوتوف ! أما أنا فأنني احترق نشاطاً وحماسة ان صح التعبير •
العواطف الكبيرة تلهبني ، ثم انني أملك رتبة وأشغل منصباً • وأنا متزوج ،
ولى أولاد ! انني أقوم بالواجب الذي يقع على عاتق انسان ومواطن ، أما هو
فهلاً قلت لي ما الذي يعمله ؟ انني أحدثك حديثي الى رجل صقلته الثقافة
وسمت به • اليك هذا المثال أيضاً : لقد تكاثرت القابلات في أيامنا هذه
تكاثراً تجاوز الحدود •••

نظر اليه راسكولنيكوف مبهوراً • ان جميع الكلمات التي قالها ايليا
بتروفتشس - واضح أنه كان قد نهض عن المائدة منذ قليل - قد رنت في
أذنيه رنين كلمات لا معنى لها • ومع ذلك فهم جزءاً منها على نحو
ما استطاع • وألقى على ايليا بتروفتشس نظرة مستفهمة وهو لا يدري كيف
سيتهي هذا كله •

تابع ايليا بتروفتشس الذي لا ينضب لكلامه معين ، تابع كلامه فقال :

- انني أطلق هذا اللقب على هاته الفتيات ذوات الشعر المقصوص
لأنه يبدو لي موقفاً جداً ••• هيء هيء ••• انهن يدخلن مدرسة الطب* ،

ويتعلمن التشريح ، ولكن قل لي : أترانى اذا مرضت أدعو احدى هذه
الآنسات لمعالجتى ؟ هـ هـ هـ !

انفجر ايليا بتروفتش ضاحكاً ، وقد رضى عن أقواله الحسنة وكلماته
الجميلة كل الرضى !

ثم تابع كلامه فقال :

- لنسلم بأن الدافع الى ذلك ظمأ الى التعلم والتثقف لا يرتوى ،
ولكن يخيل الى أن على الانسان ، متى تعلم ، أن يتوقف ، أن يكف .
فلماذا الاسراف والافراط ؟ لماذا تُهان شخصيات نبيلة ، كما يفعل ذلك
الرجل التافه زامبوتوف ؟ أشخاصٌ مثل زامبوتوف يهيننى أنا ؟ ثم تلك
الانتحارات التى تتكاثر ؟ يَأْكُلُ أحدهم آخر قرش ثم ينتحر ! بنات ،
شباب ، شيوخ ! .. اليك هذا المثال : فى هذا الصباح نفسه ، أبلغنا أن
أن سيداً كان قد وصل الى هذه المدينة منذ مدة قصيرة . . . هـ هـ هـ !
نيل بافلتش . . . يا نيل بافلتش . . . ما اسم ذلك السيد الذى أطلق على
راسه رصاصة عند ضفة النهر . . . أقصد عند الضفة الأخرى من نهر
نيفا ؟

أجاب صوت أبح غير مكترث ، صوت رجل فى الغرفة الأخرى ،
أجاب يقول :

- اسمه سفدرىجايلوف .

فارتجف راسكولنيكوف ، وصاح يسأل :

- سفدرىجايلوف ؟ سفدرىجايلوف أطلق على رأسه رصاصة ؟

- هل تعرف أنت سفدرىجايلوف ؟

- نعم . . . أ . . . أعرفه . . . لقد وصل فى الآونة الأخيرة

فعلماً ! . . .

- نعم ، في الآونة الأخيرة كانت زوجته قد ماتت منذ حين . . .
ثم ان هذا الرجل الذي كان ماجناً فاسقاً قد أطلق على رأسه رصاصة من
مسدس فجأة وقد فعل ذلك في ظروف فاضحة يستحى المرء حتى
أن لقد ترك بضع كلمات في دفتره قائلاً انه يموت مالكاً كل عقله
فما ينبغي اتهام أحد بقتله . يقال انه كان يملك ثروة طائلة . ولكن كيف
عرفته ؟

- تعرفت تعرفت عليه لأن أختي كانت تعمل معلمة في
منزلهم

- هه هه اذن تستطيع امدادنا بمعلومات عنه . الست
تشبه في أحد ؟

- رأيتُه أمس وكان يشرب خمرأ ولم أطلع على
شيء

كان راسكولنيكوف يحس أن حملاً ثقيلاً قد جثم على صدره
يسحقه سحقاً .

- لكأنك تصفر² من جديد . لا شك أن الجو هنا خانق

تمتم راسكولنيكوف يقول :

- أن لي أن أنصرف . اغفر لي ازعاجك

- ولكنك لم تزعجني البتة ! أنا في خدمتك ! ثم انك قد سررتني ؛
ويسعدني جداً أن أقول لك

ومدَّ ايديا بتروفتش اليه يده .

جمعهم راسكولنيكوف يقول :

– كنت أريد ••• فقط ••• أن ••• أن أرى زامبوتوف •••

– فهمت ، فهمت ، ولكنك مع ذلك قد سررتني بلقائك •••

قال راسكولنيكوف محاولاً أن يتسّم :

– أنا سعدت بلقائك ••• استودعك الله •••

وخرج مترنجحاً • كان يشعر بدوار فلا يكاد يدرى اهو ما يزال
منتصباً على ساقيه • وأخذ يهبط السلم ، متكئاً بيده اليمنى على الحائط •
ترأى له أن بواباً فى يده سجل قد صدمه ليدخل الى قسم الشرطة ، وان
كلباً كان ينبج فى مكان ما ، وأن امرأة كانت ترمى للكلب فطيرة لتسكته •
فلما بلغ أسفل السلم دخل الفناء •

كانت صونيا واقفةً فى الخارج ، غير بعيد عن الباب ، صفراء كصفرة
الموتى ، تنظر اليه مروعةً منقلبة السحنة • وقف أمامها ، فتشنجت قسما
وجهها على ألم شديد وعذاب فظيع ؛ وباعدت بين ذراعيها بحركة تعبر عن
يأس وارتسمت على شفيتها ابتسامة تيه وشرود •

توقف راسكولنيكوف لحظة ، فابتسم ، ثم قفل راجعاً الى المكتب
الذى بارحه منذ قليل •

كان ايليا بتروفتشس جالساً ينقّب بين أوراقه ، وقد وقف أمامه ذلك
الشخص نفسه الذى صدم راسكولنيكوف منذ برهة أثناء صعوده السلم •
فما ان رآه ايليا بتروفتشس حتى صاح يسأله :

– أهذا أنت أيضاً ؟ هل نسيت شيئاً ما ؟ ولكن ماذا بك ؟ ماذا
أصابك ؟

مضى راسكولنيكوف نحوه بطيشاً ، أبيض الشفتين جامد النظرة ،

واقترب من المائدة فأسند اليها إحدى يديه ، وأراد أن يقول شيئاً ما ،
ولكنه لم يستطع ذلك • لم تُسمع منه الا جمجمات لا تبين عن شيء •
هتف ايليا بتروفتشس :

– بماذا تحس ؟ هل تشعر بمرض ؟ هاتوا كرسيًا ، بسرعة ! خذ ،
اجلس ، اجلس هنا ، هاتوا ماءً !

تهالك راسكولنيكوف على الكرسي الذي قدّم اليه ، ولكنه لم
يحوّل بصره عن وجه ايليا بتروفتشس الذي دُهِش من ذلك أشدّ الدهشة •
وظل الاثنان خلال دقيقة ينظر كل منهما الى الآخر ويتنظر • وجيء بماء •

بدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال :

– أنا الذي •••

– اشرب جرعة ماء !

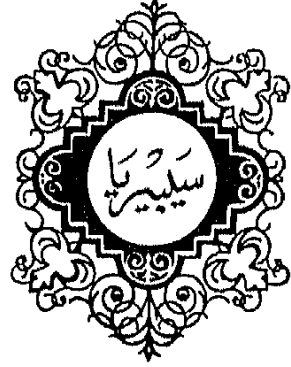
أبعد راسكولنيكوف الكأس عنه باحدى يديه ، وقال بصوت خافت
لكنه واضح متميز ، مع وقفات بين الكلمات :

– أنا الذي قتلت ، بضربات ساطور ، العجوز التي تقرض على رهن ،
واختها اليزابت ، وأنا الذي سرقتها •

لبت ايليا بتروفتشس فاغر الفم ، وهرع ناس من كل جهة • واعاد
راسكولنيكوف الادلاء بافادته •

خاتمة

الفصل الأول



على الشاطئين المقفرين من نهر عريض ، تقوم مدينة هي أحد المراكز الحكومية بروسيا • ان في المدينة قلعة ، وان في القلعة سجنًا • وفي هذا السجن حبس ، منذ تسعة أشهر ، السجن المحكوم عليه بالأشغال الشاقة من الفئة الثانية ، روديون رومانوفتش ، الذي انقضت سنة ونصف سنة على ارتكابه جريمته •

لقد سارت اجراءات المحاكمة بدون مصاعب • كسر المجرم افادته بثبات ووضوح ودقة ، لم تتداخل الظروف في أقواله ، ولا حاول ان يخفف من شأن جرمه ، ولا هو شوّه الوقائع ، أو أسقط منها شيئاً • حكى بأدق التفاصيل نشأة وتطور جرمه ، وأوضح سر «الرهن» - اللوح الصغير والصفحة المعدنية - ؛ وروى بدقة تامة كيف أخذ من العجوز مفاتيحها ، ووصف هذه المفاتيح، ووصف الصندوق ؛ وعداد بعض الأشياء التي كان يضمها الصندوق ؛ وأوضح أيضاً سرّ مقتل اليزابت ؛ وروى كيف جاء كوخ فقرع الباب ، وكيف جاء بعده الطالب ؛ وذكر الأقوال التي تبادلها كلاهما ؛ وقصّ كيف أنه ، هو القاتل ، قد هرب راكضاً على السلم فسمع هنالك صرخات نيقولا ودمتري ، فاخْتَبأ في الشقة الخالية ، ثم عاد الى بيته • وختم ذلك كله بأن عين صخرة موجودة في فناء أحد المنازل بشارع « ف • • • » ، قرب باب الفناء ، حيث عُثر على الأشياء والمحفظة المسروقة • الخلاصة أن جميع الأمور قد اتضحت فلم يبق منها في الظل

شئ • وقد دُهِشَ المحققون والقضاة دهشةً خاصةً إذ علموا أن الجاني قد أخفى الأشياء والمحفظة تحت صخرة دون أن يحاول الاستفادة منها ، وأنه لا يتذكر جميع الأشياء التي سرقها تذكراً صحيحاً ، حتى لقد اخطأ في عددها • أما قوله انه لم يفتح المحفظة مرةً واحدة بل وانه يجهل المبلغ الذي تحتويه فقد لم بدا لهم أمراً غير معقول (وقد تبيّن أن المحفظة كانت تضم ثلاثمائة وسبعة عشر روبلاً وثلاث قطع من فئة العشرين كوبيكاً ؛ كما أن الأوراق المالية التي كانت فوق ، وهي أكبرها ، قد ساءت حالها من طول اقامتها تحت الصخرة •) • وقد أنفق المحققون والقضاة وقتاً طويلاً من أجل أن يعرفوا لماذا كان المتهم يكذب في هذه النقطة ، مع أنه فيما يتعلق بسائر النقاط قد اعترف بالحقائق من تلقاء نفسه • ولكن بعضهم (ولا سيما علماء النفس) سلّموا بأن من الممكن أن لا يكون قد نظر في المحفظة فعلاً ، وأن يكون قد أخفاها تحت الصخرة دون ان يعرف ما تحتويه • غير أن هؤلاء أسرعوا يستنتجون من ذلك أن الجريمة لا يمكن أن تكون قد أُرتكبت الا في نوبة جنون طارئة ، أى في لحظة « مونومانيا » القتل والسرقة ، دون أهداف بعيدة ودون حسابات منفعة ؛ واستشهدوا على ذلك بالنظرية الرائجة عن الجنون الموقت ، وهي النظرية التي يحاول بعضهم في كثير من الأحيان أن يطبقها على بعض الجرائم في هذه الأيام • ثم أن حالة الوسواس (الهيبوكوندريا) المزمّن التي كان عليها راسكولنيكوف منذ مدة طويلة قد شهد بها عدة شهود ، جازمين قاطعين ؛ فمن هؤلاء : الدكتور زوسيموف صديقه القديم ، ورفاقه القدامى ، وصاحبة البيت الذي كان يقطنه ، والخدم • ذلك كله ساهم كثيراً في تعزيز الفكرة القائلة بأن راسكولنيكوف ليس بينه وبين مجرم عادي ، قاتل أو سارق ، أى شبه على الاطلاق ، وأن شأنه شأن اخر ، يختلف عن شأن المجرمين العاديين كل الاختلاف • ولكن الجاني نفسه

لم يحاول أن يدافع عن نفسه ، وذلك ما أسف له القائلون بتلك النظرية
 اشد الأسف . حتى اذا أُلقي عليه السؤال عن السبب الذي دفعه الى
 القتل والسرقة ، أعلن بوضوح تام ودقة كاملة أن فقره ، وعجزه عن
 الخروج منه ، ورغبته في تأمين خطواته الأولى في الحياة ، بمعونة ثلاثة
 آلاف روبل كان يأمل أن يجدها عند العجوز ، أن ذلك كان في الأصل
 سبب كل شيء . ولما سئل عن الدافع الذي حدا به الى الوشاية بنفسه
 والاعتراف بجريمته من تلقاء نفسه أجاب قاطعاً بأن ذلك ندم صادق وتوبة
 مخلصه .

وكان كلامه لا يشتمل على كثير من الرهافة ، بل كان فيه غلظة
 وفظاظة ! . . .

ومع هذا جاء الحكم أرحم مما كان يمكن توقعه في جريمة كهذه
 الجريمة ، وربما كان مرد ذلك الى أن الجاني لم يحاول أن يسوّغ نفسه،
 حتى لقد أظهر رغبةً في اتهام نفسه مزيداً من الاتهام . ولقد نُظر بعين
 الاعتبار الى جميع الظروف العجيبة الخاصة التي لا بست القضية . من ذلك
 أن حالة المرض والعوز التي كان عليها المتهم قبل انفاذه جريمته لم توضع
 موضع الشك . كما أن عدم استفادة الجاني من المسروقات قد نُسب الى
 الندامة وعذاب الضمير تارة ، ونسب تارة أخرى الى حالة قواه العقلية
 التي لم تكن سليمة البتة عند ارتكاب الجريمة . وكان مقتل الزابت ، دون
 عمد ، مثلاً على هذا الافتراض ودليلاً يدعمه ويؤيده : نحن ههنا ازاء
 رجل يرتكب جريمتي قتل ، ثم ينسى أن الباب قد ظل مفتوحاً ! ذلك
 كله بالاضافة الى أن الجاني قد جاء يعترف بجريمته من تلقاء نفسه في
 اللحظة التي اختلطت فيها الأمور اختلاطاً شديداً بسبب الافادة الكاذبة
 التي أدلى بها شخص مهووس مختل العقل (نقولا) ، بل وفي اللحظة
 التي لم يكن فيها أى دليل واضح يدين القاتل الحقيقي ، بل ولم تبق فيها

أية شبهة تحوم حوله • (لقد حافظ بورفير بتروفتشس على وعده وبربعده تماماً) • ذلك كله قد أسهم فى حمل المحكمة على أن تسلّم للجانبى بظروف مخفّفة •

يضاف الى ذلك أن وقائع فى مصلحة راسكولنيكوف قد انبجست فجأة على نحو لم يكن فى الحسبان البتة • فان الطالب السابق رازوميخين قد استطاع أن يعثر - لا يدرى أحد من أين - على شهادات ثبت صدقها ، بأن القاتل راسكولنيكوف قد أنفق آخر ما كان يملك من موارد ، اثناء دراسته بالجامعة ، على رفيق فقير مصاب بداء السل ، فقام بأوده وسدّ حاجاته وخفّف عنه خلال ستة أشهر كاملة • حتى اذا مات رفيقه ذلك ، اهتم راسكولنيكوف بأبيه ، وهو شيخ عاجز بقى وحيداً فى هذه الحياة (بعد أن كان ابنه منذ السنة الثالثة عشرة من عمره سنده الوحيد) ، ثم أدخله مأوى للشيوخ ، حتى اذا مات الشيخ هو أيضاً بعد مدة ، تكفل راسكولنيكوف بنققات دفنه •

هذه المعلومات كلها كان لها أثر فى مصير راسكولنيكوف • وقد شهدت صاحبة البيت الذى كان يقطنه راسكولنيكوف (وهى أم خطيبة المتوفاة) ، شهدت من جهتها أن راسكولنيكوف ، حين كانوا ما يزالون يسكنون فى شارع « الأركان الأربعة » ، قد أنقذ ، أثناء حريق ، فى ذات ليلة ، طفلين صغيرين من مسكن شبتّ فيه ألسنة النيران واشتعل ، حتى أن راسكولنيكوف قد أصيب أثناء ذلك بعدة حروق • وقد جرى تحقيق دقيق فى هذه الواقعة ، فشهد بصدقها شهود كثيرون • الخلاصة ان كل شىء قد ساهم فى حمل المحكمة على أن تصدر حكمها بحبس المتهم ثمانى سنين مع الأشغال الشاقة (من الفئة الثانية) فقط ، لأنه اعترف بجريمته من تلقاء نفسه ولأن هناك ظروفاً مخففة •

وقد مرضت أم راسكولنيكوف منذ بدء النظر فى الدعوى • واستطاع

رازوميخين ودونيا مع ذلك أن ينقلها الى خارج بطرسبرج طوال مدة المحاكمة • لقد اختار رازوميخين مدينة قرب بطرسبرج يصل اليها القطار، فكان يستطيع بهذه الطريقة أن يشهد جميع مراحل الدعوى وأن يرى أفدوتيا رومانوفنا مع ذلك أحياناً كثيرة •

وكان مرض بولشيريا الكسندروفنا اصابة عصبية غريبة بعض الغرابة، يرافقها نوع من الاضطراب الدماغى ان لم يكن كاملاً فهو يدعو رغم ذلك الى القلق • ان دونيا ، حين عادت الى البيت بعد لقاء أخيها آخر مرة ، قد وجدت أمها فى حالة حمى بالغة وهذيان شديد • فاتفقت مع رازوميخين فى ذلك المساء نفسه على الأجوبة التى ينبغى أن يجيبها بها بولشيريا الكسندروفنا متى سألتها عن ابنها ، حتى لقد اخترعا لهذا الغرض قصة سفر ، سفر بعيد ، سفر الى مكان على حدود روسيا ، فقد كلّف راسكولنيكوف بالقيام بمهمة خاصة ، وسوف تجلب له هذه الرحلة مالاً وشهرة • فما كان اشد دهشتها حين لم تطرح عليهما بولشيريا الكسندروفنا أى سؤال ، لا فى ذلك الحين ولا بعده ؛ حتى انها ، على خلاف ذلك ، قد تخيّلت هى نفسها قصة طويلة لتعلل سفر ابنها هذا على حين بغتة ؛ وقد قضت عليهما ، وهى تبكى زيارة ابنها لها مودّعاً ، وألمعت فى هذه المناسبة ، ببعض الاشارات والتلميحات ، الى أنها وحدها على علم بظروف كثيرة خطيرة سرية ، قائلة : ان لابنها روديا خصوماً اشداء عتاة ، فهو لذلك قد اضطر أن يغيب عن الأنظار • أما عن مستقبل ابنها ، فانها لا تشك فى أنه سيكون مستقبلاً لامعاً متى أمكن التغلب على بعض الظروف المعادية ؛ حتى لقد أكدت لرازوميخين أن روديا سيصبح فى المستقبل « رجل دولة » ؛ فان مقالته وموهبته الأدبية دليل كاف وبرهان قوى على ذلك • وكانت الأم تقرأ المقالة وتعيد قراءتها بغير انقطاع ، حتى لقد كانت تقرأها فى بعض الأحيان بصوت عال ، وتوشك أن تنام معها

فى الليل * ومع ذلك لم تحاول قط أن تعرف أين يوجد روديا فى ذلك الأوان ، لا ولم تتساءل لماذا يبدو أن من حولها يتحاشون أى حديث عنه (وكان حرياً بهذا أن يثير شبهاتها طبعاً) * وأصبح رازوميخين ودونيا يخشيان هذا الصمت الغريب من جانب بولشيريا ألكسندروفنا آخر الامر * حتى لقد كانت لا تشكو من أنها لا تتلقى أية رسالة من ابنها ، مع انها كانت قبل ذلك ، فى مدينتها الصغيرة ، لا تحيا الا على الأمل فى تلقى انباء ابنها الحبيب روديون * ولقد قلقت دونيا قلقاً خاصاً من هذا الأمر التفصيلي الأخير ، وكان لها بمثابة انذار ، فقد تراءى لها أن أمها كانت توجس منذ الآن البلاء الرهيب الذى حلّ بابنها ، وأنها لا تريد أن تسألها ، لحشيتها من أن تعرف شيئاً أفضح * ومهما يكن من أمر ، فقد كانت دونيا ترى رؤية واضحة أن بولشيريا ألكسندروفنا لا تملك قواها العقلية كاملة *

وقد حدث للأم مع ذلك مرتين أن وجّهت الحديث توجيهها ما كان للشابين أن يجيبا معه عن أسئلتها اجابة تامة دون أن يشيرا لها الى المكان الذى يوجد فيها روديا * حتى اذا جاءت الاجابات متحفظة مشتبهة وقعت الأم فى حالة حزن رهيب * وأدركت دونيا عندئذ أن من الصعب أن يستمر الكذب والتلفيق ، وانهت الى هذه النتيجة ، وهى أن التزام الصمت التام فى النقاط الحساسة أفضل وأسلم * ولكن أخذ يتضح مزيداً من الاتضاح شيئاً بعد شيء أن الأم المسكينة تشبه فى شيء ما ، فى شيء مروع فظيع * تذكرت دونيا ، فيما تذكرت ، بعض أقوال أخيها * ألم يقل لها ان بولشيريا ألكسندروفنا سمعتها تهذى ، فى الليلة التى سبقت اللحظة الحاسمة من لقاؤهما الأخير ، بعيد المشهد الذى حدث مع سفدرىجايلوف؟ لم تسمع بولشيريا ألكسندروفنا عندئذ بعض الأشياء ، ففهمت شبه فهم ؟ كثيراً ما أصبح يحدث ، بعد بضعة أيام بل وبضعة أشهر من صمت حزين دموع خرساء ، أن ينتاب المريضة انتعاش مرضى ونشاط هسترى ، فتأخذ

تتكلم عن ابنها ، وعن آمالها ، وعن المستقبل ، متدفقة تدفقاً سريعاً ، بغير توقف تقريباً !... وكانت أخيلتها فى بعض الأحيان عجيبة حقاً ! فكان الشبان يتظاهرون بمشاركتها آراءها مواساةً لها ، وتسريةً عنها ، (ولعل موافقتها هذه على آرائها لم تكن تنطلى عليها) ولكن ذلك كان لا يمنعها من متابعة كلامها المنطلق ومواصلة حديثها اثرً الذى لا ينضب له معين ...

وقد صدر الحكم بعد خمسة أشهر من اعتراف القاتل بجريمته .

وأخذ رازوميخين يزور راسكولنيكوف فى السجن كلما تمكن من ذلك . وكذلك كانت تفعل صونيا . وأزفت أخيراً ساعة الفراق . فحلفت دونياً لأخيها على أن الفراق لن يكون ابدياً . وحلف رازوميخين أيضاً على ذلك . وقد ترسخت فى دماغ رازوميخين ، فى دماغه الفتى الفائر المتحمس المندفع ، ترسخت ترسختاً قوياً ، فكرة المشروع الذى قام فى ذهنه ، وهو أن يرسى قواعد مصيره المقبل ، خلال السنين الثلاث أو الأربع التالية ، فيدخر مبلغاً كافياً من المال ليمضى يقيم فى سيبيريا ، حيث الأرض غنية ، وحيث الأيدي العاملة ورءوس الأموال قليلة . فهناك سيستقرون ، بالمدينة نفسها التى سيكون فيها روديا ، وهناك ... سيدأون جميعاً حياة جديدة !

وبكى الجميع فى ساعة الفراق . كان راسكولنيكوف ، خلال الايام الأخيرة مغموماً جداً ، فكان يلقي أسئلة كثيرة عن أمه ، ويظهر قلقاً شديداً عليها . وكان يتعذب عذاباً قوياً يخيف دونياً وينذرهما بأسوأ العواقب . ومنذ عرف راسكولنيكوف حالة بولشيريا ألكسندروفنا معرفة دقيقة ، أصبح قائم النفس مظلم المزاج . ولقد كان قليل الكلام مع صونيا خاصة ، فهو لا يبوح لها بما فى نفسه . وكانت صونيا ، بفضل المال الذى تركه لها سفدريجاييلوف ، قد تهيأت منذ مدة طويلة لأن تتبع قافلة السجناء التى ستضم راسكولنيكوف . انهما لم يبنحنا هذا الأمر معاً فى يوم من

الأيام ، ولكنهما يعرفان كلاهما أن الأمر سيكون كذلك • وفي اللحظة الأخيرة ، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة غريبة حين سمع التأكيدات الحارة من أخته ومن رازومبخين عن المستقبل الجميل الذي ينتظرهم جميعاً عند خروجه من السجن • لقد كان يوجس أن أمه ستموت قريباً •
وسلك أخيراً طريق المنفى تصحبه صونيا •

بعد شهرين تزوجت دونيتشكا رازومبخين • وكان الاحتفال بالعرس متحفظاً ، وكان يرين عليه جو الحزن • وكان بين المدعوين بورفير بتروفشس وزوسيموف • وقد اكتسى رازومبخين في الآونة الأخيرة مظهر رجل قوى العزيمة ثابت الرأي • وكانت دونيا تؤمن ايماً أعمى بأنه سيحقق جميع مشاريعه • وكان لا يمكنها ، على كل حال ، إلا أن تؤمن بذلك : فان ارادة حديدية كانت تتجلى في هذا الرجل • ولقد استأنف ، خاصةً ، متابعة دروس الجامعة لينهى دراسته • وكانا كلاهما لا ينفكان يبنيان خططاً للمستقبل ، وكانا كلاهما يتتويان حقاً أن يرحلا الى سيبيريا بعد خمس سنين • والى أن يحين ذلك الحين ، كانا يتكلان على صونيا •

وقد باركت بولشيريا ألكسندروفنا زواج ابنتها ورازومبخين وفرحت به ، لكنها سرعان ما سقطت في حزن أشد وأسى أعمق وأكبر • ومن اجل أن يهيبها لها رازومبخين بضع لحظات من فرح قصصاً عليها قصة الطالب وأبيه العاجز ، وحكى لها حكاية الحريق الذي برز فيه روديا بطلاً ينتزع الطفلين الصغيرين من بين ألسنة اللهب • فكانت القصص تلقي بولشيريا ألكسندروفنا التي كان عقلها قد اهتز وأصابه اختلال ، كانت هذه القصص تلقيها في نشوة تشبه أن تكون وجداً ، حتى أصبحت لا تتكلم الا عن هذا وحتى مضت في ذلك الى حد استيقاف الناس في الشارع لتقص عليهم هي أيضاً ••• (هذا رغم أن دونيا ترافقها حيثما تذهب) • أصبحت بولشيريا ألكسندروفنا تتجه الى أول انسان تلقاه ، في الشارع ، في الدكاكين ،

فى أى مكان ، فتأخذ تكلمه عن ابنها ، وعن مقاتته ، وتأخذ تشرح له مسهبةً مفيضةً كيف أن ابنها بذل لأحد الطلاب أكبر العون وكيف انه اقتحم ألسنة اللهب أثناء حريق ، وهلمّ جرا . وكانت دونيا لا تعرف ماذا يجب عليها أن تعمل لتهدئها . كانت تخشى خطر مثل هذه الحماسة وهذا الاندفاع على صحة أمها المريضة ، وكانت تخشى أيضاً حين يسمع احد أسم راسكولنيكوف أن يتذكر الدعوى وأن يتحدث عنها .

وقد اكتشفت بولشيريا ألكسندروفنا عنوان أم الطفلين اللذين انقذهما روديا ، وأرادت أن تزورها مهما كلف الأمر . وبلغ قلقها ابعاداً خطيرة فى النهاية . فهى تارة تنفجر باكية ناشجة ، وهى تارة أخرى تتكلم هارفة هاذية . وفى ذات صباح أعلنت فجأة أن روديا - وفقاً لحساباتها - عائد فى القريب ، فقد وعدتها - وهى تتذكر وعده - أنه سيرجع بعد تسعة أشهر .

وسرعان ما شرعت ترتب الشقة استعداداً لعودته ؛ فهيات له غرفتها هى ، ودلكت الأثاث ، وغسلت ، ومسحت ، وعلقت ستائر جديدة ، الخ . ولم تقل دونيا شيئاً ، رغم جزعها ، بل ساعدتها فى هذه الاستعدادات . وبعد أن قضت بولشيريا ألكسندروفنا ذلك النهار كله فى تخيل أشياء تبلغ غاية الجنون ، وفى البكاء والانقياد للأحلام ، مرضت فى تلك الليلة نفسها ، فما طلع الصباح حتى كانت فى حالة هذيان ، فقد اعترتها حمى حارة ، ثم ماتت بعد أسبوعين .

وقد أفلتت من لسانها أثناء الهذيان أقوال يفهم المرء منها أنها كانت تعلم من أمر المصير الرهيب الذى آل اليها ابنها أكثر كثيراً مما كان يفترض صهرها ، وتفترض ابتها .

ظل راسكولنيكوف مدة طويلة يجهل أن أمه ماتت رغم أنه استطاع بفضل صونيا أن يتلقى أنباء من بطرسبرج منذ وصوله الى سيبيريا . كانت

صونيا تكتب الى رازوميخين كل شهر دون تخلف ، وكل شهر ايضاً كانت تتلقى رسالة من بطرسبرج • وفى أول الأمر رأت دونيا وراى رازوميخين أن رسائل صونيا جافة وأنها لا تبعث على كثير من الرضى • ولكنهما اعترفا كلاهما أخيراً أن صونيا لا تستطيع أن تفعل خيراً من ذلك ؛ وأن من السهل عليهما أن يكونا من خلال هذه الرسائل فكرة دقيقة واضحة عن الظروف التى يعيش فيها أخوهما البائس • كانت رسائل صونيا زاخرة بتفاصيل يومية ، وكانت تشتمل على أوصاف واضحة بسيطة عن نوع الحياة التى يحيها راسكولنيكوف فى المعتقل • كانت لا تقول شيئاً عن آماله ، وعن أحلامه المتصلة بالمستقبل ، لا ولا عن عواطفه الشخصية • كانت صونيا فى هذه الرسائل ، بدلاً من أن تحاول تصوير حالة راسكولنيكوف النفسية ، تذكر وقائع جرت له ، وتنقل أقوالاً قالها ، وتقدم تفاصيل عن صحته ، ولا تغفل مع ذلك عن ذكر الرغبات التى عبر عنها أثناء هذا اللقاء أو ذاك ، وما كلفها بأن تنقله اليهما ، الخ • وكانت هذه الأخبار كلها مفصلة ، فاستطاعت دونيا أن ترسم صورة واضحة عن أخيها ، ولم يكن من الممكن أن يحدث أى خطأ ، لأن جميع الوقائع كانت صادقة •

غير أن جميع هذه الأنباء ، ولا سيما فى البداية ، لم تحمل الى دونيا وزوجها كثيراً من العزاء أو الطمأنينة • كانت صونيا تبلغهما ان راسكولنيكوف لا يبرح قائم المزاج مظلم النفس صموتاً قليل الكلام ؛ وانه لا يكاد يهتم بالأخبار التى تنقلها اليه كلما تلقت رسالةً منهما ؛ وأنه يسأل أحياناً عن أمه فلما رأت أنه أوجس الحقيقة فأبلغته النبأ الرهيب ، أدهشها أنه لم يبد عليه أن ذلك أثار فى نفسه تأثيراً كبيراً ، فيما تدل عليه المظاهر الخارجية على الأقل •

وكانت صونيا تقول لهما أيضاً انه رغم انطوائه على نفسه دائماً ، يبدو

راضياً بحياته الجديدة بصدق واستقامة وبساطة ، وانه يدرك الوضع الذى هو فيه ، ولا يتوقع أن يتحسن مصيره فى مستقبل قريب ، وانه لا يراوده أى أمل فى غير محله (كما يحدث عادة للسجناء) ، وانه لا يدهش من شئ ، رغم ما هناك من تعارض وتناقض بين حياته الراهنة وحياته السابقة . وكانت تقول لهم ان صحته حسنة ، وانه يمضى الى الشغل دون تهرب أو تملص ، ودون نشاط كاذب أو حماسة زائفة . وانه لا يكاد يهتم بأمر الطعام ، ولكن هذا الطعام ، فى غير أيام الأحاد وأيام الأعياد ، يبلغ من السوء أن راسكولنيكوف أصبح أخيراً يقبل بعض المال منها هى صونيا ، ليستطيع أن يحصل لنفسه على شئ من الشاى (أما فيما عدا ذلك ، فقد رجاها أن لا تقلق عليه وأن لا تهتم به ، وقال لها ان عنايتها به تثقل على نفسه وتضايقه) .

وكتبت لهما صونيا كذلك أنه فى السجن يسكن مع السجناء الآخرين فى مهجع مشترك ، وأنها لم تدخل المبانى ، ولكن ظاهر المبانى يدل على أن المكان ضيق قدر غير صحى ؛ وأن راسكولنيكوف يرقد على لوح من الخشب مغطى بلباد ، فهو لا يريد أن يصنع لنفسه سريراً آخر ؛ وانه على كل حال ، اذا كان يعيش حياة خشنة قاسية فقيرة الى هذا الحد ، لا يفعل ذلك التزاماً بفكرة سابقة أو تقيداً بمبدأ معين ، بل لأنه لا يكثرث للظروف المادية ولا يحفل بها .

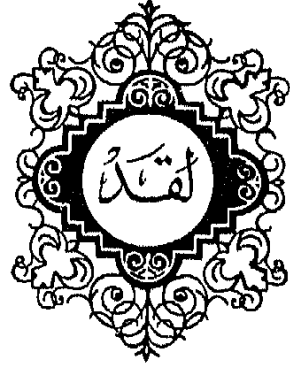
وكتبت صونيا بصراحة أنه ، فى أول الأمر خاصة ، لم يكن يعبأ بزياراتها ، حتى لقد كان يظهر لها شيئاً من الاستياء ، ولا يفتح فمه بكلمة ، ويعاملها معاملة أميل الى الفظاظ . غير أن لقاءاتها أصبحت عادة له بعد ذلك ، وأوشكت أن تصير حاجة ، حتى ان الزمن بدا له طويلاً أثناء الأيام القليلة التى لم تستطع أن تزوره خلالها بسبب مرض ألم بها . انها فى أيام الأعياد تراه من وراء القضبان الحديدية ، أو تراه فى غرفة هيئة

الحرس التى يؤتى به اليها بضع دقائق • وأما فى الأيام الأخرى فانها تراه أثناء الشغل ، فى ورشات العمل ، أو فى مصانع الآجر ، أو فى المستودعات القائمة على ضفاف نهر ايريتش * • أما عنها هى فلم تزد على أن أشارت الى أنها استطاعت أن تخلق لنفسها فى المدينة علاقات تسندها وتشد أزرها ؛ وأنها تعمل فى الخياطة ، وأنها لقله الخياطات فى المدينة أصبحت بيوت كثيرة لا تستغنى عنها • ولكن صونيا أسقطت أن تذكر أن راسكولنيكوف قد أمكنه ، بفضلها هى ، أن يحظى بشيء من العطف عليه ، فكانت سلطات السجن تراعيه بعض المراعاة ، وكانت الأشغال التى يُعهد بها اليه غير شاقة كثيراً ، الخ •••

ثم وصل النبأ الذى يقول (وقد استطاعت دونيا أن تستشعر شيئاً من القلق ومن العصية فى الرسائل الأخيرة التى بعثت بها صونيا) وصل النبأ الذى يقول ان راسكولنيكوف يتحاشى جميع السجناء الآخرين ، وان هؤلاء لا يحبونه كثيراً ، وانه يظل صامتاً ساعات بكاملها ، وان شعوبه يزداد شيئاً بعد شيء •

وكتبت صونيا أخيراً فى ذات يوم أن راسكولنيكوف مريض جداً ، وانه يعالج الآن فى مستشفى المعتقل •••

الفصل الثاني



كان مريضاً منذ مدة طويلة ، ولكن لا الاحوال
 التي تشتمل عليها حياة السجين ، ولا الاشغال
 الاجبارية الشاقة ، ولا الطعام الرديء ، ولا حلق
 شعر الرأس ، ولا الأسماك البالية ، لا شيء من
 هذا كله هو الذي حطّمه ! لا ، لا ، ان جميع هذه الأنواع من البؤس
 والعذاب لا تعنيه في شيء ! بالعكس : لقد كان يرضيه أن يكون عليه ان
 يعمل عملاً مضمناً . انه حين يرهقه العمل الجسمي يستطيع على الأقل أن
 يتمتع ببضع ساعات من نوم هادىء مريح . أما الطعام الرديء ، أما حساء
 الكرنب ذاك الملىء بالصراصير ، فانه لا يهمه البتة . ألم يتفق له ، حين
 كان طالباً ، في أول عهده بالحياة ، أن لا ينعم حتى بمثل هذا الطعام ؟ واما
 ملابسه فقد كانت تكفل له الدفاع ، وهي ثلاثم طراز الحياة الجديدة التي
 يحياها ، فماذا يريد أكثر من ذلك ؟ وأما الأغلال الحديدية ، فقد كان
 لا يكاد يحسّها . . . وهل يخجل من أن يكون شعر رأسه مخلوقاً ؟
 يخجل ؟ يخجل أمام من ؟ أمام صونيا ؟ ان صونيا تخاف منه وتخشاه ،
 فكيف يمكن أن يشعر أمامها بخجل ؟

ومع ذلك كان يشعر بخجل حتى أمام صونيا (صونيا التي ينتقم منها
 فيعاملها باحتقار وفضاظة) . ولكن هذا الخجل أو هذا الشعور بالخزى
 والعار لا يرجع لا الى أن شعر رأسه مخلوق ، ولا الى أنه مكبّل
 بالسلاسل ! ان ما كان يشعره بالخزى والعار ، وما كان يؤلمه ايلاًماً شديداً

حتى جعله مريضاً ، انما هو الجراح التي اصيبت بها كبرياؤه ! اه •••
لقد كان يمكن أن يسعد أشد السعادة لو كان في وسعه أن يتهم نفسه وان
يدين نفسه ! لو استطاع ذلك اذن لكان يمكن أن يحتمل الخزي وان
يحتمل العار ! ولكنه مهما تشتت قسوته في الحكم على نفسه ، فان ضميره
المتصلب كان لا يجد في ماضيه أية خطيئة فظيعة ، اللهم الا أن تكون هذه
الخطيئة هي أن « ضربته قد أخفقت » • صحيح أن هذا يمكن ان يقع
لجميع الناس ، ولكنه كان يشعر بالخزي من أنه ضاع بمثل هذه العماوة ،
بمثل هذه الحماسة ، بمثل هذا الانهيار ، ومن أنه خاصة مضطر ، هو
راسكولنيكوف ، أن ينصاع لحكم هذا القدر الأعمى ، وأن يخضع امام
« سخافة » هذا الحكم ، اذا هو أراد أن يسترد الهدوء والسكينة •

ان قلقاً لا موضوع له ولا غاية له في الحاضر ، وان توضحية متصلة
غير منقطعة في المستقبل ، ذلك هو كل ما ينتظره هنا على هذه الأرض !
فأية فائدة اذن في أن يقول لنفسه انه بعد ثماني سنين لن يكون عمره قد
تجاوز اثنين وثلاثين سنة ، وانه ما يزال يستطيع أن يستأنف حياته ؟
علام يحيى ؟ ما هي الغاية التي ما يزال يستطيع أن يلاحقها ؟ ما هو الهدف
الذي ما يزال يمكنه أن يسعى اليه ؟ ماذا يفيد وماذا يجديه أن يستمر
في الصراع والكفاح ؟ أيحيا من أجل أن يوجد ؟ ألا انه كان طوال حياته
مستعداً لأن يضحى بوجوده ألف مرة في سبيل فكرة ، في سبيل امل ،
بل وفي سبيل تحقيق نزوة ! ان الوجود في حد ذاته لم يكن كافياً له في
يوم من الأيام ، وانما هو كان يطمح دائماً في أكثر من ذلك ! ولعل عنف
رغباته كان وحده السبب في أنه ظن نفسه انساناً يجوز له ما لا يجوز
لغيره •

ولو أن القدر قد اختار له الندامة - الندامة المحرقة التي تحطم
القلب وتطرد النوم - الندامة التي تجعل صاحبها يفكر في الانتحار شقياً

أو غرقاً ، اذن لكان سعيداً كل السعادة ! ان ألم الدموع حياة ! ولكن
راسكولنيكوف لم يكن نادماً على اقترافه جريمته •

لو كان نادماً لاستطاع أن يغضب من حماقته ، كما غضب في الماضي
من أفعاله الشاذة الغبية التي قادتة الى المعتقل • أما وقد أصبح الآن في
المعتقل ، وأصبح يستطيع أن يفكر في تلك الأفعال « بحرية تامة » ، فانه
لا يراها شاذة ولا سخيفة الى الحد الذي تراءى له قبل ذلك في اللحظة
المحتومة المشئومة •

انه الآن يقول لنفسه : « هل فكرتني أغبي من تلك الأفكار والنظريات
التي تجرى في هذا العالم وتتصادم منذ أن وُجد العالم ؟ يكفي أن نواجه
الأمور بنظرة موضوعية واسعة متحررة من الأحكام السابقة اليومية حتى
ندرك أن فكرتني ليست غريبة الى ذلك الحد من الغرابة الذي قد يتوهمه
بعضهم ... ايه ايها الجاحدون ، أيها الفلاسفة التافهون ، لماذا تتوقفون
في منتصف الطريق ؟ غريب ! لماذا تبدو لهم فعلتي شاذة الى هذا
الحد ؟ لأنها جريمة ؟ ماذا تعنى كلمة : جريمة ؟ ماذا تعنى كلمة :
جريمة ؟ ان ضميري مرتاح • صحيح أن جريمة قد وقعت • صحيح ان
نص القانون قد اخترق وأن دماً قد سُفك • فاذا كان الأمر أمر تقييد
بنص القانون ، فاقطعوا رأسي ، ولنسكت ! ولكن يجب أن نذكر في هذه
الحالة أن كثيراً من العظماء الذين أحسنوا الى الانسانية ولم يكونوا قد
ورثوا السلطة وراثيةً وانما استولوا عليها استيلاً ، كان ينبغي أن تقطع
رؤوسهم منذ خطوا خطواتهم الأولى • ان الفرق الوحيد بين هؤلاء وبينى
هو أنهم قد احتملوا ثقل أفعالهم ، فكان ذلك « مبرراً » لهم ، أما أنا فلم
أقدر على الصمود • اذن كان لا يحق لى أن أجزى لنفسي القيام بتلك
المحاولة • »

تلك هي الخطيئة الوحيدة التي كان راسكولنيكوف يؤاخذ نفسه عليها : وهي أنه لم يستطع أن يصمد ، بل مضى يشي بنفسه ويعترف بجريمته .

وكان يتألم أيضاً حين يخطر بباله هذا السؤال : لماذا لم ينتحر حينذاك ؟ لماذا ، حين مال على ماء النهر ، آثر أن يشي بنفسه ؟ هل يمكن أن يكون حب البقاء قوياً هذه القوة ، يصعب التغلب عليه الى هذه الدرجة من الصعوبة ؟ ان سفدرريجاييلوف الذي كان يخشى الموت مع ذلك ، قد استطاع أن ينتصر على حب الحياة هذا !

كان راسكولنيكوف يعاني من القاء هذه الأسئلة عذاباً شديداً ، ولا يستطيع أن يدرك أنه حين مال على ماء النهر فلعله أوجس في نفسه وفي اقتناعاته كذباً . انه لم يدرك أن هذا النوجس يمكن ان يكون علامة انعطاف مقبل في حياته ، وبشارة انبعث جديد ، واستباقاً لتصوره الحياة في المستقبل تصوراً آخر . وانما كان يتوهم أن هذا من ثقل الغريزة ، وعطالة الحركة ، وأنه من عجزه وجبنه لم يستطع التغلب على تلك العطالة . وكان اذ يلاحظ رفاقه في الأسر يدهشه ما يراه من أنهم جميعاً يحبون الحياة حباً قوياً ، ويظلون متعلقين بها تعلقاً شديداً . حتى لقد كان يبدو له أنهم يحبونها ويظلون متعلقين بها أكثر مما يمكن أن يحبوها وأن يتعلقوا بها لو كانوا أحراراً طلقاء . ومع ذلك ما أقسى انواع العذاب ، وما أشد ضروب الآلام التي كان يعانيها بعضهم ! المتشردون مثلاً . . هل يمكن حقاً أن يكون هذا الشأن الكبير كله وأن تكون تلك القيمة العظيمة كلها ، في نظرهم ، لشعاع من شمس ، لغابة متوحشة ، لنبع ماء بارد في قرارة الأحراج (نبع رآه أحدهم منذ ثلاث سنين ، فاصبحت صورته تلازمه حتى لكانها صورة لقاء حب) ، لنبته عشب خضراء طالعة حول ذلك النبع ، لطير يغرد في الأدغال ؟

وأمن راسكولنيكوف في الملاحظة مزيداً من الامعان ، فكانت تفعجاً بصره ، وتثير دهشته أمثلةً أعسر فهماً من مثال المتشردين أيضاً . ان في المعتقل أموراً كثيرة كانت تفوته ، وكان هو لا يريد أن يراها على كل حال . لقد كان يعيش غاضباً بصره خافضاً عينيه ان صح التعبير . كان النظر الى ما حوله يثير اشمئزازه . غير أن أشياء كثيرة أخذت تفتأه ، فاذا هو ، على غير علم منه تقريباً ، قد بدأ يرى ما لم يكن يدور في خلداه أو يخطر بباله قبل ذلك . ولعل ما أدهشه أكثر من أى شىء آخر هو الهوة الرهية ، هذه الهوة التي لا يمكن اجتيازها ، أعنى الهوة التي تفصله عن هؤلاء الناس . لكنهم يتمون الى أجناس مختلفة . انهم ينظرون بعضهم الى بعض نظرة شك وعداوة . وكان راسكولنيكوف يعرف ويفهم الأسباب العامة لهذا التنافر ، ولكنه لم يتصور فى يوم من الأيام أن هذه الأسباب يمكن أن تبلغ هذا المبلغ من العمق والقوة .

وكان فى السجن أيضاً سجناء بولنديون نفوا الى سيبيريا لجرائم سياسية . فكان هؤلاء ينظرون الى الآخرين نظرتهم الى رعاى ، ويعاملونهم معاملة احتقار * ، غير أن راسكولنيكوف كان لا يستطيع أن يشارك فى هذا الرأى . ذلك أنه كان يدرك بوضوح أن هؤلاء الرعاى كانوا من نواح كثيرة أذكى من أولئك البولنديين أنفسهم . وكان بين الروس أيضاً اناس يزدرون رفاقهم ، ولا سيما ضابط سابق ، ورجلان مثقفان . وقد ادرك راسكولنيكوف خطأ هؤلاء أيضاً .

ومع ذلك لم يكن يحبه أحد ، وكان الجميع يتحاشونه ويتجنبون صحبته . حتى لقد انتهى بهم الأمر الى كرهه . لماذا ؟ ليس يدري ! كان بعضهم ، وهم أشد اجراماً منه ، يحتقرونه ويستهزئون به ، ويجعلون جريمته محل سخريه وتفكه وضحك ! كان هؤلاء يقولون له :

– أنت سيد ! فهل شأنك أنت أن تقتل بضربات ساطور ؟ ليس هذا شأن سيد من السادة !

وفي الأسبوع الثاني من « الصوم الكبير » ، جاء دوره للاعتراف والتناول مع سائر أفراد قسمه • فعل كما فعل الآخرون ، فذهب الى الكنيسة وصلى • ولكن مشاجرة شبتت في ذات يوم دون أن يعرف لماذا • لقد هجم عليه الجميع باندفاع شديد ، وأخذوا يصيحون قائلين له :
– أنت ملحد ! أنت لا تؤمن بالله ! يجب قتلك !

انه لم يكلمهم في يوم من الأيام عن الله ، ولا عن الدين ؛ ولكنهم يريدون قتله بحجة انه ملحد لا يؤمن بالله • لم يعترض بشيء ، وصمت • ووثب أحد السجناء نحوه مهتاجاً مسعوراً • فانتظره راسكولنيكوف هادئاً صامتاً • لم يحرك ساكناً ، لم يتزحزح من مكانه ، ولا اختلجت قسمة من قسمة وجهه • واستطاع أحد الحراس أن يبادر فيحول بين المهاجم وبين راسكولنيكوف في اللحظة التي هم فيها الرجل أن يفتك بالضحية ، فلو تأخر الحارس لحظة واحدة لسال الدم •

هناك مسألة أخرى لم يستطع راسكولنيكوف أن يجد لها حلاً : لماذا عطفوا جميعاً على صونيا وأحبوها ؟ كانت صونيا لا تحاول أن تحظى بمودتهم • وكانوا لا يلقونها الا في مناسبات نادرة ، أثناء العمل ، حين تجيء لتراه دقيقة واحدة • ومع ذلك عرفوها جميعاً ، وعرفوا جميعاً انها تبعته « هو » ، وعرفوا جميعاً كيف تعيش وأين تسكن • وهى لا تهب لهم مالاً ، ولا تقدم اليهم خدمات خاصة • مرة واحدة ، في عيد الميلاد ، حملت هدية الى السجن كله : فطائر صغيرة وخبزاً أبيض • غير أن علاقات قوية قد انعقدت بينهم وبين صونيا شيئاً بعد شيء : أصبحت تتولى • عنهم كتابة رسائل الى أسرهم ، وتضع الرسائل في البريد • والى صونيا انما كان أقرباء السجناء من الرجال والنساء الآتين من المدينة ، يعهدون بالأشياء أو

حتى بالأموال التي يريدون ارسالها اليهم ، بإشارة من السجناء أنفسهم • كانت نساء السجناء وخليلاتهم يعرفن صونيا ويسعين اليها في بيتها • وكان السجناء ، اذا هي ظهرت في ورشات العمل لثرى راسكولنيكوف ، أو صادفت فريقا منهم ذاهباً الى العمل ، يرفعون لها طاقباتهم احتراماً ويحيونها جميعاً • كان هؤلاء الجفافة الغلاظ الذين دُمغوا بالدناءة يقولون للفتاة الهزيلة النحيلة الضعيفة : « ماتوتشكا » ، صوفيا سيميونوفنا ، أنت أما الجنون الشفوق » • وكانت صونيا ترد على تحييتهم ، وتبتسم لهم ، وكانوا جميعاً يحبون أن يروها تبتسم • كانوا يحبون حتى طريقتها في المشي ، فاذا مرت التفتوا يتابعونها بنظراتهم • كانوا لا يقولون فيها الا مدحاً ، كانوا يمدحون حتى ضالتها • أصبحوا لا يعرفون كيف يمدحونها مزيداً من المدح • واذا مرضوا ذهبوا يلتمسون عندها علاجاً •

قضى راسكولنيكوف في مستشفى السجن نهاية الصوم الكبير كلها ، وأسبوعاً آخر • فلما أصبح في دور النقاهة تذكر الأحلام التي راها حين كان راقداً يعاني سكرات الحمى والهديان • لقد حلم ، طوال مدة مرضه ، بأن العالم كله قد كتب عليه أن تلم به مصيبة رهيبة لا عهد بمثلها من قبل ، مصيبة وفدت من آخر آسيا ونزلت بأوروبا ؛ وأن جميع الناس سيهلكون الا قلة قليلة مختارة • ان طفيليات من نوع جديد قد ظهرت ، واختارت أجسام البشر مسكناً لها • غير أن هذه المخلوقات المكروسكوبية كائنات مزودة بعقل وارادة ؛ والبشر الذين تدخل أجسامهم يصبحون على الفور مجانين مسعورين ، ولكنهم يعدون أنفسهم على ذكاء عظيم لم يزعمه البشر لأنفسهم في يوم من الأيام قط ؛ فهم يعتقدون بأنهم معصومون من الزلل مبرأون من الخطأ ، في أحكامهم ، في نتائجهم العلمية ، في مبادئهم الأخلاقية والدينية • ان قرى ومدناً وأمماً بكاملها قد سرت اليها هذه العدوى ، وفقدت العقل • أصبح أفرادها يعيشون في حالة جنون ، لا يفهم

بعضهم عن بعض شيئاً ، لا يفهم أحد منهم عن أحد شيئاً ؛ كل واحد يؤمن بأنه الانسان الوحيد الذى يمتلك الحقيقة ، فاذا نظر الى الآخرين تألم وبكى ولطم صدره وعقف يديه لوعة وحسرة • اصبح الناس لا يستطيعون أن يتفاهموا على ما ينبغى أن يعد شراً وما ينبغى ان يعد خيراً • أصبحوا لا يستطيعون لا أن يدينوا ولا أن يبرّئوا • أصبح البشر يقتل بعضهم بعضاً تحت سيطرة بغض لا معنى له وكره لا يفهم • هم يجتمعون ليؤلفوا جيوشاً كبيرة ، فما ان يدخلوا معركة حتى يندلع الشقاق فى جميع الصفوف فتتحل الجيوش ، ويأخذ الجنود يهجم بعضهم على بعض ، فيعض بعضهم بعضاً ، ويذبح بعضهم بعضاً ، ويلتهم بعضهم بعضاً • فى المدن يدق ناقوس الخطر طوال النهار ، ويستنفر الشعب • ولكن من الذى يستنفره ؟ ولماذا يستنفره ؟ ذلك أمر لا يعرف أحد عنه شيئاً • الرعب يستبد بجميع الخلق • المهن العادية هجرها أصحابها ، لأن كل واحد يعرض آراءه واصلاحاته ، وما من أحد يستطيع أن يتفق مع أحد • الزراعة أهملت اهمالاً تاماً • هنا وهناك يجتمع أناس فيشكلون جماعات ويتفاهمون على القيام بعمل مشترك ، متعاهدين بأغلف الأيمان على ان لا يفترقوا قط ، ولكنهم ما يلبثون أن يشرعوا فى شيء لا يمت بأية صلة الى ما عقدوا النية على القيام به ، ثم ما يلبثون أن يأخذوا فى التراشق بالتهم ، ثم ما يلبثون أن يقتلوا فيذبح بعضهم بعضاً • وتشتعل الحرائق ، وتظهر المجاعة • كل شيء يصيبه الدمار ، وجميع الناس تقريباً يهلكون • البلاء ما ينفك يشتد قوة ويتسع مدى • ولا ينجو من البلاء الا عدد قليل من الناس : هم الأتقياء الأطهار ، المصطفون الأخيار ، الذين كتب عليهم ان ينشئوا جنساً جديداً وأن يقيموا حياة جديدة ، أن يجددوا الأرض ويطهروها • غير أن أحداً لم ير أولئك الأفراد فى مكان ، ولا سمع أقوالهم ولا سمع أصواتهم •

ان الشيء الذى كان يعذب راسكولنيكوف هو أن ذلك الهديان السخيف يترجّع فى ذاكرته ترجعاً أليماً ، وأن الانطباع الذى خلفته تلك الأحلام لا يمّحى الا ببطء .

وجاء الأسبوع الثالث بعد عيد الفصح . أصبحت الأيام دافئة مضيئة . هى أيام ربيع حقاً . فتحت نوافذ المستشفى لأول مرة (هى نوافذ ذات قضبان حديدية يحرسها خفير) .

طوال مدة مرض راسكولنيكوف لم يُسمح لصونيا أن تزوره الا مرتين ، وقد اضطرت فى المرتين كليهما أن تطلب اذنًا بذلك ، فكان يقتضيها هذا أن تقوم بمساعٍ معقدة جداً . لكنها كثيراً ما كانت تأتى الى فناء المستشفى ، ولا سيما عند هبوط الليل لتتظر الى النوافذ من بعيد ، ولتمكث فى الفناء بضع دقائق أحياناً .

ففى مساء من الأماسى ، وكان راسكولنيكوف قد أبلّ من مرضه تقريباً وكان نائماً ، صحا من نومه واقترب من النافذة مصادفة ، فاذا هو يلمح صونيا تحت ، قرب الباب . كانت واقفة وكأنها تنتظر شيئاً . فشعر راسكولنيكوف بما يشبه أن يكون طعنة نفذت فى قلبه . فارتعش واسرع يبتعد عن النافذة .

ولم تجيء صونيا فى غد ، ولا جاءت بعد غد . فأدرك راسكولنيكوف عندئذ أنه ينتظرها فارغ الصبر . وأُخرج أخيراً من المستشفى ، فلما عاد الى السجن علم من السجناء أن صوفيا سيميونوفنا مريضة ، وأنها ملازمة غرفتها لا تبرحها .

قلق راسكولنيكوف قلقاً شديداً ، وأرسل يسأل عنها . فلم يلبث أن عرف أن مرضها ليس خطيراً . وحين علمت صونيا من جهتها أنه يتألم من غيابها عنه وأنه قلق عليها بعثت اليه برسالة كتبتها بالقلم الرصاص ، وفيها تنبّه بأن صحتها تحسنت كثيراً ، وأن مرضها لم يكن الا برداً بسيطاً ،

وأنها ستمضى تراه أثناء العمل فى أقرب فرصة • فكان قلب راسكولنيكوف يخفق خفقاناً موجعاً أثناء قراءته هذه الرسالة •

كان النهار فى هذه المرة كذلك مضيئاً دافئاً • ومضى راسكولنيكوف الى العمل على ضفاف النهر فى ساعة مبكرة من الصباح هى الساعة السادسة ، وذلك تحت سقيفة أعدت عندها فرن لطبخ الرخام • لم يرسل الى هذا المكان الا ثلاثة عمال من السجناء • فأما الاول فقد عاد مع المراقب الى السجن ليحجى بالأدوات ، وأما الثانى فكان يهيبىء الحطب للفرن • وخرج راسكولنيكوف من تحت السقيفة واقترب من الشاطئ وجلس على احدى عوارض الخشب المصطفة قرب المبنى وأخذ يتأمل النهر العريض المقفر • ان المرء يرى ، من على هذه الضفة العالية ، مساحةً واسعة • ووصل من الضفة الأخرى غناء لا تكاد تسمعه الأذن • ان هناك فى المرج الذى تغمره الشمس ، والذى يمتد على مدى البصر ، خيام ، بدو رحل تبدو للنظر اليها نقاطاً صغيرة سوداء • هناك الحرية • هناك يعيش بشر آخرون ، يختلفون كل الاختلاف عن البشر الذين يعيشون هنا • هناك يبدو الزمان متوقفاً كأن عصر ابراهيم وقطعانه لما ينصرم بعد • كان راسكولنيكوف ينظر الى ذلك المشهد جالساً فى مكانه جامداً على وضعه ، لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • لقد انزلق فكره نحو الاسترسال فى الأحلام والاستغراق فى التأمل دون أن يحس • أصبح لا يفكر فى شيء ، واجتاح نفسه حزنٌ كبير •

وفجأة وقفت صونيا أمامه • كانت قد دنت منه دون ضجة ، وهامى ذى تجلس الى جانبه • ان برودة الصباح لم تكن قد خفت بعد • وكانت صونيا ترتدى معطفاً فقيراً ، وتضع الشال الأخضر • وكان وجهها الناحل المصفر ما يزال يحمل آثار مرضها الأخير • ابتسمت له فى رقة ولطف ، مرحة الهيئة ، ولكنها على عاداتها لم تمدد اليه ايديها الا خجلة وجلة •

كانت دائماً تمتد اليه يدها على خجل ووجل ، وكانت فى بعض الأحيان لا تمتد اليه البتة ، كأنما هى تخشى أن يدفعها عنه • كان يبدو عليه دائماً أنه يتناول يدها بنفور وامتعاض ، وكان يبدو عليه دائماً انه يستقبل الفتاة باستياء ومضض • وفى بعض الأحيان كان يصبر على الصمت فى عناد طوال مدة الزيارة • وكانت صونيا فى بعض الأيام ترتعش امامه ، ثم تنصرف وفى نفسها حزن عظيم ولوعة شديدة • أما فى هذه المرة فان يديهما لم تحاولا أن تنفصلا • ألقى راسكولنيكوف عليها نظرة سريعة خاطفة ، ولم يقل شيئاً ، وخفض عينيه • كانا وحيدين • لم يكن يراها أحد • كان الحارس قد ابتعد لحظة •

لا يدري راسكولنيكوف نفسه كيف حدث ما حدث ، ولكنه يعرف أنه شعر فجأة بشيء يستبد به ويلقيه على قدمي صونيا • لقد ارتدى راسكولنيكوف على قدمي صونيا ، وبكى ، وضم ركبتيها الى صدره • ذُعت فى أول الأمر ذعراً شديداً ، وغشيت وجهها صفرة كصفرة الموتى • ثم نهضت فجأة ، ونظرت اليه مرتجفة مرتعشة • ولكنها سرعان ما أدركت كل شيء بنظرة واحدة • أخذت عيناها تشعان بسعادة لا حدود لها • لقد فهمت - وليس يخالجهما الآن فى ذلك أى شك - فهمت انه يحبها ، وأنه يحبها حباً ليس له نهاية ، وأن تلك الدقيقة قد آن اوانها أخيراً •••

أرادا أن يتكلما ، ولكنهما لم يستطيعا • امتلأت عيناها دموعاً • كانا كلاهما أصفرى الوجه هزيلي الجسم ؛ ولكن هاهو ذا فجر مستقبل جديد يسطع فى وجهيهما منذ الآن شوقاً كاملاً الى حياة جديدة • لقد بعثهما الحب بعثاً جديداً ، ان قلب كل منهما يفجر فى قلب الآخر ينايع حياة لا تنضب •

قررا أن ينتظرا وأن يدعنا • ما يزال عليهما أن يقضيا سبع سنين

أخرى فى سبيرييا • صحيح أنهما سيتحملان أثناء هذه المدة آلاماً لا تطاق، ولكنهما سيسعدان أيضاً سعادة ليس لها حدود ! لقد انبعث راسكولنيكوف بعثاً جديداً • هو يعرف ذلك • هو يحس ذلك بكيانه كله • وهى، أليست تحيا بحياته ، أليست حياتها من حياته ؟

فى ذلك المساء ، فى القاعة المقفلة ، فكّر راسكولنيكوف فى صونيا وهو راقد على مضجعه • وبدا له ، فى ذلك المساء أيضاً ، أن جميع السجناء ، جميع أعدائه القدامى ، نظروا اليه نظرة جديدة ، ورأوه باعين أخرى • لقد خاطبهم ، فأجابوه برقة ونعومة • هو يتذكر ذلك الآن ، ولكن أليس هذا هو ما يجب أن يكون : أليس يجب أن يتغير كل شيء بعد اليوم ؟

فكّر فى صونيا • فتذكر أنه قد عذّبها دائماً ، وأنه كان يمزق قلبها تمزيقاً • تذكر وجهها الصغير الشاحب الذى نحل نحولاً شديداً ، ولكن هذه الذكريات أصبحت لا تكاد تعذبه • فهو يعرف أنه سيكفر الآن عن جميع تلك الآلام بحبٍ لا نهاية له •

ثم ، ما قيمة تلك الآلام الماضية « كلها » الآن ؟ ان كل شيء ، حتى الجريمة التى ارتكبها ، وحتى الحكم الذى صدر عليه ، وحتى النفى الذى يقاسى منه ، ان كل هذا هو الآن أثناء هذه الاندفاعة الأولى ، يبدو له نسيجاً من وقائع خارجية غريبة عنه لا تتعلق بشخصه ولا تتناوله هو • ثم ان راسكولنيكوف كان فى ذلك المساء عاجزاً عن أن يفكر تفكيراً طويلاً متصلاً ، وعن أن يركّز فكره على نقطة بعينها ، وعن أن يحل مشكلة من المشكلات على هدى وبصيرة : فانما هو يشعر باحساسات ، ولا شيء غير الاحساسات • لقد حلت الحياة محل الجدل ؛ وفى أعماق نفسه اصبح ينضج شيء آخر تماماً •

وكان تحت وسادته انجيل ، فتناوله بحركة آلية • كان هذا الكتاب

لصونيا ، وهو بعينه الكتاب الذي قرأت له فيه في الماضي قصة انبعاث لعازر .
 كان راسكولنيكوف يقدر في أول عهده بالسجن أنصونيا ستصدع رأسه
 بالكلام على الدين ، وأنها ستحدثه عن الانجيل بغير انقطاع ، وأنها ستحاول
 أن تفرض عليه كتباً دينية ، فما كان أشد دهشته حين لم تطرق هذا
 الموضوع في يوم من الأيام ، لا ولا عرضت عليه أن تغيثه بالانجيل قط .
 انه هو الذي طلب منها ذلك بعد مرضه ، فحملت اليه الكتاب دون ان تقول
 كلمة واحدة .

وهو لم يفتحه في تلك المرة ، لكن فكرة قد اجتازت رأسه الآن
 بسرعة كوميض البرق : « هل يمكن أن لا يكون ايمانها الآن هو ايماني ؟
 أو هل يمكن على الأقل أن لا تكون عواطفها وأشواقها هي عواطفى
 وأشواقى ؟ » .

وقد اضطربت صونيا اضطراباً شديداً طوال ذلك اليوم هي أيضاً ،
 وألمَّ بها المرض مرة أخرى في تلك الليلة . ولكن سعادتها كانت تبلغ
 من القوة ، وكانت تبلغ من المباغته ، أنها تكاد ترعبها ! سبع سنين ، سبع
 سنين « فقط » !

ومرَّت بهما في البداية ساعات نشوة كانا فيها كمن يعد السنين
 السبع أياماً سبعة . كان راسكولنيكوف ما يزال يجهل أن هذه الحياة
 الجديدة لن توهب له بغير تضحية ، وأن عليه أن يدفع ثمنها غالياً ، وأن
 يحصل عليها بجهود شاقة قاسية مضنية . . .

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى ، قصة تجدد انسان شيئاً بعد شيء ، قصة
 انبعاثه رويداً رويداً ، قصة انتقاله من عالم الى عالم آخر متدرجاً ، قصة
 معرفته بواقع جديد كان يجهله حتى ذلك الحين كل الجهل .
 هذا يصلح أن يكون موضوع قصة جديدة ، أما قصتنا التي نرويها
 الآن فهي تنتهى هنا .

حواش

الصفحة

- ★ ٨ « وأنه ما من انسان ٠٠٠ » : وردت في النص باللاتينية Nihil humanum ، وهي اشارة الى جملة تيرانس المشهورة: «انا انسان ، فلا شيء مما هو انساني بغريب عنى» .
- ★ ١٢ عهد « النقد المفيد » : الاشارة هنا الى مطلع الستينات من القرن التاسع عشر بروسيا ، حين أخذت الجرائد تهاجم العادات الاجتماعية وتندد ببعض عيوب النظام السياسي ، في جو يسوده شيء من الحرية . ففي شهر كانون الثاني (يناير) من سنة ١٩٦١ ، نددت عدة صحف ، ومنها جريدة «الزمان» التي كان يصدرها دوستويفسكي ، نددت بسيد اسمه كوزليانينوف ضرب بالسوط امرأة ألمانية في القطار .
- ★ ١٢ « الفاحشة التي تحدثت عنها مجلة العصر » : في عام ١٨٦١ نددت المجلة الأسبوعية «العصر» ، (في رسالة من مراسلها بمدينة برم) ، بالتمثيلية اليمانية الخليعة التي قدمتها سيده قرأت قصة بوشكين « ليالى مصر » التي يصف فيها غراميات كليوباتره . وقد انبرت مجلة أخرى ترد على مجلة « العصر » وتسفه تدخلها هذا . وقد شارك دوستويفسكي في تلك المساجلات (في مجلته «الزمان») ، متهكما على الصحفيين الذين يأخذون مأخذ الجد أمرا تافها لا قيمة له .
- ★ ١٥ « أنت تعلم أن قوانين الاصلاح الزراعى لم تمسنا بسوء » : ان قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر فى ١٩ نيسان (أبريل) سنة ١٨١٦ ، لم يهب للأقنان الذين أعتقهم الا الاراضى الصالحة للزراعة التي كانوا يزرعونها هم ، أما الغابات والمرعى فقد ظلت ملكا للسادة .
- ★ ١٥ « مطاعم دوسو » : هو فندق ومطعم فرنسى كان له صيت ذائع حينذاك ، وقد أقام فيه دوستويفسكى زمنا . والحديث عن

- « الحلقات » اشارة الى مكان بجزيرة ايلاجين اسمه «الحلقة» ،
وهو محل ملاء ومباهج وملذات شعبية •
- ★ ١٦ « يوناني صغير من نيبجين » : فى عام ١٧٧٩ نرح عدد كبير من
يونان القرم فى عهد كاترين الثانية ، الى مدينة نيبجين ، وهى
مدينة صغيرة من مدن أكرانيا لا تبعد كثيرا عن مدينة كييف •
وقد أصبح كثير من هؤلاء اليونان تجارا أغنياء •
- ★ ١٧ « لأن خمرتى فسدت » : بالفرنسية فى الأصل ، والمقصود
بالعبارة أن الرجل أصبح لا يميل الى الشراب •
- ★ ١٧ « بيرج » : ألماني كان يعلم رقص الباليه ويتعاطى الطيران
بالمنطاد ، وقد نظم فى بطرسبرج نزعات طيران بالمنطاد •
- ★ ١٨ « محطة مالايا - فيشيرا » : محطة تقحج على خط موسكو -
سان بطرسبرج ، وتبعد عن العاصمة مسافة ١٥٠ كيلومترا •
- ★ ٢٠ « آنيسكا » : تصغير تحقيرى لاسم آنيسيا •
- ★ ٢١ « فيلكا » : تصغير تحقيرى لاسم فيليب •
- ★ ٢٩ من المعروف أن دوستويفسكى كان معجبا أشد الاعجاب بلوحة
رافائيل « مادونا سيكستين » التى تأملها كثيرا بمدينة درسدن،
وكان يحتفظ فى حجرة مكتبه بصورة منسوخة منها •
- ★ ٢٩ « عمارة فيازمسكى » : عمارة كبيرة بمدينة سان بطرسبرج
كانت فيما مضى ملكا لأسرة الأمراء فيازمسكى • وهى فى العهد
الذى تجرى فيه أحداث الرواية يسكنها أناس فقراء جدا ، وتضم
بيوتا مشبوهة ومأوى ليليا •
- ★ ٤٦ ان اسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم الروسية ومعناها
«العقل» • وهنا يتظاهر لوجين بنسيان الاسم ، ويحل محله
اسم رازودكين ، المشتق من كلمة رازودوك الروسية ومعناها
« الذكاء » •
- ★ ٦٢ « ضعيف » : وردت الكلمة بالالمانية فى الأصل Schwach
ويجب أن يشار هنا الى أن مشروع رازوميخين الذى يدور عليه

- الكلام في هذه المحادثة يعبر عن المتاعب التي لقيها دوستويفسكى نفسه من الناشرين ، وعن الحلم الذي كان يحلمه دائما وهو أن يتولى نشر مؤلفاته بنفسه .
- ★ ٨٩ « أين الحديث عن قيام لعازر ؟ » : يجب أن نتذكر أن قاضي التحقيق كان قد سأل راسكولينكوف هل هو يؤمن بقيام لعازر (الجزء الثالث ، الفصل الخامس) .
- ★ ٨٩ « الفرسخ السابع » : كان يوجد ، في أوديدلنايا ، على مسافة سبعة فراسخ من سان بطرسبرج ، مستشفى للمجانين ؛ فكان يطلق اسم «الفرسخ السابع» على ذلك المستشفى ، كما يطلق اسم «العباسية» في القاهرة على مستشفى الامراض العقلية الموجود في حي العباسية بها .
- ★ ٩٠ « ستري الله » : اشارة الى الآية الواردة في انجيل متى «طوبى للأطهار ، لأنهم سيرون الله» (الاصحاح الخامس ، ٨) .
- ★ ٩١ انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر .
- ★ ٩٧ انجيل مرقص (الاصحاح العاشر ، ١٤)
- ★ ١٠٠ كان مفوضو التحقيق جزءا من الشرطة ، فلما صدرت قوانين الاصلاح القضائى فى ٢٠ تشرين الثانى (نوفمبر ١٨٦٤) ، حل محلهم قضاة التحقيق التابعون لوزارة العدل .
- ★ ١٠٩ « ذلك واجب لا مفر منه » : بالفرنسية فى الأصل .
- ★ ١١٠ « فستتغير أسماءنا على الأقل » : اشارة الى قوانين الاصلاح القضائى المرتقب (راجع حاشية الصفحة ١٠٠) ، وهذا يحدد لأحداث الرواية تاريخا هو تموز (يوليو) ١٨٦٤ .
- ★ ١١٣ « بعد معركة ألما رأسا » : هى معركة ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٨٥٤ التى خسرها الجيش الروسى فانكفأ الى سيياستوبول أثناء حملة القرم .
- ★ ١١٦ اشارة الى بداية حملة ١٨٠٥ حين أفسد نابوليون خطط «المجلس الحربى الأعلى (هوفكريسجرات) بالنمسا ، وأسر فى أولما الجنرال النمسوى ماك هو وجيشه . ان تلك الاحداث قد وصفها

- تولستوى فى روايته الكبرى «الحرب والسلام» (الجزء الاول)
الذى بدأ نشره فى مجلة « الرسول الروسى » (كانون الثانى
وشباط - يناير وفبراير) عند بدء نشر الاجزاء الاولى من رواية
الجريمة والعقاب هذه .
- ★ ١٣٢ « بقساوسة ونواب » : من الأنظمة المتبعة فى بداية تحقيق
قضائى أن يؤتى بقسيس يحلف المتهم أمامه اليمين ؛ ويؤتى
أيضا بنائب من نواب طبقته الاجتماعية ليعرف بهويته .
- ★ ١٥٥ « متجر كنوب أو المتجر الانجليزى » : متجران شهيران فى قلب
سان بطرسبرج تباع فيهما أدوات الترف الراقية .
- ★ ١٥٧ « يسمون تقسمين أو عدميين أو مصلحين » : كانت هذه الأسماء
الثلاثة تطلق على التيار الراديكالى السائد بين الشبيبة فى ذلك
الأوان . ومن المعروف أن اسم «العدمى» انما أوجده تورجنيف
وكان قد استعمله فى روايته « الآباء والابناء » .
- ★ ١٦٨ «لقد مضينا فى اعتقاداتنا الى مدى أبعد ..» : ان ليبنرياتنيكوف
يعرض هنا آراء بيزاريف (١٨٤٠ - ١٨٦٨) المتطرفة الموعظة فى
الراديكالية ؛ وهو لهذا يهاجم الناقد دوبروليوبوف (١٨٣٦ -
١٨٦١) الذى كان كذلك راديكاليا جدا ، ويهاجم الناقد الكبير
بيلنسكى (١٨١١ - ١٨٤٨) .
- ★ ١٧٠ « بل انه لأكبر كثيرا من عمل رجل مثل رافائيل أو بوشكين » :
ان ليبنرياتنيكوف يببالغ فى آراء بيزاريف وتلميذه زايتسييف
اللذين كانا يدافعان عن مذهب المنفعة ، ويناديان بأن حذاء من
الحذائين أنفع للمجتمع من شكسبير أو بوشكين .
- ★ ١٨٥ « السيدة الليوتنانة » : باللغة البولندية فى الأصل .
- ★ ٢١٠ بالألمانية فى الأصل .
- ★ ٢٢١ « العرض العام للمنهج الوضعى » : كتاب ظهر ببطرسبرج سنة
١٨٦٦ يضم ترجمات مقالات علمية مادية الاتجاه لعدد من المؤلفين:
فيرشوف ، كلود برنار ، موليشوت ، تيودور بيدريت («الدماغ
والفكر») ، أدولف فاجنر (« ما يدل عليه الاحصاء من أن الافعال
التي تبدو حرة فى الظاهر انما هى حتمية فى الواقع ») .

- ★ ٢٦٣ « سيميون زاخارتش » : هو مارميلادوف .
- ★ ٢٦٤ « باولين ميخائيلوفنا » : هي بوليتشكا .
- ★ ٢٦٥ لعل الاستاذ العالم المقصود هنا هو الطبيب الفرنسى فرانسوا لوريه (١٧٩٥ - ١٨٥١) مؤلف كتاب «المعالجة النفسية للمجنون» (١٨٣٨)
- ★ ٢٧٣ « لينيا ، انصبى قامتك » : بالفرنسية فى الأصل .
- ★ ٢٧٥ « الفارس المتكىء على سيفه » : هذه هى الكلمات الاولى من قصيدة « فراق » للشاعر الرومانسى باتيوشكوف ؛ وقد لحن القصيدة سنة ١٨١٤ ، وراجت رواجاً كبيراً .
- ★ ٢٨٢ « لك ماس ولآلى » : مطلع أغنية عاطفية من شعر هاينى .
- ★ ٢٨٢ « تحت أشعة الشمس الحارة ، بوادى داغستان » : مطلع قصيدة للشاعر ليرمونتوف عنوانها «الحلم» (١٨٤١) ، وفيها يرى الشاعر نفسه فى واد بالقوقاز ، يحتضر وحيداً .
- ★ ٢٩٥ « جزيرة كرستوفسكى » : جزيرة من أنأى جزر نهر نيغا .
- ★ ٣٠٧ «الدكتور ب ٠٠٠» . أغلب الظن أنه الدكتور سرجى بتروفتش بوتكين (١٨٣٢ - ١٨٨٩) ، وهو طبيب شهير فى ذلك الأوان .
- ★ ٣١٣ « دون جدوى » : بالألمانية فى الأصل .
- ★ ٣١٦ « الى صباح غد » : بالألمانية فى الأصل ، (Morgen früh) وهو تعبير ألمانى يستعمل بمعنى قولنا : « دعك من هذا الكلام! لا أصدقك ! » .
- ★ ٣٥١ « كما يدل على ذلك اسمه ٠٠٠ » : كانت تطلق أسماء جديدة على أبناء رجال الدين حين دخولهم مدارس اللاهوت ، وكانت هذه الأسماء تستمد أحياناً من مزايا روحية ، فاسم دوبروليوبوف

- يعنى « محب الخير » ، واسم زدرافوزميسلوف يعنى « السيد
الرأى»، واسم رازوميخين مشتق من كلمة رازوم ومعناها العقل .
- ★ ٣٥١ « باراشا » : تصغير اسم براسكوفيا .
- ★ ٣٥٩ « الطبيعة والحقيقة » : بالفرنسية فى الأصل . ان سفدريجاييلوف
يحب استعمال عبارات فرنسية ويكثر منها فى حديثه .
- ★ ٣٩٠ « فوكسهول » : كانت هذه الكلمة الانجليزية فى أول الأمر
اسما لضاحية من ضواحي لندن أصبحت حديقة ملاه شعبية فى
القرن الثامن عشر . وقد أنشئت حدائق مشابهة لها فى القارة
الاوربية أطلق عليها هذا الاسم نفسه ؛ ومنها حديقة فى روسيا
قريبة جدا من محطة بأفلوفسك ؛ وقد أصبحت الكلمة فى نطقها
الروسى الآن (فوكسال) تعنى كل محطة من محطات السكة
الحديدية .
- ★ ٣٩٣ « فلاديمير » : العاصمة القديمة لروسيا فى القرن الثالث عشر
والقرن الرابع عشر ، وهى تقع شمال شرق موسكو . وقد
أصبحت الطريق الذى تسلكه قوافل السجناء المحكوم عليهم
بالأشغال الشاقة ، للوصول الى سيبيريا ؛ وهكذا فان « طريق
فلاديمير» تعنى «المعتقل» .
- ★ ٤٠٨ ان رواية ألكسندر دوما « غادة الكاميليا » (١٨٤٨) والمسرحية
التي تحمل هذا الاسم نفسه قد راجتا رواجاً كبيراً جداً فى
روسيا وأصبح اسم «كاميليا» يعنى البغى الراقية .
- ★ ٤١١ « المبنى الذى يعلوه برج » : هو ثكنة لرجال الاطفاء ؛ وخوذة
آخيل هى الخوذة التى يحمون بها رؤوسهم .
- ★ ٤٤١ « عدم » : باللاتينية فى الأصل nihil est ، اشارة الى
المذهب العدمى .
- ★ ٤٤١ « مذكرات ليفنجستون » : ان كتاب ليفنجستون «استكشافات
فى داخل أفريقيا الوسطى» قد ظهر بلندن سنة ١٨٦٥ . وقد
ترجمه الى الروسية وأصدره سنة ١٨٦٧ ، نيقولا ستراخوف
صديق دوستويفسكى .

- ٤٤٢ ★ لم تكن مدرسة الطب بمدينة بطرسبرج إحدى كليات الجامعة ، كما في المدن الأخرى ، وإنما كانت «أكاديمية للطب والجراحة» مستقلة .
- ٤٥٨ ★ « على ضفاف نهر ايريتش » : ان هذا النهر الذي تقع على شاطئه مدينة أومسك ، قد سبق أن ذكره دوستويفسكى فى كتابه « ذكريات من منزل الأموات » .
- ٤٦٣ ★ الإشارة هنا الى السجناء البولنديين السياسيين الذين سبق أن تحدث عنهم دوستويفسكى فى كتابه « ذكريات من منزل الاموات» . ألم يقل أحدهم ، وهو ميريكى ، ألم يقل عن المجرمين العاديين : «اننى أكره قطاع الطرق هؤلاء !» .

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	المجلد الأول
الفقراء	المجلد الثامن
المثل	الجريمة والعقاب - ١-
قلب ضعيف	<u>المجلد التاسع</u>
<u>المجلد الثاني</u>	الجريمة والعقاب - ٢-
نيتوتشكانزفانوفنا	<u>المجلد العاشر</u>
الليالي البيضاء	الأبله - ١-
بروخارتشين	<u>المجلد الحادي عشر</u>
الجاره	الأبله - ٢-
المهرج	<u>المجلد الثاني عشر</u>
السارق الشريف	الشياطين - ١-
الطفل الصغير	<u>المجلد الثالث عشر</u>
قصة في تسع رسائل	الشياطين - ٢-
شجرة عيد الميلاد والزواج	<u>المجلد الرابع عشر</u>
زوجة آخره، ورجل تحت السرير	المراهق - ١-
<u>المجلد الثالث</u>	<u>المجلد الخامس عشر</u>
قرية ستيبانتشيكوفوسكانها	المراهق - ٢-
حلم العم	قصص
<u>المجلد الرابع</u>	<u>المجلد السادس عشر</u>
مذلون مهانون	الاخوة كارامازوف - ١-
<u>المجلد الخامس</u>	<u>المجلد السابع عشر</u>
ذكريات من منزل الأموات	الاخوة كارامازوف - ٢-
<u>المجلد السادس</u>	<u>المجلد الثامن عشر</u>
في قبوي	الاخوة كارامازوف - ٣-
قصة اليمه	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
التمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأبدي	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" و"المذللين الميائنين" فاذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهرّ به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس..

الكسندر ف سولزنيف